عزيز ضياء

حياتي

مع الجوع والحب والحرب

II



التنوير

عزيز ضياء

حياتي

مع الجوع والحب والحرب

الجزء الثاني

ketab.me
Best Books

التنوير

عزيز ضياء

حياتي

مع الجوع والحب والحرب

الجزء الثاني

الكتاب: حياتي مع الجوع والحب والحرب/ الجزء الثاني
المؤلف: عزيز ضياء
عدد الصفحات: 236

الطبعة الثانية 2012

الناشر:

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

الجناح - مقابل السلطان ابراهيم - سنتر حيدر التجاري
الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 340 843 1 00961
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.altanweer.com

التنفيذ الطباعي: مؤسسة ديمو برس للطباعة والتجارة بيروت / لبنان

الحياة كالبصلة يقشِّرها المرء وهو يبكي

مثل فرنسي

طفولتي التي بدأت مع
رياح الحرب العالمية الأولى

لا أكاد أبدأ الجزء التالي من قصة (حياتي... مع الجوع... والحب... والحرب)، حتى أجد نفسي، وطفولتي، التي بدأت مع رياح الحرب العالمية الأولى، في مواجهة ما أسميه اليوم (معركة)، كأن الذي عشتُه إلى تلك الليلة التي انتقلت فيها مع أمّي إلى بيت زوجها، لم يكن، "معركة"، تزاحمت معها الأحداث، وتراكمت في كل يوم من أيامها المآسي والأحزان... والأرجح أن الذي ينبغي أن أسلّم به، هو أن كل ما عايشتُه من الفواجع والآلام، لم يكن معركتي أنا، وإنما هو معركة أمّي رحمها الله، معركتها، وهي أمّ لطفل سافر أبوه عندما كان هو في الشهر التاسع من عمره، وحامل بطفل وضعته، وقد انقطعت أخبار الأب، منذ سافر... وجاءت أخبار الحرب، تتلاحق، فيتحدث عنها الناس في المدينة، ولكن من دون أن يدركوا لها معنى، بل من دون أن يَعوا أنها تلك التي أخذت تحصد في ميادينها مئات الألوف من الأرواح... سموّها (سفر بَرْلِكْ)، وحتى اليوم لا أعرف معنى هذا الاسم على التحديد، رغم أني سمعته مئات المرات... كانوا يسمعون - على سبيل المثال - أسماء الدول التي دخلت هذه الحرب، ولكن ما أقل الذين يعرفون شيئاً واضحاً عن هذه الدولة أو تلك... الدولة الوحيدة التي يعرفون عنها الكثير، الذي عايشوه هُمْ، كما عايشه قبلهم آباؤهم وربما أجدادُهم، هو الدولة العثمانية... التي يحفظون عن ظهر قلب أنها (الخلافة) وأن الخليفة هو (خادم الحرمين الشريفين) و(خاقانُ البرّين والبحرين... السلطان ابن السلطان... إلخ)... وأن هذا السلطان، أو هو (الخليفة)، أو (الباديشاه) موجود في (دار السعادة)... ودار السعادة هذه - في تلك الأيام - هي (اسطنبول)... وهي (القسطنطينية) التي يحفظون عن ظهر قلب أيضاً أنها التي فتحها، وأزاح الكفّار عنها، السلطان (محمد الفاتح)، الذي يعلّقون في منازلهم صورته على جواده، وفي يده سيفه، وقد أشهره عالياً، يتقدم

جحافل جيشه... وفي البحر... أجل في البحر، وليس في البر... لأنه فتح القسطنطينية بالهجوم عليها، وعلى أسوارها العريضة الشاهقة، من البحر... أما الدول الأخرى التي دخلت هذه الحرب، فالقلّة القليلة جداً من الذين يقرأون ويكتبون اللغة التركية، إلى جانب ما يحفظونه من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، والأدعية والأذكار، هم الذين يدركون أن في الدنيا دولاً، منها الروس... والإنكليز... والألمان، والروم - وهم اليونان أو الأغريق - ولكنه ما أقل ما تصوّروا إن (الدولة العلية العثمانية)، قد اشتبكت في حرب مع هذه الدولة أو تلك... وحتى إذا قيل لهم، إن الدولة العلية تلك، تحارب الروس، أو البلغار، أو الإنكليز، فإن المسألة عندهم تافهة لا يقيمون لها كبير وزن أو حساب، لأن الدولة لا بد أن تنتصر والسبب، في منتهى البساطة، لأنها (الدولة العلية)، التي ما أكثر ما اشتبكت في حروب مع (الكفّار)... وما أكثر ما إنتصرت عليهم، فاسلموا بل وأصبحوا هم أيضاً يحاربون في صفوف جيوش الدولة، التي تملأ البر كما تملأ البحر... والتي لم يسمعوا قط، أنها هزمت طوال مئات السنين... فما الذي يجعلهم يدركون أن هذا الذي سموه (سفر برلك) شيء مختلف عن الحروب الأخرى... وأنها حرب اشتركت فيها جميع دول العالم، وأن (الدولة العلية) تحارب هذه الدول جميعها، وحدها، وليس معها إلا (الألمان)...

بلى... كانت المعركة، معركة الأم، التي كان عليها، ليس فقط أن تربّي ولدها الذي عاش رغم إصابته بالتيفوس الذي اخترم حياة الألوف، بينما مات أخوه بالحصبة، وإنما أن تقف إلى جانب أبيها - في شيخوخته، وهي تراه ينتزع لقمة العيش من براثن العوز والفاقة بالعمل الشاق، بعد مداهمة اللصوص في تلك الليلة في حماة ذهبوا بكل ما يملك الرجل العجوز الذي استطاع رغم ضعفه أن يتحدى كل العجز الذي يطوّق حياته وحياة أسرته في ديار الغربة بالعمل في حفر الأختام... أن تقف إلى جانبه، ترعاه، وتخفف عن نفسه مشاعر الإحساس بالحزن والتفجّع والأسى، وهو يرى الموت يحصد الألوف حوله، فلا يدري ماذا سيكون مصيرها هي وهذا الطفل، إذا كان هو أيضاً سيلحق بربّه في هذه الديار... وقد كان، فلحق بربّه ذات صباح، لتواجه هي وحدها مع هذا الطفل فواجع النهاية التي أرادها الله سبحانه، (للدولة العلية) بانتصار قوات الانجليز والعرب، وخروج الأتراك من أراضي الشام إلى الأبد، ثم خروجها هي - وحدها مع هذا الطفل - من حلب ومنها إلى المدينة، التي ما كادت القافلة تصل إلى ساحة محطة سكة الحديد فيها، حتى وفت بنذرها، بأن توضّأت،

وصلّت ركعتي الفجر، ثم لعقت تراب الأرض التي ظلّت تحلم بالعودة إليها منذ خرج بها (البابور) مع الذين هجّرهم (الباشا) إلى الشام، وطوال تلك الأيام والليالي السود، في تلك الديار.

هذا الإدراك للواقع حين يقرأه القارئ اليوم، كان غائباً تماماً عن ذهني، وعن مشاعري في تلك الليلة، التي تم فيها زواجها من الرجل، فوجدت نفسي - وللمرة الأولى - أنام وحدي، على سرير غرفة حسنة الأثاث، وهي تنام مع زوجها... ولن أنسى أبداً اللحظات الأولى، التي وجدتها تدخل معي إلى هذه الغرفة، ويدها على كتفي، وتشرع في تدليلي بكلمات، حاولت أن تحبّب إليّ بها، النوم على هذا السرير، وأن تطمئنني، بأنها ليست بعيدة عني... ستسمع صوتي إذا بدا لي أن أناديها، ثم هو ذات ضوء "اللمبة العلاّقي"، ينير الغرفة كلها، فليس من سبب للخوف... ثم حين كانت تساعدني على خلع الحذاء والجوارب، والثوب (القَرَمْسود)، كنت أسمع أنفاسها، تتلاحق، مما أعرب أنه يعبّر عن انفعالها... وقد لاحظت، أنها تحرص على أن تتجنّب النظر إليّ... فلا ترفع وجهها نحوي بعد أن جلست على السرير... لا أدري، إن كنت في هذه اللحظات حانقاً، أو حاقداً عليها أو غاضباً منها، ولكن لا أشك أبداً، في أني كنت أستكبر، وأستهول، أن يحدث ما حدث. لا أشك في أني كنت اجتاز ما أشبّهه اليوم بأخدود من اللهب الحارق الرهيب... لذلك حاولت من جانبي أن أنظر إلى وجهها... إلى عينيها... فملأ قلبي إحساس غامض بالرغبة الجارفة في أن أتشبّث بها، فلا أتركها تذهب عني... كانت عيناها محتقنتين وفي بياضهما احمرار اختلط بالكحل... رجّحت أنها تغالب دموعاً ما أكثر ما كنت أراها تنذرف، كلّما احتوانا موقف، من تلك المواقف، التي ظللنا نتجرّع غصصها، طوال هذه السنين السبع التي عشناها معاً في مواجهة المآسي والأحزان...

لكنّها، لم تبك... لم أرَ الدموع... وإني لأتساءل اليوم... كيف استطاعت أن تحبس دموعها في تلك اللحظات؟؟؟ لم أكن في السن التي يخالجني فيها سوء الظن بها فاعلّل لعدم بكائها بأنها (عروس) ينتظرها زوجها في الغرفة التي قالت إنها ليست بعيدة عني... ربّما لذلك.. ولأني لم أرَ الدموع المعتادة في مثل هذا الموقف، تخلّيت عن الرغبة في التشبّث بها... والأعجب من ذلك أني أيضاً لم أشعر بزحمة البكاء على فراقها، وهي تضجعني، ثم تنحني عليّ وتقبّلني في جبهتي... ثم تستدير وتخرج من الغرفة، وتغلق بابها برفق من دون أن تنبس بكلمة.

لقد اكتشفت - مع الأيام - أنها معركتي أنا... إذ خالجني إحساس، بعد خروجها بأني منذ تلك اللحظة أصبحت مع نفسي... (ومع نفسي) هذه كانت ولا تزال حتى اليوم تعني حقيقة أصبحت أعيشها بكل ما تنطوي عليه من قسوة ووحشة وآلام... وهي (الغربة) أو (الاغتراب)... كل السنين التي عشتها مع أمي، في ديار الشام، رغم كل ما تفجر فيها من آلام، أقلّها الجوع... ومنها موت الذين ماتوا من الأهل، ومنهم جدّي وخالتي... بل موت أولئك الذين كانوا يتساقطون صرعى الجوع والمرض، على الأرصفة في شوارع حلب... ثم منها الرعب الساحق الذي كانت تنخلع له القلوب، مع دوي وانفجارات طلقات المدافع وزخّات الرصاص من الرشاشات طوال الليل... كل تلك السنين، مرت من دون أن أشعر في يوم منها، ما شعرت به في اللحظة التي خرجت فيها أمّي من الغرفة إلى غرفتها مع زوجها... (مع نفسي)... لا تعني أقل من أني أصبحت فعلاً... وحيداً... غريباً... ضائعاً، في جوف المجهول الذي بدا لي كأنه طريق يمتد إلى ما لا نهاية... بل المجهول، الذي حدّدت معناه بوضوح، هذه الاستلقاءة على السرير الغريب، الذي لم يسبق لي قط أن نمت على مثله... وفي هذه الغرفة، التي أطبقت عليّ جدرانها، وفي أحد هذه الجدران نافذة لا أدري على ماذا تطل من هذه الدنيا... بلى... (مع نفسي) فقط في سكون أكد لي أنه أشد رهبة من أشد أصوات طلقات المدافع وزخّات الرصاص... هناك على الجدار اللمبة العلاّقي... والمسافة بيني، وبين الباب الذي أغلقته أمّي عند خروجها لا تزيد على مترين أو أقل... أستطيع أن أخرج... أن أتسلل إلى الشارع... ومنه إلى بيتنا في (زقاق القفل)... لا شك أني أعرف كيف اهتدي إلى الزقاق، فالمسافة بين الزقاقين قصيرة... ولكن... بيتنا؟؟؟ أجل... بيتنا هو المكان الذي أستعيد فيه وجودي، والخلاص من غربتي في هذا البيت... بيت الرجل الذي تزوجته أمي... لا شك أن منكشة لا تزال في ذلك البيت... وما كادت تلك العجوز، تخطر على بالي، حتى أحسست بيدي تتشنّج، وأصابعها تتوتر... أحسستُ برغبتي في خنقها... إلى أن تموت... بل هي... تلك اللعينة التي لعبت الدور الأكبر والأهم في إقناع - إن لم يكن إغراء - أمّي بفكرة الزواج.

لكن... ماذا بعد؟؟؟ هل تنتهي غربتي بالعودة إلى بيتنا؟؟؟ ومع من؟؟؟ مع هذه العجوز... كلا... المسألة... أو هي المشكلة... أو هي الغربة التي أعيشها في هذه اللحظات ليست في المكان... وليست أني مستلق على السرير في هذه الغرفة... وإنما هي في أن أمّي قد تركتني أنام وحيداً... وذهبت هي لتنام مع زوجها... واجهتني

حقيقة أخرى عجيبة ورهيبة في الوقت نفسه... وهي أني مخلوق... سافر أبوه، من دون أن يظهر له أثر طوال سبع سنين... وها هي أمه أيضاً... أمه التي ليس له غيرها، وكانت دائماً تأخذه في حضنها، وإذا خرجت لا بد أن تكون يده في يدها... أمّه أيضاً لم يعد لها وجود... كلا لم تمت... لم تسافر وانقطعت أخبارها كما انقطعت أخبار أبيه... ولكنها...؟؟؟ ماذا؟؟؟ ما الفرق بين أن تموت... وبين أن يأخذها منه رجل غريب... أصبح - كما ظلّوا يقولون - زوجها؟؟؟

حاولت جاهداً أن أنام... ظللت أحملق في السقف... سقف الغرفة مختلف عن سقف الغرف في بيتنا... مبطّن بالخشب.. فلا تظهر جذوع النخل التي يتكوّن منها السقف في أكثر بيوت المدينة... وحانت مني التفاتة عفوية إلى أحد جدران الغرفة، لأرى خزانة أو هو (دولاب) فيه رفوف على بعضها علب وزجاجات، (قوارير) منها زجاجة (الكينا لاروش) التي كانت أولى هدايا (الدكتور) مع حبات الكينا، عندما عاودت أمّي حمى الملاريا... لكن سرعان ما تذكرت حبات الفاصوليا التي كانت وسيلتي إلى عد الأيام طوال الشهور، التي كنت أحلم خلالها بمفاجأة عودة أبي... فلا تتزوج أمي... ومن دون أن أشعر... أحسست بدموعي تنذرف، وتنحدر على وجهي ساخنة لاذعة... استسلمت للبكاء في صمت... وانقلبت في مضجعي بحيث دفنت وجهي في الوسادة... بكيت طويلاً... بحيث كدت أجهش وأعْول... ولكني تماسكت، وتركت الوسادة ترتوي بدموعي، التي لعلّي لم أذرف مثلها قَط، من قبل.

***

تنبّهت على حركة في الغرفة... لأرى على ضوء النهار، أمّي تتجه إليّ متوجّسة كأنها تتوخّى ألا توقظني... ولكن حين رأتني أنظر إليها أسرعت إليّ، وانحنت عليّ، وأحاطتني بذراعيها... ضمتني إلى صدرها... ورفعت وجهي إلى وجهها، وقالت:

- ما دام صحيت... هيّا قوم اغسل لك وجهك... والبس حوايجك، عشان تفطر معانا...

كلمة (معانا) هذه طنّت في كياني كله، إذ جعلتني أشعر لأول مرة أننا... ماذا؟؟؟ أننا مع هذا الرجل، الذي أصبح زوجها...

وتساءلت بيني وبين نفسي.. ماذا هو بالنسبة لي؟؟؟ كيف أناديه؟؟؟ جميع الرجال الذين مروا بنا، حتى اليوم، كنت أناديهم (عم...)... أو (عمّي)....

ووجدت في نفسي الجرأة على أن أسألها؟؟؟

- مع مين يا أمي؟؟؟

- معايا أنا و...

وتلعثمت... ثم التزمت الصمت... وبعد لحظات قالت:

- يا عزيز... معايا أنا أمّك... وهوّه (عمّك)... عمّك الدكتور..

***

نهضت من الفراش مثقلاً.. وأخذت يدي في يدها، ومشينا معاً... إلى (بيت الماء) حيث غسلت لي وجهي... ويديّ... ورجلّي أيضاً... وعندما عادت إلى الغرفة، حرصت على أن تلبسني الثياب الجديدة... والحذاء... وكان في ذلك الدولاب (الخزانة)، ما بحثت عنه ووجدته... وهو المشط الذي مشَّطَتْ به شعري... ثم، قالت:

- هيّا.. دحّين لمّا تشوفو... لازم تسلّم على يدّه... عشان هوّه زي أبوك... والأولاد الصغار.. وحتى الكبار.. دايماً يسلموا على يد الكبار.

تقدمتني ماشية... ومشيت خلفها بخطى متوجّسة، وفي نفسي إحساس بأني مقدم على أمر مبعث الرهبة فيه. إنه لقاء مع هذا الرجل... الدكتور... الذي أصبح زوجها...

***

عندما دخلنا - أمّي وأنا - كان جالساً على مقعد وثير... فما كاد يرانا حتى نهض واقفاً... وامتلأت قسماته بابتسامة عفوية واسعة... وقال بلغة عربية سليمة:

- أهلاً.. أهلاً وسهلاً..

أمسكت أمّي بيدي.. وهي تتقدم إليه في موقفه... لا شك أني كنت أمشي بخطى مترددة... إذ رأيته هو يتقدم نحوي... وينحني عليّ... ويأخذ وجهي بين يديه... ثم يقبلني، ويمسح وجنتيَّ ثم يمسح رأسي، وهو يقول:

- ها.. أنت مبسوط هنا؟؟

لم أجب بشيء.. ولكني أخذت يده وقبّلتها.. وفي نفسي.. أنه أول رجل أقبل يده بعد جدّي رحمه الله... وهو أول رجل، يقبّلني بهذه العفوية والحب ويشعرني بأكثر مما كنت أتوقع من العطف والحنان...

حين التفتُّ إلى أمّي رأيت في عينيها دموعاً... لا أشك في أنها دموع الفرح بأن اللقاء بيني وبين زوجها، كان على أفضل مما كانت تتوقع وتحب.

***

اللقاء بيني وبين زوجها...

لم يكن إحساسي بالغربة من ذلك النوع السطحي الذي يمكن أن يزيله ذلك الترحاب، أو الشعور الطيّب الذي قابلني به زوجها الدكتور في أول لقاء... وبعد أن فرغنا من تناول الفطور وقد حاول أن يحملني على الكلام ببعض الأسئلة عن الشام، وحلب، هل أحب الشام أكثر من حلب؟؟؟ أم أحب حماة؟؟؟ لكني خيّبت ظنه أو هي رغبته في التحبب إليّ وإزالة ما لا شك أنه قد لاحظ الانكماش عنه، أو هي الرهبة منه... اكتفيت بأن التفت إليها وكأني أطلب منها هي أن تتولى الإجابة.. نهض عن المائدة فنهضت هي معه، وقبل أن يتجه نحو الباب بادرت أنا بالنهوض عن الكرسي مسرعاً إلى الغرفة التي قضيت ليلتي السوداء فيها... ولا أدري بأي إحساس أسرعت إلى النافذة، أرى عبرها الزقاق. وكما هو الحال في زقاق القفل، كانت البيوت في زقاق الطوال تتقابل والمسافة بين البيتين المتقابلين لا تزيد على مترين أو ثلاثة أمتار.. كان البيت المواجه خالياً إذ كانت جميع النوافذ فيه مغلقة وعلى بعضها الكثير من سلح الحمام.. ألقيت نظرة على أرض الزقاق، حيث يقع باب البيت.. كان هناك على مسافة من هذا الباب حصان أبيض يقف إلى جانبه عسكري يتحدث بالتركية إلى الرجل العجوز الذي قالت منكشة يوم زرنا الدكتور مع الخالة فاطمة وبدرية إنه زوج (باجي)، وهي الطاهية التي تجيد طهو الأكلات التركية ومنها (الصوبريك)..

ما هي إلا دقائق حتى خرج الدكتور في بزّته العسكرية وعلى كتفيه شارات ذهبية عرفت مع الأيام أنها نجوم تحدد الرتبة، كما تسمّى التي يحملها الضباط في الجيش.

لا أخفي انبهاري لحظتها بالحصان الأبيض ثم بالدكتور وأنا أراه يمتطي صهوة الجواد بخفة ورشاقة وبراعة، ثم ينطلق إلى الشارع العام... لم أكن أعلم حتى ذلك

اليوم أن من حق الضابط من رتبة معينة أن يعطى حصاناً وسائساً لتأمين مواصلاته بين بيته ومحل عمله.. ولم أكن أعرف في الواقع أين يعمل الدكتور.. ولكن لم أشأ أن أظهر انبهاري أو حتى إعجابي بما رأيت. فلم أحاول أن اسأل أمّي شيئاً عنه أو عن عمله... ظللت في الغرفة أكاد لا أغادرها إلا إلى بيت الماء... وانقضت فترة الصباح والضحى، من دون أن تمر بي أمّي مع أني كنت أتطلع إلى أن أراها للتخفيف من إحساسي بالاغتراب والوحدة.. وتساءلت بيني وبين نفسي: أين هي يا ترى؟؟ وما الذي شغلها عني.. لم أتردد في التسليم بأنها.. خلاص.. لم يعد يهمها من أمري شيئاً.. منذ الليل وإحساسي بالحريق الذي ينهش أعماقي يتزايد اشتعالاً، كلما جالت بذهني حقيقة أني أصبحت وحدي.. وأن هذه الأم هي أيضاً قد أخذها مني هذا الرجل.. وجال بذهني أنها منذ اليوم أصبحت سعيدة وإنتهت متاعبها ولم يكن معقولاً في تلك السن، أن أعفيها من اللوم أو أن ألتمس لها العذر في موافقتها على الزواج... لكن مع ذلك وجدت نفسي أفكر في أبي.. وأرسم له في ذهني صورة لا أملك إلا أن أعترف اليوم بأنها لم تكن مرضية بأية حال.. وحتى عندما رأيت ذلك الحلم في (تايبيه) وسمعت من ذلك المخلوق الواقف على الباب وخلفه فضاء ضبابي كلمة (زاهد) لم أشعر بشيء من فرحة أو ارتياح لرؤيته أو بالحنين إلى رؤيته مرة أخرى.. وكانت مفاجأة قرار ابني وزوجته تسمية الطفل الذي سيرزقانه (زاهد) لا واقع لها إلا في غرابة العلاقة بين الحلم والواقع. لا أعفي أمّي من اللوم ولا ألتمس لها العذر في الزواج، ولكن مع ذلك لست راضياً عن هذا الأب الذي تقول أمّي إنها لم تتلق عنه أي خبر منذ غادر المدينة قبل الحرب أو قبل هجرة أهل المدينة إلى الشام وحتى اليوم الذي تم فيه طلاقها على مذهب الإمام مالك ثم شهور العدة ثم الزواج... ولا أدري لم ظللت حتى بعد أن شببت عن الطوق لا أتصور أنه مات ولم يعد يهمني في شيء إن كان قد مات أو لا يزال على قيد الحياة...

حبست نفسي في تلك الغرفة لا أغادرها بل ولا أتطلع إلى الخروج إلى الشارع حيث أجد الأطفال يلعبون فألعب معهم أو أجلس على طرف دكة العم صادق.. كان هناك شيء آخر أدركت أني أرهبه ولا أدري كيف يكون تصرفي إزاءه... وهو احتمال أن يسألني العم صادق أو حتى أحد الأولاد عن أمي.. هل تزوجت؟؟ ما أثقل هذا السؤال يطرحه عليّ مخلوق؟؟ بماذا أجيب؟؟ فإذا خطر لأحدهم أن يخرج لسانه في وجهي ساخراً (من الولد الذي تزوجت أمه رجلاً غير أبيه) ماذا أفعل؟؟ ومن يدري..

فقد يجتمع عليَّ بقية المجموعة من الأطفال ويأخذون في الصخب ورفع أصواتهم بالبذاءات الكثيرة التي كثيراً ما سمعتهم يرددونها وهم يتشاجرون.

لا أدري كيف غلبني النعاس، في جلستي على طرف السرير، فاستغرقت في نوم عميق أيقظتني منه، تلك العجوز (الباجي). فقد سمعتها تردد بالتركية كلمات التدليل أو الإشفاق، إذ يبدو أنها قد صعب عليها أن ترى نصفي الأعلى على السرير بينما نصفي السفلي متدلٍ على الأرض.. استيقظت وأسرعت بالجلوس بحركة خائف أو متهيب، فأخذت تربت على كتفي وانحنت عليّ تحتضنني ثم قالت بعربية مكسرة:

- ماما يقول إنت فين؟؟؟

ثم مشت أمامي وهي تقول:

- تعال.. فيه ماما... فيه مسافرين... لازم إنت تشوف.

وفهمت أن أمّي أرسلتها لتجيء بي... وأن عندها (مسافرين)... والمسافرين في التركية هم الزائرات أو الضيوف.

مشيت خلفها، متثاقلاً ولا يزال النعاس في عيني.. ولكن وجود (ضيوف) أغراني بأن أغالب النعاس، ولم يكن في ذهني تصور عن الضيوف الذين يمكن أن يزوروا أمّي في هذا اليوم بالذات، خطرت كلمحة خاطفة سرعان ما تلاشت صورة بدرية.. ولا أفهم كيف تذكرت على التوّ أنهم قالوا إنها (حامل). فخالجني إحساس بالضيق بل ربما بالاشمئزاز... ولا أعرف لذلك تعليلاً بل قد يحسن أن أعترف أني أعتنق حتى اليوم فكرة ألا شيء يشوّه جمال المرأة عندي مثل أن يقال عنها أو أن أراها (حاملاً)... عندي أن الجمال فيه من معنى الملائكية وروحانيتها ما يجعله أسمى وأجل من أن يهبط إلى مستوى الحيوانية في بدائيتها الزاحفة في الأغوار.

عندما دخلت غرفة (المسافرين) أو (الضيوف) لم أرَ بدرية بالطبع ولا الخالة فاطمة وإنما رأيت سيدات لم يسبق أن رأيتهن قط.. كلهن يتحدثن باللغة التركية.. وكلهن أقرب إلى الشيخوخة... ما كدن يرينني، حتى هتفن:

- ما شاء الله.. ما شاء الله..

كانت الكلمتان، تعبيراً عن الإعجاب، يستعملها الأتراك بالمعنى نفسه في العربية ولكن ما بعدهما كان كلاماً طويلاً باللغة التركية، فيه ألفاظ التدليل والتحبب... كانت أمّي تتابع مشيتي ورأيت نظراتها كأنها تتفرّس في وجهي... ثم قالت:

- إنت كنت نايم؟؟

- أيوه.. كنت نايم.

- طيب.. هيا تعال سلّم على خالاتك.. شوف هادي.. هانم.. عندها بنت قدك.. وهادي.. هانم... عندها ولد.. قدك كمان.. وهادي خالتك... هانم...

كانت قد نهضت وأخذت يدي في يدها وهي تقدمني إلى هذه الهانم وتلك من دون أن أعرف شيئاً عنهن إلا أنهن (هوانم)... وكلما وقفت عند إحداهن، تمد لي يدها اليمنى، لأقبلها فإذا قبلتها تمد يدها الأخرى وتلف ذراعها حولي، وتحتضنني.. وهي تردد كلمات التدليل والإعجاب أو التحبب والإرضاء.

أخذت مجلسي على أحد المقاعد بجانب أمي.. وإذْ كان الحديث يدور بالتركية فلم أستطع أن أفهم شيئاً بالطبع... لم يطل جلوسهن بعد أن دارت عليهن الباجي بفناجين القهوة التركية... كانت إحداهن تدخِّن بشراهة... لاحظت أنها دخنت سيجارتين، خلال شربها فنجان القهوة.. ونهضْن.. تتقدمهن أمّي، بينما بقيت أنا في مجلسي، وفي نفسي أن غربتي تتأكد بهؤلاء "الهوانم" اللائي لا أعرف من هنّ، ولم يخطر لهن أن يتحدثن بالعربية كلمة واحدة... رجّحت أو خمّنت أنهن أقارب زوج أمي... وانبسطت أمام ذهني صورة لمستقبل حياتي مع هؤلاء، إذ قدر لهن أن يعشْن معنا، أو أن نعيش نحن معهن... أحسست كأن قلبي يغوص في صدري، إذ بدا لي أني حرمت من بيتنا في زقاق القفل، ومن الخالة فاطمة، وبدرية ثم خاتون الهندية، وبنات العم صادق، وغيرهن من اللائي كن يملأن الحياة حولنا حين يزرننا أو حين نذهب نحن لزيارتهن، بعد العصر أو بعد الغروب...

عادت أمي، بعد أن شيعّتهن إلى الباب... وكنت أنتظرها في الواقع، وفي نفسي أن استأذنها في الذهاب إلى بيتنا في زقاق القفل.. وقبل أن تجلس نهضت أقول:

- أنا أبغا أروح بيتنا..

وبدا على وجهها الاستغراب والدهشة وهي تقول:

بيتنا؟؟؟ في زقاق القفل؟؟

- أيوه... اقعد مع دادة منكشة.

- لكن ليه؟؟ ليه ما تبغا تقعد معانا هنا؟؟ هادا دحّين بيتنا كمان.

- يا ففَّم بيتنا هناك... بيتنا في زقاق القفل..

- أيوه هاداك بيتنا صحيح.. لكن هادا دحين بيتنا كمان.

- يعني بيتين؟؟؟

- أيوه بيتين... هاداك ملكنا أنا وإنت... وهادا...

وتلعثمت... لحظات ثم قالت:

- اسمع أفهّمك... اقعد.

ولكني لم أجلس... ووجدت نفسي مختنقاً بزحمة البكاء وأنا أقول:

- أنا فاهم يا ففَّم... فاهم هادا دحّين بيتك إنتي... مع الدكتور... لكن أنا... أنا بيتي هناك... في زقاق القفل... إنتي بنفسك بتقولي إنو ملكنا إنتي وأنا...

بدا عليها الارتباك... وتغيّر وجهها، وأخذت تغالب الانفعال والتوتر لتقول:

- إسمع يا عزيز... الدكتور إنت عارف إني اتجوّزته... وعشان كده أنا لازم أسكن معاه في بيته... يعني في هادا البيت... وإنت...

وقاطعتها، وكنت لا أزال واقفاً:

- أنا إيه يا ففَّم؟؟

- إنت؟؟؟ إنت ولدي يا عزيز... إنت تعيش محل ما أعيش أنا... هنا معايا في هادا البيت..

- طيب، ونسيّب بيت زقاق القفل لدادة منكشة؟؟؟

لا أدري كيف طرأ في ذهني في هذه اللحظة، أنها قد استلمت أجرة الدكانين في زقاق الزرندي، ستة جنيه "عسمنلي"... وكيف خطر لي أنها تستطيع الإنفاق علينا - أنا ومنكشة من هذه الجنيهات... فقلت بعفوية صادقة:

- يا ففَّم... أنا ودادة منكشة نقعد في بيتنا في زقاق القفل.. والجنيهات العسمنلي من أجرة الدكاكين تكفينا.. وكمان أنا شفت عيال قدّي بيشتغلوا... شفتهم في سوق الخضرة... أنا كمان أقدر اشتغل زيّهم... وأجيب فلوس تكفّينا أنا ومنكشة.. وإنتي... خلاص... خليكي قاعدة مع زوجك...

قلت هذا الكلام بعفويةٍ وبساطة، وكأن ما أقوله خالياً من أي غرض للإثارة... بل قلته وفي تقديري أنها سترحّب به ولن تتردد في الموافقة عليه... ولكن كانت

المفاجأة الصاعقة أنها اندفعت من موقفها نحوي بسرعة وانفعال عاصف، ووضعت يديها على كتفيّ وهي تقول:

- اسمع.. اسمع الكلام اللّي بأقول لك هوّه... وفتّح عينك قد الريال... إنت تعيش معايا أنا محل ما أعيش... في هادا البيت تعيش معايا... في غير هادا البيت تعيش معايا، في جهنم الحمرا... تعيش معايا.. فاهم؟؟ فاهم؟؟ إنت فاهم؟؟؟

ورفعت يديها عن كتفي، وكانت نظراتي إلى الأرض... وقد أدركني رعب شديد، إذ لم يسبق قط أن تصرفّت معي بهذا الأسلوب.. ولم أستطع أن أجيب بشيء... ظللت واقفاً مطرقاً برأسي إلى الأرض... وانتبهتُ فجأة إلى حركتها وهي تبتعد عني... لتلقي بنفسها على الكنبة الطويلة وقد أحاطت جبهتها وعينيها بذراعيها، ثم مالت على مسند الكنبة... أحسست بأنها تبكي بحرارة وحرقة... لم أسمعها تنشج.. ولكن لا أشك في أنها كانت تبكي.. لم أدر ماذا أفعل... ظللت واقفاً وهي أمامي لحظات مشحونة بالحيرة والأسى بل والإشفاق عليها... واستهولت كثيراً أن يكون كلامي قد أثّر عليها وأثارها إلى هذا الحد... وأخيراً وجدت نفسي أنحني عليها وأحيطها بذراعي.. وأمطر رأسها بقبلات متلاحقة، وأنا أقول لها.

- خلاص... خلاص... أعيش معاكي.. محل ما تعيشي إنت أعيش أنا معاكي... خلاص..

***

مرّت أيام بعد ذلك الموقف، كنت خلالها أتساءل: ترى إلى متى كتب عليّ أن أعيش هذه الغربة.. كان زوجها، الذي أصبحت أسميه "عمّي" كما اقترحَتْ هي... رجلاً دمث الأخلاق رقيق الحاشية... عفوي التعامل معي، ظلّ يبذل جهداً ظاهراً في التحبب إليّ.. ومحاولة إسقاط الكلفة بيني وبينه... كان يستدنيني من مجلسه، ويحيطني بذراعيه، وكان يتكلّم العربية من دون لكنة أو خطأ في مخارج الحروف، ولكن بلهجة تختلف قليلاً عن لهجة أهل المدينة... عرفت في ما بعد.. أنه كان مع القوة العثمانية في اليمن... أرسلوه بعد التخرّج من الكلية الطبية العسكرية في اسطنبول.. صيدلياً برتبة ملازم أول "على كتفه نجمتان ذهبيتان"... ولم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره.. ظلّ مع الجيش التركي في اليمن، في حواضرهم الكبيرة، ومنها صنعاء، وتعز، وزبيد، وعايش أهلها، وأحبوه وأحبهم، إلى أن انفجرت

الحرب العالمية وثار الشريف على الأتراك، فنُقل مع الفرقة التي كانت في اليمن إلى المدينة، تحت قيادة فخري باشا.. حيث ظلّ يترفع إلى رتبة "بكباشي"... ولا أعرف ماذا يقابلها من الرتب اليوم.

أما قصة بقائه في المدينة، فتتلخص في أنه أصيب بحمى التيفوس، وعندما اضطرت القوة التركية إلى الإنسحاب من المدينة، كان هو، ومعه طبيبان وصيدليان آخران، مضطرين للبقاء. هو بسبب مرضه، وهم لرعاية المرضى والجرحى من أفراد القوة التي تعهّدت حكومة الشريف بترحيلهم عندما يتماثلون للشفاء... في المستشفى الذي كانت تديره القيادة التركية، واسمه المستشفى العسكري... فعرضت عليهم أن يبقوا على عملهم وزادت كلاً منهم رتبة، مع الاحتفاظ لهم بحق اللحاق بدولتهم في تركيا عندما يشاؤون.

وإني لأذكر اليوم، الكثير جداً من محاولاته المتواصلة لإسقاط الكلفة بيني وبينه... ومن ذلك، حكاياته عن أيامه في اليمن... وعن المواقع والحروب التي خاض غمارها مع القوات التركية في حربها مع قوات الإمام يحيى... عن الجبال الشاهقة التي كان عليهم أن يتسلّقوها تحت وابل الرصاص، وفي مواجهة الهجوم عليهم بالخناجر والجنابي... ثم عن حدائق اليمن وبساتينها، وأشجار البن، والهيل، والفواكه، إلى جانب المفاجآت في الليالي المظلّمة من غارات اليمنيين، ليس بالبنادق والرصاص، وإنما بالخناجر، يذبحون بها الجنود ذبحاً كالأغنام أو يبقرون بطونهم في صمت، لتسفر الغارة في الصباح عن العدد الكبير من الضحايا فيكون الرد هجوماً مضاداً، في تلك الطرق الوعرة، وفي الوديان التي يدخلونها ليطبق عليهم اليمنيون، من الجبال... وقد ظلّ هذا حال الجيوش العثمانية في اليمن، طوال سبعين سنة انتهت بالحرب العالمية، التي انسحبت فيها تركيا من الأراضي العربية كلها، بما فيها اليمن وعسير، وأخيراً الحجاز.

ما أكثر هداياه إليّ كلّما عاد من العمل على حصانه الأبيض.. هدايا خاصة لي شخصياً، منها حلوى الشكوكولا... و"الغُرِيِّبة"... والفواكه المستوردة من الشام، ومنها التين، والكمثري والتفاح.. وأقول (لي شخصياً)، لأنه ما يكاد يدخل دهليز البيت حتى يرفع صوته يناديني فاهرع إليه... فيدفع إليّ ما يحمله العسكري، في لفافة أو علبة، أو قرطاس... ويضحك وهو يقول:

- هادا لك إنت.. لا تعطي ففَّم... ولا باجي ولا أحد...

وأضحك من جانبي... وأرى كيف يطفح وجهه بشراً حين يراني أضحك... فيمسح رأسي بيده ثم يلتفت إلى أمّي التي تكون قد جاءت ترحّب به، يحييها ويسألها عن حالها ثم يدخل.

أشهد اليوم... إن ما لقيت في الأسابيع أو الشهور الأولى من حياتي معها في هذا البيت من عطف زوجها وحنانه ورعايته، كان أكثر كثيراً حتى من عطفها وحنانها... وأعترف بأني رغم كل ذلك ظللت أنطوي على الإحساس بالغربة... بالوحدة... ولا بد أن أفسّر إحساسي هذا باللؤم أو بشيء من هذا القبيل... إذ ماذا أكثر من أن يعاملني الرجل هذه المعاملة التي قد لا يجدها الأبناء من آبائهم...

الأعجب في هذا الإحساس الذي ظللت منطوياً عليه، إني كنت لا أنسى أبداً أن هناك بيتي في زقاق القفل... وهناك الجنيهات العُسْمنلي... ثم أولئك الأطفال الذين يعملون ويأخذون أجراً على عملهم في سوق الخضرة... كان يخيّل إليّ أني أستطيع أن أعيش وحدي... حتى من دون رعاية الدادة منكشة... وأقول لنفسي:

- أيوه... أقدر أشتغل... وأجيب فلوس... بس لو أمّي ترضى.. ففَّم..

هو الإسم الذي تعوَّدت منذ بدأت الكلام أن أنادي به أمي، واسمها فاطمة.

***

أيوه.. أقدر أشتغل..

خلال الأيام الأولى من زواجها وما استتبعه ذلك من حياتنا في بيته، في زقاق الطُّوال، طرأ ما رسَّخ في نفسي إحساساً، ليس الغربة فقط، ولكن بأني "سجين" في هذا البيت أيضاً!!! إذ لم يُسمح لي بالخروج واللعب مع الأولاد عند دكان العم صادق، كما كان يتاح لي طوال أيام سكننا في بيت زقاق القفل... لم تقل أمّي أي كلمة تحرّم عليّ الخروج من البيت... كما لم أسمع منها أو من زوجها، أمراً بملازمة غرفتي تلك، أو التي أصبحت أسميها غرفتي.. وفي الوقت نفسه كانت نفحات الشوكولا، وغيرها من أنواع الحلوى، ومعها اللعب، تكاد لا تنقطع أبداً، هذا بالإضافة إلى ما أصبحت تغمرني به "الباجي" من الرعاية والتدليل، تلاحقني بهما كلّما يحدث أن تراني جالساً وحدي في الغرفة، أو إلى جانب أمّي التي أراها تشغل نفسها بالتطريز على المنسج، وقد كان ما تُعنى بزخرفته بالتطريز بألوان زاهية من الحرير، هو ما يسمى "بيوت" المخدات، ليس لأسرّة النوم فقط، وإنما لتزيين الكنبة الطويلة والمقاعد. لم أسمع كلمة تحرّم عليّ الخروج، ولكن هناك على دكة الدهليز العسكريان التركيّان، اللذان لا يتكلّمان إلا اللغة التركية، وأحدهما دائم العبوس، بحيث يبدو رهيباً مخيفاً، فضلت دائماً أن أتحاشى الاقتراب منه... وهو الذي كان إذا رآني اقترب من باب الخروج، يكتفي بنظرة تحمل رهبة الإنذار من دون أن يقول كلمة واحدة.. فلا أملك إلا أن أتقهقر إلى الداخل وفي نفسي أنها مصيبة حلّت بوجودي في هذا البيت وبوجود هذا الجندي في الدكة لا يفارقها ليلاً أو نهاراً... وكل ما يشغل به نفسه، في كل مرة أراه فيها، هو الانهماك في تنظيف بندقيته... بين يديه هذه البندقية، وأمامه على قطعة كبيرة من ورق "القَرْطَسة" ما عرفت في ما بعد أنه "مِزيَتَة" أي الأنبوبة التي تملأ أو يجب أن تكون مملوءة دائماً بزيت خاص لمسح وتنظيف الأسلحة، كالبندقية والمسدس

مثلاً... وهي مصنوعة من "الصفر" وسوف تكون لي معها في المستقبل القريب علاقة حميمة وتعامل أهالَ على شخصيتي هالة فخر وامتياز بين جميع لداتي من أبناء ضاحية الساحة، ومنها - أعني من هذه الضاحية - "السلطانيَّة"، و"الحماطة" التي تطل على ساحة المناخة وقد أصبحت - في أيامنا اللاهية تلك - حصناً كنا ندافع ونذود عنه أبناء المناخة، فلا نبالي بما يسيل من جباهنا من الدماء، التي لا نكاد نراها حتى نسمع صرخات تقول "الدم مدفون" ونوافق نحن، ونردد "على مثلها وسواها".

قلت: كانت نظرة الإنذار تلك تكفي تماماً لإرغامي على التقهقر، والتراجع إلى داخل البيت... ولا أحتاج أن أقول إني قد ضقت ذرعاً، بل بلغ بي الإحساس بالضيق حد الاختناق الذي لا يخلصني منه، إلا العودة إلى الغرفة، والإستلقاء على ذلك السرير، والإستغراق في النوم إلى أن توقظني، أو تستدعيني - "الباجي" لتناول وجبة الطعام... ويقتضيني الإنصاف اليوم أن أذكر لتلك العجوز السمراء أو السوداء، دفق حنانها عليّ، وحرصها على الترويح عني، إذ يبدو أن لها طريقتها في تسْليتي... وليس في أوقات عملها بالطبع، وإنما بعد صلاة المغرب، حيث تدخل عليّ الغرفة، وفي يدها طبق صغير من أي حلوى من أنواع الحلويات الموجودة، وتعرف مسبقاً أني لن آكل شيئاً... فتضع الطبق جانباً، ثم تأخذ في الحديث، عن أيامها في اسطنبول... واسطنبول هذه في وجدان "الباجي" هي الجنة... التي هي قصر السلطان "الباديشاه". القصر غارق في الخضرة... وشرفاته ونوافذه ترى البحر، والبواخر التي تراها ذاهبة، آتية ليلاً ونهاراً.. كانت تتجنّب ذكر السبب الذي جعلها تخرج من تلك "الجنة - اسطنبول" وتجيء إلى المدينة... كان ذلك سراً من أسرارها، ولكنها ما أكثر ما تذكر سيدات ذلك القصر.. وفتياته، والأغوات، الذين جاء واحد منهم إلى المدينة، وهو موجود في الحرم حتى تلك الأيام، ولذلك فلا يسعدها شيء كما يسعدها أن يؤذن لها بالذهاب إلى الحرم، للسلام على رسول الله ﷺ وكذلك لرؤية ذلك الآغا، والتحدث إليه، وسماع أخبار أهل القصر في اسطنبول.

وإذْ أحسسْتُ بأن الكلفة بيني وبينها قد أخذت تذوب وتتلاشى، اقتربتُ منها، ووضعت رأسي على صدرها كما كنت افعل مع أمّي حين أريد أن أصل إلى غرض معين... وقلت لها بعربية حرصت على "تكسير مخارجها لتبدو كلغتها"...

- أمّي باجي... أنا ما في خروج زقاق... ما في لعب مع أولاد؟؟؟ هادا عسكري "محمد علي" دايماً... دايماً يخوّف أنا...

وما كدتُ أفرغ من كلامي حتى أخذت تضحك ضحكات عالية، وتربّت في الوقت نفسه على كتفي وهي تردد:

- يا وْروم ... يا وْروم... زا واللّي...

وبطبيعة الحال لم أفهم شيئاً من هذه الكلمات، في حينه... ولكن لا شك أنها كانت من عبارات التدليل التي كثيراً ما تتردد، بين الكبار، والأطفال... وأخيراً قالت:

- هادا محمد علي... ولد طيب... إنت لازم ما تخاف.. بكرة صباح.. إنت ممكن تخرج... ممكن تلعب مع ولد... بس " أوْلادِم... يا وْروم؟... لازم إِذْن ماما...

مع أني فرحت في البداية، فقد نسفتْ إحساسي بالفرحة عندما نبّهتني إلى أنه "لازم إذاً ماما... لأني أصبحت أشك كثيراً في أن تأذن ليّ أمّي بعد هذا الزواج، بما كانت تأذن لي به أو تتسامح فيه قبل الزواج... لا أدري في الواقع سبب هذا الشك، ولكن رجّحت أن تلك هي رغبة "عمّي" - زوجها - وهي بطبيعة الحال تفضل أن تنفذ له كل رغباته، ومنها أن أظلّ أنا هكذا في هذا البيت لا أخرج منه إلا معها عندما تذهب إلى الحرم أو لزيارة إحدى أولئك "الهوانم!" اللائي قمن بزيارتها في الأسبوع الأول من الزواج... وهذا ما لم يحدث، أكثر من مرة أو مرتين... وقد يحسن الآن، أن أذكر أني، رأيت البنت "اللي قدّي"، وكذلك الولد، ولكنها رؤية جافة خالية من الحيوية، إذ ظلّ كل منا ينظر إلى الآخر أو الأخرى، نظرات سرعان ما تسافر أو تدور في فضاء الغرفة... وكان وقت الزيارة لا يزيد على الساعة تقريباً، أو هكذا كان يخيّل إليّ... كما كانت "البنت اللّي قدّي" سمراء، أو قمحية أو لا أدري بماذا يوصف لونها... على أية حال لم تكن بيض شقراء كأمّها... فهمت في ما بعد أنها شابهت أباها الدكتور ولكنها رقيقة، يغلب على محياها الابتسام... ومع أنها لا تجد فرصة للكلام مع الكبار "الهوانم" اللائي ينصرفن إلى الحديث وشرب القهوة، وتلك التي تدخن بشراهة وإسراف، تكاد يدها اليسرى لا تخلو من السيجارة مُشْعلةً تنفثُ دخانها بعد أن تستنشقه أو هي تسحبه عميقاً إلى صدرها... مع ذلك فإنها - وأعني البنت - تنتهز فرصةِ نظري إليها لتبتسم، ولو أنها كانت تعرف اللغة العربية، لما ترددت في التحدّث إليّ... تلك كانت رغبتها من دون شك، في كل مرة تلاقت فيها نظراتنا... أمّا الولد"اللي قدّي" هو أيضاً، فقد كان يبدو عليه الانطواء، أو التعب... فهمت في ما بعد أنه أصيب هو أيضاً بالسعال الديكي، وما كاد يشفى منه، حتى أصيب بما يسمّى

"الديزنتاريا" وهو مرض رهيب، كان من الأمراض الأكثر خطورة لندرة الأدوية التي تفيد في علاجه.

على أية حال... جاء الفرج... في صباح اليوم التالي... إذ فاجأتني أمّي وأمام عمّي، بقولها:

- إنت بطلت تلعب مع أصحابك العيال؟؟؟

- من أيام ما جينا في هادا البيت، ما شفتهم ولا لعبت معاهم.

- لكن ليه؟؟؟ مين اللّي قال لك ما تروح تلعب معاهم؟؟

- هادا العسكري... اللّي اسمه محمد علي... يُزْغُر فيَّ لما يشوفني في الدهليز... يعني بيقول لي ما أعتّب الباب.

ورأيتها تحاول أن تكتم ضحكة، وعمّي أيضاً حاول أن يبدّد ابتسامة ارتسمت على شفتيه وقالت أمي:

- لكن هوّه قال لك شيء؟؟؟

- لأ... هوّه ما يتكلّم... ما يعرف عربي... ما عنده غير "يُزْغُر فيَّ"، ويفضل ينظّف البندقية، ويلمّعها... ويشغلها... وكمان يلمّع أزارير الجكته... وبس. ولم أكد أكمل عبارتي، حتى تعالت ضحكاتهما معاً... ثم قال هو:

- هادا محمد علي ولد طيب... ما يعرف عربي... لكن يخاف عليك...

وقاطعته أمّي تقول:

- يخاف عليك إذا خرجت من الزقاق تضيع في الأزقة... ما تعرف ترجع البيت... ووجدتني أسرع لأقول بشيء من الحدة:

- يا ففَّم... كيف أضيع في الأزقة، وأنا أعرفها كلها؟؟؟ الأزقة اللّي في الساحة كلّها، أنا لعبت فيها مع العيال...

- هوّه... هوّه عشان ما يعرف عربي... وما يعرف أزقة المدينة ولا أهلها، يضيع فيها.

وقاطعها "عمّي" يقول:

- هوّه جا المدينة قبل ما يخرج فخري بستة أشهر... وطول المدة كان في القشلة وبعدين في المستشفى... مريض...

استطعت أن أفهم في هذا الصباح بوضوح شديد، أني أستطيع أن أخرج، وأن ألعب عند "البرحة" بين زقاق القفل وزقاق الحبس، أمام دكان العم صادق... فتنفّست

الصعداء... وكانت الباجي تدخل في هذه اللحظة، ويبدو أنها لمحت تعبيرات الفرحة في وجهي فإذا بها تضحك ضحكة قصيرة خافتة ثم تقول كلاماً بالتركية لم أفهم منه شيئاً، ولكن تأكدت أن الفضل كان لها في إطلاق سراحي من نظرات أو "زغرات" محمد علي وبندقيته التي لا يكفّ عن مسحها وتنظيفها وتلميع خشبها.

لا أدري كيف خطرت لي وأنا استقبل فرحة الإذن لي بالخروج، فكرة "العيال اللّي قدّي وبيشتغلوا"؟؟؟ "العيال اللّي شفتهم في سوق الخضرة"؟؟؟ كما لا أدري حتى هذه اللحظة كيف كان أول ما اعتزمت أن أفعله بمجرد الإذن لي بالخروج، هو أن أذهب إلى سوق الخضرة، وهو لا يبعد عن زقاق الطّوال كثيراً، وأن "أشتغل... وأجيب فلوس".

لم يكن طبيعياً أن أزيح الستار عن هذا السر لأي مخلوق... وفي تلك اللحظة تذكرت أن هذه الرغبة ظلّت تساورني، وتلح عليّ ربما في كل لحظة طوال الفترة التي عشتها منذ دخلنا هذا البيت، واستلقيت على السرير في تلك الغرفة التي أصبحت تسمى غرفتي الآن.

كانت نظراتي وأنا أتجه إلى باب الزقاق عبر "الدكة" التي يحتلها ذلك الجندي "محمد علي" تكاد لا تتحول عنه... لم أكن استبعد أبداً أنه سيجمّد حركتي. لو أنه رماني بتلك "الزَّغْرة" من زغراته الرهيبة... ولكن... عجباً... لأول مرة، كان يبتسم، ثم يلتفت إلى زميله القابع في ركن الدكة ويتحدث إليه بشيء لا أشك في أنه كان يعنيني، لكني لم أفهم منه شيئاً... المهم، أني خرجت من الباب إلى أرض الزقاق، من دون أن يعترضني أحد... ورغم تشوّقي إلى اللعب مع "العيال" بعد انقطاعي الطويل عنهم، فقد وجدت نفسي أتردد في الاتجاه إلى حيث يتواجدون ويتجمعون في العادة. ولم يكن السبب هو الرغبة في رؤية "العيال" اللّي في سوق الخضرة، والرغبة في أن "أشتغل مثلهم وأجيب فلوس".. كلا.. كان في نفسي ما جعل قلبي يغوص في صدري إلى الحد الذي بدا لي كأن الشارع الرئيسي الذي بلغته بعد خروجي من الزقاق قد أصبح رمادي اللون... كانت الشمس مشرقة والحركة على أشدها... ولكن هذا اللون الرمادي، كان هو الذي يغمر كل ما تقع عليه عيني... كان في نفسي ذلك السؤال الصعب الذي خطر لي أن العيال... أحدهم، أو جميعهم... سوف يصرخون به في وجهي، وهو: "هل تزوجت أمك؟؟؟ ولماذا تزوجت؟؟؟ ثم أين أبوك؟؟؟ وأخيراً من هو زوجها؟؟؟"... ثم... وحتى العم صادق، الذي يعلم بالطبع أن أمّي قد

تزوجت، لا بد أن يسألني عن هذا الزواج؟؟؟ عن حالي أو حالها هي معه؟؟؟

تسمّرت قدماي عند مخرج أو مدخل الزقاق... مع ذلك اللون الرمادي الذي يغمر كل شيء... ثم هذا القلب الذي بدا لي كأنه يختلج في صدري، ويكاد يمزقه... خطر لي أن أعود من حيث أتيت... ذلك هو السبيل إلى أن أتخلص من كل هذا الذي لا أدري كيف لم أحسب له حساباً حتى هذه اللحظة... كانت هناك مصطبة صغيرة من الحجر الأسود - كجميع حجارة المدينة - عند مدخل هذا الزقاق... لم أتمالك نفسي... كدت أسقط... فأدركت أن خيرِ ما أفعله هو أن أجلس على تلك المصطبة... جلست فإذا بالعرق البارد يتصبب غزيراً من جبهتي وحول عنقي... هبّت نسمة باردة... وكأنها جاءت في الوقت المناسب فاستروحت، وبطرف كم الثوب، مسحت ذاك العرق... لا شك أن لو رآني أحد لأدرك أني مريض، تتلاحق أنفاسي وقد علت وجهي صفرة الموت.... لم أتحرك من مجلسي ذاك أي حركة واستندت بظهري إلى الجدار...

لا أستطيع اليوم أن أقدر الفترة التي قضيتها في مجلسي ذاك على هذه الحال... لكن... في النهاية تحاملت على نفسي، ومشيت في اتجاه سوق الخضرة... ومع المشي بطيئاً عاودني شيء من النشاط إلى أن بلغت مدخل السوق.. كان مزدحماً بالناس.. وبالأطفال الذين يشتغلون... كان بعض الرجال الذين يتسوّقون يحملون في أيديهم "الزنابيل" - جمع زنبيل - ولكن، كان هناك آخرون لا يحملون شيئاً. ولكن يقف إلى جانبهم واحد من هؤلاء الصبية، وفي يده أو على رأسه ما عرفت في ما بعد أن اسمه "القُفة"، وهي وعاء مستدير مصنوع من سعف النخل، واسع بعض الشيء.

وبعض هذه (القفف) مبطن من الخارج بجلد الماعز أو الخرفان... وهؤلاء الذين لا يحملون في أيديهم الزنابيل، وكان يغلب على مظهرهم التميز والأبهة... إذ على رؤوسهم (العمّة) المدني جيدة اللف، وربما بدا في استدارة لفاتها نوع من الزخرفة الدقيقة الخفيفة البيضاء، أما (الجُبّة) فتنسدل بلونها الأسود، أو البني، أو الأبيض أو حتى الأحمر على ما لعله كان يسمى (الشّايَة) التي تختلف أنواع أقمشتها بين حريرية كالغباني الحرير بألوانه المختلفة والأصفر أكثرها شيوعاً، أو القَرَمْسود، أو اللاس الخ... هؤلاء هم الذين يضعون كل ما يتسوقونه في (القُفة) التي يحملها هؤلاء الصبية، فإذا فرغوا من التسوّق، يمشون منطلقين إلى بيوتهم وخلفهم هؤلاء الذين يحملون القفف، من دون أن ينبس أحد منهم ببنت شفة... لأن المفهوم أن الأجرة لا تقل عنِ ربع مجيدي بأية حال. وهذا المبلغ ليس قليلاً، والسخاء به على (شيّال) يعتبر كرماً بلا حدود.

كانت هذه (القُفة) بالنسبة لي هي المشكلة... إذْ من أين لي واحدة منها؟؟؟ أما الزنبيل فمسألته سهلة... ولكن كل متسوّق يحمل زنبيله بيده بنفسه... ظللت أمشي أو أتسكع في هذا السوق محاولاً أن أجد الطريقة التي أحصل بها على (القفة) من جهة... ثم الأهم من ذلك قيمتها إذا وجدتها وأردت شراءها.

كان أمامي أحد هؤلاء الصبية واقفاً خلف شخصية ظاهرة الوجاهة... اقتربت منه، والقفة على رأسه ولا تزال فارغة... وسألته:

- فين يبيعوا هادي القفة؟؟

التفت إليّ مندهشاً، وهو يستعرضني... إذ ما الذي يجعل مخلوقاً يرتدي مثل ملابسي، وفي قدميه حذاء لامع، وشعره مسرّح بعناية، يسأل عن الدكان الذي يبيعون فيه هذه القفة؟؟؟ أطال النظر والتحديق... ثم بكل اشمئزاز وتأفف قال:

- روح شوف لك واحد غيري "تِتْرَيَقْ" عليه.

لم أفهم منه سوى أنه استكثر أن يجرؤ مثلي على الاحتكاك به... ومن جانبي فضلت أن أكتفي بما قال، فتركته حيث كان يقف... ومشيت في السوق... إلى أن بلغت نهايته التي تنفرج وتستوعب الساحة الكبرى، أمام أبواب (السلام والرحمة) من أبواب الحرم النبوي الشريف.

كنت أفكر في العودة من حيث أتيت حين سمعت صوت من يناديني باسمي، فالتفت لأرى أحد الصبية الذين ألعب معهم... كان في الواقع أقربهم إلى نفسي... اسمه (يحيى)... وقف أمامي وفي يده زنبيل صغير محشو بما تسوَّقه لأهله... قال:

- أيش بتسوّي هنا؟؟؟ تبغا تشتري شي؟؟؟ فين زنبيلك؟؟؟

-.. لا... أنا أبغا أشتري قُفّة... قُفّة زي هادي اللّي بيشيلوها على روسهم.

وفرقع يحيى ضحكة عالية، وهو يقول:

- ليه؟؟؟ ناوي تشيل قفة؟؟؟ عمّك وأمّك طردوك من البيت....؟؟؟ وتبغا تشتغل؟؟

- أيوه أبغا أشيل قفة... ولكن أمي وعمي ما طردوني... بس أنا أبغا أشيل قفة... أنا أبغا اشتغل وأجيب فلوس...

- يعني تبغا فلوس؟؟؟ أنا عندي مجيدي أسلفك هوّه ولمّا تشتغل تعطيني... طيب؟

- طيب يا يحيى... بس فين نلقى القفة؟؟؟

- في سوق النخاولة... في المناخة... هيا إمشي نشتريها سوا...

لم أكن أعرف شيئاً عن المناخة أو سوق النخاولة... ولكني مشيت معه بينما أخذ هو يرفع ذيل ثوبه، عن سرواله... ويفك طرف الدكة عن المجيدي...

***

«القُفَّة» في سوق «النخاولة»..

فكَّ (يحيى) طرف "دِكّة" سرواله، ليسطع المجيدي في يده، والتفت إليّ بقوله:

- هادا المجيدي يا عزيز تاخده، ونشتري القفة اللّي تبغاها... لكن ترى لا تقول لأحد إني أنا اللّي أعطيتك هوّه... والتفاريق اللّي تفضل بعدما نشتري القفة، خليها معاك... بس... ترى ما أبغا أحد يدري أبداً... أبداً... إني أنا اللّي أعطيتك المجيدي...

دار في ذهني شيء عن حرصه على ألا يدري أحد أنه الذي أعطاني المجيدي؟؟؟ وجدت نفسي أمام لغز... ترى ما الذي يجعله يخشى أن يعلم أحد بالأمر... تناولت المجيدي منه.. والتزمت الصمت، ونحن نمشي معاً... ورآني أزلق المجيدي في الجيب الجانبي، فحملق في وجهي مندهشاً وهو يقول:

- الله؟!! إنت بتحط المجيدي في جيبك؟؟؟

- أيوه... لازم أحطه في جيبي... يعني تبغاني أحطّه فين؟؟؟

- تمسكه في يدك...

- ليه؟؟؟

- هادا يا عزيز مجيدي... يعني فلوس كتير... ولو انفتق الجيب... أو لو شافه واحد من العيال، يمكن يتضارب معاك، وياخده.

وكما أراد، أخذت المجيدي من الجيب، وأطبقت عليه في يدي اليسرى... وعندما وصلنا المناخة، عن طريق (العينية)، انطلقنا معاً إلى منطقة تظلّلها أشجار النبق الكبيرة، وقد انتشر تحت الظلال عدد من النسوة ملثمات، لا تظهر إلا عيونهن، وأمام كل واحدة أنواع من السلال الصغيرة، المصنوعة من سعف النخيل، وأهمها المراوح، وهذه نوعان: إحداهما مزخرفه، ملونه، صغيرة الحجم، وقد رزم كل ست

منها معاً في رزمة... والأخرى بلون السعف الطبيعي أكبر حجماً، وقد رزم كل ثلاثاً منها معاً في رزمة...: وقد عرفت في ما بعد أن النوع المزخرف والملون هو الذي يستعمل للترويح وتجفيف العرق، في المجلس، وهو الذي يقدم أو يُعَدّ للضيوف... أما النوع الثاني الأبيض، وذات المقبض الأكثر طولاً وسُمْكاً، فللاستعمال في المطبخ... للترويح على الفحم بعد إشعاله في (الكانون) أو في (المِنْقَل)... وإلى جانب المراوح هناك (المكانس) وهي أيضاً نوعان، الأول لكنس الغرف والأثاث كالسجاد والطوالات والمساند إلخ... والثاني لغسل حجر الدرج، والمراحيض، والدهاليز، وفسحات الديوان والقاعة، ثم هنالك الزنابيل بأحجام وألوان مختلفة، ثم إلى جانب هذه المصنوعات من سعف النخيل، زنابيل تعرض فيها أنواع من هدايا ونفحات البساتين أتعثر حتى اليوم في تصنيفها، وفي الاسم الجامع الذي يحتويها... إذ ليست خضروات أو بقولاً تؤكل طازجة أو مطهوة... وإنما هي من مطالب الترف والرفاه التي يندر أن يخلو بيت في المدينة منها، وعلى الخصوص في أوائل فصل الربيع.. بل قد تتواجد حتى في الفصول الأخرى، إذ تحرص السيدات على تجفيف الكثير منها، وحفظه في علب من الصفيح، أو في أكياس صغيرة من الأقمشة السميكة، ومنها أو في مقدمتها جمعياً، (الورد) بأنواعه التي تتقارب ألواناً، ولكنها تختلف في فوح عبيرها. وقد لا أبعد إذا قلت إنها تُنتقى من أغراس معينة في بساتين معروفة، يعرفها السادة الذين يتسوقونها بأنفسهم... والبائعة التي تعرض هذه الورود، تُباين أو تُمايز بينها، بأن تخص الأنواع الممتازة بحاويات تصنع من لحاء النخل تشبه القارب. وهذه لها ثمن قد يبلغ أضعاف ثمن الأنواع المعتادة التي تبيعها غَرْفاً مِلء الكف... ومن هذه الهدايا والنفحات، النعناع، بنوعيه: (المغربي) و(المديني)، وقد يسمّونه (الحبق)... ثم الفُل بنوعيه المشهورين، (المغربي)، و(البلدي)... وهناك تلك النبتات، التي يسمّونها: (الدوش)... و(اللّمام) و(العِطْرة)... أما النوامي، فهو نوامي ورق الليمون... والتسمية دقيقة، لأنها وصف للورقة الصغيرة، أول انبثاقها في الفرع من أغصان شجر الليمون. وقد يذكر رصفائي من الشيوخ، أريج هذه الورود والنبتات يعبق بها الجو في تلك المنطقة تحت ظلّال أشجار النبق الكبيرة، التي يفترشها هؤلاء النسوة بمعروضاتهن بعد صلاة الفجر، وإلى رأدِ الضحى. وقد لا ينسون أيضاً زقزقة ألوف العصافير، وتغريد النغاري، وهديل القمري على أغصان هذه الأشجار، في بكرة الصباح وعند الغروب، إذ لم يكن ما يمنع أن يتغنّى بها الجوّ كلّه، في تلك الأيام

التي لم تعرف بعد ضجيج السيارات وأبواقها و(تفحيطها)، وقد عصف اليوم بكل لمسة من لمسات ذلك الحنو الروحي الغامر في كل أرجاء البلد الحبيب وآفاقه.

ومع يحيى، والمجيدي في يدي اليسرى، أخذنا نتنقَّل في المنطقة، نلتمس (القفّة) فلا نجد لها أثراً... وحين رأينا طفلاً أسمر، يحمل واحدة على أرسه، تقدم منه يحيى وسأله أين يبيعونها؟؟؟ فاجأنا الطفل بأنه يريد أن يبيع هذه التي يحملها فهل نرغب في شرائها؟؟؟ فطلب منه يحيى أن يضعها على الأرض، لنتفقّدها... كانت ملاحظة يحيى أنها ليست مبطّنة بجلد الماعز أو الخِرفان... فهي لا تستحق أكثر من ربع مجيدي.

ما كاد الطفل الأسمر يسمع هذا الكلام من يحيى، حتى انتفض وانتزع القفة من الأرض وهو يقول:

- مين اللّي قال لك إني سارقها؟؟؟ روح إنت وهوّه دوّروا على اللّي تقدروا تضحكوا عليه...

في الواقع أني أنا أيضاً قد استغربت، وأحسست بأن يحيى قد أغضب الطفل، فكان له أن ينتفض، ويتصرف بما بدا كأنه شروع في ضربنا بعصا كانت في يده... ولكن يحيى بدا غير مبال بشيء، وأخذ يقول:

- ولا تزعل... وهادا نص مجيدي براسه.

هدأت ثائرة الطفل، وبدا كأنّه يفكر ثم قال:

- اسمع أنا أشتريتها قبل شهر باتناشر قرش من واحد من جماعتنا... تدفع خمستاشر قرش؟؟؟

وسرعان ما التفت إليّ يحيى، وهو يقول:

- خمستاشر قرش... ولا تزعل... هات المجيدي يا عزيزي.

تناول يحيى المجيدي منّي واتجه إلى إحدى النسوة، يعرض عليها أن (تصرف) له المجيدي - والصرف يعني ما يسمّى في مصر "الفكّة" -. وشرعت المرأة تعد القروش بعد أن أخذت المجيدي وانتهت الصفقة... أخذ الأسمر خمسة عشر قرشاً، وناولني يحيى الباقي قروشاً وهو يقول:

- هيّا تعال نشتري شويّة (حَلَوي) وسكرية...

ثم أردف يقول:

- ما دام اشتريت القفة اللّي بتدوّر عليها... هيّا شيلها على رأسك. وعسى نلتقي واحد أفندي، يِشيِّلك المقاضي، ونروح معاه... وتستفتح.

أخذنا نمشي، والقفة على رأسي... والقروش في جيبي... ولمح يحيى بائع الحَلَو وهو (النبق الممتاز)... فأسرعنا إليه، واشترينا بهللتين... كمية كبيرة أخذنا نلتهم حباتها بشهية ونحن نمشي في اتجاه سوق عامرة بالدكاكين الكثيرة إلى يمين الخارج من باب المصري.. ومع أني سعدت كثيراً بالقُفة، إلا أني لا أخفي أنني أحسست بالحرج أو (الكسوف) من حملها على رأسي... إذ يحدث ذلك لأول مرة في حياتي... أمّا يحيى فقد كان يتحدث إليّ - وهو يلتهم حبّات النبق - عن الأجرة التي سوف يدفعها من أحملِ له مشترياته، وأنها في العادة لا تزيد على ثلاثة قروش... لكن - إذا كان الأفندي سخياً - قد تصل إلى ربع مجيدي... فإذا أتيح لي أن أعمل لأربعة من الأفنديات، فإني أستطيع أن أجمع إلى صلاة الظهر - ربّما - مجيدي (براسه).

لا أدري كيف خطر لي أن أسأله:

- أنت يا يحيى كانت عندك قفة واشتغلت؟؟؟

ففرقع ضحكة استغرق فيها لحظات، ثم قال:

- كيف أقدر أشيل قفة على رأسي - زيّك - ولو شافني سيدي حسين يقتلني...

- سيدك حسين أبو أمّك؟؟؟

- لأ... سيدي حسين هوّه أخونا الكبير... وهوّه اللّي نخاف منّه... كلّنا...

- مين كلّكم؟؟؟

- كلّنا... أنا وأخوتي... وكرايمي... وحتى أمّنا.

- طيب وأبوك؟؟؟

- أبونا... الله يرحمه... مات من زمان...

- وأمّك يا يحيى، ما اتجوّزت بعد أبوك ما مات؟؟؟

وفرقع ضحكة خفيفة وهو يقول:

- تتجوز؟؟؟ كيف تتجوّز وهي حرمة عجوزة... لمّا أبويا مات كان سيدي حسين هوّه رجّال البيت... أمّا سيدي أبو أبويا... دا خلاص... طول نهاره على السجادة... ما له شغل بأحد أبداً.

- لكن يا يحيى... ليه سيدك حسين، لو شافك شايل القفة، يقتلك؟؟؟

- عشان عيب...

- كيف عيب؟؟؟ ليه عيب؟؟؟

- اللّي ما أدري عنّه... لكن لمّا - من زمان - شلت الزْنبيل - الزنبيل... مو القفة - لواحد من جيراننا، كانت بطنه بتوجعه وما هو قادر يمشي - ووصّلت له الزنبيل للدهليز... أعطاني ربع مجيدي... وما دسّيته... كنت فرحان... وعرف الحكاية سيدي حسين قام "رَجّني" علقة عند الله خَبرْها... وأخذ ربع المجيدي، وودّاه للرجال... أصلها حكاية كبيرة... ومن يومها عرفت حكاية العيب هادي...

- طيب... ولكن... ولكن إنت تبغا تشتغل وتجيب فلوس؟؟؟ تشيل قفة زّيي ولا ما تبغا؟؟

- أقول لك الحق... أنا ما لمّيت هادا المجيدي اللّي سلّفتك هوّه إلا عشان اشتري قفه، وأشتغل وأجيب فلوس... ولّما عرفت أنك تبغا تشتغل، قال لي عقلي خلاص... تشتري إنت القفة وتشتغل، وتجيب فلوس... ولمّا تعطيني المجيدي أشتري أنا كمان وحدة... ونشتغل مع بعض... بس كل واحد في سوق بعيد عن الساحة... عن بيوتنا... عشان سيدي حسين ما يشوفنا.

- طيب... وكيف لمّيت هادا المجيدي؟؟؟ وليه بتقول لي ما أقول لأحد إنك سلّفتني هوّه؟؟؟

- لمّيت المجيدي... من العيديات... ومن الهللة والهللتين اللّي من أمي، ومن سيدي أبو أبويا... وكمان من سيدي حسين... ما كنت أصرف ولا قرش... إلين لمَّيتْ التفاريق اللّي بها جبت المجيدي... لو دري سيدي حسين، ولاّ حتى أمّي أنّه عندي... ما عندهم غير العلقة... وما يصدّقوا أبداً أنّي لمّيته من العيديات والهللة والهللتين...

- لكن ليه... ليه يا يحيى تبغا تشتغل وتجيب فلوس؟؟؟

وهنا التفت إليّ وقال:

- أقول لك، وما تقول لأحد؟؟

- لا... ما أقول لأحد أبداً...

- أبغا اشتغل وأجيب فلوس عشان همّا ناويين يدخلوني الكتّاب... وأنا ما أبغا

الكتّاب أبداً... وفي هادي الأيام بيقولوا الكتاتيب انفتحت... وكمان المكتب، اللّي كانت القراية فيه بالتركي... صارت في هادي الأيام بالعربي... وهادا زي الكتاتيب فيه "الفُقَها"، اللّي ما عندهم غير "الفَرْش"...

- يعني إنت ما تبغا القراية؟؟

- لا... ما أبغا القراية.. اصلوا سيدي أبو أبويا، طول أيامه قاعد على السّجادة وفي يدّه الكتاب... بس يقرا... ويقرا... في النهار يقرا... وفي الليل كمان يقرا... وما يخرج من البيت أبداً... وأنا أبغا اشتغل... أبغا أشوف الناس... وأقول لك على سر كمان؟؟؟ وما تقول لأحد؟؟؟

- لا... أبداً ما أقول لأحد...

- سيدي حسين، هوّه اللّي شايل البيت... يعني هو اللّي يصرف علينا... من يوم موت أبونا، وهو بيشتغل... ويجيب فلوس... طيب ليه أنا كمان ما أشتغل وأجيب فلوس؟؟؟

- طيب، لكن.. سيدك حسين بيشيل قفّة؟؟؟

وهنا فرقع ضحكة استغرق فيها إلى حد أنه اضطر إلى السعال ووضع يديه على بطنه... ثم قال:

- لا يا عزيز... همّ كل الناس ما عندهم شغل إلا يشيلوا القفة؟؟؟ سيدي حسين بيشتغل كاتب، عند واحد تاجر... وكمان هوّه اللّي ماسك المخزن حق التاجر... هوّه اللّي (يبرِّز) الأكياس للحُمّال... طول النهار يشتغل... يعني بيتعب... والفلوس اللّي بيعطيله هيّه التاجر ما تكفينا... يعني أنا ابغا أساعده... لكن ما ابغاه يدري...

- طيب... لكن ليه ما تتعلّم القراية، عشان تشتغل زي سيدك حسين؟؟؟

- لا.. لا... الله لا يقدّر... أصلك إنت ما تدري عن "الفُقَها"... عن (الفَرْش) بالجريد الأخضر وبالخيزرانة الرفيعة اللّي يبلّوها في الموية... واحد من أصحابي أهله دخلوه كتّاب اسمه كتّاب (القبّة) في المناخة... "الفَقي" والعريف، فرشوه بالجريد، وبالخيزرانات... وكل يوم... عشان ما يحفظ اللوح... قام شرد... ما هو عن الكتاب بس... لا... دا شرد عن بيتهم... وضاع... وما لقيته إلا الحكومة بيشتغل في العوالي... يسوق حمار السواني...

التزم الصمت لحظات، ثم التفت إليّ وهو يضحك قائلاً:

- يا بختك إنت... أمّك وعمّك طردوك... وما لك أخ كبير زي سيدي حسين... يعني ما في أحد يقول لك، لا تشيل القفّة... ولا أحد يدخلك الكتّاب...

ثم، فجأة هتف بي يقول:

- شوف... شوف... هاداك الأفندي، واقف عند الدكان... بيشتري... وما في يده زنبيل... يعني لازم تشيل له المقاضي في قفتك هيّا إمشي قوام...

ومشينا معاً... وبسرعة كما اقترح... وقفنا خلف الأفندي الواقف يتسوّق... كانت القفة على رأسي... وفي نفسي إحساس بالارتياح، ووجدتني أحسب عدد المرات التي سأقوم فيها بحمل ما يتسوّقه الأفنديات... وكان يحيى إلى جانبي صامتاً لا ينبس ببنت شفة...

وفرغ الرجل من تسوّق حاجاته، التي تجمّعت قراطيسها وأوعيتها ومنها زجاجات، و(قربة صغيرة) -عرفت أنها مملوءة بالسمن البلدي، تُشترى من البدو، كما هي وقد لا تخونني الذاكرة، إذا قلت إنهم كانوا يسمّونها (العُكّة)... فيقولون (عُكة السمن)... وربّما (عُكة العسل)... لأن البدو هم الذين كانوا يزوّدون الأسواق بالسمن والعسل... وأعجب ما في حكاية (العُكَك) هذه... أنها تؤخذ من البدوي أو تُشترى منه، من دون أي شك في محتواها... فهو موثوق به إلى أقصى حد... وحتى الذين يتسوّقون هذه العُكَك، من التاجر... لا يخطر لهم أبداً أن يشكوا في محتواها من السمن أو العسل... باستثناء الوزن... فلكل عُكة وزنها بالطبع.

والتفت الأفندي، ورأى القفة على رأسي، فهتف:

- خلاص... آخذ المقاضي معايا، ما دام التقينا الحامل... نزّل قفتك يا ولد... حطها على الأرض...

أسرعت فأنزلت القفة ووضعتها على الأرض كما طلب... وأخذ الرجل يضع فيها مشترياته وتبرع يحيى، بمساعدته، في نقل ما تصل إليه يده من البسطة أو هي مقدمة الدكان... ولكن في هذه اللحظة، بدا للرجل، أن يلقي نظرة عليّ، ثم على يحيى... أخذ يتمعّن في نظرته إلينا... بل توقف عن وضع ما بقي من المشتريات في القفة... أو تردّد فترة... وهو لا يزال يتمعّن في وجهينا، وفي ثيابنا... ثم قال:

- مِن متى إنت وهوّه بتشتغلوا حُمّال؟؟؟

ولم أدرِ بماذا أجيب... ولكن يحيى تطوّع للإجابة فقال:

- يا عمّي لا تخاف... أنا وأخويا هادا... نوصّل لك المقاضي... نمشي وراك... قدّامك... زي ما تؤمر...

- بأقول لكم... إنتو من متى بتشتغلوا حُمّال؟؟؟

- من زمان يا عمّي... من زمان... بس كنّا بنشتغل (جُوّة المدينة)... ما اشتغلنا هنا في المناخة إلا هذا اليوم..

- طيّب إنتو أولاد مين؟؟؟ أيش اسم أبوكم.

- أبونا ميّت يا عمّي ... مات من زمان...

لا أدري الآن، ما الذي أطلق لساني على التوّ لأقول للرجل:

- أنا يا عمّي أبويا مسافر... سافر من زمان... ولسّه ما رجع..

وهنا.. ضحك الرجل ضحكة خفيفة وهو يقول:

- لا... أنت وهوّه يا ولد شاردين من الكتّاب... باين عليكم شردْتو... وجايين تشيلوا حملة... لازم تقولولي فين أهلكم... فين ساكنين؟؟

وهنا ارتفع صوت التاجر من مكانه في الدكان ليقول:

- صدقت (يا سيِّد)... شوف هادا اللّي كان شايل القفة، حوايجه نظيفة... وكمان لابس كندرة وشراب... وهادا التاني... ماشي حفيان... لكن تيابه هوّه كمان نظيفة... وعلى راسه طاقيّة (سُنّارة)...

عاد (السيد) كما ناداه صاحب الدكان يقول:

- يا ولد إنت وهوّه... ما تقولولي فين ساكنين؟؟؟

ثم بدأ يتفرّس أو يتمعّن في وجه يحيى ليقول:

- بس... بس... عرفتك إنت... دحّين أشوف سيدك حسين... إنت أخو حسين مو كده؟؟؟

وما كاد يحيى يسمع اسم أخيه الأكبر، حتى شدّني من يدي وهو يقول:

- امشِ... إجري... إجري قوام...

رحنا نجري في الشارع وننعطف من باب المصري إلى ما يسمّى (جوه المدينة) وإن كان الرجل لم يحاول أن يلحق بنا... أو يطاردنا كما ظللنا نتوهّم...

***

شَيْل القفَّة للناس اللّي ما يتعلّموا...

بعد أن قطعنا مسافة من المنطقة بين باب المصري وتلك (البرحة) الصغيرة التي تتجه في استقامة بين صفين متقابلين من الدكاكين، إلى باب السلام، وهي التي ظلّت تعرف بـ(جُوَّه المدينة)... كنا ونحن نجري، نعاود الالتفاث إلى الوراء، لنتأكد أن لا أحد يطاردنا، تمهّلنا في سيرنا... والتفت إليّ يحيى يقول:

- اسمع... أنت بعد ما أمك وعمّك طردوك من البيت... رحت عند مين؟؟؟

لا أدري ما الذي رسّخ في ذهنه أن أمّي وزوجها (عمّي) قد طرداني من البيت... الحقيقة أنهما، ومعهما كل من في البيت، يسرفون في تدليلي ومحاولة إزاحة ما لعله كان ظاهراً على وجهي من الاكتئاب والضيق والغربة، أو هي فجيعة إحساسي بأني كما فقدت جدي، وخالتي، وأبي هذا الذي سافر ولا يدري أحد إن كان قد مات أم لا يزال على قيد الحياة، فقدت أمي... لأنّها - في منطقي الصغير - لم تعد مشغولة أو معنية بي... أخذها هذا الرجل الذي تزوّجتْه، فهي معه ولِه، منذ تلك الليلة التي انتقلنا فيها من بيتنا في زقاق القفل إلى بيت الزوج في زقاق الطّوال.

وبينما كنت أفكّر في حكاية (الطرد) هذه الراسخة في ذهن يحيى، ومعها حكاية القفة التي تركناها للرجل وهربنا، عاد يحيى يقول، لكن باهتمام ولهفة:

- اسمع يا عزيز... هادا الرجّال دحّين لا بد أنه يشوف سيدي حسين... ولا بد أنّه قال له الحكاية كلّها... وأمّي ما تقدر تقول لسيدي حسين شي... يُفرشني... يمصّع لي أداني... يسوّي زي ما يبغا، وهي ما عندها غير تقول له (يتُوب... يتُوب...) وبس... يعني الليلة، بعد ما سيدي حسين يرجّني هادي العلقة... علقة يمكن تكسِّر لي عضامي...

- طيب... وأيش تبغاني أسوّي؟؟

- بعد ما أمّك وعمك طردوك من البيت... لا بد أنك رحت عند خالتك... أو عند ناس من قرايبك...

- لكن يا يحيى، أمّي وعمي ما طردوني من البيت، زي ما بتقول...

فظهرت على ملامحه تعابير الدهشة وأخذ يقول:

- الله؟؟؟ طيب... مو أمك اتجوّزت؟؟؟ أنا سمعت هادا الكلام من الحريم اللّي كانوا بيهرجوا عندنا...

- إلاّ اتجوزت صحيح... لكن...

- لكن ما طردوك من البيت؟؟؟

- لا... ما طردوني من البيت... إنت فيه أحد قال لك إنهم طردوني؟؟؟

- لا.. لا.. ما أحد قال لي... بس أنا أعرف واحد صاحبي... أمه اتجوّزت... قام جوزها قال لها ما يبغا ولدها في البيت... عشان ما يبغاه يلعبْ مع بنته هوّه من حُرْمته اللّي ماتت... وبعدين طردوه... وشوفو مسكين قاعد مع جدته العجوزة في الرباط... وناوي يشتغل... بس ما عنده فلوس يشتري القفّة...

وبعد أن ظلّ يمشي صامتاً، فترة قال:

- طيب إنت فين تبغا تروح دحّين؟؟؟ إنت ما عندك ست؟؟؟ خالة؟؟؟ خال؟؟؟ قرايب؟؟؟

- لا... ما عندي... كلّهم ماتوا في الشام..

استوقفني سؤاله... ووجدت نفسي أتساءل بدوري: حقاً... كيف؟؟؟ ولماذا ليس لي أقارب... كل الناس لهم أقارب... ست... خالة... خال... إلا أنا... فليس لي غير هذه الأم التي تزوجت... وبذلك لم يعد لي في هذه الدنيا أحد أبداً...

- طيّب... وبيتكم اللّي في زقاق القفل... مين ساكن فيه دحّين؟؟؟

- فيه دادة منكشة...

فإذا به يهتف، وكأنه قد اكتشف أو عثر على ما كان يبحث عنه:

- خلاص يا عزيز يا خويا... تعال نروح عندها...

- لكن... لكن ليه؟؟؟ إيش نسوّي عندها...

- أقول لك... إنت ودّيني بيتكم حق زقاق القفل هادا... وإن كان تبغا تروح لأمك روح لها.

- بس ليه يا يحيى؟؟؟

- ليه؟؟؟ كيف ليه؟؟؟ يعني تبغاني آكل العلقة من سيدي حسين؟؟؟ أنا أبغا أغيب عن وجهه... عنّهم كلهم... كلهم ما عندهم غير الضرب... والسب... ما يغوني... يقولوا، إني أكلت رأس أبويا... وروس ما أدري مين من أهلي...

كانت كلمته الأخيرة، قد أدارت رأسي... فهو قد أكل رأس أبيه... ورؤوس آخرين من أهله... وجدت نفسي مُستهولاً الحكاية، أقول له:

- أكلت رأس أبوك؟؟؟ وروس ناس تانيين من أهلك؟؟؟ كيف يا يحيى؟ كيف بتاكل الروس؟؟

رغم أنه كان منفعلاً، ومشغول الذهن بالتفكير في الهرب من بيته ومن أخيه الأكبر الذي لا يشك أنه بعد أن علم بحكاية القُفة، سوف (يرجّه علقة كبيرة)... رغم كل ذلك انفجر يضحك، ويضحك... ويكاد لا يتماسك ليقول:

- إنت فاهم أني أكلت رأس أبويا... وهادي الروس اللّي بيقولوا عليها؟؟؟

- طيب، ما هو إنت اللّي بتقول كده...

- همَّ... همّا اللّي بيقولوا كده... بس أنا ما أكلت رأس أحد... وكيف واحد قدّي يقدر ياكل رأس أبوه وأهله..

وعاد يضحك... ثم قال:

- قصدهم... إني من ساعة ما ولْدتني أمّي أبويا مات... وبعدين ما أدري مين من أهلنا ماتوا في الشام... زي الناس اللّي ماتوا... وهادي الحرب، اللّي بنسمع حكاياتها، ما حصلت إلا بعد ما وِلْدتني أمي... عشان كده...

ووجدت نفسي أقاطعه قائلاً:

- ما دام هادا قصدهم... أنا كمان لازم زيّك تمام يا يحيى... أنا كل أهلي ماتوا في الشام... لكن... بعد ما أمّي جابت عبدالغفور... هم بيقولوا إنو عبدالغفور هوّه اللي...

- أكل روس اللّي ماتوا كلهم... موكده؟؟

- لأ ما قالوا أكل الروس... قالوا كلام ما أفهمه... عشان هم يتكلّموا بالتركي...

كنا الآن، قد بلغنا ساحة باب السلام... وارتفع أذان الظهر... وجعل الناس يسرعون إلى المسجد، وأصحاب الدكاكين، يغادرون دكاكينهم وفي أيديهم الأباريق يتوضّأون للصلاة... وكان لا بد أن نتجه إلى حي الساحة... عبر سوق الخضار... وفي هذه اللحظات كان يحيى يمسك يدي اليمني بيده... كأنه يخشى أن أفلت منه... وتخيّلت موقفه من أخيه... من (سيد) حسين... وتلك (العلقة) التي يتوقعها... أحسست بالإشفاف عليه... كما أحسست بأني أتمنى أن أظلّ معه أو يظلّ هو معي.... لا نفترق أبداً... وفي دوامة التفكير في مصيره... بل ومصيري أنا أيضاً، إذ لا بد أن أمّي قد لاحظت غيابي... ولعلّها قد أرسلت أحد الجنديين للبحث عني أمام دكان العم صادق... وجدت نفسي أفكّر في المكان الذي يجب أن نهرب معاً إليه.

استبعدت بيتنا في زقاق القفل... لأن الدادة منكشة، لا بد أن تكون عند أمّي في بيت زقاق الطوال إذ أصبح من عادتها أن تجيء في الصباح من كل يوم... وأنا أعرف كيف أفتح الباب، ما لم يكن الكولون مغلقاً.. ولكن لا ... لا بد أنهم سيبحثون عني هناك... ولذلك، وجدت أمامي بيت (خاتون الهندية)... وسرعان ما قلت ليحيى:

- هيا أسرع... قبل أن يخرج الناس من الصلاة... أنا أعرف فين لازم نروح...

وتهلَل وجهه... وأخذنا نسرع معاً... كان من حسن الحظ أن دكان العم صادق الذي يقع على مدخل زقاق القفل، مغلق... ربما لأنه ذهب إلى المسجد... دخلنا الزقاق مسرعين... ومن دون أي تردّد، وقفت أمام باب بيت الخالة (خاتون الهندية) وطرقته.. مرة وثانية.. وثالثة.. فإذا بالذي يفتح الباب... رجل هندي عجوز... لم يسبق أن رأيته قط... قلت:

- خالة خاتون فيه؟؟؟

- خاتون... بيبي... بالكل...

وجعل يرطن بالهندية كلاماً لم نفهم منه أكثر من ألا أحد في البيت... وقبل أن أتحرك في اتجاه بيتنا، وقد قرّرت أن أفتحه وندخل، سمعنا صوت الخالة فاطمة جادة من فتحة بابها الموارب، في نبرة لا تخلو من الدهشة.

- عزيز؟؟؟ إنت جاي تدوّر على خالتك (خاتون)؟؟؟ عسى خير؟؟؟ وهادا مين اللّي معاك؟؟؟

من جانبي عصفت بأعصابي حالة ارتباك شديدة... فتلعثمت قبل أن أقول:

- أيوه... بأدور على خالتي خاتون...

أما يحيى فقد أدار ظهره، بحيث لا ترى وجهه... وهمس يقول:

- إصحا تقول لها أنا مين...

وقالت الخالة فاطمة بصوتها الأجش الخشن، وهي تسعل سعلة خفيفة:

- هِيّه أمك أرسلتك لها؟؟؟

- لا... بس أنا وصاحبي هادا نبغا... نبيب...

أدركت الخالة فاطمة أننا نخفي شيئاً... وأن في الأمر ما استثار رغِبتها في اكتشاف الحقيقة... فقالت بلهجة جادة حازمة:

- إسمع يا عزيز... قل لي قوام أيش الحكاية؟

وقبل أن أقول شيئاً... ويحيى لا يزال لا يريها وجهه... سمعنا وقع أقدام تتجه إلى حيث كنا نقف... التفتّ لأرى أحد الجنديين... وهو الطويل الهادئ... زميل الجندي الذي تسامح اليوم لأول مرة، وتركني أخرج للَعب... تجمّدت في موقفي... أدركت أنهم يبحثون عني... وها هو (إسماعيل) قد وجدني... ولا مجال للهرب... أو الامتناع عن الذهاب معه... ولم يكن يتكلّم العربية... فأخذ يقول بالتركية كلاماً أدركت أنه يقصد أن أمّي هي التي أرسلته للبحث عني... ووقف أمامي... وبكثير من الرفق واللطف، وضع يده على كتفي... ثم أخذ يدي في يده... ومشينا... بينما التفت يحيى... ووجدته يمشي معنا... وبطبيعة الحال، لا بد أنه قد قرّر الاستسلام لمصيره أياً كان...

بينما كنا نمشي خارجَيْن من الزقاق... كان صوت الخالة فاطمة يلاحقنا وهي تقول:

- عرفتك إنت يا ولد عبدالنبي؟؟ يا ويلك من سيدك حسين... وأنا رايحة أقول لأمك يا عزيز... ما تخلّيك تمشي مع هادا الشقي... ولا تلعب معاه أبداً...

قبل أن نخرج إلى الشارع الرئيسي... تأمّلت وجه يحيى... كان محزناً إلى أبعد حد... كانت الدموع تملأ عينيه... ولكن ماذا أفعل؟؟؟ كيف يمكن أن أساعده؟؟؟ خطر لي خاطر سرعان ما عرضته عليه:

- يا يحيى... تعال نروح عندنا... وأخلّي أمّي هيّه اللّي تتشفّع لك عند سيدك حسين...

- طيب... بس كيف؟؟؟ هيّه منين تشوفه؟؟؟ هادا في شغله عند التاجر... وما يجي البيت إلا بعد صلاة المغرب... وجوز أمك... يمكن هوّه كمان (يُرجَّك علقة)... عشان حكاية القفة... والشغل...

- لا... لا تخاف... أنا أمّي تخاصمني كتير... لكن ما تضربني... وأنا وإنت نسلم على يدّها، ونترجاها.... ولازم تعفي عنّا.

***

عندما دخلنا الدهليز، كان الجندي الآخر، المشغول دائماً بتنظيف ومسح بندقيته، وهو الذي يرهبني بنظراته... كان جالساً وهو في بدلته العسكرية... وقد علّق بندقيته في مكانها من الجدار... لم يشغل نفسه بالالتفات إلينا... يبدو أنه كان مشغول الذهن بما هو أهم... تكلم معه إسماعيل، ربّما قال له إنه وجدنا عند بيتنا في زقاق القفل... كان يحيى مرتبكاً ولا تزال الدموع في عينيه... وأخذ إسماعيل مجلسه، من الدكة... وأشار لنا أن ندخل... إذ قد انتهت مهمّته بالعودة بي إلى أمي...

قبل أن نبلغ باب الديوان كانت هي... أمّي واقفة أمامنا... كان في وجهها الكثير من القلق... فبدا عليها الارتياح وهي تراني... وإلى جانبي يحيى... لم تستنكر وجوده معي... اكتفت، بأن قالت:

- يعني حتى لمّا يأذن الظهر ما ترجع؟؟؟ مين هادا؟؟

- كنا بنلعب... وما سمعنا الأدان...

- إنت بتكدب يا عزيز... قل لي فين كنت؟؟؟ وهادا اللّي جنبك مين؟؟؟

- هادا صاحبي يحيى... خالة فاطمة قالت تعرفه...

- وهنا تكلم يحيى:

- أنا سيدي عبدالنبي...

- إنتو برضكم ساكنين في زقاق الحبس؟؟

- أيوه... بيتنا في زقاق الحبس..

- وكيف حال سيدك؟؟؟ أنا سمعت أبوك الله يرحمه مات... كيف حال أمك؟؟؟

- طيبة... بخير...

- قل لي يا يحيى... إنتَ دَخّلوك كتّاب... ولا عند الخطاط؟؟؟

- لأ.. لأ.. أنا ما دخلوني الكتّاب... ولا عند الخطاط..

- لكن ليه؟؟ إنت ما شا الله كبرت خلاص... لازم يدخّلوك الكتّاب...

ثم التفتت إليّ تقول:

- هيّا إنت ويحيى... اطلع أوضْتَكْ... غسّلوا وجوهكم، وإصحا أشوف رجلينكم وسخة...

وما كدنا نسمع هذه الكلمات حتى أسرعنا معاً إلى الدور الأول... وفيه الغرفة التي لا أزال أشغلها في البيت... وتنفّس يحيى الصعداء، وهو يقول:

- هادي أمّك حنونة عليك يا عزيز... شوف ما خاصمتك ولا ضربتك... بس يمكن جوزها هوّه اللّي يخوّف..

- أبداً... جوزها (عمّي) رجّال طيّب... وما يخوّف أحد أبداً...

لم يطل التستر أو كتمان حكاية القفّة... فقد كانت الخالة فاطمة، تعرف أسرة يحيى وهي صديقة أمّه... وقد استرعى إنتباهها تصرفنا، ولم تجد ما يمنع، أن تكلف عبدالمنّان زوج بدريّة بأن يذهب إلى أم يحيى، ويخبرها أن يحيى (شارد من الكتّاب)، وقد رأته معي... وكان (السيد) الذي تركنا له القفة، قد أخذها إلى حسين... وأخبره بما وقع.

استطاعت أمّي أن تنتهزها فرصة، فاستأذنت زوجها (عمّي) لزيارة أسرة يحيى بعد أن صارحتها من جانبي بكل ما وقع... من دون أن أخفي شيئاً وأنا أقول لها:

- أنا أبغا اشتغل... عشان أجيب فلوس...

ورأيت قسماتها تحتقن... ونظراتها تسرح... أو تكاد لا تستقر... ولم تعلّق بشيء إلا بعد فترة صمت بدت لي طويلة... حيث قالت:

- أيوه... وأنا أبغاك تشتغل.. لكن ما تشيل القفة... أبوك كان عالم.. وسيدك الله يرحمه كمان كان شيخ الطريقة النقشبندية... وحافظ القرآن... والبخاري ومسلم... تدخل الكتّاب... وتتعلم... وتدخل المدرسة وتتعلم... وبعدين تشتغل شغل الناس الكبار.... شيل القفة.. للناس اللّي ما يدخلوا المدارس... اللّي ما يتعلموا...

والتزمت الصمت مرة أخرى... لحظات... ثم قالت:

- خلاص من يوم السبت اللّي يجي... تدخل الكتّاب...

تذكرت الكلام الكثير والرهيب الذي سمعته من يحيى عن الكتّاب... فأدركني الرعب وكدت أنفجر باكياً... ولكني تماسكت وقلت:

- في الكتّاب.. الشيخ والعريف.. ما عندهم غير (الفَرْش)... يفرشوا بالجريد الأخضر والخيزرانة المبلولة في الموية.. أنا ما أبغا... إنتي ما يهون عليكي يفرشوني..

قالت بهدوء.. وبلهجة فيها مع التحبب والاسترضاء، العزم والجد:

- إصحا اسمع منك هادا الكلام مرة ثانية... اللّي بياكلوا الفرش... همّا اللّي ما يحفظوا اللوح... وما يحفظوا الدروس... وإنت رايح تحفظ... وما تخلي أحد يفرشك أبداً...

***

أنا اللِّي أوديك الكتّاب..

ظلّ يحيى معي في الغرفة، ولكنه كان لا ينسى أن (سيده حسين)، لا بد أنه الآن يبحث عنه وأنه لا يكاد يجدهُ، حتى يهوي على جسده بالعصا، أو بجُمْع يده... وبالكَفّ (اللي يصرع) على وجهه... ثم (مَصْع الأذنين) إلى أن يكاد ينتزعهما... كان يصف لي ما يقع عليه من أخيه، مؤكداً أن هذا ما ينتظره في اللحظة التي تقع فيه عيناه عليه. لذلك فهو لا يدري ماذا ينبغي أن يفعل... وبعد أن تناولنا طعام الغداء الذي جاءتنا به (الباجي)... وهو يحدثني عن مرات كثيرة تعرض فيها لسخط أخيه وضربه... وعجْزِ أمه عن أن تفعل شيئاً غير صيحاتها المتتالية (يتوب.. يتوب). قال فجأة:

- اسمع يا عزيز... أنا خليني أخرج...

- لكن... لكن فين؟؟؟... فين تروح؟؟؟ أخوك...

- ما أدري فين أروح؟؟؟ لكن لازم أخرج... أمك إذا أخذتني لسيدي حسين... رايح يرُجّني العلقة، وما أنام إلا وأنا عضامي مكسَّرة...

- لكن أمّي رايحة تتشفّع لك... هيه بنفسها قالت تعرف سيدك العجوز...

- هادا سيدي حسين... كل ما واحد يتشفع... كل ما يزيد هوّه في العلقة... ينتظر... يسكت إلين اللّي يتشفع لي يروح... وبعدين (فين يوجعك)...

- طيب بس فين تروح...

- أروح العوالي... إنت ما تعرف العوالي؟؟؟ هادي فيها (بِلْدان) وأصحاب البلدان يبغوا اللّي يسوق لهم حمار السواني... هوّه يسوق حمار السواني... وهم يخلوه ياكل مع أولادهم وعيالهم... يعني ما يجوع...

قطعت أمّي حوارنا، حين دخلت علينا، وهي تبتسم... وبعد أن جلست على طرف السرير التفتت إلى يحيى، وقالت:

- إنت خايف من سيدك حسين؟؟؟

- لازم أخاف يا خالة... هادا يضرب على أقل شيء... وأنا اليوم مع عزيز حصل مننا اللّي ما يمكن أبداً إنو يسكت عنه...

- طيب... لكن إنت ليه سوّيت كده؟؟؟ليه تبغا تشيل قُفّة وتشتغل...

- عشان أجيب فلوس... ما هو عزيز كمان... كان اشترى القفة عشان يشتغل ويجيب فلوس..

وهنا التفتت إليّ وفي وجهها تعبير عن الدهشة وقالت:

- الله؟؟؟ هوّه عزيز اللّي اشترى القفة؟؟؟ بكم اشتراها؟؟؟

- أيوه... هوّه اللّي اشتراها بخمستاشر قرش...

- بخمستاشر قرش؟؟؟

والتفتت إليّ أمّي وفي وجهها ذلك الانفعال والتوتر الذي أعرفه... ومع أنها نادراً ما تضربني، ولكنها تهدّد بالضرب... وقالت:

- خمستاشر قرش؟؟؟ ومنين جبت الفلوس يا عزيز؟؟ أهرج قوام...

ولم يمهلها يحيى... أو هو لم يمهلني لأقول شيئاً... فقد أسرع يقول:

- أنا... أنا يا خالة... أنا اللّي ديّنته مجيدي براسه... اشترى منه القفّة بخمستاشر قرش... والباقي اشترينا نبق، وسكرية.. وعنده كم قرش دحين...

وهدأت أمي... ولكنها قالت:

- يعني أنت يا عزيز اتديّنت الفلوس... وإنت يا يحيى منين؟؟ منين جبت المجيدي براسه.

- من العيديات... ومن الهلله والهللتين اللّي تجيني من أمي... ومن سيدي عبدالنبي..

- طيب وإنت يا عزيز... منين رايح تعطيله المجيدي اللّي أخذته من يحيى..

التزمت الصمت.. وطال صمتي إذْ لم أكن أدري في الواقع من أين استطيع أن أدفع المجيدي وقد ضاعت القفة... وأصبح من المستحيل الآن أن (أشتغل... وأجيب فلوس) كما كنت أعتزم وأخطط..

وهنا تدخّل يحيى يقول:

- خلاص المجيدي راح... والقفة راحتْ... واللي قدّامي هو العلقة... وخلاص...

ضحكت أمي... وقالت:

- إذا أعطيتك المجيدي اللّي براسه... تروح معايا البيت... وأتشفّع لك... ولكن (تتوب). وما كاد يحيى يسمع هذه الكلمات حتى هب يهتف:

- والله... والله يا خالة... أتوب... أتوب...

- لكن إنت... عزيز بيقول... ما تبغا تروح الكتّاب..

- أيوه يا خالة... ما أبغا أروح الكتّاب... الفرش... بالجريد الأخضر... وبالخيزرانة...

- لكن إذا حفظت اللوح... ما في فرش... ولا جريد أخضر...

- أنا أبغا أتعلم صنعة... أبغا أصير نجّار...

ضحكت أمّي مرة أخرى وقالت:

- وليه نجّار يا يحيى؟؟؟

- عشان فيه واحد نجّار هنا في الساحة... شفته بنفسي يسوّي (السّحّارة)، ويبيعها للبدوي بأربعة مجايدة... وأنا شايف أني أقدر أسوّي السحّارة... والنشّابة... وحتى المِنْسج... أنا أوقف عنده... وأشوفُه وهوّه بيشتغل... وهُوّه يبغا واحد صبي صنعة زيّي...

نهضت أمي، وهي تضع يدها في صدرها، وتخرج منديلاً... تخرج منه مجيدياً.. تعطيه إلى يحيى... وهي تقول:

- هادا المجيدي... وإنت قلت تتوب... أنا رايحة أتشفع لك... وما دام تبغا تتعلم صنعة... أنا كمان أقول لأمك وسيدك حسين... يخلّوك تتعلم الصنعة اللّي تبغاها.

وما كدت أنا أسمعها تتسامح في حكاية تعلم الصنعة حتى أسرعت أقول باهتمام:

- وأنا كمان يا أمي... أنا كمان أبغا أتعلّم الصنعة... أنا أعرف دكان هادا النجّار اللّي بيقول عليه يحيى...

إنتفضت... وهي تلتفت إليّ تقول:

- إنت يوم السبت تروح الكتّاب... وتتعلم... وبعدين تشتغل شغل الناس الكبار..
وقاطعها يحيى بجرأته المعتادة يقول:

- يا خالة... كيف تبغيه يشتغل شغل الناس الكبار... وهوّه صغير.. أصغر مني؟؟

ومرة أخرى زايلها عبوسها وتوترها وضحكت وهي تقول:

- الناس الكبار يا يحيى همّ المشايخ... اللّي لازمْ بتشوفهم في الحصوة في الحرم والناس قاعدين حواليهم... يسمعوا منهم العلم... القرآن... والتفسير... والحديث... وعشان الواحد يسير زي هادول المشايخ... ويسير صاحب حلقة في الحصوة... لازم يروح الكتّاب... ويتعلم... وكمان يمكن يشتغل شغل الأفندية... يعني "باشكاتب" ويمكن "محاسبجي" ولاّ يمكن (حكيم) يعني دكتور... وكمان يمكن (ضابط)...

- وهادول اللّي بتقول عليهم... منين يجيبوا فلوس؟؟؟ مين يعطيهم فلوس؟؟؟

- إنت بتقول سيدك حسين بيشتغل كاتب عند التاجر...

- أيوه... بس الفلوس اللّي بيعطيله ما تكفي... النجّار يبيع السحارة بأربعة مجايدة... والتاجر ما يعطي سيدي حسين في آخر الشهر إلا سبعة مجايدة بس... يعني النجّار يبيع سحارتين في اليوم... ويجيب فلوس أحسن من اللّي بياخذها سيدي حسين من التاجر في الشهر بطوله..

- بس برضه، رايح يجي يوم وسيدك حسين يمكن هوّه يتعلم التجارة ويسير تاجر...

وفي التفاتها للخروج عنّا قالت:

- أنا بعد شويّه أناديكم... أنت يا عزيزي تلبس الشراب والكُندرة... وشوف التوب النظيف معلّق... غسّل وجهك إنت ويحيى... لا أشوفكم وسخين... ونروح سوا بيت العم عبد النبي.

وما كادت تخرج حتى فتح يحيى يده يتأمل المجيدي الذي أخذه من أمي... قال وعيناه تبرقان بفرحة:

- هادا المجيدي ورجع لي... والقُفة... لا بد الأفندي تركها عند راعي الدكان...

***

كنت في السن التي أصبحت أعرف فيها أن اليوم الذي يلي يوم الجمعة هو يوم السبت... وقد انقضى يوم الجمعة، من دون أن يُسمح لي بالخروج للعب... وأصبح مفهوماً ومقرراً في ذهني أني لا بد أن أذهب إلى الكتّاب يوم السبت... ولكن لم يكن في ذهني شيء عن الطريقة التي يذهب الأولاد فيها إلى هذا الكتّاب... ثم أين هو؟؟ وكيف أهتدي إليه وحدي؟؟ لا بد أن أحداً ما سيأخذني إليه؟؟ فمن هو؟؟ ثم هذا اللوح.. ما هو؟؟ وكيف يحفظونه؟؟ وكيف يعرف الشيخ... شيخ الكتّاب، أن الولد لم يحفظه؟؟ أسئلة كثيرة ظلّت تتردّد وتدور في ذهني.. وقد زاد في إحساسي بالضيق والكرب، أن أمّي وعمي، ومعهما الباجي العجوز... وغيرهم لا يتكلّمون إلا التركية... وعندما أكون جالساً مع أمّي وعمي... لتناول الغداء أو العشاء قد يقولان لي شيئاً بالعربية... في حدود ألفاظ التدليل أو التحبب، أو ما إلى ذلك.. ولكن بعد ذلك يظلّ الحوار يدور بالتركية...

في الليل.. مساء الجمعة.. ونحن إلى مائدة العشاء.. دار بين أمّي وعمي حوار بالتركية أدركت أنه حول ذهابي إلى الكتّاب غداً... ولفت نظري أن عمي كان مسروراً وهو يتحدّث عني وينظر إليّ.. وإذ كنت أتابع الحوار في محاولة لفهم ما يدور... التفت إليّ.. وربّت على خدي بيده وهو يقول:

– أنت لازم تسير ولد شاطر كتير..

لم أدرِ بماذا أُجيب... ولكني ابتسمت. وقلت في نفسي..

– إنه اللوح الذي لا بد أن أحفظه لأكون الولد الشاطر... وإذا لم أحفظه فالجريد الأخضر... والخيزرانة... ووجدت في نفسي شيئاً من الجرأة لأقول:

– بس فين اللوح يا فَقَّم؟؟؟

– لوح إيه؟؟

– اللوح اللّي إذا ما حفظته يفرشني الشيخ بالجريد الأخضر..

ضحكت أمّي وضحك معها عمي أيضاً.. وأخذ يقول:

– الشيخ يضرب بالجريد الأخضر؟؟

وأسرعت أقول:

- أيوه... اللّي ما يحفظ اللوح الشيخ يفرشه بالجريد الأخضر... وبالخيزرانة كمان.

وقالت أمي:

- لكن أنت رايح تحفظ اللوح... واللي يحفظ... ما أحد يفرشه أبداً..

وقاطعها يقول:

- لكن ليه بالجريد... بالخيزرانة؟؟ حرام.. هادا ولد صغير...

- يعني عندكم في اسطنبول... الشيخ ما يضرب اللّي ما يحفظ اللوح؟

ضحك ضحكة خفيفة وهو يقول:

- في اسطنبول... الشيخ يضرب... لكن بعصاية صغيرة.. على اليد... جريد أخضر ما في باسطنبول.. كمان لوح ما في... فيه كِتابْ... فيه لوح "أردواز"... تباشير...

- ... نحن عندنا فيه اللوح... وفيه الشيخ اللّي يضرب بالجريد... وبالخيزرانة... لكن ما يضرب اللّي يخفظ اللوح...

وهنا وجدت نفسي أسألها باهتمام:

- لكن.. فين اللوح؟؟ من فين أجيب اللوح.. وكيف أشيل اللوح..؟؟

- أشوف لسانك طلع؟؟ اللوح، يعطوك هوّه في الكتّاب... وتشيله تحت باطكْ..

ولأول مرة في حياتي فهمت أن هذا اللوح، ليس شيئاً ضخماً، كتلك الألواح التي ترسل إلى الأفران، لخبز أقراص العيش..

وإذ كنت قد فرغت من العشاء.. نهضت عن المائدة.. واتجهت للخروج إلى الغرفة التي أصبحت مخصصة لي... وأدركتني أمّي فيها.. ونبهتني إلى غسل يديَّ وفمي.. فلما فرغت، وعدت إلى الغرفة... رأيتها تقف... وتأخذني في حضنها... تضمني ثم تقول:

- هيّا نام يا عزيز... وعبّي نفسك للكتّاب...

- لكن فين؟؟ فين الكتّاب؟؟؟ كيف أروح له؟؟

وعادت تضمني.. وتقبّلني.. وجلست على السرير إلى جانبي وهي تقول:

- أنا... أنا اللّي آخذك، وأروح معاك الكتّاب... وأنا كمان أخلّي إسماعيل يجيبك... هيّا لا تخاف... خلّيك رجال...

نهضت... وغادرت الغرفة... وكلمة (خليك رجّال) هذه تتردد في ذهني... إذ تذكرت تلك المرة التي قالت لي فيها هي.. ثم بدرية: (إنت رجّال البيت). فمن هو الآن رجّال البيت؟؟

***

هيا قوم يا عزيز اتوضّأ وصلّي..
عشان نروح الكتّاب

لم يكن يوم السبت الذي حدّدته أمّي لدخول الكتّاب بعيداً... بيني وبينه الخميس والجمعة.. ولا أنسى اليوم الذي استلقيت فيه على فراشي، وقلبي مثقل بهم هذا الكُتّاب، الذي كان يحيى قد رسخه في ذهني وأعصابي حكاية "الجريد الأخضر، والخيزرانة المبلولة"... وكان من الطبيعي أن أستهول وأرهب، إذ لم يحدث قط، أن ذقت من أحد "فرْشاً" أو جلداً من هذا النوع... بل لم يحدث قط أن ضربتني أمّي أكثر من صفعة أو خفقة على كتفي.

عندما كان النعاس يتحسّس طريقه إلى عينيّ، كنت لا أنسى "يحيى" وذلك المصير الذي ينتظره من أخيه "حسين"، كنت مع إشفاقي عليه أتمنى لو أنه يعيش معي.. ومنطقي أن الغرفة كبيرة... والسرير يتّسع لنومنا معاً.. ويحيى عنده الوافر من الحكايات، عن "البلدان" وهي المزارع، و"السواني" والحمير التي قال إنه يمكن أن يعمل سائقاً لها وصاحب المزرعة يضمن له الأكل ثلاث مرات في اليوم... وينام في العشّة التي ينام فيها النسوة اللائي يعملن في المزرعة مع أطفالهن... في الواقع أني كنت أتوق إلى حياة كهذه التي وصفها يحيى وعلى الخصوص، أحواض البرسيم، التي قال إنها كالزمرد، وإن كنت لا أدري ما هو الزمرد، ثم النخل الكثير، ومنه نخلات طويلة يمكن أن يتسلقها ليصل إلى أعشاش "النغاريّ" الصغيرة التي يمكن أن يبيعها في "سوق الخضرة" كل نغري صغير بربع مجيدي.

ومضى يوم الخميس، الذي سمح لي فيه أن أخرج لألعب عند "البرحة" بين زقاق القفل وزقاق الحبس، وفيها دكان العم صادق... وعلى خطوات منه دكان ذلك النجّار الذي قال لي يحيى إنه يصنع "السحّارات" ويبيعها للبدو بأربعة مجايدة، وكان

العم صادق كعادته عاكفاً على قراءة القرآن من مصحف صغير بيده... رآني أجلس على طرف الدّكة عنده، فابتسم وسألني:

- دادتك منكْشة عندكم؟

- ما شفتها اليوم... يمكن تكون مع "الباجي"..

ضحك ضحكة خفيفة وهو يقول: هادي الباجي هي الطباخة... موكدة؟؟

- هيّه الطباخة...

- يا بختها أمك... ما شاء الله عندها طباخة.. وعسكر يخدموها.. وكمان منكْشة...

- وكمان بابا إسماعيل.. جوز الباجي...

- طيّب، وكلهم فين يقعدوا... وفين يناموا...

- ما أدري... لكن العساكر دايماً في دكة الدهليز... أصلها كبيرة... وبنادقهم معلّقة فيها... يقولوا ما يسيبوها... ولا يروحوا عنها أبداً.

- لكن.. قل لي: هوّه "عمّك" بيتكلّم مع أمك بالتركي، ولا بالعربي؟؟

- بالتركي.. لكن هوّه يعرف يتكلّم عربي.. زينا تمام..

- ما شاء الله...

كانت مجموعة الأولاد، مشغولين عني في ما يبدو إذ لم يلتفت أحد منهم إليّ ولم يسألني عن زواج أمّي أو عن زوجها، وذلك ما كنت أتحسّب له وأشعر بالضيق الشديد، ولا أدري ماذا أقول لهم... وحين كنت أتابع لعبة "الكَبَتْ" التي كانوا منهمكين فيها، رأيت "يحيى" قادماً من "زقاق الحبس".. وما كاد يلمحني حتى أسرع إليّ ضاحكاً، وهو يقول:

- يا شيخ ربنا لا يحرمنا من أمك... هادي خلّتهم كلهم يسكتوا عني.. جدّي أخذني جنبه ساعة ما دخل سيدي حسين... رفع يده، وما خلاّه يضربني.. إنت ما تدرى أنو سيدي حسين يعرف أبوك.. وقال إنو ختم الختمة في صلاة التراويح.. الحاصل كلام كثير...

ثم يتوقف لحظة ليقول:

- هيّا قوم معايا أورّيك النجّار اللّي أبغا اشتغل عنده.

- يعني ما تروح الكتّاب؟؟

- فال الله ولا فالك.. لكن أنت رايحين يدخلوك الكتّاب... مو كدة؟؟

- أيوه أمّي قالت يوم السبت... يعني بعد بكرا..

وهنا تدخل العم صادق يقول:

- رايحين يدخّلوك الكتّاب يا عزيز؟؟

- كده قالت أمي...

- لازم كُتّاب العريف ابن سالم..

- ما أدري.. لكن رايحين يدخلوني الكتّاب... أمّي قالت لازم تدخلّني الكتّاب.

- كتّاب العريف ابن سالم هوّه اللّي في باب المجيدي... قريب من الساحة... وهوّه كمان فقيه ولا كُل الفقهاء...

- يعني "يفرش" بالجريد الأخضر.. والخيزرانة المبلولة..

-... اللّي ما يحفظ اللوح لازم ياكل علقة.. ولكن اللّي يحفظ ما أحد يضربه ابداً...

وارتفع صوت المؤذن لصلاة الظهر... فإذا بيحيى ينصت.. ويقول:

- هيّا سامع؟؟ هادا صوت سيدي حسين..

وتدخّل العم صادق يقول:

- أيوه... هادا صوت حسين بخاري. ولو تقوموا لصلاة الصبح تسمعوه.. هادا المدينة كلها تقول ما في صوت زي صوته إلا عبدالستار... لكن...

والتفت أنا إلى يحيى أسأله:

- لكن أنت قلت لي إنه يشتغل عند التاجر؟

وتدخل العم صادق يقول:

- أيوه يشتغل عند التاجر... لكن لازم ما يترك الأذان، في المنارة "الريِّسيه".. شيخ الحرم يدفع له مجيديين في كل شهر.

مدّ يحيى يده، وتناول يدي وهو يمشي، حيث انطلقنا، إلى دكان النجار... رأيناه يعالج لوحاً صغيراً من الخشب... يمسحه بما عرفت في ما بعد أنه "الفارة"... وقفنا

نتفرج عليه ولاحظت انهماك يحيى في ملاحقة يد النجّار وهو يقوم بعمله... إلى أن فرغ والتفت إلينا وقطّب ما بين حاجبيه وهو يقول:

- أنتو ما تبغوا تروحوا تصلّوا... فين أهلكم عنّكم؟؟ وأنت يا يحيى... اسمع الكلام اللّي أقول لك هوّه... ترى سيدك حسين طلب مني أني ما أخلّيك توقف عندي أبداً... فاهم؟؟

سرعان ما أحسست بيد يحيى في يدي وهو يقول:

- خلاص... ما في فايدة..

- يعني إيه؟؟

- يعني سيدي حسين رايح يدخّلني الكتّاب..

***

بعد صلاة العشاء يوم الجمعة، وقد تناولنا - أمّي وعمي وأنا - طعام العشاء أخذتني أمي، بيدها إلى الحمّام.. حيث كان على أرضه "طست" من النحاس واسع كبير.. كما كانت هناك صفيحة فيها ماء أعلم أنه حار.. وتلك هي عملية الاستحمام التي تقوم بها بنفسها إن لم يكن كل يوم، فلا بد أن تتم يوماً بعد يوم.. لم يكن يضايقني ويحملني على البكاء شيء كهذا الصابون الذي يغمر وجهي ويتسرّب إلى عينيّ.. ثم تلك "الليفة" التي تدلك بها كل جسمي، وعلى الخصوص "القدمين والساقين" وهما في العادة الأكثر اتّساخاً.

لم أحتج إلى تفكير لأحزر أنها تُعِدّني للذهاب إلى الكتّاب في الصباح.

في الغرفة، أخرجت من الدولاب الصغير، الملابس التي تعدها للنوم عادة... ووضعت على منضدة، هناك، ثوباً مطوياً من الثياب الجديدة، التي فهمت أنها اشترتها لأرتديها في الصباح... وهناك الحذاء والجورب، وهما اللذان كانت - رحمها الله - تصرّ على ألا أغادر البيت إلى أي مكان إلا وهما في قدمَيَّ... حتى في تلك الأيام التي كان يتمزّق فيها الحذاء، وتطل من مقدمته بعض أصابعي، كانت تحاول أن تصلح موقع التمزق... ولي أن أقول اليوم، إني كثيراً ما تمرّدت على هذا الإصرار... وتكون النتيجة حملة تأنيب وتهديد بالضرب أحسب له ألف حساب.

فرغت من إعدادي للنوم.. فأشارت بيدها أن أضطجع على السرير، وقال محذّرة:

- هيّا اغمض عينيك... ونام علشان لازم تقوم بدري.. فاهم؟؟

ثم غادرت الغرفة بعد أن أحكمت الغطاء على جسمي.. وخفضت فتيل اللمبة العلاقي، ولاحظت أنها لم تقبّلني، كما كانت تفعل في أكثر الأحيان.. بل لم تضمني إلى صدرها... وهو ما افتقدته، في هذه الأيام.. ولا بد أن أقول إن حادث زواجها كان يرتبط دائماً بما أخذ يطرأ على بعض تصرفاتها معي.. ربما كان ذلك نوعاً من خبث إحساسي بفجيعتي التي لا تزال تطحن مشاعري، رغم كل ما يغمرني به "عمي" من عطف وحنان ورعاية... كان أثر الفجيعة في نفسي، ينسف أو يدمّر المفروض من مشاعر الامتنان والعرفان.

***

لا أدري، هل نمت فعلاً، ثم استيقظت على صوت أذان الفجر، الذي سرعان ما تذكّرت أنه صوت "حسين بخاري".. لا شك أني نمت، ولكن توتر أعصابي، بمشاعر الرهبة من الذهاب إلى ذلك الكتّاب أيقظني في الفجر.. لكني لم أغادر أو أتحرك عن فراشي... ظللت مفتوح العينين وليس في ذهني إلا هذا الكتّاب.. واللوح.. الذي إذا لم أحفظه، أستحق تلك "العلقة" التي وصفها "يحيى" بأنها "الفرْش" "بالجريد الأخضر" و"الخيزرانة المبلولة"...

وقبيل رؤية جدار بيت الجيران، تضيئه أولى شلالات ضوء الفجر رأيت "الباجي" تدخل الغرفة محاذّرة، متوجّسة.. كأنها تتوخى ألا تزعجني. فأغمضت عينيّ، متظاهراً بأني نائم أو حتى مستغرق في النوم.. واقتربت، حتى حاذت السرير.. ثم أخذت توقظني بكلمات التدليل التركية.. ومعها بعض الكلمات العربية المكسرة، وما هي إلاّ هنيهة حتى سمعت صوت أمّي تدخل الغرفة وهي تناديني بنبرة لم تخل من استعجال واهتمام.

فتحت عينيّ وانقلبت بجسمي بحيث كان ظهري إلى أمّي والباجي معاً.. فكانت يد أمّي هي التي تهزني... وتقول:

- هيّا قوم يا عزيز... قوم اتوضأ وصلّي... عشان نروح الكتّاب..

عندما كنّا - أُمي وأنا - نتجه إلى باب البيت للخروج، كانت هناك الدكة العريضة التي يرتفقها الجنديان... وكان أحدهما - محمد علي - مرتدياً بزته العسكرية واقفاً، ثم انطلق يفتح الباب ويتقدمنا في الخروج... كانت يدي في يد أمي، وهي في ملاءتها

"التركية" وقد أسدلت على وجهها ما يسمى "البيشة"... لم أفهم، مشى الجندي محمد علي أمامنا... فسألت أمّي بصوت أقرب إلى الهمس... هل يذهب معنا ليبقى معي في الكتّاب؟؟ وكان صوتها وهي تجيبني مختنقاً... ربما كانت تبكي:

- لا.. لا.. بس نبغاه يعرف الكتّاب عشان يروح يجيبك بعد العصر..

ثم مدت يدها الأخرى لأرى قفة صغيرة مزخرفة من سعف النخل - لها اسمها الذي نسيته اليوم - وقالت:

- في القفة غداك في الظهر.. شريك وجبنة، وكمان تمر من اللّي تحبه.

كان الذي يشغل ذهني منذ الليل، هو "اللوح" الذي تتمحور حوله مشكلة أن أحفظه فلا "يفرشني الشيخ بالجريد الأخضر والخيزرانة المبلولة بالمويه". إن لم أحفظه، فلا شيء إلا "الفرش"... ووجدت نفسي غير عابئ لقفة الغداء.. فسألت أمي:

- يا ففّم.. فين اللوح؟؟

- اللوح يعطوك هوّه في الكتّاب.

كان طريقنا إلى "باب المجيدي" عبر سوق الخضرة ثم الانعطاف منه يساراً إلى "باب الرحمة"... والانطلاق مع جدار الحرم، إلى عطفة ننتهي منها إلى باب المجيدي.. لاحظت أن الجندي - محمد علي - أخذ موقعه خلفنا لأن أمّي هي التي تعرف الطريق.

***

وعند مدخل باب - المجيدي - العريض كان هناك المخلوق العجوز الأسود الذي عرفت في ما بعد أنه "البواب".. وقفت أمي، بينما رفع هو رأسه بلحيته البيضاء المتناثرة حول وجهه يسألها:

- أيش تبغي يا أمي؟؟

- أبغا كُتّاب سيدي الشيخ العريف ابن سالم.

وأشار بيده إلى اليمين.. وهو يقول: ادخلي وأوقفي عند باب الكتّاب وهوّه يجي.

عند باب الكتّاب رأيت عدداً من الأولاد، يتحدّثون، بعضهم يلتهم حبات النبق، وآخر ينهش قطعة من الخبز في يده... وقفت أمي، ولا تزال يدي في يدها والجندي خلفنا... وما هي إلا ثوان حتى رأينا شاباً يلف رأسه بشال - عرفت في ما بعد أنه من نوع يسمى "الغباني" يتقدم نحونا.. وقف على مسافة من أمّي وهو يقول:

- الشيخ دحّين يجي... اقعدي إنت والولد هناك..

أشار إلى جزء من الساحة المسقوفة بالقرب من "الحصوة".. ولكن قبل أن نتحرك هتف قائلاً:

- خلاص الشيخ وصل...

التفتنا لنرى الشيخ العريف ابن سالم في جبته الزرقاء وعمامته "المدنية" يرتفقها أكابر أهل المدينة.. وقف أمام أمّي وهو يقول مشيراً بأصبعه إليّ:

- هادا ولدك يا بنتي؟

- أيوه.. هادا ولدي يا سيدي الشيخ.

- وهادا العسكري التركي قريبكم؟

- لا يا سيدي الشيخ.. هادا بس.. جا عشان يعرف الكتّاب.. وهوّه اللّي يجي ياخدوا بعد صلاة العصر.

- طيب فين أبو الولد يا بنتي؟ مسافر؟

- أبوه يا سيدي الشيخ.. أبوه مسافر من زمان..

- في الشام.

- لا.. في بلاد القازاق... سافر قبل "سفرْ برلكْ" ولحدّ الآن ما ندري عنه.

- يعني ما جاكم خبر إنو مات؟

- ولا حس ولا خبر..

- أيش اسمه يا بنتي؟

- اسمه زاهد.. يمكن تعرفوه يا سيدي الشيخ... هادا ختم الختمة كلها في آخر صلاة التراويح في رمضان.

بدا على ملامح الشيخ شيء من التنبه والاهتمام.. ووجّه نظراته إليّ.. ثم قال:

- أيوه يا بنتي... كلنا نعرفه... الشيخ حمزة خليل هو اللّي قسّم علينا كلنا الشربيت...ومویة الكادي.. وقدّم له شهادة مختومة بماء الذهب... اسألي عنه الشيخ حمزة خليل... يمكن عنده خبر عنه.. ودحّين تبغي تدخلي الولد عندي؟

- أيوه يا سيدي الشيخ.. بس ما عرفت اشتري له اللوح، والمضيرْ والدواية والقلم "البوص" قالوا لي إنكم أنتو اللي...

وقبل أن تكمل جملتها التفت الشيخ إلى ذلك الشاب.. وقال:

- اكتب اسمه.. وعمره.. واسم أبوه... و...

والتفت إلى أمّي يسألها:

- ما قلتيلي أيش اسم الولد؟

- اسمه "عزيز".

- العزيز هو الله... اسمه عبدالعزيز..

- ايوه هو اسمه عبدالعزيز.. لكن أنا دايماً أناديه "عزيز".

- خلاص.. خلّيه يدخل...

التفت إليّ ورأى الحذاء اللامع في قدمي.. فقال:

- قبل ما تدخل.. فسّخ الكُندرة... وحطها في الرف اللّي جوّه... رف الكنادر والمُدسْ، تركت يد أمّي وتقدمت للدخول، وخلعت "الكندرة" حيث وقف إلى جانبي ذلك الشاب، وغمرتني ضجة الأولاد، وهم يرفعون أصواتهم بالقراءة، وأمام كل منهم اللوح الذي عرفته الآن.. وعرفت أني سآخذ مثله مع أشياء أخرى من سيدنا "الشيخ".

وأرهفت سمعي، حين سمعت أمّي تقول للشيخ:

- لحْمُه لك يا سيدي الشيخ... وعضامه...

قاطعها الشيخ وفي صوته نبرة ضاحكة وهو يقول:

- كلهم يا بنتي... لحمهم لنا... وعضامهم لأمهاتهم وأبّهاتهم، كل اللّي أبغاكي تفهميه طيب هوّه إنو لازم يحفظ اللوح كل يوم... إنتي تعرفي القراية...

- أيوه يا سيدنا الشيخ أنا أقرأ وأكتب كمان...

- ما شاء الله... بس إنتي ما قلتيلي... إنتي بنت مين يا بنتي؟

- أنا يا سيدي الشيخ بنت الشيخ أحمد صفا..

ورفع الشيخ صوته هاتفاً.. وهو يقول:

- الشيخ أحمد صفا؟ بشّريني يا بنتي.. كيف حاله؟

- أبويا مات في حلب.. مع اللّي ماتوا... إنتو يا سيدي الشيخ ما رحتوا حلب.

- لا يا بنتي... أنا ما خرجت من المدينة.. رحمة الله عليه ألف رحمة.. خلاص يا بنتي، اتطمني... ولدك هوّه ولدي...

- ربّنا يخليك ويجزيك بالخير.. متى يجي هادا العسكري عشان ياخده؟

- بيتكم في الساحة... موكده؟

- أيوه في زقاق الطوال.

- زقاق الطوال؟... ولاَّ زقاق القفل؟؟ أنا أعرف الشيخ أحمد صفا كان طول عمره في زقاق القفل.

- لا.. دحّين في بيت زوجي.. في زقاق الطوال..

- طيب.. أنا ومحمد ساكنين في زقاق الحبس.. يمكن نوصله معانا لرأس زقاق الحبس وهو لا بد يعرف يوصل... وما يحتاج يجي العسكري.. لا تخافي عليه أبداً...

***

مشيت خلف الشيخ وقد هب جميع الصبية واقفين إلى أن جلس على مصطبته في صدر الكتّاب وهنالك إلى جانبه، في متناول يده رأيت "الجريدة الخضراء"، وإلى جانبه أكثر من خيزرانة... والأهم من كل ذلك "الفلكة"... معلقة على الجدار خلفه... أما أنا فقد أجلسني محمد بين ولدين في مثل سني.. وارتفع صوت الشيخ يقول:

- اقرأ يا ولد!!

ارتفعت أصوات الأولاد تقرأ.. وفي حجر كل منهم أو بين يديه "اللوح".

كان ذلك أول يوم لي في كتّاب الشيخ "العريف محمد بن سالم"... ولا أدري حتى اليوم ما سبب شهرته بـ"العريف"... رحمه الله.

***

«العَلْقَة» في «الفلكة»

كان كتّاب "الشيخ العريف محمد بن سالم" مدرسة لحفظ القرآن الكريم، وتعلُّم مبادئ القراءة والكتابة على اللوح الذي تعلمت بعد بضعة أيام، كيف أحفظ عن ظهر قلب ما يكتبه "محمد" وهو مساعد الشيخ ولعله من أقاربه. وتعلمت، كيف يُمسح بعد الحفظ ثم يُطلى أو يدهن بما يسمّى "المضَر" وهو نوع من مكعّبات مستطيلة الشكل من "الطفلة" التي تغمس في الماء، ثم يدهن بها سطح اللوح، ويترك دقائق ليجف، ويبدو أبيض ناصعاً يكتب عليه بالقلم "البوص" الذي يغمس في "الدواية" المعالجة بما يُسمى الليقة التي تشبّع بالحبر الأسود، الذي يتميز بأنه سهل الزوال عن اللوح عند مسحه أو غسله. وقد كان بالنسبة لي مدرسة تعلمت فيها الكثير من التصرفات والسلوكيات التي يجب أن تتم في الخفاء لا يفتضح أمرها عند الشيخ، الذي يعالجها في غالب الأحيان "بالفلكة" والفرش، بالخيزرانة التي لا أدري إن كانت مبلولة بالماء كما قال يحيى، أم جافة... ولكنها على كل حال من النوع "الرفيع الممصوص"، التي تظلّ "لسْعتُها" في كف القدم، بحيث يضطر الطفل إلى أن يتعثر في مشيته ربما ليومين.

طاب لي هذا الكتّاب، وتعشّقت الحياة فيه إلى حد أني كنت أستعد للذهاب إليه منذ الليل، وبجانبي اللوح الذي كانت تجلس أمّي تلاحق قدرتي على حفظه... كان يدهشها ويفرحها أني كنت لا أستغرق وقتاً طويلاً في الحفظ... لم يكن السبب في الواقع جدة ذكائي أو قدرتها - رحمها الله - على إجلاسي أمامها وتحفيظي النصوص المكتوبة في اللوح.. كان السبب هو انني أسمع النصوص نفسها يقرأها بأصوات عالية الجالسون حولي ومعي ممن نسميهم "البزورة" وهم بطبيعة الحال "زملائي".

أما الأسباب التي جعلتني أستطيب الحياة في الكتّاب، وأتعشقها، فهي أولئك

الزملاء الذين تعلمت منهم، كيف يرفعون أصواتهمَ متظاهرين بالقراءة، عندما يجلجل صوت الشيخ وفي يده الجريدة الخضراء الطويلة "جداً"، بينما هم لا يقرأون، وإنما يرددون بعض الشائع من أغاني الحارة التي آسف على أني قد نسيتها على ما فيها من صورة شعبية غالب الظن أنها قد اندثرت اليوم... ثم تلك الحيلة التي يلجأ إليها، للخروج من الكتّاب إلى "الميضة" وهي ما نسميه الآن "دورة المياه".. ما على الزميل الذي يريد أن يخرج "ليتفسح" إلا أن يقف رافعاً يمناه مقبوضة الأصابع منفردة الخنصر، بينما يسراه تحت سرّته، وبحركة تململ تفسيرها أنه "محصور جداً". ولا يجهل الشيخ أنها حيلة للخروج فقط، فيتركه واقفاً هكذا لحظات، ثم يأذن له بالخروج، فلا يكاد، حتى يقف آخر... وثالث... وكلهم بنفس الحركة "محصورون جدّاً"، ولا يجد الشيخ بداً من الإذن لهم. واتضح لي - بعد فترة - أن الاثنين أو الثلاثة يتصنعون هذه الحركة باتفاق مسبق... فلا يكادون يخرجون من الباب، حتى ينطلقوا إلى باب الحرم الواسع العريض.. وهناك يجدون الحاجّات التكرونيات يبعن "البليلة" وهي الحمص المغلي الناضج تكيله في فنجان، وكل فنجان بهللتين... ثم الفول السوداني "المقشور" الذي كنا نسميه "لوز العبيد"... ويبدأ التهام البليلة، واللوز... ثم "اللبن الرايب" في إناء مصنوع من القرع "المجفف" تسبح على سطحه أقراص "الزبد"، تضعها التكرونية للمشتري في شريحة صغيرة من الخبز... نلتهمها، ونجدها أشهى أكلة.

ليس هذا فقط ما كنا نحتال به للخروج... كانت هناك أعمال تخريبية خطيرة تمارس في الميضة... وهي تكسير أباريق الوضوء المصنوعة من الفخار... والتي كانت تُملأ بمغراف كبير من الحوض الطويل الممتد على الجدار... والغرض هو ادعاء عدم وجود هذه الأباريق للوضوء عند أذان الظهر.. ولا أدري كم من عشرات أباريق الفخار هذه كان يشتريها الكتّاب كل أسبوع..

لم يكن "العريف محمد" مساعد الشيخ يجهل أننا نحن الذي نكسّر هذه الأباريق، ولكن لا سبيل إلى معرفة الفاعل... ولذلك فقد كان الحل هو "الفلكة"، ليس لواحد أو مجموعة بل للجميع من دون استثناء... يحدث هذا يوم الخميس قبل "الصرفة".. وكان هذا هو سبيل قدميّ إلى "الفلكة" لأول مرة... والشيخ محمد بن سالم هو الذي يتولّى الضرب.. ولم أنسَ حتى اليوم، أنه ما كاد يراني، وهم يقدموني إليه، وقدماي في "الفلكة" حتى هتف قائلاً: "حتى أنت؟؟" وكأنه أراد أن يرسخ عملية "الردع" فاشتد في

الضرب من جهة، وزاد عدد مراته من جهة أخرى، ثم قبل أن أنهض، لسعني بضربتين أخريين على كتفي.. صرخت متألماً، وبكيت طويلاً بالطبع... والمضحك أن الزملاء الأشقياء بجواري، كانوا يكاتمون ضحكات خافتة.. وقال أحدهم:

- من يوم ما دخلت، ونحن نقول: ليه ما يدوق العلقة؟؟ هيّا اليوم دُقتها.. ورايح تدوقها كل يوم..

لم أجبه بشيء فقد كنت أعاني من اللهب في قدميّ، وأمسحهما أو أفركهما بيدي من دون جدوى وذهبت افكاري إلى البيت... إلى أمي، متسائلاً بيني وبين نفسي: "هل أقول لها إني أكلت علقة أم أخفي عنها؟؟ وإذا سألتني عن سبب العلقة، فماذا أقول لها؟؟؟ إذ الواقع أني في ذلك اليوم لم أكسر من أباريق الوضوء شيئاً، وإن كنت قد فعلتها من قبل.. وجاء وقت الصرفة، فبعد صلاة العصر وحين نهضت أمشي للصلاة، كنت أتعثر أو أعرج.. كانت الضربات بالغة الشدة من جهة وكانت هي المرة الأولى في حياتي أوضع فيها في "الفلكة" وأجلد بالخيزرانة الرفيعة الممصوصة.. وعندما ارتفقت اللوح، والدواية والقلم، واتجهت للذهاب إلى البيت، كان حولي أكثر من زميل بيوتهم في منطقة الساحة... وفي الوقت الذي كنت أتألم، ولا تزال عيناي ممتلئتين بالدموع، كانوا هم يتضاحكون ويسخرون مني، ويرددون كلمة استهولتها إذ كنت لا أعرف معناها وهي "خِرِنْتَه"... وقد عرفت في ما بعد أن معناها "الولد أو المخلوق المايع الدلوعة".

لا أدري، كيف خطر لي وأنا أمشي معهم ألا أذهب إلى البيت.. وأن أهرب إلى "البلدان" وهي المزارع التي حدثني عنها "يحيى"... ولكن كيف؟ وما هو الطريق إليها.. تمنيت لو أني أجد يحيى، فأرافقه إليها.

لكني، بعد أن ظللت أمشي فترة، وأسمع تعليقات الزملاء الساخرة، اكتشفت ما هو أهول وأفظع حتى من "العلقة والفلكة"... اكتشفت أني أمشي بلا حذاء ولا جورب... حافياً تماماً... وتلك هي المخالفة السلوكية التي لا بد أن لا تغفرها أمّي بأية حال... ثم أين الحذاء الآن؟؟ أخذت أعود إلى الكتّاب بخطى سريعة رغم ألم "الفرش" في باطن قدمي... فوامصيبتاه... لقد كان الكتّاب مغلقاً، إذ انصرف كل من فيه.. وسألني البواب الأسود على باب الحرم، بلحيته البيضاء المبعثرة على صفحتي وجهه:

- راجع ليه؟ في الكتّاب ما في أحد... خلاص.

- نسيت "الكندرة" والشراب... أنا ماشي حفيان... ودحّين أمي... وضحك العجوز، وهو يقول:

- هادول العفاريت... البزورة الشياطين، هم اللّي دسّوها.. يا ما دسّوا "المُدُسْ" والكنادر.. في الميضة حقّت الكتاب التاني...

- طيب... وفين هادي الميضة؟!

- على يسارك... روح شوف يمكن تلتقيها...

لكن.. لم أجد شيئاً... وحين دخلت البيت في زقاق الطوال، كان أول من لاحظ أني أمشي حافياً هو - محمد علي - ثم زميله - إسماعيل - فوقفا وأخذا يتحدثان معاً بالتركية... لم أكن أحتاج إلى ذكاء لأفهم أنهما يستهولان الظاهرة... وما ستجره عليّ من مشكلة مع أمّي بل ومع "عمي" أيضاً.

***

كما سبق أن قلت.. كان يوم الخميس هو ذلك اليوم المنحوس، الذي عرفت فيه أو ذقت العلقة في "الفلكة"، ورجعت فيه من المدرسة حافياً متوقعاً العقاب من أمي، وربما كذلك من زوجها "عمي".

لذلك، بعد أن تسللت من دون أن تراني أمّي إلى غرفتي، وغسلت رجليّ من أتربة الشارع اضطجعت على السرير، ملقياً اللوح إلى جانبي.. وأخذت أفكر في شيء واحد بدا لي أنه أهم ما ينبغي أن أفكر فيه.. العثور على "يحيى".. والهرب معه إلى المزارع... والعمل على سوق حمير السواني، فذلك - في تقديري - أفضل ألف ألف مرة من هذا الكتّاب اللعين.. وأنا أعرف بيت "يحيى"... وأستطيع الذهاب إليه في نهاية "زقاق الحبس"... ولكن كيف أحتال للخروج من البيت... وحافياً... والوقت يقترب من صلاة المغرب.

كان مما سهّل لي تنفيذ فكرة الذهاب إلى بيت يحيى في "زقاق الحبس"، أن أمّي كانت تستقبل زائرات من "الهوانم" التركيات... وأن "الباجي" مشغولة بإعداد الشايّ لهن وربما العشاء أيضاً إذ كن مدعوات لتناوله، كما حدث أكثر من مرة... فالطريق ممهّد أو خال من العقبات... باستثناء الجنديين في "الدّكة" عند باب الزقاق... أما عمي فهو لا يعود بحصانه قبل صلاة العشاء..

لم أتردد.. تسللت من غرفتي على رؤوس أصابع قدمي... إلى أن وصلت الدهليز

و"الدكة"... ويا للغرابة؟ كانت خالية من الجنديين.. وإن كانت أسلحتهما معلقة في مكان على الجدار، لم أعن بأن أتساءل أين اختفيا أو ذهبا... أسرعت أفتح الباب، وما كدت حتى انطلقت أسابق الريح من زقاق الطوال إلى "زقاق الحبس"... إلى بيت "يحيى" المعروف باسم "بيت العم عبدالنبي".

وجدت الباب مغلقاً.. طرقته بحجر من الأرض... فأسرع من فتحه لي فإذا به "حسين" أو "سيدي حسين" كما يسميه "يحيى" ربما غاض الدم من وجهي رعباً.. ولكني تجلدت... تلجلجت وأنا أسأل "سيدي حسين" عن "يحيى"... وقبل أن أسمع إجابة... رأيت يحيى بلحمه وشحمه قادماً من الداخل وفي يده "المِسْرجة"، التي توضع لتنير الدهليز في العادة... ما كاد يراني حتى أسرع إليّ وهو يقول:

- أمك أرسلتك تبغا شيء من أمي... من استيتة "ملكة"؟

- لا... لا.. ما أحد أرسلني.. أنا اللّي جيت أبغاك.. أبغا أقول لك شيء.. ولا أدري كيف غمزْتُه بعيني.. ووضعت سبابة يدي اليسرى على فمي تنبهاً إلى أن الكلام "سر" لا ينبغي أن يسمعه أحد.

كان "سيدي حسين" قد ذهب عنا، مكتفياً بأن من طرق الباب، طفل هو صاحب يحيى. اقترب مني يحيى مستفسراً.. فهمست في أذنه أني أريد أن نذهب معاً إلى "البلاد" - المزرعة - التي حدثني عنها.

فإذا به يحملق عينيه، ويرفع كفَّه الصغيرة إلى فمه ثم يقول:

- إصحا أحد يسمعنا... أنا يا عزيز دخلوني كتّاب الشيخ حامد... كتاب "القُبّة" وما عاد أقدر أروح "البلاد" ولا أشتغل عند النجّار... وكمان سيدي وجعان كتير... بيقولوا خلاص يعني رايح يموت..

- طيب.. كيف أسوّي دحّين... أنا جيت من البيت من دون ما أحد يدري.

- من دون ما أحد يدري؟؟ يا ويلك... يا ويلك..

ثم بعد أن رمش بعينيه رمشات سريعة، هي من عادته حين يلتمس فكرة أو مخرجاً قال:

- اسمع.. ما عندك غير تروح لدادتك منكْشة في بيتكم في زقاق القفل.

- يمكن تكون عندنا في زقاق الطوال.

- خلاص عبّي نفسك للعلقة..

ثم حين أحسّ بخطوات قادمة من الدهليز الطويل أسرع يقول:

- هيّا.. هيّا روح يا عزيز.. وخليني في ساعة بركة..

وأسرع يغلق الباب خلفي لأجد نفسي في الزقاق، وقد أخذ يظلم إلا من ضوء فانوس البلدية الخافت هناك.

***

حين كنت أمشي في هذا الزقاق المظلّم، لم يكن في ذهني أن أعود إلى البيت، كان كل تفكيري متجهاً إلى الذهاب إلى واحد من هذه "البلدان" - المزارع - التي تحدّث عنها يحيى.. ولم يكن السبب هو الخوف من "العلقة" وإنما هو الحياة التي بدت لي جميلة مع الحمير وأحواض البرسيم الخضر كالزمرد... والنخلات الطويلة التي نتسلّقها، ونأخذ "النغاري" الصغيرة من أعشاشها... ولكن كيف؟؟ لا أعرف -حتى اليوم كيف يذهبون إليها- ثم الوقت ليل.. ولم أكن أخاف الليل.. فقد عشت في حلب ليالي بطولها في الظلام، وأنا في حضن أمي، نرتعد كلما هدرت أصوات قصف المدافع وزخات الرصاص.. ولكن المهم أين الطريق؟؟

في مشيتي البطيئة تلك، بعد أن أغلق يحيى الباب في وجهي، وعلى امتداد "زقاق الحبس" إلى شارع الساحة، لا أدري كيف أخذت ذاكرتي تستعيد تلك الأيام التي قضيتها مع أمّي في حلب بعد موت جدّي وقبله كل أقاربي... كانت أياماً ملؤها الرعب والجوع، ولا آكل إلا خبز الشعير وعصير الرمان الحامض مع الملح. كان غريباً أن أشعر بالحنين إلى تلك الأيام، بكل الليالي المظلّمة والبرد الذي يهشّم ويقضقض العظام حتى النخاع، وكل ما أتدفأ به هو صدر أمّي وذراعيها تضمني بهما وكأنها تحاول أن تستعيدني إلى داخلها... إلى أحشائها... ويبرق في ذهني سؤال لم يسبق أن خطر في بالي قط، وهو: ما الذي جعلنا نعود من هناك.. وما دام جدّي وأهلي كلهم قد دفنوا هناك فلماذا لم نمت نحن أيضاً معهم... حتى ولو في الشوارع، تلتقطنا عربات نقل الموتى، كما كانت تلتقط الأموات من الأرصفة؟؟ وأقول في نفسي: لماذا عدنا إلى المدينة على ذلك الجمل "النطّاطي" من ينبع... ولحست أمّي تراب الأرض في باب العنبرية... وعشنا في زقاق القفل..

كنت قد انتهيت في مشواري عند مدخل زقاق القفل فعلاً... هناك في نهاية الزقاق بيتنا وأمامه بيت الخالة فاطمة جادة.. وإلى جوارنا بيت "خاتون الهندية"...

مشيت في الزقاق المظلّم إلاّ من بعض الأنوار التي تضيء المجالس.. وعند باب بيت الخالة فاطمة جادة وقفت وتذكرت، والعبرات تنذرف من عينيّ، أنه في هذا البيت تزوجها... ومن هذا الباب، كان الرجال يخرجون وهو معهم، وكلهم يرددون "مبارك.. مبارك.. مبارك يا دكتور"..

قبل أن أطرق الباب وقد عزمت أن أبيت عند الخالة فاطمة، وقد تكون عندها "بدرية" سمعت خطوات مسرعة تدخل الزقاق.. وما هي إلا لحظات حتى رأيت أمّي في ملاءتها السوداء وقد رفعت "البيشة" عن وجهها وخلفها الجندي "إسماعيل".. وما كادت تراني حتى ارتفع صوتها له بالتركية ما معناه.. هذا هو..

تسمّرت في موقفي... مدركاً تماماً، أن أول ما ستبادرني به هو "الكف" أو الخفقة على صدري أو ظهري... ظللت واقفاً إلى أن وقفت أمامي... فإذا بها تحتضنني وتضمني إلى ذلك الصدر الذي قلّ أن ضمتني إليه بعد زواجها.

- أنت فين يا عزيز؟؟ ليش جيت عند خالتك فاطمة؟؟ قل لي فين كنت من بعد ما خرجت من الكتّاب الين دحّين؟؟؟

التزمت الصمت... ولكن انتشيت واستروحت تلك الضمة التي أنعمت عليَّ بها على صدرها... كانت لصدرها رائحة أعرفها... ألفْتها طوال السنوات التي لم تفارقني خلالها إلى أن تزوجت.

سألتني: إنت جيت تشوف خالتك بدرية؟

لم أجب.. لم أنبس بكلمة واحدة... وكان الجندي إسماعيل واقفاً.. فالتفتت إليه وكلمته بالتركية أننا سنعود إلى البيت... وأخذت تكرر "الحمدلله... الحمدلله" وكان هو يردد معها "الهمدو لله".

***

عند باب البيت، كان يقف محمد علي و"الباجي".. كان بادياً عليهم القلق والارتباك... وفهمت بعد أن احتوانا الديوان... أنهم كانوا يخافون أن يعود "عمي" ويكتشف "ضياعي" بعد خروجي من الكتّاب..

لم أخفِ على أمّي شيئاً من تفاصيل القصّة كلها... من اللحظة التي أكلت فيها "العلقة وبالفلكة".. إلى أن وجدتني عند باب الخالة فاطمة جادة.. وبكيت عندما كنت أخبرها عن ضياع "الكندرة".

التفتت إلى "الباجي" وانهمكت في حديث بالتركية.. لم أفهم منه إلا القليل الذي بدا لي كأنه سخط على العلقة التي أكلتها بلا سبب... وعلى أولئك "البزورة" الذين أخفوا أو سرقوا "الكندرة".

***

حين اضطجعت على سريري في تلك الغرفة التي أصبحت غرفتي.. جاءت أمي، ومرة أخرى انحنت عليَّ.. وضمتني إلى صدرها.. طوقتها بذراعيَّ.. ووجدتني أقول:

- ففًم... أبغا أنام جنبك الليلة..

أحسست بدموعها تبلل وجهي... واستغرقت في النوم... وفي موج الأحلام.

حِفْظ «اللوح»..

كان يوم الجمعة، كما هو اليوم، اليوم الذي ينتظره الأطفال، بفارغ الصبر، ليس فقط لينعموا باللعب في الشارع، وإنما أيضاً للنوم، إذ لا يُعنى أحد بإيقاظهم. أما تناول طعام الإفطار، فلا أهمية له إطلاقاً... ينهشون لقيمات مع قطعة من الجبن عندما يغسلون وجوههم.

أما أنا في يوم الجمعة هذا الذي أعقب يوم الخميس بكل أحداثه، فقد كان مفاجأة روعتني وأنا في فراشي، فقد فتحت عينيّ لأرى أمي، منحنية على رجلي، وإلى جانبها زوجها "عمي" ثم الباجي... و"مَنَكْشة" أيضاً.

لم أفهم شيئاً مما كان يدور بالتركية... ثم تكلم "عمي" فقال:

- هذا شيء غريب.. كيف ولد صغير زي هادا ينضرب؟؟ في اسطنبول ما في ضرب أبداً... لكن في الفلاحين... ممكن.

ثم أضاف:

- هادا الشيخ لازم يعرف... لازم يعرف هادا الضرب حرام... أنا بكرة أرسل مكتوب تنبيه مع "أونباشي".

وبشحنة عالية من الخُبث أخذت أستغلّ العواطف المحيطة بي... نهضت من السرير... وتظاهرت بأني لا أستطيع أن أقف على قدمي.. ثم انتهزتها فرصة أدركت أنها التي تعوضني "الكندرة" و"الشراب".. فقلت بصوت يصطنع البكاء:

- الكندرة والشراب يا فقًم...

وما كاد "عمي" يسمع هذه الكلمات حتى أخذ يربت كتفي ويخمش وجنتي.. ويضحك قائلاً:

- الكندرة والشراب... وكل شيء في المغرب يكون هنا.. لا تبكي.. لا تبكي... ها... ورأيته يلقي نظرة إلى أمّي والباجي و"منكشة" ثم يقول:

- لازم يرتاح... اغسلوا رجليه بالموية، ثم كُمادة مع "مرهم" زنك.. وغادر الغرفة.. لينسحب خلفه "الطابور" الذي كان يرافقه ومنهم أمّي التي عادت إليّ بعد أن مشت خطوتين خلف زوجها.. لتعيدني إلى الفراش.. ثم تضمني إلى صدرها وتقبّلني..

أدركت أن وقع حادث العلقة وضياع "الكندرة" وغيابي عن البيت إلى أن وجدتني أمّي في زقاق القفل، كان مثيراً لكل إنسان في البيت. وأن الجميع قد تعاطفوا معي وأدركهم الكثير من الإشفاق عليّ... وعلى الخصوص "عمي" الذي تسلّل إلى قلبي صوته العطوف وهو يوصي بالكُمادات لكفيّ قدميّ، والمرهم الذي فهمت أنه يخفف أو يمتص الألم... في الواقع لم تكن هي المرة الأولى التي أشعر فيها بعطفه ورقة تعامله معي.. ولكن خبث مشاعري نحوه أو صعوبة قيام حالة حسن الظن في نفسي تجاهه، تركتني أعيش مشاعر ضيق ونفور وشكّ، رغم كل هداياه السخية من اللعب وحلوى الشوكولا، والفواكه التي لا يكاد يجيء بها حتى يناديني، ليشعرني أنه اشتراها لي... لي وليس لأحد سواي.. أما اليوم بهذا الاهتمام الذي أبداه بحالة قدميّ.. وما بدا من إشفاقه، وغضبه على تصرف الكتّاب، وأن مثل هذا لا يحدث في اسطنبول.. وأما في الفلاحين إلخ.. كل ذلك جعلني أحاسب نفسي بل وألومها وأتمنى لو عرفت طريقاً للتعبير عن شكري له وما أكنّه من احترام.. وفجأة وجدت نفسي أتساءل عن "أبي" ذلك الذي لم يأتنا منه "حس ولا خبر" منذ سافر.. ترى هل لو كان موجوداً يمكن أن يحبني أو يعطف عليّ كما يفعل هذا الذي تزوجته أمي... "عمي"؟؟

***

ترامت إليّ في غرفتي أصوات الصبية وهم يلعبون عند تلك "البرحة" بين زقاق الحبس وزقاق القفل.. وأدركت أني أوقعت نفسي في شر أعمالي، حين تظاهرت بعدم القدرة على المشي نتيجة للضرب... كيف أستطيع أن أعود فأمشي لألحق بالذين يلعبون هناك... اللعبة مكشوفة طبعاً... ولا سبيل إلى الخروج إطلاقاً... ولم أدر كيف أسلّي نفسي.. هناك "اللوح"... تناولته في يدي، وجعلت أكرّر المكتوب

عليه، وربما كان سورة "البينة"... وخطر لي أن أرفع صوتي وأترنّم في القراءة... وما هي إلا دقائق حتى دخلت "منكْشة" وهي تردد "ما شاء الله... ما شاء الله"... كانت الفرحة بادية على ملامحها... إذ لم تسمعني أترنم بالقراءة إلا هذا اليوم... ويبدو أن صوتي قد أعجبني وطاب لي أن أترنم به، فأخذت أعيد قراءة السورة من أولها... ولم يمض وقت طويل لأرى أمّي تدخل والابتسامة تملأ وجهها... والعجيب أني لم أتوقف... بل ظللت أقرأ مترنماً... ومع فرحة أمّي فقد استوقفتني فجأة وهي تقول:

- فين التجويد يا عزيز... تحفظ اللوح من دون تجويد؟؟

ولم أفهم شيئاً مما تتحدث عنه... لأني لم أسمع بكلمة التجويد هذه قط.. وحين رأت صمتي وارتباكي... قالت:

- الشيخ ابن سالم، ما يمكن يحفِّظك اللوح من دون تجويد... أنا لازم أروح له وأسأله.

دخلت في دوامة لا نهاية لها في محاولة معرفة هذا التجويد الذي يحتاج أن تذهب أمّي بنفسها إلى الشيخ للسؤال عنه. لم تتراجع عن عزمها، ولكنّها جلست أمامي على السرير، وشرعت تفهمني، أن في قراءة القرآن الكريم، علماً اسمه التجويد... وأعترف بأني لم أستطع أن أفهم شيئاً مما جعلت تشرحه عن حروف الحلق... والادغام بغنّة، والحروف الساكنة... والتنوين إلخ... وانقضى يوم الجمعة حتى قبيل المغرب وأنا في غرفتي لا أغادرها إلا إلى الحمام... وعندما كانت "الباجي" تشعل الفوانيس، والمصابيح، بعد أن تمسح زجاجاتها، سمعت أصوات نسوة وأطفال... أدركت أنهم ضيوف أمي... عقدت العزم على أن التزم غرفتي فلا أخرج لرؤية أحد منهم... ولكن قبل أن تمضي فترة من الوقت كانت الباجي تدخل ومعها ولد وبنت، أذكر أني رأيتهما قبل ذلك مع أمهم من صنف "الهوانم" الذين أصبحوا يزاورون أمّي بعد زواجها.

كان الاثنان يتكلّمان اللغة العربية بلهجة "مُكسّرة"... ولكنهما كانا في غاية من الوداعة واللطف... صافحني الولد، ثم البنت، وقفا ينظران إليّ تارة وإلى "الباجي" تارة، إلى أن قلت لهما وأنا أشير إلى حافة السرير الذي اضطجع عليه:

- اجلسوا... تفضلوا...

ثم قلت للولد:

- اسمك إيه؟؟؟

- اسمي.. خالد.

وقبل أن اسأل البنت قالت:

- وأنا اسمي نِعمت؟

وأضافت "الباجي" وهي تبتسم... بابا... دكتور نديم بيه..

لم أدر كيف أدير أي حديث بيني وبينهما... ولكني أخذت اللوح في يدي وسألتهما:

- عندكم لوح زي هادا؟؟

وضحك الولد وهو يقول:

- لوح هادا، قرآن كريم؟؟

- أيوه.. لوح نتعلم منه القرآن الكريم.

وتدخلت البنت "نعمت" تقول:

- عندنا لوح... حجر... بابا... كمان ماما... يعرف قرآن كريم..

استغربت حكاية اللوح الحجر الذي ذكرته نعمت... إذ لم يخطر ببالي قط أن هنالك لوحاً غير اللوح الخشب الذي تعلمت كيف أمسحه، بعد أن أسمِّعه في الكتّاب، ثم أدهنه بالمضر ليكتب العريف عليه آيات القرآن الكريم بالحبر الأسود والقلم "البوص".. وفيما كنت أدير هذه الأسئلة في ذهني، نهض خالد مسرعاً وخرج من الغرفة وعاد وفي يده اللوح من الحجرِ وقلم من الحجر أيضاً... ووضعه على حجره... وأخذ يكتب أو يخربش خطوطاً... ثم بمسّاحة أخرجها من جيبه مسح ما كتب... وتناولت اللوح أخته "نعمت".. وخربشت هي أيضاً.. وضحكت وهي تسألني:

- لوح حقك... ممكن أكتب؟؟

فهمت أنها تستأذن في أن تكتب بقلمها الحجر على اللوح الخشب... وكان هذا مستحيلاً بالطبع، فقلت:

- لا... اللوح حقي نكتب عليه بالحبر... بالحبر الأسود والقلم.. ووضعت اللوح أمامهما... وأخذت أقرأ الآيات المكتوبة... وتدخلت "الباجي" تقول:

- ما شاء الله... ما شاء الله... كل يوم.. كل يوم يحفظ لوح...

وسالتني.. أنت تعرف... واحد... اثنين... تلاتة...

لم أفهم ما تعني؟؟؟ فقال أخوها:

- تعرف حساب؟؟؟ تعرف تكتب... واحد اتنين... تلاتة أربعة..

شعرت بالحرج إذ لم أكن أعرف كتابة الأرقام... وإن كنت أعرف أن أعد إلى المئة... والتزمت الصمت... بينما شرعت "نعمت" تكتب على اللوح الحجر - الذي عرفت في ما بعد أنه يسمى لوح "أرذواز" يُكتب عليه بقلم مصنوع من مادة صلبة تكتب على هذا اللوح، ويمكن مسح ما يكتب... شرعت "نعمت" تكتب الأرقام من 1 إلى 9، وأخذت تعد ولكن باللغة التركية "بير... أيكيه... إلخ".

وبينما نحن منهمكون في حكاية الأرقام... سمعنا مشية بحذاء نسائي تقترب من الغرفة ثم تدخل "الهانم" أم خالد ونعمت... وفي يدها علبة صغيرة فتحتها لتخرج منها "لعبة" عبارة عن عصفور ملون، أدارت مفتاحاً صغيراً في بطنه... فإذا به يغرّد تغريداً جميلاً ويستمر في التغريد... وهي تمد يدها به إليّ... وقبل أن أنطق بكلمة شكر أو نحوها هتفت "الباجي" بكلمات الشكر والامتنان باللغة التركية.. لأسمع السيدة تقول:

- استغفر الله...

تلك هي الكلمة التي تقال عادة، رداً على أي عبارة شكر... ولفت نظرها "اللوح الخشب"... فتناولته وهي تقول: "بسم الله الرحمن الرحيم"... وأخذت تقرأ... ولكن بصعوبة في مخارج الحروف... وعلى الخصوص "القاف" و"الخاء" و"الغين"... و"الحاء" إذ نطقت باسم الله الرحمن الرحيم "الرهمان الرهيم"... ولكنها قرأت الآيات كلها مما جعلني، والطفلين نردد:

- ما شاء الله.. ما شاء الله..

وقبل أن تضع اللوح بعناية، فوق الوسادة رفعت يدها ومسحت رأسي بلطف بالغ، ثم خرجت من الغرفة.. تاركة الطفلين معي، وعلى وجه كل منهما ابتسامة حلوة، وعلى الخصوص ابتسامة "نعمت" فقد كانت شيئاً شعرت كأني لم أر مثله قط.

عندما نهضا يريدان الخروج.. وجدت نفسي أنهض أنا أيضاً.. ناسياً تماماً أني ظللت "أمثل" عدم القدرة على المشي طول النهار.

***

لم أعد في حاجة إلى أن يأخذني أحد إلى الكتّاب... أصبحت أعرف الطريق ذهاباً وإياباً.. بل لم يعد الشيخ العريف محمد بن سالم، أو مساعده (العريف محمد)، يحرص على أن أصحبه في العودة عبر المنطقة التي كانت تُسمى (دار الضيافة) وفيها (كهرباء الحرم)، إلى زقاق الحبس، الذي أنطلق منه إلى البيت في زقاق الطوال.

لكن لم أكن أعود وحدي، إذ كان من بين زملائي في الكتّاب من يسكنون أزقة الساحة فنترافق في الطريق، والألواح معلقة تحت آباطنا. وكان من هؤلاء الزملاء من توثقت بيني وبينه الصلة، بحيث كنا نمشي متجَاورَين... وكان يتودد إليّ أن يحمل عني (القفة) الصغيرة الملوّنة التي كنت أدعوه لمشاركتي في تناول ما فيها من (الغدا)...

وفي يوم السبت، هذا الذي أعقب أحداث يومي الخميس والجمعة، وعندما كنا نمشي معاً وقبل أن نصل إلى مخرج زقاق الحبس، توقف لحظة.. وهو يقول:

- يمكن ما ألتقي أمّي اليوم في البيت..

- ليه؟؟؟

- عشان جوزها طلّقها..

- جوزها؟؟ يعني أبوك؟؟

- لا.. لا.. ما هو أبويا... أبويا مات بعد ما رجعوا الناس من الشام... وبعدين هيه اتجوزت... لكن اللّي اتجوزته ما عنده غير يخاصمها، وكمان يضربها... واليوم قال لها، بعد ما ضربها... (روحي إنتي طالق بالتلاتة).

- يعني أيه طالق بالتلاتة؟؟

- يعني خلاص، ما عاد يمكن ترجع له أبداً.

- طيب... وهيه خرجت من البيت خلاص؟؟

- أنا سيبتها بتبكي، وبتلم حوايجها.. لازم خرجت..

- لكن فين تروح؟

- تروح بيت أبوها... سيدي عبدالرحيم..

- وإنت تروح لها في بيت سيدك؟؟

- أيوه.. بس بيت سيدي بعيد... في زقاق الطيّار قبل السيح.

ثم توجه بنظراته إليّ.. وكانت عيناه محمرّتين وقال:

- تيجي معايا توصّلني...؟؟؟ أنا أخاف من العيال اللّي "يتْقاشعوا" في المناخة.

وجدت نفسي حزيناً، لا أدري كيف أتصرّف معه.. ولكن لم يكن معقولاً أن أوصله كما طلب، لأني أنا نفسي أخاف من القشاع الذي أسمع حكاياته من زملائي الأطفال في الكتّاب... ومن هذه الحكايات، (الضرب بالنّبوت)... وكمان (بالسكاكين) وبالحجر من (المِقْلاع)، اللّي (يفقش) الرأس، ويسيِّل الدم.. إلخ.. إلخ.. رفضت أن أستجيب لطلبه.. وخطر لي أن أصطحبه معي إلى البيت... بيتنا.. ولا بد أن أمي، ترسله إلى بيت سيده عبدالرحيم مع أحد الجنديين...

وافق أسعد - وهذا اسمه - وذهبنا معاً إلى بيتنا... وكالعادة أخذت طريقي إلى غرفتي... ولكن قبل أن أدخل، كانت أمّي خلفنا... استغربتْ وجود أسعد معي... ولكنها لم تقل شيئاً... يبدو أنها قدرت أني جئت به ليعرف بيتي، ويخرج قبل الغروب إلى بيته.

وإذ تركتنا، وهي تذكّرني بأن أغسل وجهي وأتوضأ لصلاة المغرب، خطر لي أن أخبرها بحكاية أسعد كما سمعتها منه... لحقت بها... واستوقفتها وهي في طريقها إلى المطبخ... وأخبرتها بكل ما سمعت... وأضفتُ.. متسائلاً:

- هوّه جوز الأم يقدر يضرب... وكمان يقول لها (إنتي طالق بالتلاتة).

- بعدين.. بعدين.. أفهمك... ودحّين أخلي محمد علي أو إسماعيل يوصله بيت سيده...

وعادت بي إلى الغرفة... وأخرجت من الدولاب، بضع قطع الحلوى... أعطتها لأسعد وهي تقول له:

- هيا روح يا ولدي... يوصلك إسماعيل بيت سيدك قبل الليل...

لا أدري اليوم، ما الذي جعل ذهني يشتغل بحكاية اسعد. ولم يكن إحساسي بالإشفاق عليه هو الذي شغلني، وإنما أمه التي كان زوجُها الذي طلقها (بالتلاتة)، يضربها.. وهذا الطلاق، الذي جعلها تخرج من بيتها، أو بيت زوجها، ولن تعود إليه أبداً... لم يفتني أن أمّي متزوجة من رجل ليس أبي الذي لم يأتنا منه (حس ولا خبر) منذ سافر قبل الحرب... لم أر زوجها يخاصمُها أو يضربُها... ولكن هذا الطلاق؟؟؟

وجدت نفسي أقول:

- لو طلّقها، كما فعل زوج أم أسعد...

لا أخفي اليوم، إني قلت بعفوية غريبة:

- يا ريت..!!

ولم أناقش لحظتها هذه الـ(ريت)... إذ كرَّتْ في ذهني سلسلة حياتنا - أمّي وأنا ومنكْشة في بيتنا في زقاق القفل... وفكرتي في العمل، في سوق الخُضرة... أو وراء حمير السواني في المزارع... أو أي عمل أحصل منه على نقود أعيش بها معها... وهناك أجرة دكاكين زقاق (الزرندي)... وقلت لنفسي:

- أنا صغير اليوم... ولكن سوف أكبر سنة بعد سنة... وسوف أكون كما قالت هي وبدرية، وحتى الخالة فاطمة جادة... سوف أكون (رجّال البيت)... أمّا الكُتّاب وحفظ اللوح فلا حاجة لي به ما دمت سأعمل وأكسب (فلوس)... واللوح مهما حفظت، لا يمكن أن أكسب منه أي قرش أو حتى هللة إلا العشر هللات التي تضعها أمّي في يدي كل صباح..

وهذا الرجل (عمي الدكتور)... رجل لم أسمعه يخاصم أمي... ولم يضربها... وهو يعطف علي، ويجيئني بالهدايا والحلوى، ويضمني إلى صدره... ويُجمش وجنتي بيده... ولكن الطلاق (بالتلاتة) هو الذي يفصل بيننا وبينه... ونعود إلى بيتنا في زقاق القفل...

عندما كنا نتناول طعام العشاء - عمي وأمّي وأنا - كنت أرمق (عمي) بنظرات أتوخى فيها احتمال أن يحدث في يوم ما، أن يطلقها؟؟؟ ياالله... كم أشعر اليوم بجحودي في تلك اللحظات... كان هو الذي يسبق أمّي إلى تهيئة الطبق أمامي، بما يختار من قطع اللحم والأرز... كنت آكل، ما في الطبق... ولكن ذهني، مشغول بسؤال واحد هو:

- متى يمكن أن يطلّقها بالتلاتة؟؟؟ كما فعل زوج أم أسعد؟؟؟

***

أبوك.. في «روسيا»..

كان الشيخ العريف محمد بن سالم، معروفاً بقسوته، وكانت له وهو على تلك المصطبة المرتفعة في صدر قاعة الكتّاب، هيبة يرتجف منها جميع الأطفال في سنّي... كان يكفيه أن يدير بصره في أنحاء القاعة ليعكف كل منا على اللوح، ويأخذ في القراءة وهو يهتز بنصفه العلوي، إلى الأمام والخلف، وتلك هي الصورة المعبرة عن الانهماك في القراءة، بينما أحدنا يتحدث إلى زميله بجانبه، والحديث يدور في الغالب عن أخبار (القشاع) بين عيال الساحة وعيال المناخة... منهم الذي غلب الآخر... وكم عدد الذين (فُقشوا).. وعن ذلك (المِشْكِلْ) الذي أسقط أكثر من عشرة بنبوته (المُزفَّر).. وذلك الآخر الذي كاد يقتل غريمه عندما أخرج السكين من حزامه... ولم أكن أنا من الذين يتابعون أخبار هذا القشاع، كما يتابعه الآخرون، وإنما اتجه همي إلى (أسعد) وحكاية أمه التي طلّقها زوجها (بالتلاتة) وهي الآن تسكن في بيت أبيها - و(في العِدَّة) لا تخرج، ولا تقابل حتى ابن عمها... ثم بعد بضعة أيام، والحديث لا يزال يعود إلى (أم أسعد) اقترب من أذني وهمس قائلاً: (أمي حُبلى) من زوجها الذي طلقها (بالتلاتة...) ثم يضيف: (جدي يقول: إنها ممكن تْرجع له... لكن هِيّه... هيّه تقول ما ترجع له حتى لو فرموها أوصال أوصال).

ولا أدري كيف قام بذهني أن ما سمعته من أسعد عن أمه (سر من الأسرار) التي يجب ألا أفضي بها إلى أيٍ مخلوق... ربما كان السبب هو أنه أخبرني به همساً في أذني ولم أسمعه يخبر أحداً سواي. وعندما خرجنا من الكتّاب والألواح تحت إبطينا كالعادة، شغلني ذلك القشاع الذي لا بد أن يكون قائماً في المناخة، وهي طريقه إلى زقاق الطيار... ولكنه طمأنني حين قال إنه سيذهب إلى (بسطة) خاله في (جوة المدينة)... ومعه يعود إلى البيت.

وإلى مائدة العشاء، كنت أتناول طعامي، وأرمق أمي، وفي نفسي حكاية (أم أسعد الحُبلى)... وجدت نفسي أقول: - (حتى أمّي يمكن أن تحبل)... وهنا لا يسري حكم (الطلاق بالتلاتة) الذي تمنيته في ذلك اليوم.

***

مع هذه الأفكار، التي وضعت في تقديري مختلف الاحتمالات، عن حلم الانفصال عن زوج أمّي والعودة إلى بيتنا في زقاق القفل، وحلم العمل في سوق الخضرة.. أو وراء حمير السواني، قضيت بعض الوقت على سريري ثم لم أستيقظ إلا في الفجر على صوت المؤذن البعيد... وكانت المفاجأة أن (الباجي) التي أصبحت أناديها (أمي باجي) أخذت توقظني، وتقول وهي تكاد تضحك:

- اليوم.. ما في كتّاب...

- ما في كتّاب؟؟

لم أفهم شيئاً في بادئ الأمر... إلى أن دخلت أمّي وهي تقول:

- اليوم ما تروح الكتّاب، عشان رايحين ننقل من هادا البيت.

- كان الذي تبادر إلى ذهني، وكدت أقفز فرحاً، هو أننا - هي وأنا... سننتقل إلى زقاق القَفَلْ... والسبب الذي لا سبب سواه هو أن (عمي) زوجها قد طلقها (بالتلاتة).. لكن سرعان ما تبدّدت هذه الفرحة الغامرة... حين رأيت وجهها ضاحكاً، ليس فيه ما يدل على شيء مما تبادر إلى ذهني... فسألتها:

- ننقل من هادا البيت على فين؟؟

- إلى بيت جديد... فيه بستان.. وبركة.. وقاعة كبيرة.. وديوان ومقعدين واحد للعساكر.. والتاني لأمي باجي.. ومنكشة كمان..

- طيب، وأنا ليه ما أروح الكتّاب... أنا حافظ اللوح..

- عشان البيت الجديد، في (مقعد بني حسين)... وما تعرف توصل له بنفسك..

لم أفهم شيئاً، لا عن (مقعد بني حسين هذا)... ولا عن السبب في ضرورة أن أذهب معهم لأعرف الطريق إليه... وبعد لحظات أضافت أمّي تقول:

- لما تشوف عمك - لما يجي - لازم تسلم على يده.. وتقول له: (مبارك)..

- مبارك؟؟؟ علشان ايه؟؟

- علشان الحكومة أعطت له رتبة جديدة... دحين هوّه سار (بنباشي) على كتفه دحّين (تاج ونجمه).. يعني يا عزيز عمك يؤمر على ألف عسكري..

- يعني أعطوله نجمة وحده بس؟؟؟ ويحكم على ألف عسكري؟؟؟

- إنت لسه ما تعرف هادي الرتب... بعدين لما تكبر وتسير أنت كمان ظابط، رايح تعرف، الظباط، والعساكر... والرتب... والنجمة... والتاج...

- في حلب يا ففَّم، كنا نشوف العساكر في الشوارع، يشيلو الناس اللّي يلتقوهم أموات على الأرصفة... وعلى الأرض.. ويحطوهم في هاديك العربات، وياخدوهم وما أدري فين يدفنوهم... لازم القبر اللّي يدفنوهم فيه، قبر كبير كتير...

- أيوه... يا عزيز... كلامك صحيح... العسكر اللّي شفناهم في حلب، هما كمان يمكن ماتوا... ماتوا في الحرب... بالرصاص اللّي كنا نسمعه زي المطر... والمدافع التي ترجّ البيت كله طول الليل..

هنا... تذكرت حكاية أبي الذي لم يجئنا منه (حس ولا خبر)، فقلت لها:

- يعني يا ففَّم.. يمكن أبويا كمان من العساكر اللّي ماتوا في الحرب زي اللّي بتقولي عنهم في حلب..

- لا يا حبيبي... أبوك، ما كان عسكري... أبوك، كان عالم.. طالب علم... كان حافض كتاب الله... وحافض أحاديث البخاري ومسلم.. زي سيدك أحمد صفا.

- طيب يمكن أخدوه... وساووه عسكري..

- أبوك يا ولدي، سافر روسيا... قازاقستان.. يجمع تبرعات من المسلمين، عشان يعمل الجامعة الإسلامية، التي أمر بها (الباديشاه) بنفسه.. وهوه سافر قبل الحرب بسنة... هوّه راح من هنا... والحرب قامت من هنا... يعني هوّه ما كان لا في حلب ولا في اسطنبول... كان في روسيا... لما صارت الحرب.. ما عاد أحد يقدر يجي من روسيا... ولا أحد يقدر يروح لها...

- طيب يا ففَّم.. إنتي تظني إنو مات.. ولّا حي؟

وهنا بدا على ملامحها الضيق... إذ كانت على الأرجح، لا تعرف شيئاً.. ولكني لاحقتها بسؤال:

- طيب يا ففَّم.. أنا دحّين يتيم...؟؟؟ ولا إيه؟؟

- لا إنت ما تتسمى يتيم.

ثم أضافت وهي متغيرة الملامح... وفي عينيها احمرار، ودمعة تكاد تنذرف:

- إسمع.. دحّين.. شوف (الحُمّال) في القاعة.. جايين يشيلوا... وينقلوا البيت، إلى البيت اللّي قلت لك.. فيه بستان وبركة.. هيا قوم ساعد الباجي ومنكْشَة.

اكتفيت بهذا الحوار الذي ربما كان الأول من نوعه بيني وبينها عن أبي بالذات. ونهضت فعلاً... وأسرعت إلى القاعة والديوان... ورأيت (الحُمال) على ظهر بعضهم الدواليب... أو الكراسي والكنب.. والطرابيزات (المناضد).. أما منكشة... (وأمي باجي) فقد كانتا تجمعان المنقولات الصغيرة... تضعانها بعناية كبيرة في الصناديق الصغيرة من النوع الذي يسمى سحارة.. من تلك التي يصنعها النجّار، ويبيع الواحدة بأربعة مجايدة..

أخذت أساعد منكشة و(أمي باجي)... أتناول منهما وأضع في هذه الصناديق.. مزهريات.. وكاسات.. وفناجين. أما اللّمبات الكبيرة المزخرفة فقد قامت بالعناية بها (أمي باجي) بنفسها.

كان الطريق من زقاق الطوال في الساحة، إلى المنطقة التي تسمى (مقعد بني حسين) طريقاً لا يستغنى عن دليل لمن يذهب إليه لأول مرّة مثلي... كان لا بد من اجتياز ما يسمى (سوق جوه المدينة)... وفي نهايته مخرجان... أعرف أحدهما الذي ينتهي إلى باب المصري ثم منه إلى سوق الحبابة ثم إلى (المناخة)... أما المخرج الثاني فهو الذي تكثر فيه المنعطفات والأزقة الصغيرة الضيقة... وبعضها مسقوف ومظلم وكل ما يضيء الطريق فيه ذلك الضوء الذي يتسلّل ضعيفاً أبلغ الضعف من مخرجه بالنسبة للداخل.

وحين كنت أمشي وراء (إسماعيل، وعلى كتفه بندقيته التي تعلّمت الآن أنها تسمى أم خمس)، وأن الجندي يرتفق في حزامه الممتلئ بالرصاص، جراباً صغيراً لما يسمى (السُّنكي) وهو ما اصطلحنا على تسميته (السلاح الأبيض) الذي يستعمل عندما تحتدم المعركة ويواجه الجندي عدوه، أو أعداءه، والمسافة بينهما تستغني عن الرصاص... فهو اشتباك يستهدف بهذا (السنكي) الصدور والبطون مباشرة.

لم أكن أخاف الظلام - كما لعلّي قد سبق أن قلت - ولكني توجّست خيفة ممّا يمكن أن نواجه من (الأعداء) الذي تركتُ لخيالي أن يتصور وجودهم متربّصين بنا

في هذه الأزقة الرهيبة... ووجدت هذا الخيال يصوّر لي وجودَهم مسألةً مفروضة ومفروغاً منها، لأن الحرب التي ذقنا ويلاتها في الشام وحلب، كانت بين الأتراك، والانكليز ومعهم (العرب). فما الذي يمنع أن تكون لهم بقايا تختبئ في هذه الأزقة، فإن كانوا من الأتراك فإسماعيل منهم ولن يعتدوا عليه... وإن كانوا من الإنكليز، فذلك مستحيل.. لأن الإنكليزي نصراني، والنصارى لا يدخلون المدينة أو مكة.. هكذا فهمت من أمي، في حكاياها الكثيرة ونحن على الجمل في طريقنا من ينبع إلى المدينة... كانت تسمع كلام (الجمَّال) عن الأماكن والمواقع التي خيّم فيها جيش (الشريف)... والمواقع التي تمركز فيها جيش (الباشا)... وهو يقصد (فخري باشا)، الذي حصّن طريق المدينة من ينبع، وتمركز في مرتفعات لم يكن من الممكن أن يمر منها (الطير الطاير)... ولذلك ظلّ جيش الباشا في هذه المواقع إلى أن وافق على (التسليم) بعد حصار طويل... قال الجمّال: الناس في المدينة، أكلوا الحمير الميتة... و(البساسْ) والكلاب... وقالوا إنهم أكلوا الأموات منهم كمان... ولا أنسى أن كلام الجمَّال، الذي كان يرفع يديه شكراً لله على أنه لم يدخل داخل أسوار المدينة... كان في (البر).. وكان يقوم بنقل الماء (بالقِرَب) من عيون الصفرا والحمرا... لجنود الباشا... فيعطونه علب اللحم و(القنيطة) التي كان يتمتع بأكلها مع أمه وأخته وزوجته وأولاده... في بيت الشعر هناك بالقرب من (ينبع النخل). وكان الذي لم تفهمه أمّي وهو يحكي حكاياته: السبب الذي جعل الباشا يمنع أن يمد مخلوق يده إلى (التمر) في النخيل... فكان الناس يكتفون بالتقاط ما يتساقط فقط... وقال البدوي: كان الباشا يحتفظ بالتمر للعسكر في المدينة... (يُجْدونه) بعدما يتَمّر... ويضعونه في أكياس.. ويذهبون به إلى المدينة... كان هذا (الباشا) ينوي أنَ يحارب الإنكليز والعرب... والدنيا كلها بعسكره من المدينة.

***

لعلّي قد استطردت طويلاً عن هذه المشاعر والحكايا التي ذكّرني بها الزقاق المظلم المسقوف إذ انعطفنا مرّة أخرى ومرّات، إلى أن وقف الجندي إسماعيل أخيراً عند باب بيت مفتوح رأينا فيه (الحُمّال) الذين نقلوا العفش، وظلّوا ينتظرون أمّي و(أمي باجي) ومنكشة... ومعهم الجندي الثاني (محمد علي)... ليقوموا بنقل كل قطعة من الأثاث إلى الغرفة أو الغرف طابق من طوابق البيت الثلاثة.

كانت أرض الدهليز الواسع تتصدرها (دكة) طويلة عريضة... وكانت الأرض

نفسها مبلطة ملساء بيضاء اللون (عرفت في ما بعد أنه المرمر).. ثم هناك الباب من الدهليز إلى (فسحة) واسعة، في صدرها باب مفتوح على مصرعيه نرى عبره (البستان) و(البركة) ممتلئة ماء يعكس ضوء الشمس، وظلال الأشجار.

ويطول وصف التفاصيل الكثيرة عن هذا البيت الذي وصفته (أمي) بأنه (ملوكي) وأنه يشبه ببستانه ذلك البيت الذي استأجره لنا جدّي في حماه... وفيه داهمنا اللصوص وسرقوا كل ما يملك جدّي والأسرة كلها... واضطر بعد ذلك جدّي (أبو أمي) أن يعمل في حفر الأختام ليؤمن لقمة العيش لنا، إضافة إلى (التعيين) الذي كانت فرضته الحكومة للمهاجرين من المدينة، وهو علب اللحم، وأقراص خبز الشعير، بعدد أفراد الأسرة بحسب ورقة يقدمها كل من فرضت له (الدولة) هذا التعيين.

لفت نظري، كلام كان يدور بالتركية بين أمّي ومنكشة و(أمي باجي) عن الغرفة التي ينبغي أن ينصب فيها سرير يسمونه بالتركية (كَرْيولَه) وهو سرير اشتراه عمي قبل إنتقالنا إلى هذا البيت ببضعة أيام... وازداد إنتباهي ومحاولة فهم الموضوع أن اسمي قد تردد أكثر من مرة، ومعه دعوات (أمي باجي)، و(منكشة) وكلمات (إن شاء الله إن شاء الله)...

عندما تم نصب (الكَرْيولَه) هذه في غرفة في الطابق الثاني من البيت، جاؤوها بمرتبة عريضة تملأ عرض السرير، ثم بمجموعة من الأغطية والشراشف... إضافة إلى مخدة بعرض السرير.. وأخرى تستند إلى الجدار.. وكلها مزخرفة أو مزينة بما يسمى أيامها (كوردِيلّا) حمراء وزرقاء.. أما الشرشف الذي يغمر السرير ويتدلى إلى الأرض فمطرز تطريزاً جميلاً ملوناً.

قلت في نفسي وأنا أرى كل هذه (الزَّفة) لـ(الكَرْيُولَه)... غير معقول أن يكون هذا لأمي وزوجها... فإني أعرف سريرهما من الموبيليا بأعمدة الناموسية من الخشب المطعم بالنحاس الذي يلمع كأنه الذهب.

وتساءلت: لمن هذه (الكَرْيولَه) بكل هذه الأبهة؟؟؟ رجحت أن أحداً من أقارب عمي سيجيء من اسطنبول... ربما إحدى أختيه، اللتين سمعت أنه يتلقى منهما خطابات، ورأيته مرّة يقرأ خطاباً وتدمع عيناه.. وقالت أمّي إنه من (أمه) التي لا تزال تنتظر عودته وتقول إن الذين عادوا من الضباط ومن زملائه كثيرون... وكلهم قالوا لها إنه بخير... فلماذا لا يعود؟؟

بعد أن تم (فرش) كل غرف البيت... نزلت أنا إلى الحديقة.. أو البستان كما يسمونه... كان أجمل ما فيه أن أرضه كلها من المرمر... وأن الأشجار أو الأزهار في أحواض يدور حولها هذه المرمر... وأن في كل حوض ماسورة متصلة بالبركة... يتدفق منها الماء لريّ الأحواض... أما من أين يجيء الماء؟؟؟ فهناك في ركن البستان بئر ماء أقيمت عليها طلمبة يد، يقوم بتشغيلها كل صباح لملء البركة... إما إسماعيل... أو محمد علي... ووجدتها من جانبي تسلية، فكنت أقوم بتحريك الذراع كما يفعلون... فأجد الماء ينهمر في قناة تنتهي إلى البركة.

مضت أكثر من ثلاثة أيام من دون أن أذهب إلى الكتّاب... ولكن أمّي كانت متنبهة إلى أن هذا سيجعلني أتخلّف عن زملائي... ولذلك فقد جاءتني (بجزء عمّ)، وأخذت تجلسني أمامها بعد صلاة المغرب... وتعلمني أن أقرأ الكتابة المطبوعة... من دون حاجة إلى اللوح.. وما أشدّ ما كانت تحرص على أن أفهم التجويد... كانت تقرأ قراءة مجودة.. ثم تشرح لي قواعد التجويد شرحاً وافياً، لم أسمعه من (العريف محمد) أو من الشيخ العريف محمد بن سالم... لأنهما كانا يكتفيان بأن نقرأ قراءة مجودة.. من دون إفهامنا السبب في هذا النوع من القراءة. ولعلّي لا أبالغ اليوم... إذا قلت إني تعلمت قواعد التجويد، ما زلت أذكر أكثرها حتى اليوم من أمّي رحمها الله..

قالت أمّي بعد أن فَرغت من (تحفيظي) أكثر من سورة... أنت الآن سبقت زملاءك في الكتّاب واسأل الشيخ: هل يوافق على أن تحفظ من (الجزء) بدلاً من اللوح؟؟ أعتقد انه سيوافق.

لم يطل خفاء سر ذلك السرير بالغ الزخرفة والأبهة.. فقد كشفته لي (منكشة) إذ كنت أقف إلى جانبها وهي تنظف، وترتب الغرفة... قلت لها:

– من الذي سيجيء من اسطنبول؟؟؟

وبدت عليها الدهشة وهي تقول:

– من اسطنبول؟؟؟

– أخت عمي... أم أمّه؟؟

وهنا ضحكت، لتظهر لثّتها الحمراء، ولم يبق في فمها إلا ناب أو نابان.. وقالت:

– لا أحد من اسطنبول.

– طيب... لمن هذه (الكريولة)؟؟؟

ومرة أخرى ضحكت... بل وارتفع صوتها بالضحكة وهي تقول:

- إنت ما يعرف؟؟

- لا ما أعرف..

ومرة ثالثة فرقعت ضحكة عالية وقالت:

- هادا (كريولة)... كمان (شِلّك) كبير... عشان إنتَ..

لم أفهم كلمة (شلّك)... ولكني فهمت طبعاً أن هذه الأبهة لشخصي أنا.

- لكن عشان إيه؟؟؟

- إنت ما يعرف كمان؟؟؟

- لا يا أمّي منكشة... ما أعرف... قوليلي أيش المسألة؟؟

ووضعت يدها على فمها تكتم ضحكة... ثم قالت:

- عشان (إنت عمر حقك تسعة سنة).

- أيوه... في عيد المولد أغلق تسع سنوات..

- تسعة سنة... ما في سُنَّتْ..

- لم أفهم شيئاً... لم أجد علاقة بين عمري الذي يبلغ تسع سنوات.. وبين كلمة (سُنَّت).

وأسرعت إلى أمي.. وسألتها... ولم تضحك... كما لم تُطِلْ الحوار... بل قالت بصراحة:

- وصل عمرك تسعة سنين... ولازم (نِطهّرك).

لم تكن الكلمة مجهولة عندي... إذ كثيراً ما كان يحدث أن يغيب بعض الأطفال عن الكتّاب بضعة أيام... ثم يقولون إنهم (طهّروا)... وأن (عُزومة) طهاره كانت كبيرة... أبوه دبح له طَلِيين.

لا يحتاج القارئ أن اشرح له أن (الطُّهار) هو (الختان)... وأن الأتراك يسمونه (سُنُتْ)..

لا أخفي أني ارتعبت... وداخلني من الخوف، ما لم يسبق أن أحسست بمثله قط... ونسيت تماماً العلاقة بين تلك (الكَرْيولة)... وبين عملية الختان... بل منذ تلك اللحظة حرصت على أن أتجنّب الدخول إلى غرفة (الكَرْيولة) هذه، التي كنت

أرى بابها المغلق... باباً إلى ذلك المصير المجهول... وأخذت أتمنى وأدعو الله سبحانه أن يَحدُث في الدنيا أي حادث كالحرب مثلاً... لينسى البيت... حكاية (الطهور).

***

المصادرة بدل «الْفَلَكَة»..

لا أخفي أني ارتعبت، وداخلني من الخوف ما لم يسبق أن أحسست بمثله قط... ونسيت تماماً العلاقة بين تلك (الكَرْيولَه)وهي السرير الفخم المزخرف، وبين عملية الختان التي يسميها الأتراك (سُنَّت) - بضم السين، وتشديد النون وتسكين التاء - وهم يقصدون سنة الختان - بل منذ تلك اللحظة حرصت على أن أتجنب الدخول إلى غرفة (الكَرْيولَه) هذه التي كنت أرى بابها المغلق، باباً إلى ذلك المصير المجهول، وأخذت أتمنى، وأدعو الله سبحانه، أن يحدث في الدنيا أي حادث كالحرب مثلاً، فينسى البيت حكاية الختان أو (الطهور) كما يسمونه في المدينة وحواضر الحجاز.

ثم خلال الفترة التي تسبق شهر ربيع الأول (وكان يسمى شهر المولد) وهو الشهر الذي ولدت في اليوم الثاني عشر منه، وقد فهمت مما يدور من الحوار بين (منكشة) وتلك العجوز الطيبة (أمي باجي) ثم بين الجنديين، وهاتين الخادمتين السوداوين أن هناك مجموعة من الاستعدادات التي شرعوا يقومون بها استقبالاً ليوم هذا الختان، ومنها أعمال نظافة المنزل الذي كنت أراه نظيفاً، وكانوا هم يرون فيه ما يستحق أن يبذلوا كل ذلك الجهد لتنظيفه الطائل... من ذلك على سبيل المثال تنظيف جدران المنزل كلها بما فيها السقف ثم الأجزاء الخشبية كالأبواب والنوافذ، و(الرواشين) والأجزاء التي تسمى (الشيش) وهو المُخرَّم الذي يسمح بدخول الهواء، وأن يرى من بالداخل الشارع أو الزقاق من دون أن يراه أحد من المارة، وهذا عدا الزجاج الذي يُفتح للهواء ويغلق إذا كانت الغرفة، من مستوى (الصالون) في أيامنا يعد دائماً لاستقبال الضيوف. أما (الدر ج) من الحجر الأسود - ولا أدري لماذا لم يكن من (المرمر) كالدهليز... أما هذا! (الدرج) فقد كان يُنظف مرات ومرات، بنوع من المكانس الخاصة بغسل الحجر وتنظيفه.

بطبيعة الحال لم أنقطع خلال هذه الفترة عن الكتّاب.. فقد تدرّبت على سلوك أزقة ومنعطفات منطقة (مقعد بني حسين) المظلّمة والمسقوفة أحياناً، والمضيئة بما يشبه فتحات، بين كل مسافة وأخرى، وتوثَقت علاقتي في الكتّاب بأسعد الذي كان يأتيني بأخبار (القشاع) بين المناخة والساحة وعن (المشاكلة الكبار) وكيف جُرح أحدهم، ولكن (الدم مدفون)... أي أنه لم يدع على الذي جرحه بنبوته في جبهته. ويضيف أسعد أن العسكر في (باب الشامي) هم الذين أوقفوا القشاع والمضاربة قبل (الليل)... وحين علم أني أصبحت أسكن (مقعد بني حسين) قال إنه لم يسمع بقشاع اشترك فيه (عيال) من هذه المنطقة... وأضاف أنه يتمنى لو أني أجيء معه يوم الخميس القادم لأرى القشاع كما يراه هو والأطفال من سكان زقاق الطيار والسيح.

أما أهم أخبار أسعد، فقد كانت أن أمه (الحبلى) رفضت الرجوع إلى زوجها، وأن أباها يقول لها (بيت أبوكي هوّه بيتك... إنتي وأسعد) ولذلك فأسعد مطمئن إلى أنه سوف لن يعود إلى بيت زوج أمه، الذي كان يضربه كما كان يضربها هي أيضاً و(بالمداس).

وكان من الذين توثقت بيني وبينهم العلاقة في كتّاب العريف ابن سالم (مالك خليفة)... وهذا بالذات، علمت مع الأيام أن أباه من (السادة) ومن كبار أهل المدينة، واستمرت علاقتي به إلى أيام الصبا وطلائع أيام الشباب.

تطورت تصرفات (الشقاوة) و(العفرتة) بيننا، ومنها الاستمرار في تكسير الأباريق.. وعندما اشترى الكتّاب أباريق من الصفيح... لم نتردد في قطع ما كنا نسميه (أخشامها - جمع خشم)، هذا إلى جانب مسحوق كنا نشتريه من العطار ونحتال لنفثه عندما ترتفع أصواتنا بالقراءة... فإذا بنوبة من (العطس) تنتشر لتصل حتى إلى العريف... ولم يكن الشيخ الجليل يجهل هذا المسحوق، فيأمر العريف (محمد) بتفتيش كل واحد منا، فإذا وجد أثراً للمسحوق في جيب أحدنا، فإن نصيبه تلك (الفلكة) و(الفرش) بينما نوبة (العطس) مستمرة... ومعها الضحك المتواصل، على الذي وقع في الفلكة و(أكلها) والضمير عائد إلى (العلقة). ثم ابتكر الشيخ، عقوبة جديدة غير الفلكة و(الفرش) وهي مصادرة أي مبلغ يجده في جيوبنا... ولكنها مصادرة مؤقتة إلى أن يحين موعد (الصرفة) فينادي كل من أخذ منه قرش، أو أكثر، ويعطيه ما صودر منه ولكن بعد (مصع) أذنه إلى أن تحمر.. ومع أننا كنا نؤكد في كل مرة كلمة (توبة يا الشيخ) فإن التوبة هذه كانت مجرد كلام... إذ ما أكثر ما عدنا إلى هذه التصرفات، وكان أخطرها بعد قطم (أخشام أباريق الصفيح) وتفريغ

كل ما في الحنفية الجدارية من الماء... كانت هذه عملية تعاونية يتفق عليها، بين ثلاثة أو أربعة... يدّعي كل منهم بأنه (محصور) يرفع إصبعه الصغيرة واقفاً ويده الأخرى بين فخذيه... فيخرجون على التوالي... وما هي إلا دقائق حتى يتم تفريغ الحنفية من الماء.. فالأباريق مقطومة (الأخشام) والحنفية لا ماء فيها... ومع ذلك فقد كنا نسرع للصلاة في وقتَيْ الظهر والعصر.. وقد أفتانا أحد الكبار من الزملاء بأننا نستطيع أن نتيمم... وعلّمنا التيمم.. وهذا ما شجّعنا أو أغرانا بأن نواصل تخريب الأباريق، وتفريغ الحنفية الجدارية من المياه... وأذكر أن أمّي سمعت عن تصرفاتنا و(شقاوتنا) فهددتني بأنها إذا سمعت أني أشترك في هذه التصرفات، فإنها هي التي سوف تعطيني (علقة عند الله خبرها). ومع أني أعرف أنها لا تتردد في تنفيذ تهديدها فقد تغير إحساسي بالرهبة من هذه التهديدات، لأني كنت قد تعودت على رؤية علقات الكتّاب ونتائجها مع من يقعون تحت طائلتها، إذ لا يلبث الواحد منهم أن يعود إلى نفس (الشقاوة) ويأكل نفس العلقة، ربما أكثر من مرة في الشهر الواحد..

***

بعد عودتي من الكتّاب في أحد الأيام رأيت أن عمليات تنظيف البيت لم تقتصر على البيت، جدرانه ونوافذه وأبوابه وسلالمه... بل بدأت تمتد إلى (الزقاق) الذي يقع فيه البيت.. فقد رأيت الجنديين (إسماعيل ومحمد علي) ومعهما أكثر من عاملين من (التكارنة) يزيحون عن أرض الزقاق التراب، وما تجمد من الطين، بعد هطول الأمطار... بل ويمسحون أعتاب المنازل المجاورة... وهي من (الحجر الأسود)...

لم أفهم شيئاً في أول الأمر... ولكن ما لبثت، أن فهمت من الجنديين... وقد أصبحت أفهم الكثير من اللغة التركية التي يتحدثان بها... - أنهم يعدون ليوم (الختان)... وتساءلت بيني وبين نفسي عن علاقة الزقاق بهذه العملية.. فهمت حكاية تلك (الكَرْيولَه) والغرفة المزخرفة، وحكاية التنظيف واسعة النطاق في داخل المنزل... ولكن (الزقاق كله).. من باب منزلنا إلى باب (عثمانية هانم) الذي يبعد عن بابنا بأكثر من عشرين متراً... لم أستطع أن أفهم شيئاً، وبدا لي أن الجنديين والعاملين الأسودين لا يعرفون شيئاً سوى أن هذا هو المطلوب.

في الكتَّاب سمعت حكايات كثيرة عن الأفراح التي يقيمها الناس في يوم ختان الأولاد ومنها عدد الخرفان التي تذبح، وتعد لغداء أو عشاء المدعوين من الرجال

والنساء... لكن أهم وأفظع ما ملأني رعباً هو أن الذي يبكي وهو يختن يحتقرونه، ويظلّ في نظر جميع أقرانه، بل وحتى في نظر أبيه وأعمامه (خِرنْتَه) ولا يستحق أن يعتبر (رجّال)... والخرنته هذا في مفهوم الناس، أنه مخلوق أقرب إلى الأنثى أو البنات.. ومعنى هذا أن عملية (الختان) هذه تحتاج إلى الشجاعة والقدرة على احتمال الألم عند (الختن) الذي يقوم به (المزين بالموسى.. ثم يكبس مكان القطع بالبُن، والملح)... وقلت لنفسي وأنا أسمع هذا الكلام: (البُن) طيب، وأقصد أنه لا يسبِّب (الحرقان) كما سبق أن سمعت من يحيى، ولكن الملح هو (المصيبة)... أي جرح يوضع عليه هذا الملح، لا بد أن يكون مثل النار.

***

وكان شهر (المولد) كما يسمّى ربيع الأول قد بدأ... وكنت أتوخى أن أسمع عنه ولأني أعلم أني ولدت في اليوم الثاني عشر منه، قدَّرت أن (المصيبة) وهي عملية الختان سوف تتم في ذلك اليوم... ظللت أحرص على الذهاب إلى الكتّاب كل يوم، وفي الطريق إليه والعودة منه كانت تدور في ذهني المتاعب التي أقترب من موعدها يوماً بعد يوم، ولذلك فقد أخذت أخطط وأفكر في طريقة أتخلص بها من اليوم الذي يجيء فيه (المزين) بالموسى والبن والملح، ولا سبيل إلى الخلاص إلا بالهرب، إلى المزارع، والعمل وراء حمير السواني... نفس الفكرة التي ظلّت تراودني وكان يفكر فيها يحيى بعد زواج أمي.

لم أتردّد.. فقد بدا لي أن الجأ إلى يحيى، ليرشدني إلى الطريق الذي أصل به إلى إحدى المزارع التي لا شك أنه يعرف الكثير منها... ولذلك فعندما خرجت من الكتّاب قبل اليوم الثاني عشر من شهر (المولد) انطلقت إلى الساحة، ومنها إلى بيت يحيى في زقاق الحبس. وجدته عند باب منزله... فتلقاني بفرحة كبيرة.. وأجلسني إلى جانبه على دكة من الحجر الأسود توضع عادة إلى إحدى جانبَيْ المدخل. وأخذت أقصّ عليه الحكاية كلها، وإنتهيت إلى أن رجوته أخذي معه إلى إحدى هذه المزارع التي يسمونها (البلدان) فإذا به يضحك ويقول لي متسائلاً: (إنت اتجننت؟؟) ثم أضاف: (إنت ناسي إنو زوج أمك ضابط.. يركب الحصان.. وعنده عساكر تحت أمره.. هادا يجيبك لو دخلت تحت الأرض).. لم أقتنع... بل أخذت أتوسل إليه... أن يخبرني... من دون أن يذهب معي... عن أسماء المناطق أو الحواري التي توجد فيها هذه (البلدان) فقال: (كل البلدان في العوالي وقبا والعيون)، ثم أضاف: (العوالي

وقبا تخرج لها من (باب قبا)... أما العيون فتخرج لها من (باب الشامي). ثم أضاف محذراً وهو يرمش جفنيه بسرعة وانفعال: (ترى اصحا تروح في الليل... يقولوا الطريق (مقعود) البدو ياخدوك ويبيعوك...).

لم يفتني أن أسأله عما آل إليه حاله وقد أدخلوه كتّاب (القبة) في المناخة عند الشيخ حامد؟؟ ضحك ضحكة صغيرة وهو يقول: (ما في غير إني آكل العلقة، حتى ولو حفظت اللوح... قول معايا... ربنا يكسر له يده).

عندما أخذت أتسلل بين أزقة (مقعد بني حسين) كانت الشمس تقترب من الغروب... ولذلك فالظلام بدأ ينشر رهبته على المنعطفات... ومع ذلك فقد كنت أعرف كيف أسلك طريقي إلى البيت.. وكانت المفاجأة... أني قبل أن أنعطف إلى الزقاق الذي يقع فيه المنزل كان أمامي الجندي (إسماعيل) بقامته الطويلة... فما كاد يراني حتى رفع كفيه ورأسه إلى السماء وهو يقول: (الحمدلله... الحمدلله) ثم أخذ يسألني أين كنت؟؟؟ وما الذي أخّرني عن موعدي حتى ذلك الوقت؟؟؟

كان الردّ عندي جاهزاً... لفقته في طريقي منذ اللحظة التي غادرت فيها يحيى في زقاق الحبس... وهو أني فقدت (جزء عمّ) الذي أصبحت أحفظ منه القرآن إلى جانب اللوح وظللت أبحث عنه في الكتّاب... وفي الطريق... وحتى في الحرم، حيث صلينا العصر قبل الصرفة.

اقتنعت أمّي بما قلت، وسَلِمتُ طبعاً من أي عقوبة كان لا بد أن أتعرض لها لو أحسَّت بأني أكذب... وحمدت الله... ودخلت ما كنا نسميه (البستان) وارتميت على أحد المقاعد (الخيزران)... وبينما أنا غارق في هموم (المزين والموسى... والبن والملح)... سمعت من يناديني باسمي... ولكن بصوت أقرب إلى الهمس... رفعت رأسي... لأرى من (مِنْور) بيت الجيران وجه فتاة تبتسم... وتسألني (متى؟) وتشير بكفيها لتوضح أنها تسألني عن موعد لم أشك أنه موعد ذلك اليوم الرهيب... يوم الختان... فقلت: (ما أدري... لكن يمكن بعد كم يوم...). ضحكت ضحكة خفيفة وتساءلت (إنت خايف؟؟؟ موكده؟؟؟)، ولم أنكر إني خائف فعلاً فلم أقل شيئاً وإنما هززت رأسي والتزمت الصمت، فقالت: (إنت رجال... كيف تخاف؟؟؟).

كان لهذه الكلمة (إنت رجال...) أثر السحر في نفسي ومشاعري... فقد ذكّرتني على الفور بكلمة (بدرية) في زقاق القفل.. ثم بكلمات أمّي عندما قالت: (عزيز هوّه

رجال البيت)...، ... ووجدت نفسي أردّد (رجال البيت؟؟؟)... ثم أشرع بضياع معنى هذه الكلمة منذ تزوجت أمي... إذ إن (رجال البيت) هو زوجها (عمي)... ثم في البيت غيره... اثنان... كل منهما عنده بندقية (أم خمس)... فكيف أكون أنا (رجال البيت؟؟؟).

سألتها عن اسمها... وكيف يمكن أن أصل إلى بيتها؟؟؟ وعرفت الاسم، ووصفت لي كيف أصل... ولم يكن في ذهني أن أختفي عندها... ولكني أحسست بأن في هذا المنور مخلوقاً... فتاة ذكرتني ببدرية... بابتسامتها العذبة... وعينيها الجميلتين... ظللت في مكاني... إلى أن ارتفع صوت أذان المغرب... فغابت هي عن (المنور)... ونهضت أنا عن المقعد لأقضي ليلة أخرى في إنتظار (المزين والموسى... والبن والملح).

جاء يوم (عيد المولد) كما كان يسمى اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول... ولم يظهر ما ينذر بيوم (الختان)... ومع احتفال البيت والناس جميعاً بهذا اليوم، والزيارات التي يتداولها الجيران، أخذت مخاوفي من يوم الختان تخف، أو تغمرها مشاعر الفرحة باللائي يزرن أمي، من صديقاتها الكثيرات... ومنهن إلى جانب (بنات عثمانية هانم) جارتنا الخالة "أم الفرج" وابنتها تلك التي أطلت عليَّ من منور منزلها.

كان من آداب السلوك أن أغادر المجلس حين يزدحم بالزائرات، أو أن أجلس بعيداً، بحيث لا أضايق أحداً من الجالسات... ظللت أصغي لما يدور من أحاديثهن، وكان أكثرها عن الذين عادوا من هجرتهم بعد الحرب، أو الذين جاءتهم أخبار عن الذين لم يعودوا، لأنهم فضّلوا الإقامة في الشام.

لكن ما أسرع ما إنتقل الحديث إلى الختان... وكانت الخالة "أم الفرج" هي التي سألت عن موعده، ثم أضافت ما فوجئت به فعلاً، وهو أنه _ أي أمّي وعمي - سوف يجيئون في يوم الختان بـ(المزيكة)... وهي موسيقى الجيش... وسوف تظلّ هذه (المزيكة) تضرب -وهذا هو التعبير عن العزف - في الصباح، وبعد العصر، وحتى صلاة العشاء.

لمحت نظرات أمي، وهي تلتفت إليّ حيث كنت أجلس، وكأنها تحذر من أن أسمع عن الموعد... ولم أسمع فعلاً... لأن الخالة أم الفرج قد فهمت... ولكن أدركت أن هذا اليوم لم يعد بعيداً ورجّحت أنه في الأسبوع القادم.

***

ما في بشوات يا عزيز.. في أُمرا..

منذ اليوم الذي سكنَّا فيه هذا المنزل الذي وصفته أمّي بأنه (ملوكي) في أحد أزقة ومنعطفات منطقة (مقعد بني حسين)، بدأت أفتح عينيّ - إضافة إلى تلك (الكَرْيولَه) في الغرفة التي تقرّر أن تخصص لي - وكذلك أذنيّ، على مجموعة طائلة من آداب السلوك... يتعاون على تلقينها إياي، إلى جانب أمّي بالطبع، هؤلاء الذين يقومون بشؤون المنزل، وهم بدورهم مجموعة، في مقدمتهم (أمي باجي) هذه السوداء التركية المسؤولة عن الطبخ أولاً، ثم عن رقابة الأعمال التي ينجزها الآخرون، والتنبيه إلى الخطأ، واستدراكه وبالتصحيح والإصلاح... وقد أحببتها منذ الليالي الأولى التي دخلت فيها تلك الغرفة في زقاق الطوال بعد زواج أمي... فقد كانت صادقة العطف عليّ، والحرص على راحتي وتسْرية ما أظنها كانت تشعر به من همومي بزواج أمي... لم أكن أعرف كلمات التدليل بالتركية، ولكن جاءت الأيام التي عرفت فيها، كم كانت كل كلمة من كلماتها تلك رنة رقيقة نابعة من قلب كريم... ولقد عرفت - بمرور الأيام - أنها ولدت في اسطنبول، في سَرايْ أحد الأمراء العثمانيين... ونشأت في هذه السَّرايْ (دادة) خاصة لإحدى بنات هذا الأمير في طفولتها.... فلما كبرت الأميرة الصغيرة، جاءت وصيفة بيضاء، وهي أيضاً (مملوكة) للسَّرايْ أو لأمير السرايْ... وألحقت باجي بالمطبخ، حيث تعلمت هناك جميع أنواع الطبخ وعلى المستوى الذي يقلّ مثيله، أو لا يوجد إلا في بيوت أو (سرايات) الأمراء والعظماء. أما كيف جاءت إلى المدينة فقصة طويلة عنصرها أن الأمير غضب على الوصيفة البيضاء فأرسلها أو هو نفاها إلى المدينة وفي خدمتها (الباجي)....

وكان (الباديشاه) - وهو السلطان - إذا غضب على من لهم بعض المكانة من جواري القصر السلطاني، أو من (الأغوات) يأمر بترحيلهم إلى المدينة المنورة، حيث

أمّن لهم منازل جميلة رائعة التكامل، في منطقة (باب الشامي) تسمى (السلطانية) وجميع المنازل تطل على حديقة واسعة بالغة الجمال بأشجارها وأزهارها النادرة، والمقاعد المنثورة حول هذه الأزهار تحت الأشجار... وهذه للجواري اللائي سمّاهن أهل المدينة (سرائيليّات) نسبة إلى سراي (البادیشاه)... أما الأغوات، فلهم منازلهم أيضاً، ولكن بالقرب من الحرم النبوي الشريف... وهي المنطقة التي عُرفت باسم (حارة الأغوات)... وبالمناسبة أذكر أن في "الشبيكة" بمكة المكرمة منطقة عُرفت بأنها (أوقاف الأغوات) وجميع الأغوات يرسلون من السَّراي الشاهاني، وأحياناً من بغداد من بيوت ذوي الثراء والجاه، وعندما يبلغ الأغا سناً معينة يقترب عندها من العجْز عن نوع الخدمات التي يقوم بها في القصور.

قد يضيق القارئ بهذا الاستطراد، الذي استدرجني إليه الكلام عن (أمي باجي) ولكن يبدو لي أن أبناءنا وأحفادنا، لا يستغنون عن أن يلموا بلمحات من واقع الحياة في أيام ما قبل الحرب العالمية الأولى وما بعدها في المدينة المنورة بالذات، ويكاد يكون هذا ضرورياً، وأنا أسمع أن مشاريع الإعمار الواسعة والشاملة، قد غيّرت الكثير من المعالم ومنها على سبيل المثال (حارة الأغوات) التي أزيلت، في مشروع توسعة الحرم النبوي الشريف.

ولأعُدْ إلى (آداب السلوك) التي قلت إن الذين يتعاونون على تلقينها إياي، إلى جانب أمي، مجموعة في مقدمتهم تلك العجوز السوداء: (أمي باجي) ومنهم (منكشة) وهي تلك العجوز التي تركها جدّي في بيتنا في زقاق القفل، أمينة على موجوداته كلها يوم هجرتنا إلى الشام في ذلك "البابور" الذي شحن فيه "فخري باشا" أهل المدينة وهو يستعد لمواجهة الحرب، بينه من جانب، وبين الشريف والإنكليز من جانب آخر، وقد عدنا - أمّي وأنا - فقط لا غير - لنجد (مَنْكشة) هذه في البيت، وليس فيه من جميع ما كان فيه، إلا (مِسْنَداً) واحداً من الدومسك، من أثاث أمّي في زواجها من أبي.

فمن (آداب السلوك) هذه... أن الأولاد الصغار في سن ما قبل العاشرة، ممنوعون تماماً من الجلوس مع الرجال، والمقصود بالرجال، هم الضيوف الذين يدعون للعشاء أو الغداء... وكان ضيوف عمي (زوج أمي)، رحمه الله، رجال من طبقة متميزة.. منهم زملاؤه من أطباء المستشفى الذي يعمل فيه وكانوا يسمونه (المستشفى العسكري) لأنه كان مخصصاً لعلاج العسكر، أي رجال الجيش من

ضباط وجنود بمختلف الرتب. ومنهم أعيان من أهل المدينة الذين توثقت بينه وبينهم علاقات صداقة، من عناصرها معرفته للغة العربية (من دون لكنة) بحيث لا يصدق من يسمعه يتكلّم أنه تركي عريق، ومنها مروءته واستعداده الدائم لنجدة من يصاب بعلّة، ويحتاج إلى العلاج على أيدي أطباء المستشفى العسكري، وهم زملاؤه طبعاً ولا يترددون في الاستجابة لوساطته أو طلبه، ثم هم الأكثر براعة وخبرة بالأمراض التي كانت شبه مستوطنة في المدينة، ومنها (الملاريا) و(الديزانْتريا) ويسمونها في المدينة (العُصْرة) ومختلف أمراض العيون ومن أهمها (التراخوما)... بل يصحّ أن يقال إنه لم يكن في المدينة، في تلك الأيام، (إلا العطّارين) ومختلف أدويتهم الشعبية، و(البدوي) الذي يجيد (الكَيْ) في حالات مرض كانوا يسمونه (الجنْبة) وهو على الأرجح (التهاب الرئة) يضاف إليهم (المزين) الذي يداوي جميع الجروح بطرقه الخاصة ومنها قطعاً (البُن والملح) و(الصُّرافة) و(الشَّبه)، وعند المتميزين من المزينين (صبغة اليود). وهناك مستشفى آخر يسمى (مستشفى الغرباء) ولا أدري سبب التسمية.. جرت العادة أن يكون فيه طبيب واحد أو اثنان... من سوريا... وعدد من (المُضمّدين) و(الممرضين) الذين يُدَربون على عملهم على أيدي الطبيبين... والعلاج مجاناً وكذلك الأدوية تُصرف من دون مقابل من صيدلية يديرها (مساعد صيدلي) في المستشفى.

لكن من آداب السلوك أيضاً الحرص على عدم ارتفاع الصوت عند الكلام، ومما يعاقب عليه الطفل، أو الصبي الصغير، أن يضع إصبعه في أنفه، أو أن ينكش أسنانه... فإذا جلس على الأرض، فلا بد أن تكون جلسته (رُكْبه ونُصْ)... وهي جلسة ما زلت أتقنها حتى الآن - أما ما يجب الاهتمام به، فهو قص أظافر اليدين، فعيب كبير جداً، أن تُرى أظافر الأصابع طويلة ومسودَّة بما اختزَنَتْه من التراب... فإذا أُدخلتَ مجلس الرجال مطلوباً لأداء مهمة أو لتقديم معلومة عن الكتّاب مثلاً، فلا بد أن تقبِّل أيدي الجالسين جميعاً... والعجيب أن الرجال في تلك الأيام، كانوا لا يسحبون أيديهم... بل يتركون الطفل يقبّلها وأحياناً (وجه وقفا) وأحياناً أخرى تُرفع إلى الجبهة.

نحن الآن في الأسبوع الذي تقرّر أن يتم فيه (الختان)... ولكن من دون أن أعلم في أي يوم... كان الحديث يدور بين الجميع، عن تفاصيل كثيرة، منها: من الذين يُدْعون من الرجال... ومن اللائي لا بد أن يُدْعَين من النساء، منذ وقت الضحى أما الليل فللرجال...

أدركت حكاية (آداب السلوك) في ليلةٍ من ليالي هذا الأسبوع، إذ قالت أمّي بلهجة شبه هامسة:

- اسمع يا عزيز... الليلة عمك عنده ضيوف... رجال (كُبَارِيَّة)... غير اللّي تعرفهم.

امتلأ قلبي رُعباً... إذ توهمت أنهم يجتمعون احتفالاً لعملية (الختان) التي رجّحت أنها سوف تتم بحضورهم... وأمامهم... فقلت:

- يعني الليلة خلاص يا فقَّم؟؟

- إيه هوّه اللّي خلاص؟؟

- الطَّهور..

ضحكت.. بل استغرقتْ في الضحك.. ثم قالت:

- لا... الليلة ضيوف، منهم واحد (أمير)... هو اللّي ساكن في القصر اللّي ورا بيت عثمانية هانم..

- لكن أنا إيش لي؟؟؟ ويعني إيه أمير؟؟؟

- عمك يقول، لازم تلبس أحسن لبس... وتدخل تسلّم على الضيوف كلهم... ولكن أول واحد لما تدخل المجلس، تسلم عليه هو الأمير.

- بس ما قلتيلي يعني إيه أمير؟؟.. يعني زي الباشا؟؟

- ما في باشوات يا عزيز... فيه أُمَرا.. وهادا الأمير هو اللّي اسمه (الشريف ناصر) ويقولوا هوّه اللّي استلم (حلب) من الأتراك... إنتَ نسيت حَلب... وهاديك الليلة اللّي كان فيها ضرب الرصاص زيّ المطر.. والمدافع تُهدّ البيوت..

- لا يا فقَّم... ما نسيت... كيف أنسى؟؟.. كنا رايحين نموت..

- خلاص... هادا الشريف ناصر هو اللّي كان بيحارب الأتراك في حلب... وهو اللّي استلمها من الباشا التركي...

- طيب... وأيش اللّي جابوا المدينة بعدما استلم حلب؟؟؟ ليه ما جلس في حلب؟؟؟

- لا تكترِّ أسئلة... قوم خلّيني ألبّسَك، وأمشِط لك شعرَك.. عشان يمكن هوّه يجي بعد صلاة العشا.

- وهو رايح يكون جالس ساعة ما يطهّرني المزين؟؟

ضحكت أمّي هذه المرة أيضاً.. وقالت:

- مزين إيه؟... هوّه إنت فاهم أن المزين هو اللّي رايح يطهرك؟؟؟

- أيوه يا ففَّم.. البزورة كلهم في الكتّاب بيقولوا اللّي طهرهم هو المزين بالموسى وبعد ما يقطع... يكبس بالبُن والملح..

ضحكت مرة أخرى بل استغرقت في الضحك... وقالت:

- لا يا حبيبي.. ما هو المزين اللّي رايح يطهرك... اللّي رايح يطهرك هو يحيى بك.

- مين يحيى بك يا ففَّم؟؟

- أوه... قد إيه تحب تُحْك الصَّدا... دحّين قوم ألبسك، وأمشّطلك شعرك... عشان لما يجي الأمير.. الشريف ناصر.. تدخل تسلم عليه وعلى الضيوف كمان.

- لكن يا ففَّم... ما قلتيلي.. متى؟؟ متى يطهرني هادا اللّي اسمه يحيى بك؟؟

- نهار ما تشوف (المزيكة) عند الباب.. والهوانم.. والستات، يصفقوا في الدهليز..

- يصفقوا في الدهليز؟؟

- إيوه... لما الست تدخل من الباب تصفِق عشان ننزل نرحِّب بها.

- طيب يا ففَّم... ويحيى بك هادا رايح يطهرني قدَّام الرجال... ولا قُدَّام الستات؟؟

هنا ضاقت بأسئلتي ذرعاً فإنتشلتني من يدي، وأخذتني إلى غرفتها.. حيث ظلّت تبذل كل جَهدها لإظهاري بمظهر بهيّ متميز... وأوقفتني أمام المرآة... وأخذت تنبّه إلى مجموعة آداب السلوك... وأهمها تقبيل أيدي الضيوف... وعدم وضع أصبعي في أنفي... وإذا طُلب مني الجلوس فلا أجلس على المرتبة إلى جانب أحد من الرجال... بل على الأرض (رُكْبة ونص).

***

دخلت (الباجي) مسرعة لتقول بالتركية كلاماً معناه أن الضيوف قد بدأوا يتوافدون وأنها تَظُن أن (الرجل الكبير) وتقصد الأمير، معهم.. هكذا قال لها إسماعيل.

كنت قد تهيأت تماماً لاستقبال هذا المهرجان... مطمئناً لشيئين: أولهما أن الذي سوف يطهرني ليس (المزين)... وأن يوم الطهور... هو اليوم الذي أرى فيها (المزّيكة) عند الباب... ولكن من دون أن تحدّد أمّي أي يوم من أيام الأسبوع.

وأسرعت إلى الروشان في الغرفة لأرى الزقاق... فإذا به تضيئه من أوله إلى آخره الأتاريك المعلقة على أعمدة حفروا لها، في أرض الزقاق... أسرعت إلى أمّي أقول لها:

- إنتي شفتي الزقاق؟؟؟ هادا مْنوِّر... زيِّ النهار...

- والقَابلة رايح يكون مْنوِّر... زي النهار... وتضرب فيه (المزيكة).

أدركت على الفور... أن يوم الطهور قد تقرّر... غداً...

لم أقل شيئاً.. ابتلعت كل رعبي... وانطلقت من الغرفة... إلى السلالم.. ومنها إلى الديوان حيث رأيته ممتلئاً بالضيوف... وفي الصدر من المجلس... ذلك الرجل الذي بدأني هو بالترحيب... وهو يردّد (ما شاء الله... ما شاء الله) فتقدمت إليه.. وحين أخذت أقبّل يده... سحبها... وأخذ وجهي بين كفيه وهو يردّد مرة أخرى (ما شاء الله... ما شاء الله).

بدأت عملية تقبيل أيدي الآخرين... إلى أن إنتهيت إلى عمي (زوج أمي) فإذا بعينيه محمرّتين... وفيهما دمعة تكاد تنذرف... أخذ هو أيضاً وجهي بين يديه وقبّلني... وأجلسني إلى جانبه...

***

اليوم ما في فطور.. ولا في كتّاب..
الين يجي يحيى بك..

عندما قالت أمّي عن الإضاءة الساطعة في الزقاق:

- القابْلة رايح يكون منوِّر اكتر.. زي النهار.. وتضرب فيه (المزيكة). أدركت على الفور أن يوم (الطهور) قد تقرّر غداً.

ما كدت أفرغ من السلام وتقبيل أيدي الضيوف، ومنهم ذلك الذي قالوا إنه (أمير) وقالت أمّي إنه الذي استلم مدينة حلب في الشام من (الباشا التركي)... حتى أخذت التمس الانطلاق إلى (فوق)... و(فوق) هذه تعني المجالس، والمطبخ الذي لا بد أن أجد فيه (أمي باجي) و(منكْشة) وربما أمّي أيضاً. وما توقعته كان هو الواقع، فقد كان الجميع ومعهم أمّي نفسها منهمكين في تجهيز العشاء الفاخر الذي سيقدم للضيوف ومنهم ذلك الأمير..

بالمناسبة، لا بد أن أذكر، أن ألوان الطعام التي تعدّ للعشاء الفاخر للمدعوين والمدعوات - في تلك الأيام - كانت متعدّدة.. أو متنوعة، إذ التَّعَوُّد عليها كان من بقايا الحكم العثماني، الذي استمر في المدينة المنورة بالذات منذ ذلك اليوم الذي استلم فيه السلطان سليم العثماني مفاتيح الحرمين الشريفين من الخليفة العباسي (محمد المتوكل على الله الذي تنازل له عن الخلافة)، وبذلك جعل سليم نفسه أول خليفة عثماني للمسلمين. هذا مع ما يسجِّله التاريخ عليه من تصرفات القهر والقسوة والبطش، إذا بدأ تطلعه إلى السلطة بخلْع أبيه السلطان بايزيد الثاني، ثم بقتل إخوتِه حَسماً لإحتمال تآمرهم وثورتهم عليه... وما كاد يتربع على عرش السلطنة، حتى عمد إلى التعبير عن مدى عدائه (للشيعة) بقتل أربعين ألفاً منهم في الأراضي التركية، ثم هاجم (شاه) فارس وإنتصر عليه إنتصاراً ساحقاً أسفر عن استيلائه على (ديار بكر) و(كردستان) وغيرهما من أراضي الفرس.

لم تكد تمضي ساعة من الزمن حتى كان (محمد علي) و(إسماعيل)، يتناولان الأطباق من الباجي ومنكشة، طبقاً وراء آخر... ويهبطان بها إلى الديوان أو هو القاعة الكبيرة. هذا بعد فرش (السُّفرة الطويلة المزخرفة أو المطرزة) وعلى امتدادها الأطباق، والملاعق والشوك والسكاكين... وهناك في أركان القاعة اللمبات الكبيرة، ذات عدد من الفتائل، تحيطها زجاجة طويلة، ويحيط بالزجاجة أيضاً غلاف زجاجي منفوخ البطن، ولكنه أحمر اللون، شفاف، ومزخرف بزخارف جميلة من الزهر الملون المُعَشق على الزجاج بأسلاك أو ما يشبهها من الذهب.

كنت أرى كل ذلك من نافذة صغيرة، هي واحدة من جملة نوافذ تطل على الديوان أو القاعة من المجالس... ولا ننسى ما يسمى (الجِلا)... الذي يُشبه أنبوبة بالغة السعة تمتد من القاع إلى السطح، وهيِ التي يتسرّب منها الهواء، ليس إلى القاعة أو الديوان فقط، وإنما إلى المجلس أيضاً عبر تلك النوافذ، ومع الهواء ضوء الشمس في النهار... ومما قد يحسن أن يذكر، أن (هذا الجِلا)، يمكن إغلاقُه، فيمنع الأمطار، والغبار، كما يمنع العصافير والحمام من الدخولَ إلى القاعة أو إلى المجالس... أما كيف يغلق، وكيف يُصنع، فسؤال يوجّه إلى إخواننا المهندسين الذين أسمع أنهم يفكرون في العودة إلى نظام البناء القديم... وأعتقد بأن في المدينة، حتى اليوم قصوراً من أملاك الصافي وآل المدني وآل هاشم، وآل أسعد، وآل الرفاعي لا تزال على ما كانت عليه منذ أجيال، يمكن أن تعطيهم فكرة عن قصور وبيوت تلك الأيام، التي لم تكن تعرف المكيّفات، لا في الصيف ولا في الشتاء.

من تلك النافذة الصغيرة المطلّة على مهرجان الضيافة في القاعة، رأيت وسمعت الكثير من الأحاديث التي كانت تدور بين الرجال.. ولأن أمّي كانت مشغولة بعملها في المطبخ مع الباجي و(مَنكْشة)، فقد ظللت (أتفرج) ولا يزعجني أحد... ولكن كان مما سمعته أيضاً وهو ما سمَّرني على النافذة، صوت مُغَنٍ، وعزْف على العود... ولم أكن أجهل العود في الواقع إذ كنت أرى الخالة (عزيزة عثّمانية) تحتضنه وتعزف عليه وتغني بصوتها الجميل، ولأنها كانت ترى انجذابي إليها وإعجابي بها - كانت رائعة الجمال - فقد كانت - رحمها الله - تصرّ على أن أكون إلى جانبها، وأن (أصفق مع من يصفقنِ من الحاضرات) وفي الجانب الآخر من مجلسها تلك العجوز التي يسمونها (مُولّدة) - والجمع (مواليد)... تضرب على (الطار أبو شناشن) ولا أدري إن كان لا يزال هذا هو اسمه حتى اليوم...

فالذي رأيته من موقعي في النافذة، كان شيئاً جديداً لأنها المرة الأولى التي أرى فيها رجلاً يغني... وآخر يعزف على العود، وثالثاً كبير الكرش، دائم الضحك، والضجيج بالآهات وكلمات الإعجاب وهو الذي يمسك (الطار أبو شناشن)...

أدركت مما شاهدت، أن (عمي) يقيم هذا الحفل، لهذا الأمير بالذات، لأن الحفاوة به كانت موجهة إليه من الجميع... وكان بعض الحاضرين يناديه أو يسبق الكلام الذي يوجهه إليه بكلمة (سيدي) بينما كان هو بالغ التواضع... يعتذر عن سماع الكلمة بكلمة (استغفر الله) وكلمة (سيدك ربّك).

ومع أن المشهد كان مُسلياً، والأغاني تتلاحق... مع عزف العود، ودق الطار أبو شناشن فلا أدري كيف غلبني النعاس... واستسلمت للنوم في مكاني... وأحسست بمن يحاول أن يحملني من دون أن يوقظني من نومي... وتخابثت، فلم أنهض وأمشي... وكم كانت دهشتي بالغة، حين أحسست بأن الذي يحملني على كتفه، ويصعد بي إلى الطابق الثالث، ويضعني برفق ما بعده رفق على فراش (الكريولة) المزخرف الفخم، هو (عمي) زوج أمي... وحين فتحت عيني، ورأيته لم أملك إلا أن ألفّ ذراعيّ حول عنقه... وأن أقبّله... وكانت أمّي خلفه بالضبط... وقد أثّر فيها المشهد كله... فأسرعت تحضنني وتقبّلني... ورأيت خلفها (أمي باجي) و(منكشة) أيضاً وفي يد كل منهما لمبة علاقي من ذات الفتيلتين... علقتاها في الجدار، على مسمارين معدين من قبل... والذي لم أفهمه أنهما كانتا تبكيان... وترددان في همهمة تكاد لا تسمع (ما شاء الله.. ما شاء الله)..

وما دمتُ قد وُضعتُ في هذه (الكَرْيولَه)... فمعنى ذلك أن الطهور حاصل غداً من دون أي شك... ومع أن أفكار (الهرب)... واللجوء إلى المزارع... والعمل وراء حمير السواني... أو حمل (زنبيل) الخضرة للناس، لم تتلاشى من ذهني حتى في هذه اللحظات المفعمة بما لا يخطر على بال من العطف والحنان والحب، فإن ما اتّجه إليه كل تفكيري الآن هو ذلك الرجل الذي قالوا إنه سوف يقوم بعملية (الطهور) واسمه (يحيى بك)... وقد أضافوا إليه أنه (سرْ طبيب) المستشفى العسكري. ولم أعن بمعرفة معنى (سَرْ طبيب) هذه، ولكني تأكدت أنه ليس ذلك المزيّن الذي يقطع ويكبس بالبُن والملح... وكلمة طبيب توحي بأنه (دكتور) مثل عمّي، ومما زادني شبه اطمئنان ورضا، أنه من زملائه وأنه (يحيى بك)... ولقب (بك) هذا معروف أن الذي يلقب به لا بد أن يكون شخصاً مرموقاً محترماً. ولا أدري كِيف لم يخطر لي ببال أن

أسأل محمد علي أو إسماعيل عن الرجل، الذي لا أشك في أنه كان بين ضيوف تلك الليلة.

بعد أن غادر الجميع الغرفة وكنت مغمض العينين متظاهراً بالنوم، أخذت أتأمل فراشي على هذه الكَرْيولَة... كان شيئاً ممتعاً مريحاً للغاية وضوء اللمبتين العلاقي، وإن كان ضعيفاً لأنهم خفضوا ارتفاع الفتيلتين، إلا أنه أعانني على رؤية هذه الزخارف التي زخرف بها الفراش والوسائد... وشْي ومطرَّزات لأزهار وورود ملونة، وبعضها موشّى بما يسمى (التّرتِر) الفضي والذهبي يلتمع تحت ضوء اللمبتين... مما جعلني أتذكر الكثير من الحكايا التي كانت تحكيها لي أمّي أيام كنت أنام إلى جانبها، في ليالي الرعب في حلب، ثم على السطح تحت ضوء القمر في بيتنا في زقاق القفل، بل وتلك الحكايات التي كنت أسمعها من (بدرية)... وكلها أو أكثرها عن السلطان أو بنت السلطان، التي كانت دائماً تنام على فراش وثير من الحرير، وسرير من الذهب والفضة وحولها الجواري، وفي أيديهن المراوح من ريش النعام والطاووس، يروِّحْن عنها خوفاً عليها من الحر، ومن الذباب والبعوض... وحولها دائماً من يقوم برش ماء الورد والزهر، ثم تلك الجارية ذات الصوت الجميل التي تردد أهازيج النوم ومنها ما لعلي أحفظه حتى اليوم لكثرة ما سمعته تردّده أمي، أو (بدرية)... أو غيرهما ممن كان يتطوعن بالحكايات قبل النوم.

مثل: (نينّي... نينّي نِينّي بالتُّركي... ما أحلاكي ما أحسنكي
أحمد باشا خدّامِكَ... يشيل لك بُقشَة حمَّامِك...
وبحصانه يمشي قدَّامك...
نينّي... نينّي.. إلخ...).

لا بد أن هذا الترف في الفراش، وذكريات حكايات بنت السلطان وأهازيج نومها قد أودعتني للنوم فعلاً... وفي ذهني بنت السلطان تلك، التي كانت تتمتع دائماً بمثل هذا الترف الذي أتمتع به أنا الليلة...

أما غداً والطهور... ويحيى بك... فقد غمرت الجميع مشاعر الارتياح إلى هذا النعيم.

***

كانت العادة المتّبعة، أن توقظني من النوم، (أمي باجي)... وتأخذني إلى مائدة

الإفطار، حيث آكل نصيبي من (الشُّريك) والجبنة (الكَشْكَوَان)، وجرعاتٍ من الحليب الذي لا أدري لم لا أحبه - وحتى الآن - ومُربَّى المشمش تصنعه أمي... أو (أمي باجي)... ولكن هذه العادة اختفت في صبيحة هذا اليوم الذي وجدت نفسي فيه على ذلك السرير الوثير..

أيقظتني أمّي بنفسها... ولكن من دون أن تدعوني إلى مائدة الإفطار... وقالت:

- اليوم ما في فطور... ولا في كتّاب... إلِينْ يجي يحيى بك...

- يعني الطهور يا فقَّم؟؟؟

- أيوه يا حبيبي...لازم ما تفطر... ولكن لازم تروح بيت الما... وتتوضا... وأنا اللّي أغسل لك وجهك بالصابون...

- هوّه الطهور رايح يكون في وجهي يا فقَّم؟؟

- سوّي نفسك ما تفهم...؟؟؟ لا تكتر كلام... هيا قوم روح بيت الما... وأنا جَيِّه وراك...

تمّ لها كل ما أرادت... من غسيل وجه وتنظيف جيد ما بين الفخذين... ولكن منعتني من ارتفاق السروال...

- طيب والسروال يا فقَّم؟؟؟

- السروال بعدين...

- بعد الطهور؟؟؟

- أيوه بعد الطهور؟؟؟

- فهمت... عشان لا يتوسخ بالدم... موكده؟؟؟

- كده... هيا اخلص... يحيى بك لا بد أنه مع عمك في الطريق..

كانت الوقت بعد شروق الشمس... عندما صدحت الموسيقى العسكرية... فملأت قلبي رعباً ما بعده رعب... وزاد من ارتباكي وخوفي دخول (أمي باجي) وهي تلهث تعباً لصعودها في السلالم إلى الدور الثالث... وما كادت تقف في الغرفة حتى قالت بالتركية ما فهمت منه (إنهم جاؤوا...).

بالفعل ما هي إلا لحظات حتى رأيت عمي ببزته العسكرية... يدخل متقدماً رجلاً طويلاً عريض المنكبين وبكامل بزته العسكرية أيضاً، وخلفهما إنسان يحمل أقنعة بيض أخذ يلبسها يحيى بك... ولبس هو أيضاً أحدها... وقد حرصوا جميعاً على أن يعلّقوا على وجوههم ابتسامات ربما ليبعثوا في نفسي طمأنينة وارتياحاً... الواقع أن

الذي ملأني رعباً حقيقياً هو ذلك الذي كان يمسك بيده قطنة صغيرة، وحقنة...

أداروني وجهاً لقفا... فما استطعت أن أرفع صوتاً ببكاء أو نحوه... الواقع أن صوتي قد فقد تماماً ووجهي إلى الوسادة... ولا أدري ما الذي فعلوه بعد ذلك...

بل لا أذكر أين ذهبوا؟؟؟ عندما استيقظت كان الوقت بعد الظهر... وكانت أمّي إلى جانبي على السرير.. كنت أشعر بظمأ شديد... فطلبتُ ماء... ولم أطلبه بصوتي... وإنما بإشارة من يدي إلى فمي..

لكن حتى الماء جاءوني به بحساب... لم تزد الجرعة على ملعقة شورباء...

ثم - مرة أخرى - ذهبت في نوم عميق.

كان السؤال الذي لم أتوجه به إلى أمّي أو إلى غيرها هو: (هل تم الطهور... أم أنه سوف يتم في الليل... أو غداً... بعد الذي شاهدته في الصباح... وبعد تلك القطنة والحقنة في يد الرجل، لم أعد أفهم شيئاً مما يدور حولي...

أضيئت اللمبتان العلاقيتان... وكانت أمّي باجي، هي التي أشعلتهما... وجدت في نفسي الجرأة لأسألها:

- أيش اللّي صار يا أمّي باجي؟؟؟

التفتت إليّ... ووجهها تملأوه ضحكة عريضة وهي تقول:

- سُنَّتْ خلاص...

وقبل أن تتم جملتها... دخلت أمي.. وانكفأت عليَّ... احتضنتني... وهي تقول:

- خلاص يا عزيز إنت دحّين رجّال... وسيد الرجّال...

ومرة أخرى صدحت الموسيقى في الشارع... ولكنها هذه المرة صدحت أغنية تركية كنا نرددها وإن كنا لا نعرف معاني ألفاظها وهي تقول:

اسكدارا كَيدركن... بير منديل بولدوم

منديلِنِن ايجينْده..... لوكُوم دولدورم

وعرفت، معناها، في ما بعد:

عندما كنت أمشي في إسكدار - وهي منطقة في اسطنبول، وجدت منديلاً... وقد ملأت المنديل بحلوى الحلقوم....

***

الختان.. فاصل بين مرحلتين..

- خلاص يا عزيز... أنت دحّين رجّال... وسيد الرجال.

مع أني لم أدرك العلاقة بين عملية الختان هذه التي تمّت - ومن دون أن أشعر بها - يوم أمس، وبين أني اصبحت (رجّال... وسيد الرّجال)... إلا أني أدركت حقيقة أن الفترة التي انقضت من حياتي - قبل عملية الختان - كانت فترة "طفولة". بمعنى أني لم أصبح (رجلاً) إلا بعد عملية الختان... وعلى التحديد، منذ يوم أمس.

وما دمت قد أصبحت رجلاً، و(سيد الرجال) كما قالت أمي، فإن أشياء كثيرة لم تعد تليق بي.. ومنها: الجلوس مع السيدات حين يجتمعن في المجلس، وقلت لنفسي متسائلاً: (رجل، ويجلس مع الحريم؟؟؟)... ومنها أيضاً، البندقية (أم خمس) التي يمنعني كل من الجنديين، أن أضع يدي عليها... لم يعد في منطقي ما يمنع أن ألمس هذه البندقية... بل وأن أحاول معرفة الطريقة التي توضع بها الرصاصات الخمس... لم أكن أجهل أن ذلك مستحيل، فكل من إسماعيل ومحمد علي يعلّق بندقيته من (سَيْرها) وهو الشريط من الجلد بنّي اللون في مسمار معقوف، مضروب في الجدار... لا يسمح لي إطلاقاً بمحاولة إنزالها أو اكتشاف أسرارها...

كان غريباً أن أكون مستلقياً على هذا الفراش الوثير، وما زلت جريح عملية الختان، وأن يدور تفكيري حول هذه البندقية... ثم حول عدم الجلوس مع السيدات... وأحسست هنا بأن عملية الختان، وإن كانت قد جعلت مني رجلاً و(سيد الرجال)، فإنها حرمتني من رؤية الكثيرات، من الصبايا اللائي كُنَّ يجتمعن، إما عندنا، وإما عند من تقوم أمّي بزيارتهن، وقضاء فترة من المساء معهن، وعلى الخصوص بيت (عثمانية) وفيه الخالة أم (عزيزة أسعدية) تلك الجميلة التي تعزف على العود،

وتغني بصوتها الرقيق الجميل، وتستدنيني إلى جانبها حيث اشترك في التصفيق... وربما في الغناء أيضاً بصوت خفيض. ومع هذه المشاعر استيقظت في ذاكرتي، صورٌ ومَراءٍ للجميلات اللائي عرفتُهن في طفولتي، ومنهن - وعلى الخصوص - بدرية... تلك التي كنت أنام بينها وبين أمي، في بيت الخالة فاطمة (جادة) في زقاق القفل... حكاياتها الكثيرة التي تحكيها بصوتها الأغن، وأريج عِطر البنفسج، الذي يفوح من شعرها الغزير الذي ترفع عنه (المِحْرَمة) لينطلق سابحاً على المخدة تحت رأسها... وطاف بذهني في هذه اللحظات، أنها زوجة ذلك الرجل، الذي ترددتْ أخبار عن أنه يمكن أن يطلّقها إذا لم تنجب له (ذرية)... ووجدت نفسي أتساءل: (ترى هل طلّقها؟؟؟)... ولا أخفي اليوم (وأنا في هذه المرحلة من العمر) أني في تلك اللحظات وأنا على السرير قلت لنفسي: (إذا كان قد طلّقها... فما الذي يمنع أن يزوجوني إياها؟؟؟ ما دمت قد أصبحت رجلاً... و(سيد الرجال)... ثم تساءلت مستغرباً: (أين هي يا ترى؟؟؟ لم نرها منذ إنتقلنا إلى هذا البيت في منطقة "مقعد بني حسين".. وحكمت بمنطقي، أو هو وجداني الملهوف عليها، أن أمّي (ما لها حق)... كيف تنساها وتنسى الخالة فاطمة جادة... ثم بيتنا في زقاق القفل... كل هذا خرج من حياتها بعد أن تزوّجت عمّي... وعلى الخصوص منذ إنتقلنا للسكن في هذا البيت الذي قالت عنه إنه (ملوكي).. بل منذ أصبح لها صديقات هن: (الهوانم)... زوجات زملاء عمي... وكلهنَّ لا يتكلّمن العربية ويختلفن عن غيرهن من السيدات بأنهن، حاسرات الرؤوس، يتركن شعرهن منسدلاً على أكتافهن ولا يَلْفُفْنَه في (المِحرمة) كما تفعل (بدرية) والخالة فاطمة (جادة).

أحسست بخطوات (منكْشة) الثقيلة مقبلة إلى الغرفة... وهي تسعل سعلتها المتحشرجة، وما كادت تدخل حتى بدأت تُردّد (ما شاء الله... ما شاء الله)... ثم قالت إنها تريد أن تأخذني إلى الحمام... وحين قلت لها إني أستطيع أن أذهب بنفسي... ضحكت، وأفهمتني أن جرح الختام يستلزم تصرفاً لا بد أن تساعدني عليه... ولم أملك إلا أن أوافق... وسألتها عن أمي... فقالت إنها مع السيدات اللائي جئن منذ الضحى... وهن في المجلس... وبعد أن أفرغ من (حكاية الحمام)... سيأتين لزيارتي...

***

ما كادت (منكْشة)، تساعدني على العودة إلى الفراش والاستلقاء، وتنشر على

جسمي ذلك الغطاء السميك المزخرف من الحرير... حتى بدأت حركة زيارة السيدات... كلٌ منهن لا تكاد تراني حتى تردّد... (ما شاء الله)... وهي تبتسم... ومنهن من تلمس جبهتي... لتطمئن عليّ... ومنهن من تنحني، وتقبّل جبهتي... ثم تأخذ مكانها على أحد المقاعد الثلاثة الموضوعة في الغرفة، للزائرات... والزائرين... كل ذلك، بدا لي طبيعيّاً، فأنا جريح عملية الختان... وتلك هي العادة التي يتّبعنها... ولكن الذي استرعى إنتباهي، أن كلاً منهن تصرّ على أن تدخل يدَها تحت الوسادة... لماذا؟؟؟ لم أفهم شيئاً... وتعددت الزيارات، ومنهن، من جاءتها (مَنْكَشة) بفنجان القهوة (التركي).. أو بكوب الشاي... ولذلك يطول جلوسهن وتدور بينهن الأحاديث... بالعربية، إذا كن من أهل المدينة... بالتركية إذا كنَّ من صنف: (الهوانم) التركيات... ولكن لا بد لكل منهن قبل أن تغادر الغرفة أن تمد يدها تحت الوسادة التي تحت رأسي... ولا أخفي أني بدأت أتطلع شغوفاً بأن أعرف سرّ امتداد الأيدي الناعمة تحت هذه الوسادة... ولكن كيف؟؟ لا سبيل إلى ذلك، وهن جالسات... أو قادمات، وعلى الخصوص حين ترافقهن أحياناً أمّي بنفسها... والسعادة تملأ محياها، والابتسامة العريضة تكاد لا تفارق ثغرها... وبينما كنت أعالج تعديل وضع رأسي ورقبتي على الوسادة الممتدة بعرض السرير، تجرأت على أن أحاول اكتشاف سر الأيدي التي تمتد تحتها... لكن ذلك بدا متعذراً تماماً، لأن أمّي خفّت إليّ، وأخذت تساعدني على هذا التعديل... تمنيت لو أنها أعفت نفسها من هذه المساعدة، لأن غرضي المستكين في نفسي، ومعه الرغبة الملحة في اكتشاف سر تلك الأيدي التي امتدت تحت الوسادة.. هذا الغرض لم يتحقق، فاستسلمت، أو تظاهرت بالاستسلام، ولكن الآن دخلت سيدة تعودت أن أسمع أمّي تناديها (خالة) بالتركية... وهي أم (عزيزة أسعدية) عازفة العود الجميلة... وكالعادة بدأت السيدة بترديد (ما شاء الله... والحمدلله)... ولمست جبهتي بيدها، وفي أكثر من أصبعين من أصابعها خواتم من النوع الثمين... ولكنها الوحيدة التي لم تمد يدها تحت الوسادة... وإنما أخرجت من حقيبة صغيرة مطرزة بالخرز أو هو اللؤلؤ حلية من نوع (البروش) صغيرة، ومن الذهب ومعلّقة بما يسمى (فيونكة) و(كورديلا) حريرية بيضاء... وشَبكَتْها على الوسادة... والتفتت إلى أمّي تقول لها بالتركية، ما فهمت في ما بعد أن البروش فيه كلمة (ما شاء الله)...

لم تفتني مشاعر الامتنان أو الفرحة التي إنتشرت على محيا أمي... إذ يبدو أنها

أدركت أن الهدية غالية الثمن... من مستوى لا يستهان به... من جانبي التزمت الصمت وانقشعت عن ذهني غمامة سر الأيدي التي تمتد تحت الوسادة... فهي (هدايا)... وسرعان ما قدّرت أن المخزون من هذه الهدايا تحت الوسادة، أصبح يستحق أن تخرجه أمي، فأراه من جهة... وتراه هي أيضاً... إن لم يكن لشيء فللمقارنة بين هدية (الخالة أم عزيزة أسعدية) وبين هذا الذي ازدحمت به الساحة تحت الوسادة...

وجدت الجرأة أن أقول لأمي...: (تحت المخدة أشياء كثيرة... ما تبغي تشوفيها؟؟؟). فلفت نظري، أنها قد بدا عليها الاهتمام، فعلاً... ثم تراجعت إلى الباب، فأغلقته، ثم أنهضتني وجعلتني أجلس لترفع الوسادة... وكانت المفاجأة بالنسبة لي أن كل الموجود هو (نقود).. قطع نقود فضة مما كان هو الذي يتداوله الناس في تلك الأيام. وقطع النقود الفضة هذه، كان أكبرها أو أعظمها أو أثمنها (المجيدي) نسبة إلى (السلطان عبدالمجيد الذي كان الخليفة العثماني قبل الحرب)، وقد لفت نظري، ومعي أمّي بالطبع أكثر من قطعة نقد من الذهب... وكنت لا أجهل الجنيه (العسْمَنْلي) ولكن هناك قطع أخرى، ذهبية... ولكنها ليست من نوع الجنيهات العسمنلي... فهمت في ما بعد أنهم يسمونها (الغوازي)... ومفردها (الغازيّة)، وهي تختلف حجماً وسُمكاً... ولكن هناك بين هذه الغوازي قطعة نقد ذهبية أكبر حجماً من الجنيه (العسمنلي)... ومعلقة هي أيضاً بكوردیلا حمراء... رأيت يد أمّي امتدت إلى تلك القطعة قبل أي قطعة أخرى... وقرأت ورقة مربوطة في "الفيونكة" وفهمت في ما بعد أن اسمها - وأعني القطعة الكبيرة - (أبو فرج الله)... وأنها تساوي خمسة جنيهات (عُسمنلي). فهي أثمن قطع النقد الذهبي الذي كان الناس يتعاملون بها في عهد الدولة العثمانية، وجمعت أمّي جميع الغوازي الذهبية... ومعها (أبو فرج الله)... وتركت القطع الفضية وهي (المجيدي)، و(نصف المجيدي) تركتها حيث هي.. منتشرة تحت الوسادة.

من المفروغ منه، أني لم يسبق لي أن امتلكت هذا العدد الضخم من (المجايدة)... وما دامت كلها قد وضعت تحت الوسادة، فهي ملكي... مهداة إلى شخصي... فأنا منذ اللحظة مالكها... ولا أستطيع أن أصف اليوم، الفرحة التي غمرت مشاعري كلها، إلى حد أني أحسست بأني (محصور) ولا بد أن أسرع إلى الحمام أو ما يسمونه (بيت الماء)... فلم أتحرك، بل ولم استصرخ (منكشة) لتأخذني إلى الحمام... فإذا بالحصر ينفلت على الفراش الوثير... وذهلت، وأنا أقع في هذا الخطأ أو هذه

الفعلة الشنيعة... وعلى الخصوص على هذا الفراش الوثير من الحرير المزخرف والمُوشى... ولكن ما باليد حيلة كما يقولون... فلم يكن أمامي إلا أن ألتزم الصمت والهدوء... وحين أحسست بوقع أقدام تقترب من غرفتي... تظاهرت بالنوم العميق... كانت التي دخلت الغرفة، ورأتني مستغرقاً في ذلك النوم الكاذب العميق، هي (أمي باجي) التي حين فتحت عينيّ قليلاً رأيتها وبين ذراعيها، صينية فيها وجبة غداء... وقفت إلى حافة السرير، فتظاهرت بأني قد فزعت، وأسرعت إلى الجلوس... ومع هذه الحركة - وهي واقفة - أسرعت إلى إزاحة الغطاء المُسدل على جسمي متظاهراً بالفزع والاشمئزاز... ولكن ما أشدّ ما كانت هذه العجوز السوداء رقيقة المشاعر... إذْ أسرعت تضع يدها على كتفي وتحملني على الاستلقاء كما كنت... ثم أخذت تردد كلمات التدليل التركية، وبنبرة فيها من الأسف على ما وقع، وعلى حالة الفزع التي تظاهرت بها.

لم يطل بي الأمر حتى خلّصتني هذه العجوز من الموقف كله... ثم أخذت تردّد معناها (لا تخف... لا تخف...)... ثم تشير إلى مكان جرح الختان... تريد أن تفهمني أن السبب هو الجرح... وفي نفسي حمدت الله على الخلاص من الأزمة. وعاد ذهني إلى الاشتغال بقطع النقود الفضة تحت وسادتي... كان السؤال الحائر هو: هل يتركونها لي حيث هي تحت الوسادة؟؟؟ أم أن أمّي ستجمعها وتأخذها كما جمعت وأخذت جميع القطع الذهبية من الغوازي و(أبو فرج الله) وحتى الجنيهات الذهبية (العسمنلي)... وبعد أن تناولت وجبة الغداء، بمساعدة الباجي وذهني محموم بالتفكير في (الأموال) المنتشرة تحت الوسادة.. وجدتها؟؟؟ وجدت الطريقة التي أحول بها دون إنتقال هذه الأموال من مكانها إلى حوزة أمّي كما هو المنتظر بالطبع.

ما كادت (أمي باجي) تترك الغرفة، والصينية في يدها.. حتى التفت إلى ما تحت الوسادة... لم أفكر في عدها وإحصائها... وإنما عمدت إلى قسمة المنتشر تحت الوسادة إلى شطرين متساويين تقريباً... فهذه الشطر القريب من الجدار يذهب إلى الجدار، ثم أتدبّر إخفاءه تحت (الكَرْيولَه) ... أما الشطر الثاني، الذي بقي، وكنت لا أشك في أن أحداً لم يُحصه بعد فقد وسَّعت إنتشاره على الوسادة ليظهر، وكأن أحداً لم يمْسَسْه أبداً.

وبهذا الترتيب... أقنعت نفسي، بأني (المالك الوحيد لكل ما ذهب إلى جهة الجدار ولم يكن أسهل من أن أدحرجها كلها إلى تحت (الكَرْيولَه) ... وأن أعيد

وضع الوسادة الطويلة المزخرفة الممتدة على طول السرير... فالقطع الفضة كلها الآن... تحت السرير... وهي تحت تصرفي... بها أستطيع أن أحقق الكثير مما ظللت أتمنى تحقيقه فلا يمنعني إلا أني لا أملك المال...

وقد يكون مما يجعل القارئ يدرك تفاهة الأماني والآمال، حين أفاجئه اليوم بأن أعظم الأماني في تلك السن، كانت أن أركب حماراً؟؟!! أتجول عليه في المناخة... وفي برحة باب الشامي... وكذلك في السلطانية... تلك المنطقة التي تطل على الحديقة الجميلة، التي لم نكن نراها إلا مُتلصّصين من خُرم الأبواب... أو من ثغرات في الجدار..

وأُمنية ركوب الحمار... يمكن أن تكون وليدة (الحصان) الذي كان يركبه (عمي) يذهب به إلى عمله في الصباح ويعود راكباً عليه وهو ببزته الرسمية بعد الظهر...

الحصان أُمنية بالغة الضخامة... وهي مستحيلة تماماً... أما الحمار فها هي النقود ملكي... وتحت السرير... لا يدري عن مكانها مخلوق... وفي المناخة يؤجّرون الحمير... للأطفال... ويمشي وراءهم (حمَّار)... ليقيهم شر السقوط...

فمتى أخلص من جرح الختان... لأذهب إلى المناخة وفي جيبي النقود، التي أستطيع أن استأجر بها حماراً... تخيّلت شكله... أبيض... قصيراً... بردعته حمراء... وأذنيه مندفعتان إلى الأمام... و... و... إلخ.

وهكذا أستطيع أن أقول إني خرجت من عملية الختان... بمكافأة غالية... النقود...

***

الختان..

متى أُشفى من جرح الختان، فيتاح لي أن أخرج إلى الشارع، وفي جيبي من النقود المخبأة تحت السرير، ما يمكنني أن أستأجر به حماراً أركبه، وأتجول به في المناخة، وهي الساحة الكبرى التي تتواجد فيها، ليس الحمير للتأجير فقط، وإنما أيضاً (العربيات)، التي يستأجرها الناس للإنتقال بها في المشاوير البعيدة، كالبساتين والمزارع، في قبا، وقربان، والعيون وخارج باب (الإستاسيون) حيث يصلون إلى المنطقة المعروفة باسم (أبيار علي).

***

في الواقع كان من يسمّونه (المضمّد) يجيء كل صباح لتغيير رباط جرح الختان، وتنظيفه... وكان رجلاً كبيراً في السن، أقرب إلى الشيخوخة... ومن آداب السلوك التي علّمونا إياها أن نحترم الكبار... فلا يكاد يدخل الغرفة، حتى أجلس مستعداً لتسهيل مهمته... وأدهشني أنه لم يكن ينبس ببنت شفة... يلتزم الصمت طوال الفترة التي يقضيها في أداء مهمته... حتى لقد توهّمت أنه أبكم... ومع ذلك وجدت نفسي من الشجاعة ما جعلني أرفع صوتي قائلاً: (متى يا عم... يمكن أخرج... أمشي في البيت أهبط إلى الحديقة الصغيرة،؟؟؟). فإذا به يبتسم ابتسامة عريضة مُطمئنة ويقول بعربية تعلمت في ما بعد أنها لهجة (أهل المغرب): ... اليوم... اليوم يمكن أن ترتدي "السِّروال" وأن تخرج وتمشي كما تشاء... ولولا أني أهاب الرجل من جهة وأحترمه من جهة أخرى، لوثبت من السرير على قدميّ... ولقبلت يده ولحيته الصغيرة البيضاء... سيطرتُ على أعصابي... ولم اقل كلمة واحدة... وما كاد يجمع أدواته في حقيبته الطبية من (المعدن) أو (النيكل)... ويخرج من الغرفة، حتى انزلقت عن

السرير واندفعت إلى الحمام... ورأيت أن لا أثر للجرح، إلا شيء من الاحمرار... وعدت إلى الفراش... ورفعت صوتي منادياً (أمي باجي) و(أمي منكشة)... لم تكن منكشة بعيدة، إذ كانت هي التي قادت (المضمّد) إلى الغرفة... وهي التي تتقدمه إلى بداية السلالم.... جاءت بمشيتها البطيئة الثقيلة... وهي تردد (الحمدلله... الحمدلله)... ثم تقول: (إنتي خلاص... ما شاء الله... ما شاء الله)... وحاولت أن ترفع صوتها المتحشرج بزغرودة... ولكنها زغرودة مخنوقة متقطعة ثم قالت: (إنتي تنامي... في الكَرْيولَه... أنا أجيب فطور)... واستدارت وخرجت.

ما كادت... تخرج حتى رفعت الوسادة لأرى ما تجمّع من جديد من قطع النقود... وكان بينها عدد من تلك الغوازي الذهبية... وكما فعلت في المرة السابقة شطرتُ المنتشر من هذه القطع شطرين دحرجتُ أحدهما إلى الفجوة التي تنتهي إلى تحت السرير... ونشرت الباقي على المساحة كلها لأوهم أمّي بأني لم ألمسها... وبطبيعة الحال تركت (الغوازي) إذْ لم أكن أعرف لها قيمة... ولم أر أحداً يتداولها في الأسواق... إضافة إلى ذلك لم أنس أنها (ذهب) وأن أمّي جمعت مثيلاتها مع الجنيهات (العُسْمنلي) وقطعة (أبو فرج الله) الكبيرة... فلا حاجة لي بها.

كان لا بد أن أعرف كم هي النقود الملقاة تحت السرير في ما يلي الجدار... كنت بالغ الحذر والحيطة، فلم أهبط وأدخل تحت السرير لأجمعها، إلا بعد أن جاءت منكشة بصينية الفطور... فتناولت (الشريك) والجبنة وشربت كوب الشاي على عجل... وإنتظرتها إلى أن عادت لأخذ الصينية... وبعد أن خرجت وأنا أسمع خطواتها الثقيلة مبتعدة عن غرفتي... هبطت، وتسللت تحت السرير وقد رفعت الجزء المنسدل من الشرشف إلى الأرض، وما هي إلا زحفة صغيرة حتى كنت أمام (أموالي)... كانت كثيرة... كثير منها من (المجايد) والقليل من أنصاف (المجيدي)... جمعتها بعناية ولهفة مع الرعب من أن تدخل إحداهن فتضبطني... لم تتسع كفاي للكمية، فجمعت طرف ثوبي ووضعتها فيه... وخرجت وأسرعت إلى مستقري على الفراش... وكانت العقدة التي واجهتها هي: (أين أخبئ كل هذا؟؟؟ وأدرت بصري في أنحاء الغرفة... فوجدتها... كانت علبة الصفيح للدخان الصغيرة المزخرفة التي توضع عادة على المنضدة أمام السيدات، وفيها دفتر ورق السجاير (اللف)، ققفزت إلى العلبة... أفرغتها من كل ما فيها من الدخان، في وعاء للزبالة في ركن الغرفة ومع الدخان ذلك الدفتر... وفي العلبة أفرغت جميع ما كان في طرف ثوبي من قطع النقد.

اكتفيت بحقيقة أنها (كثيرة)، فلا حاجة بي إلى عدها الآن... يكفي أنها في العلبة التي أخفيتها تحت السرير... ولكن في متناول يدي.

دخلت دوّامة التخطيط، للخروج من البيت... إلى المناخة... والحمير..

***

كان الذهاب إلى الكتّاب بعد شفائي من جرح الختان، هو أهم عقبة تعترض سبيلي إلى المناخة والحمير... صحيح أن موعد الكتّاب من الصبح حتى ما بعد صلاة العصر... فليس ما يمنع أن أركب الحمار بعد الخروج من الكتّاب... ولكن كيف؟؟؟ كيف أعلّل لغيابي عن موعد العودة؟؟؟ ووجدت أن الحل الوحيد أمامي هو ألا أذهب إلى الكتّاب في الصباح... والعريف الشيخ محمد بن سالم كان من الذين حضروا حفل الختان، فهو يعرف أني (طريح الفراش)... ولا بد أنه يقدر أن علاج الجرح استغرق مدة طويلة... ففي اليوم الذي يطلبون مني فيه أن أذهب إلى الكتّاب، أذهب إلى المناخة وفي جيبي كمية من النقود... أما الباقي فقد أخفيت العلبة في (بيت الماء) في الدهليز... في مكان لا يهتدي إليه حتى الجن..

وهكذا كان... إذ لم يمض يومان حتى بدأت حملة إعدادي للذهاب إلى الكتّاب... والحملة هي حفظ الباقي من جزء عم... وكنت قد حفظت الكثير نسبياً بحيث كنت أسبق جميع زملائي... والفضل في ذلك لأمي رحمها الله... إذ كانت تتفرّغ لتحفيظي سورة بعد سورة... تاركة كل عمل مهما كان حتى ولو كان لزوجها... وكان هو رحمه الله يعفيها من مطالبه بعد صلاة المغرب، مثل الشاي الذي كان يصرّ على أن يشرباه معاً... والمضحك، مع أني قد حفظت معظم سور جزء عمّ ولم أعد أحتاج إلى اللوح... ومسحه بالمضر... وكتابته بالحبر الأسود بخط العريف... المضحك أنه كان عليّ أن أتأبط هذا اللوح... وأن أقدمه ممسوحاً كل صباح... بعد أن أسمّع الشيخ ابن سالم ما كان مكتوباً فيه من القرآن. وأسمع منه كلمة (بارك الله فيك... بارك الله فيك)...

أما وقد طرأت خطة الهرب من الكتّاب، لأبدأ حركة ركوب الحمير في المناخة... فقد كان عليّ أن أحتاط لثلاثة أمور هي:

1 - إخفاء العلبة التي جمعت فيها قطع النقود... وقد أخفيتها في (بيت الماء) في الدهليز.

2 – اللوح، الذي يجب أن أمسحه يومياً... وأن أعود به مكتوباً بخط الشيخ ابن سالم.

3 – كيف يمكن أن أختفي عن عيون (محمد علي أو إسماعيل) وهما اللذين يقومان بشراء حاجيات البيت من الخضار واللحم، إلخ.

بالنسبة للوحِ الذي يجب أن أعود به مكتوباً بخط الشيخ... فقد قرّرت ألا أمسحه... فيظلّ مكتوباً وقدّرت أن أمّي لن تكتشف أنه مما كُتب قبل عملية (الختان).

أما عيون (محمد علي وإسماعيل)... فقد قلت لنفسي: (أنا الذي يجب أن أراهما، فأبتعد عن طريقهما، إذا كانا معاً أو أحدهما ماشياً في الساحة... ثم كيف يمكن أن يخطر في بال أحدهما أن الذي يريانه – وهو أنا – هو نفسه (عزيز راكباً حماراً)؟؟

***

نفّذت الخطة كما رسمتها في اليوم نفسه الذي أمرتني فيه أمّي أن أذهب إلى الكتّاب.. قبلت يدها... ومشيت أمامها متأبطاً اللوح... وفي يدي (جزء عمّ)... وعندما وصلت الدهليز وضعت اللوح في عطفة صغيرة مظلّمة في الدهليز، ومعه الكتّاب. وحرصت على ألا يظهر رنين قطع النقود في جيبي بأن لففْتها في منديل صغير..

انطلقت، وقلبي يكاد يقفز من صدري فرحاً بتحقيق أملي الذي عايشته أياماً وليالي وأنا على الفراش الوثير... ووصلت المناخة، حيث رأيت الحمير، والعربات... واثنين مما يسمّى (الفيتون)... وتقدمت إلى رجل له تلك الهيئة التي أعرفها لمن يسّمى (الحمّار) وقلت له:

– أبغا استأجر حمار يا عمّ؟

– وفين تبغا تروح بيه؟؟

– أتمشى..

– تتمشى؟؟ تتمشى فين؟؟

– أتمشى هنا في المناخة... وباب الشامي وكمان السُّلطانية.

– ولكن أنت تعرف تركب الحمار؟؟؟ أنت صغير يا ولدي.

– لا.. أنا أعرف أركب الحمير... أبغا واحد يعلمني ويمشي ورايا.

- يعني تبغا الحمار... وحمَّاره...

- أيوه يا عمّ...

والتفت إلى حيث كان هناك مركاز يجلس عليه شابان... ونادى أحدهما. وقال:

- هادا يبغا يستأجر حمار يتمشى بو.. لكن ما يعرف يركب.. يبغا يمشي معاه واحد.. هيّا شوف لو حمار صغير على قدُّه... حمار ما يجري كتير... ولا (يِعَنْفِصْ) وتمشي أنت وراه... حاسب عليه... لا يروح ولد الناس يطيح ويتعوّر.. فاهمَ؟؟؟

- فاهم يا عمّي...

التفت إليّ الشاب... وقال... هيّا شوف هادا الحمار جاهز بالبردعة الحمره... وصغير... على قدّك لكن ما قلت لي عمّي... كم أنا آخذ منه؟؟

ورفع عمّه صوته يقول:

- خلينا نستفتح... إللِّي يعطينا هوّه خير وبركة..

ساعدني (الحمّار) على ركوبِ الحمار الجاهز بالبردعة الحمراء... وانطلقنا في المشوار...

***

اتجهت صوب باب الشامي... ولكن لا أدري كيف التفت يساراً لأرى (كتّاب القبة) الذي يدرس فيه (يحيى شقيق حسين بخاري)... شعرت بأن قلبي يقفز من صدري فرحاً.. لو استطعت أن آخذ يحيى معي في هذه الرحلة... إنه هو الذي يعرف ما لم أعرفه بعد من المزارع والبلدان...

قلت (للحمّار)... أبغاك تودّيني عند كتّاب القبة... هاداك..

- كتّاب القبة؟؟ عند الشيخ حامد؟؟ لا يا خويا... هادا ما عنده إلا الفرش...

- لا أنت ما تدخل عنده... ولا أنا... بس ننادي على أخويا... يحيى.

- مين اللّي يناديه؟؟

- إنت..

- لا يا خويا.. لا.. الشيخ ما عنده غير يقوم عليّ بالجريدة اللّي في يده.

- طيب إنت وصّلني الكتّاب.. وأنا اللّي أناديه...

- وعطف الحمار... وصلنا باب الكتّاب... حيث سمعنا أصوات الأطفال مرتفعة عالية وهي تقرأ ومعها صوت الشيخ الرهيب..

كان الرعب يملأ قلبي.. ومع ذلك... كان إغراء اصطحاب يحيى في هذه الرحلة على الحمار أشد من أن يقاوم... وقفت عند الباب... واستعرضت الجالسين من الأولاد... وكان يحيى هو الأقرب إلى الباب... تلك هي طريقته يحرص على الجلوس بعيداً عن مدى جريدة الشيخ.

ناديته بصوت أقرب إلى الهمس... فالتفت... وأشرت له أن يجيء... وكان ذكياً... إذ سرعان ما ذهب إلى الشيخ... وأشار بيده إليّ وأنا واقف في الباب... لا أدري ما الذي قاله فإذا به يسرع إليّ ضاحكاً... بل مزحوماً بالضحك... وهو يقول:

- قلت للشيخ إنت أخويا.. وأهلي في البيت أرسلوك عشان تاخدني... يبغوني في البيت.

***

رأى يحيى الحمار بالبردعة الحمراء... والحمّار... لم يفهم شيئاً... ولكن لم يكن صعباً أن أشرح له كل شيء... وعدنا إلى صاحب الحمير... واستأجرنا حماراً ليحيى... الذي كان يعرف ركوب الحمار... واستغنى عن الحمّار... وهو يقول:

- خلاص... نروح (المصرع).

- المصرع؟؟؟ يعني فين؟؟

- يعني بلاد المدني... عند سيدنا حمزة..

انطلقنا... وكان يحيى يجيد قيادة الحمار ويعرف كيف يستحثّه على الركض... فقد انطلقت وراءه... خرجنا من باب الشامي... في طريقنا إلى (المصرع) إلى سيدنا حمزة...

كان المشوار بعيداً.. فما أكثر ما ضحكنا... وما أكثر ما تذكرنا حكايات زمان... وما أكثر ما مثّل لي حركات الشيخ حامد.. شيخ كتّاب القبة... كان رحمه الله جاحظ العينين أحول... له لحية سوداء كبيرة... وعلى رأسه عمامة بيضاء... وكان يحيى يصفه... ويصف هجماته على الأولاد... وينهي كل ضحكة من ضحكاته بأن يخلصه الله من وجهه.

***

بلاد المدني..

حتى ذلك اليوم، الذي أقدمت فيه على الهروب من الكتّاب واستئجار الحمار لي أولاً، ثم لصديقي يحيى الذي أغريته بالاحتيال للخروج من الكتّاب، ومرافقتي في التجوال على الحمير، لا أذكر أني ارتكبت تصرفاتٍ، أو هي مخالفات، بهذا المستوى... ولذلك فإن لي أن أسميها أول وأخطر تصرّف خرجت به على السلوكيات التي كانت أمّي رحمها الله تحرص على ترسيخها في حياتي..

وفي اللحظات التي كنت أتبادل فيها الحديث مع يحيى عن الشيخ حامد، وجبروته، وعن الشيخ العريف محمد بن سالم وأتساءل - بيني وبين نفسي - عن "المضْرع"، الذي قال يحيى إنه مزرعة لبيت (المدني)، وأنه بالقرب من (سيدنا حمزة) وجدت نفسي أتهيّب النتائج التي لا بد أن تترتب على هروبي من الكتّاب أولاً... ثم على ركوب الحمير... وأخيراً على هذه الرحلة إلى أمكنة لم يسبق قط أن سمعت بها..

لم نكن قد ابتعدنا عن باب الشامي الذي خرجنا منه في طريقنا إلى (المصرع) عندما بدا لي أن أتساءل عن (الحمّار الذي اتفقت مع مالك الحمير أن يرافقني... التفتّ ورائي فلم أر له أثراً... ولاحظ يحيى التفاتتي، فقال وهو يضحك:

- الحمّار؟؟؟ أنا قلت له... يرجع لعمه... أصلي أنا أعرف الطريق.. وما دام الدنيا نهار... ما في خوف..

لم أكن أخاف الليل أو الظلام... ولكن كلمة : (ما في خوف) تلمح إلى إن الخوف ليس من الليل أو الظلام... وإنما من شيء آخر... جال بذهني (الذئب) وغيره من الحيوانات المفترسة، التي يمكن أن تظهر في الليل.. وسألت يحيى:

- الخوف من الدياب؟؟؟

ففرقع ضحكة على طريقته وهو يقول:

- الدياب ما تخوّف يا عزيز... اللّي يخوِّف هو البدو اللّي يشلّحوا الناس وياخدوا كل اللّي في جيوبهم من الفلوس... وهادا إذا كانوا اللّي بيمشوا في الليل، ما هم مسلّحين..

- ويعني نحن مسلّحين؟؟

- لا... بس نحن رايحين نكون في البيت العصر.. يعني (ساعة الصرفة) من الكتّاب...

- أيوه صحيح... نحن لازم نكون في البيت ساعة الصرفة من الكتّاب..

- يا ويلنا إذا تأخرنا وعرفوا إنّا كنا غايبين.. عن الكتّاب..

- يعني، يا يحيى، نقدر نوصل "المصرع"... ونرجع البيت زي ما بتقول؟؟

- ولا يهمّك... ويمكن ما نوصل المصرع... نتمشّى، ولمّا نشوف الوقت قرّب من (وقت الصرفة) نرجع... والحمير بنفسها تجري ونحن راجعين...

ثم التفت يحيى إلى جبل تعلوه مبان بيض... وقال:

- هادي قلعة جبل سلع... وهيّه اللّي كان (الباشا) يحارب منها البدو اللّي كانوا محاصْرين المدينة مع الشريف..

- وأنتو كنتو في المدينة أيام هادي الحرب؟؟

- أيوه، نحن، ما رضي سيد (عبدالنبي) أنّوا يخلينا نسافر الشام، زي الناس اللّي سفّرهم (فخري) بالبابور... قعدنا في المدينة... لكن تعبنا تعب الويل...

- زيّنا نحن... سافرنا في البابور... وفي حلب تعبنا تعب الويل.. اسكت يا يحيى هادي حكاية طويلة... الناس كانوا بيموتوا من الجوع... ويطيحوا في الأزقّة... أموات وتشيلهم العربيات... كل عشرة مع بعض... ويدفنونهم كلهم في قبر واحد كبير...

- وإنت يا عزيز شفت بعينك الأموات؟؟

- كل الناس اللّي في حلب كانوا بيموتوا... وكنا بنشوفهم... وأنت ما تدري أنّوا أهلنا كلّهم ماتوا في حلب... وفي حما... وما رجع منهم إلاّ أنا وأمّي على جمل من ينبع..

- وهنا كمان... ناس كتير ماتوا من الجوع... سيدي (عبدالنبي) كان مخزِّن

في صهريج تحت الأرض، أرزاق.. حب.. ورز.. وسمن.. وفاصوليا، وحُمّص... وعشان كده ربّنا سلّم وما متنا بالجوع... جعنا كتير... عشان سيدي ما كان يخلينا ناكل إلا مرة واحدة في اليوم... ونقعد جيعانين طول النهار.. بس فيه ناس جاعوا... أكلوا الحمير الميتة وكمان أكلوا البِساس.. وسمعنا فيه ناس أكلوا الأموات كمان...

- قل لي يا يحيى... سيدك حسين كان بيأذّن زي هادي الأيام؟؟

- أيوه... الباشا لما قفَّل أبواب الحرم وجلس فيه مع الضباط... كان يسمح للمأذنين إنهم يدخلوا المناير ويأذّنوا... سيدي حسين... وكمان "النجدي"... وكمان الباشا يعطيهم مرتين في الأسبوع قنّيطة وعلبة لحم...

وفجأة توقف يحيى عن حكاياته... وقال:

- هيّا يا عزيز... هيّا نجري لا يلحقونا...

- مين اللّي يلحقونا؟؟

وأسرع يحيى ينعطف بالحمار الذي يركبه في اتجاه المدينة... وانعطف الحمار الذي أركبه أنا أيضاً... وقال يحيى وهو يستحث الحمار على الركض:

- شوفهم هناك.. تحت النخلة.. اتنين... هما اللّي لو حصلونا يشلحونا... ياخدوا الحمير... وياخدوا الحوايجِ اللّي نحن لابسينها... ونرجع البيت عريانين... والتفتُ حيث أشار... ورأيتهما فعلاً... اتنين من البدو... عريانين إلاًّ من لباسٍ يستر العورة... وفي يدِ كل منهم بندقية... أو ربما سيف.. إذ لم أتمكن من التحقّق مما أرى...

وانطلقنا لا نتوقف... ولا نلتفت إلى الوراء... وكما قال يحيى، كان الحماران يسرعان في الركض لأنهما يريدان العودة إلى مربطهما في المناخة، والتفت يحيى التفاتة سريعة فهتف يقول:

- لقد انفلتا وراءنا... الاتنان يا عزيز...

أدركني الرعب وأخذت أضرب الحمار، وأستحثه على المزيد من الركض.. إلى أن اقتربنا من (باب الشامي) فيه العساكر والضباط... وأدركنا أن الاتنين اللذين انفلتا وراءنا قد عادا واختفيا عن الأنظار... وما كدنا نجد أنفسنا تحت سقف الباب الكبير، حتى استوقفنا أحد الجنود وهو يقول:

- من الذي سمح لكما بالخروج من الباب؟؟

من جانبي التزمت الصمت، إذ لم أعرف ماذا يجب أن أقول.. ولكن يحيى تصدّى للإجابة بلباقته وذكائه فقال:

- ما أحد قال لنا لازم ناخد إذن... ونحن بنتمشى في النهار...

- الذي استأجرتم منه الحمير... من هو؟؟

- يا عمّنا... اللّي استأجرنا منه الحمير هوّه كمان ما أحد قال له لازم ناخد إذن...

وفجأة (شخط) فينا العسكري بصيحة مرعبة... ولكز أحد الحمارين بكعب بندقيته... وهو يقول:

- إذا شفناكم مرة تانية، ما عندنا لكم إلا الحبس... فاهمين؟

- فاهمين..

وانطلقنا نركض إلى مربط الحمير... وكان الرجل ينتظرنا... ولعلّه كان قلقاً إن لم يكن علينا فعلى الحمارين، إذ قال:

- بركة اللّي رجعتوا... بيقولوا... إن البدو اللّي في الطريق، بيشلحوا اللّي يكونوا بلا سلاح... وياخدوا كل اللّي معاهم..

- ما هو ما دامت الحكومة استغنت عنهم... وما عادت بتدفع لهم المعاش اللّي كانوا بيأخذوا أيام الحرب... أيش تبغاهم يسوّوا... يرجعوا لِلي كانوا فيه طول عمرهم.

- ولكن ما دام الحرب إنتهت... يعني..

- أيوه الحرب إنتهت... لكن هادول كلّهم كانوا زي العسكر... كانوا بياخدوا معاشات... والحكومة ما يمكن تستغني عن عسكرها..

- عسكر الحكومة موجودين... شوفهم في باب الشامي... وفي القلعة... وفي قلعة جبل سلع..

- العسكر اللّي بتقول إنهم موجودين، ما هم من البدو اللّي كانوا مع الشريف... هادول من الشام... ومن العراق... أغراب... ما هم العقيل... والبدو..

أثناء هذا الحوار الذي حرصت على ألا يفوتني، كنا تركنا الحمارين... وتقدمنا إلى صاحبهما وأخرجت اللفافة التي وضعت فيها قطع النقود... وقبل أن أفتحها قلت:

- كم يا عمّ؟

- هات يا ولدي اللّي يجي..

- بس كم يا عمي..

ورفض أن يحدّد... فأخرجت من اللفافة (مجيدياً)... ما كاد يراه حتى حملق عينيه وهو يقول بدهشة: (مجيدي براسه؟؟).

وأسرع يخرج من عبّه كيس نقود، وقبل أن يستلم المجيدي، أخذ يعد قطعاً من النقد بينها ربع مجيدي، وكمية من الهلل.. وناولني كل ذلك.. وأخذ المجيدي.. وهو يقول:

- يا ريت الطريق أمان.. وتيجي كل يوم.. أنت وصاحبك.. روح يا ولدي... ربّنا يرضى على أصلك..

وكان الوقت يقترب من وقت (صرفة الكتّاب).. فقال يحيى:

- أنا أروح الكتّاب... عشان آخذ اللوح... وإنت فين لوحك؟؟

- لوحي في البيت..

- لكن يا عزيز أنا شايف إنت عندك فلوس كتير... ما تقول لي من فين جبتها؟؟

زحمني الضحك وأنا أقول له:

- من الطهار... من اللّي كانوا يزوروني ويحطّوها تحت المخدة...

- طيب... ما دام كتير زي ماني شايف... ما تيجي أنا وأنت نبيع ونشتري... ونكسب يا عزيز... يمكن كل يوم مجيديين...

وانطلق في اتجاه كتّاب القبة ليأخذ لوحه، وتركني أفكر في حكاية (نبيع ونشتري) ونكسب كل يوم مجيديين. ولعلّها كانت المرة الأولى التي أدرك فيها أن المجيدي مبلغ كبير جداً والسبب هو فرحة صاحب الحمير، برؤيته.. وقطع النقود الكثيرة التي دفعها لي باعتبارها "فضلة" هذا المجيدي العظيم..

صحت أستوقف يحيى... وعندما التفت، قلت له:

- ترى بكرا... نتقابل هنا في الصبح.

- ليه أنت بطلت تروح الكتّاب؟

- لا.. بس كم يوم كده... وبعدين لازم أروح... لكن كم تبغا علشان نبيع ونشتري...

ضحك... ولم يتوقف... إذ كان حريصاً على أن يلحق الكتّاب لأخذ (اللوح)... ولكنه قال:

- إن كان تقدر تجيب خمسة مجايدة... يا سلام... نحن نسير (شبندر تجار...).

***

عندما دخلت دهليز البيت... كان الجنديان في مكانهما.. مما جعلني أطمئن إلى أنني لم أتأخر عن موعد (الصرفة من الكتّاب)... وأسرعت إلى العطفة التي خبأت فيها اللوح وجزء عمّ... وأخذتها... ولكن قبل أن استلم السلالم إلى الغرفة التي لا يزال فيها ذلك السرير الوثير... أحسست بأن (إسماعيل) يسرع بخطواته إليّ... ورأى اللوح والكتاب فقال بعربيته المكسرة:

- لكن ما دام... لوح هنا... كمان كتاب... هنا... أنت كنت فين؟؟؟

ارتبكت، وامتلأت رعباً... إذ انكشف الواقع، وهو أني لم أذهب إلى الكتّاب في ذلك اليوم ولا بد أن الأمر سيصل إلى أمي... وعمّي...

ظللت في مكاني، صامتاً... واللوح في يدي.. مع الكتاب.. إلى أن خطر لي أن أقول:

- أنا نسيت اللوح والكتاب هنا... أنا رحت الكتّاب من دون اللوح... ومن دون جزء عمّ... وكان واضحاً أنه لم يقتنع... وساوره الشك... ولكنه انسحب إلى مكانه صامتاً... وانطلقت أنا إلى (البستان) كما كنا نسمّي تلك الحديقة الصغيرة... وجلست على أحد المقاعد في مواجهة ذلك "المِنور"، الذي رأيت فيه بنت الخالة أم الفرج لأول مرة... ولم يطل جلوسي، وأنا أفكر في الكارثة المتوقعة إذا ما خطر لإسماعيل أن يبلّغ أمّي أو عمي... فإذا بالوجه الجميل يطل من المنور.... وقالت بصوت مسموع...

- إنت خلاص رحت الكتّاب اليوم؟؟

- أيوه... خلاص رحت الكتّاب...

- ورايحين يخلّوك في الكتّاب بعدما تحفظ جزء عمّ؟؟؟

- ما أدري... ليه؟؟

- لا... ولا شي... بس اللّي بيحفظ جزء عمّ في الكتّاب... لازم يروح المدرسة... المكتب... أنا سيدي حمزة، رايح يدخّل أخويا على المدرسة... اللّي يسموها المكتب... عشان هوّه حفظ جزء عمّ كله مع الشيخ اللّي ساكن جنبنا....

- طيب وفين هادي المدرسة؟؟؟

- أنا أقول لاستيتة فاطمة، وهيّه لا بد تعرف... والمدرسة التي فتحوها السنة في باب المجيدي بيقولوا إنّو اسمها (الراقية)... يعني زي (الرشدية) اللّي كانت في أيام العُسْمنلي...

فجأة كانت أمّي تتقدم نحوي، وملامحها تؤكد أنها غاضبة محتدمة... وما كادت تصل إلى مجلسي... حتى التفتت إلى المنور... التفاتة عاجلة... ثم تناولت يدي وجذبتني إليها بشدة..

أدركت... أنها قد علمت من إسماعيل أني لم أرجع من المدرسة باللوح والكتاب... وأدركت أن في الأمر ما يستلزم أن تعرف الحقيقة... وما وراءها... ومنها ركوب الحمير... وكل الذي جرى في ذلك اليوم...

***

ركوب الحمير..

ظلّت يدي في يدها ونحن نخرج معاً من الحديقة إلى المنزل... وقبل أن أغيب معها عن الحديقة التفتُّ نحو (المنْور) حيث كان وجه ابنة الخالة أم الفرج، لا يزال يشرق وعلى ثغرها ما يؤكد أنها مستغرقة في الضحك... شعرت بشيء من الغيظ... ولكني - مع ذلك - لم أنس حكاية المدرسة (الراقية) التي قالت إن أخاها (علي) سيدخلها.

ما كدنا - أمّي وأنا - نصل إلى الدهليز، حتى وقفت وهي تقول:

- إنت اليوم رحت الكتاب من دون ما تاخد اللوح والجزء؟؟

- ما أخدت اللوح والجزء..

- ورحت الكتاب؟؟؟

شعرت بغصة، وأحسست كأن الكلام يدور ويضيع في فمي... وأحسّت هي من جانبها بأني لا أجد ما أقوله... فرفعت صوتها كما لم يسبق أن سمعتها ترفعه وهي غاضبة قط... وقالت:

- إنت يا عزيز ما رحت الكتّاب... بس قولّلي... فين رحت؟؟؟

- رحت المناخة؟؟

- المناخة؟؟؟ وأيش رحت تسوّي في المناخة؟؟؟

أدركت أن لا فائدة من تأليف أي كلام فصارحتها بالحقيقة كلّها... فقالت:

- طيب.. ومنين جبت الفلوس اللّي ركبت بها الحمير مع يحيى؟؟؟

- من اللّي كانوا بيحطوها تحت المخدة.

- مين اللّي بيحطّوها يا عزيز؟؟؟

- الستات اللّي كانوا بيزوورونا بعد الطُّهار...

- لكن يا عزيز برضك بتكذب... كل الفلوس موجودة اليوم تحت المخدة... وأنا بنفسي جمعتها وشلتلهالك... هيا قوللي منين جبت الفلوس؟؟؟

- أنا كنت بأزحْلِق نص الفلوس اللّي تحت المخدة ورا السرير.

ولاحظت أنها تكتم ضحكة، وربما الذي زحمها بالضحك، هو كلمة (بأزحلق)... ولكنها تماسكت واحتفظت بجدِّيتها وقالت:

- والفلوس اللّي زحلقتها ورا السرير كتير؟؟

- نُص بالنُّص... أقسم الموجودة تحت المخدة قسمين... قسم أزَحْلقه.. وقسم أخلّيه.. لكن يا فقَّم - والله... والله - ما أخذت من الدهب ولا قطعة.

- طب وليه ما أخدت من الدهب شي... ما هي كلها هدايا لك إنت؟؟

- عشان أنا شفتك تلمّي الجنيهات (العسمنلي)... وهاداك الكبير: (أبو فرج الله)... وكمان اللّي اسمهم (غوازي)... وكمان عشان كل الناس ما يبيعوا ويشتروا بهادا الدهب...

حتى هذه اللحظة كانت يدي في يدها... ومن جانبي لم أحاول أن أسحب يدي... بل الواقع أني كنت أشعر بارتياح كبير، إذ عادت إلى ذاكرتي، تلك الأيام البعيدة في حلب وحماه... وفي زقاق القفل، تلك الأيام التي كانت تحرص فيها على أن تأخذ يدي الصغيرة في يدها وهي تخرج إلى السوق أو إلى أي مكان... والتزمتْ هي الصمت لحظات ونحن واقفين في الدهليز المظلّم... ثم قالت:

- اسمع يا ولد... إنت لازم تتأدب..

- إتأدب؟؟؟ يعني إيه يا فقَّم...

- يعني لازم نجازيك على كل اللّي حصل منك... وهادي المرة، لازم عمّك هو اللّي يجازيك..

- عمّي هو اللّي يجازيني؟؟؟ يعني إنتي رايحة تقوليله على اللّي حصل؟؟

- أيوه... أنا رايحة أقولْ له، وهو اللّي يجازيك... علشان تحرّم تركب حمير... وتحرّم تهرب من الكتّاب..

- طيب وليه هوّه اللّي يجازيني؟؟؟ إسماعيل يجيب لك الخيزرانة... واضربيني إنتي..

- لأ.. لأ.. يا عزيز... عشان العَمْلة التي عملتها كبيرة كتير.. ما يبغا لها غير الجزا اللّي هوّه يشوفه..

تركت يدي... وأخذت طريقها إلى السلالم... بينما ظللت في مكاني وقد داخلني من الرعب ما لم يسبق أن شعرت بمثله قط... فإن عمّي هذا لم يحدث أن مدّ يده بغير هداياه من الشوكولا وقد أصبحت أحبّه كثيراً... بل قد لا أبالغ إذا قلت إني أصبحت أشعر بأبوّته... فإذا أبلغته أمي، عن (الجريمة) فمن يضمن لي ألا أفقد حبّه وعطفه الكبير عليّ؟؟؟ ثم ما هو نوع الجزاء أو العقاب الذي سوف يوقعه عليّ؟؟؟ وذهبت إلى الدهليز حيث يجلس كل من الجنديين (إسماعيل ومحمد علي)... ولا شك أني كنت دامع العينين... رأياني... وأخذ كل منهما ينظر إلى الآخر... ودار بينهما حديث بالتركية... لم أفهم منه شيئاً... ولكن الأرجح أن محمد علي كان يلوم إسماعيل على إبلاغه أمّي بحكاية اللوح وجزء عمّ.

جلست على طرف الدكّة... كان قلبي مثقلاً ليس فقط بالرعب من العقاب الذي لا أعرف نوعه، ولكن من النتائج التي لا بد أن تترتّب على هذا الحادث في علاقتي به... لا بد أنه سوف يكرهني... وإذا كرهني، فقد يكره أمّي أيضاً... وسرعان ما دار بذهني أن أنبّهها إلى هذا الذي يمكن أن يقع... وكرّت على ذاكرتي ذكريات الماضي بكل ما عايشناه من آلام وأحزان... فنهضت مسرعاً من مجلسي على طرف الدكّة... وصعدت إليها... وارتميت في حضنها ووجهي تغمره الدموع التي ظلّت تنذرف منذ صعدت هي إلى الدور العلوي من الدهليز...

لا أشك في أنها قد أشفقت عليّ وآلمها أن أبكي... ولكنّها بدتْ مصممة على رأيها، فمسحت رأسي بيدها، وبمنديل في صدرها مسحت الدموع عن وجهي... ثم قالت:

- لازم يا عزيز... لازم أقول لعمّك على كل اللّي حصل منك... عشان ما يسير إني أخفي عنّه أي شيء... عيب... هوّه اليوم زي أبوك... ويمكن بيحبك أكتر من أبوك لو كان موجود... كيف تبغاني أخفي عنّه الحقيقة... أنا يا ولدي ما أعرف الكدب... ولا أبغا أكذب عليه أبداً.

***

استيقظت في صبيحة اليوم التالي مبكراً كما هي العادة قبل عملية الختان...

وظللت أتوقّع ما سوف ينزله بي عمّي من العقاب... فقد كنت أرى كيف يقف أمامه الجنديان وهو يخاطبهما... كان يخيل إليّ أنهما يرتعدان من الرهبة والخوف... هذا وهما جنديان... رجلان أعرف أنهما دخلا الحرب.. بدليل البندقيتين... وبعض القصص والحكايات التي سمعتها منهما بالعربية المكسرة. فكيف يكون الأمر معي أنا... ابن زوجته؟؟

لم يطل إنتظاري على السرير، فقد دخلت منكشة... وهي تقول:

- تعال... كلّم... بيه أفندي يبغاك...

أسرعت أهبط من السرير.. ومشيت خلفها إلى الدور الثاني... حيث المجلس وغرفة نومهما - هو وأمّي - ورأيته في بزته العسكرية... واقفاً... ولكنه مكفهرّ... في عينيه ونظراته كل ما يؤكد لي أن العقوبة التي قرّرها سوف تكون رهيبة قاسية إلى أقصى حد..

لم يتكلّم... وعندما تقدّمت آخذ يده لأقبلها كما هي العادة في تلك الأيام... سحب يده بغلظة وشدة... وأمسك بكتفي... وأدارني وقال: إمشِ.

ومشيت أمامه، وهو خلفي إلى الدهليز... حيث كان إسماعيل ومحمد علي واقفين كتمثالين وبالتركية طلب من إسماعيل العصا... وأعني (الخيزرانة)... وما كاد يجيئه بها حتى طلب مني الجلوس على الأرض... وأمر محمد علي أن يرفع قدمي الاثنتين... وأمر إسماعيل أن يضرب..

نفذ إسماعيل ما أُمر به... ضربة لاسعة حارقة أولى... وثانية... وثالثة... إلى الخامسة... حيث أمره عندها بالتوقف عن الضرب... بطبيعة الحال كنت أبكي ولكن من دون أن أصرخ... ومن المضحك هنا... أني لم أصرخ لسبب سخيف جداً.. وهو حتى لا تسمعني تلك التي تطل على الحديقة من (المنْور)... لا أريد أن تشمت بي... أو أن تسخر مني حين تراني...

بعد الضربة الخامسة ودموعي تنهمر على وجهي... أمرني أن أقف.. وقفت.. ثم أمر إسماعيل أن يفتح باباً في طرف الدهليز... لم يسبق أن فتحه أحد... ولا أدري إلى ماذا يفضي؟؟؟

كان مرحاضاً... أدخلني إليه إسماعيل، وأغلق الباب... وتركني خلفه في ذلك المرحاض الذي كان أول عهدي بالسجن أو السجون.

بعد أن أُغلق الباب عليّ... سمعت وقع أقدامه خارجاً... وسمعته يأمر بأن لا يُفتح الباب إلى أن يعود.

***

ظللت واقفاً في فسحة المرحاض الصغير... وطال وقوفي... وكرهت أن أجلس على أرضه التي لا بد أن تكون قذرة، وكان الظلام حالكاً يصعب أن أرى معه شيئاً... إنتظرت أن أسمع خطوات أمّي تهبط لتطمئن عليّ مثلاً... بل انتظرت (أمي باجي)... أو حتى (منكشة)... لا... لا أحد أبداً كلهم لا أثر لهم على الإطلاق... وأرهقني الوقوف على قدمّي، فاضطررت إلى الجلوس حيثما اتفق على أرض المرحاض... كانت الأرض جافة... باردة... وهذا جعلني أطمئن إلى أن الأرض ليست قذرة كما تبادر إلى ذهني في أول الأمر.

قد لا يصدق القارئ... أنهم عندما فتحوا الباب بعد صلاة الظهر وهو الموعد الذي عاد فيه عمّي، وجدوني مستغرقاً في نوم عميق... وإني لأذكر اليوم... إني بكيت في ذلك المرحاض... بكيت كثيراً... وعادت إلى ذهني ذكريات كثيرة بعيدة... وأحسست لأول مرة منذ تزوجت أمّي بالذل والهوان... إذ ماذا بعد أن أسجن في (مرحاض)؟؟؟ وماذا بعد أن تجفوني أمّي نفسها فلا يهون عليها أن تهبط فتراني... أو حتى تسمع صوتي... أو تقول لي أي كلمة تطيّب خاطري؟؟؟

حتى هذان الجنديان... في دكّة الدهليز القريبة من المرحاض... لم يخطر لأحدهما أن يسألني إن كنت أحتاج إلى شيء ثم (منكْشة) التي أعرف رقّة قلبها، حتى هي لم تقترب من المرحاض... ومثلها (أمي باجي)... أين كلمات التدليل التركية التي كانت تدللني بها؟؟؟ كل هذا حُرمت منه تماماً في هذا المرحاض المظلّم والدموع تملأ وجهي، استغرقت في ذلك النوم العميق... الذي استيقظت منه عندما فُتح الباب... وكان الذي فتحه هو عمّي نفسه... مدّ إليّ يده... فنهضت... ومشى ويدي في يده... وأخذنا نصعد إلى الدور العلوي من دون أن يقول هو أي كلمة... وإنتهى بنا المشوار إلى السرير الوثير... سرير عملية الختان... وفي هذه اللحظة دخلت أمي... لم تكن محتدمة أو غاضبة... ولكن كان واضحاً أنها كانت حزينة... ولعلّي كنت لا أعرف ما تعانيه إلا من هذا الحزن الذي يطل من عينيها...

لم يقل هو... ولم تقل هي شيئاً... كل ما حدث هو أنها أزاحت غطاء السرير... وقالت:

- هيا... انسدح الين يجي وقت الغدا.

انسدحت.. وأغمضت عيني... لتعود إلى ذهني ذكرى الحمارين اللذين ارتفقناهما - أنا ويحيى - وتذكّرت على الفور، تلك العلبة التي خبأت فيها النقود... واللفافة التي كنت أحملها وأخرجت منها (المجيدي العتيد)... وكلمة يحيى (إن كان عندك خمسة مجايدة... نحن نكون شبندر تجار).

نبيع ونشتري... هي الكلمة التي لا تزال تتردّد على ذهني... والعلبة المخبّأة، في مكانها السري الخفي... ممتلئة بالنقود... فلماذا لا نبيع ونشتري؟؟؟

***

«شبندر تجار» بخمسة مجايدة..

كانت المفاجأة التي واجهتني بها أمّي في صباح اليوم التالي لتلك (العلقة) والسجن في المرحاض، أنها سوف تصحبني إلى العريف الشيخ محمد بن سالم، ولذلك جعلتني أسرع في ارتداء ملابسي، بينما ارتفقت (ملاءتها)... ولفت نظري أنها لم تطالبني بأن أتأبط اللوح وكتاب (جزءُ عمّ)... من جانبي لم أسألها عن السبب في الذهاب إلى كتاب الشيخ محمد بن سالم... كما لم ألفت نظرها إلى أننا نخرج من المنزل من دون اللوح والجزءُ... رجّحت في ما بيني وبين نفسي، أنها سوف تبلّغ الشيخ عما اقترفته من الأخطاء الكبيرة، وهي الهروب من الكتّاب، وركوب الحمار... ليقوم من جانبه - بدوره - في إعطائي علقة في الفلكة التي لم يسبق للشيخ أن عاقبني بها قط، لأني كنت دائماً (حافظ اللوح) بل وأصبحت بفضل قراءة سور القرآن الكريم في جزء عمّ على يد أمّي كل ليلة، وحفظها من دون خطأ... أصبحت سابقاً لزملائي ليس في (الحفظ) فقط بل في قراءة الخط المطبوع في الجزء، وهو لا يختلف، عن الخط الذي يكتبه لي العريف في (اللوح)...

عند انعطافنا في الشارع إلى باب المجيدي وكنت أمشي أمامها، لمحت زميلي (مالك خليفة) متأبطاً اللوح في طريقه إلى الكتّاب... وقد التفت إليّ، ولكنه ظل يمشي بعيداً عنا لأنه أدرك أن التي تمشي خلفي هي أمي... وكالعادة عند بواب (الباب الكبيرة) سألته أمّي عمّا إذا كان الشيخ في الكتّاب... فقال إنه قد دخل منذ قليل... وهنا تطوّع (مالك) وهو يقول:

- أنا أقول له، إنكم تبغو تقابلوه...

جاء الشيخ وما كاد يراني، حتى ابتسم، وهو يردّد (ما شاء الله... ما شاء الله) ثم أخذت أمّي تقول:

- أنا يا سيدي الشيخ جيت معاه اليوم عشان أشكركم... هادا الحمدلله (فك الحرف) وحفظ جزء عمّ كله.

وقاطعها الشيخ يقول:

- أيوه... الحمدلله يا بنتي... الشكر لله... هادا دايماً سابق إخوانه... ومن يوم ما جبتيه إلى اليوم ما أحوج نفسه لأي كلمة... ابشرك يا بنتي إنو رايح يبيض وجهك ورايح يكون رجّال بإذن الله..

- عشان كده يا سيدي الشيخ أنا جيت عشان أشكركم... وعشان أخبركم أني رايحه أدخله المدرسة اللّي انفتحت، يقولوا اسمها (الراقية)...

تهلّل وجه الشيخ محمد بن سالم، بل واتّسعت ابتسامته ونظراته الحنون، وهو يقول:

- أحسن ما تسوّي يا بنتي... أيوه فتحوا المدرسة (الراقية) اللّي كانت هيّه يسمّونها (الرشدية) في أيام الأتراك... وأنا أعرف مدير المدرسة السيد حسين طه... والسيد ماجد عشقي... وديه للسيد ماجد وقوليله... العريف محمد بن سالم يسلم عليك... وهوّه اللّي يقبله في المدرسة، ما دام فك الحرف. وإن كان تحتاجي أروح معاكي... انتظريني عند الباب... وأنا آجي معاكي..

- لا يا سيدي الشيخ... ما أبغاكم تتعبو... أنا أروح للسيد ماجد عشقي... اللّي يمكن يعرف أبو (عزيز)...

- رحمة الله عليه... رحمة الله عليه... حتى أنا أعرفه...

- لكن ما جانا خبر إنو مات... هادا غايب من زمان قبل ما يسفرنا فخري...

- على كلٍّ رحمة الله عليه... حي أو ميت... هيّا روحي للسيد ماجد وإذا احتجتي لأي شي أنا مستعد آجي وأقابله، وما أظن تحتاجي... عشان الولد ما شاء الله... فك الحرف... وما دام فك الحرف... رايح السيد ماجد يقبله... هيا... ربّنا يكون في عونك ويبارك لك في هادا الولد اللّي رايح يسير إنشاء الله رجّال يعوّضك عن صبرك وتعبك عليه.

وإلى أن انتهى هذا الحوار بين العريف ابن سالم وبينها، كنت أتابع مشهد أولئك الزملاء الذين قضيت معهم فترة من الزمن، نحفظ اللوح، وفي الوقت نفسه نمارس فنون الشقاوة التي لا أدري اليوم ما الذي كان يغرينا بممارستها، ومنها على الخصوص

تكسير أباريق الوضوء وتفريغ الحنفية من الماء، وعندما يحين وقت الصلاة، نعمد إلى التيمّم... لم يخطر بذهني في تلك اللحظات، أنها النظرة الأخيرة وآخر العهد بهذا الكتاب، الذي أدين له حتى اليوم بالفضل الكبير... ولن أنسى أن اللوح والمضر، وهجاء الحروف، بالفتحة والكسرة والضمة، وبقية متعلّقات القراءة، قد تلقيتها في ذلك الكتاب، وعلى يد ذلك الشيخ الكبير العريف محمد بن سالم رحمه الله.

ما كاد ينتهي الحوار، وتأخذ أمّي طريقها للخروج من باب الحرم حتى انتبهت إلى أنها تذهب بي إلى المدرسة (الراقية)، التي لا أدري كيف وصلت إلى قرار إلحاقي بها، ولا أدري أين هي هذه المدرسة... وكيف تهتدي إليها، وهي تذهب بي إليها لأول مرة.

لم يطل تساؤلي، إذ أخذت أمّي يدي في يدها، كما أَلِفَتْ أن تفعل، في كل مرَّة تخرج فيها من المنزل، ولا أستطيع اليوم أن أصف ارتياحي، ولا أن أسرد ذكريات هذه المشية معها في حلب أو حماه... حيث كانت بعد وفاة جدي، هي التي تتولى بنفسها مراجعة الدوائر الحكومية التركية - وهم ينظمون انسحابهم من حلب - لتحصل على الأوراق التي تحتاجها للعودة إلى المدينة بعد الانسحاب... رحمها الله... كانت لا تنقصها الجرأة، فلا تتردّد في مناقشة المسؤول الذي تراجعه في هذا الأمر أو ذاك، مناقشة تصل إلى حد ما يشبه تذكيره بأنه مسؤول عن إنجاز المعاملة.. وأنها ستضطر إلى مراجعة من هو أكبر منه مقاماً إذا تأخر الإنجاز...

ما هي إلا خطوات، حتى رأيت ذلك المبنى في ساحة باب المجيدي، بالقرب من باب الحرم، أخذنا نتجه إليه حتى وقفت بي عند باب المبنى المغلق، ولكن على كرسي خشب جلس رجل عجوز، سألته أمي:

- هيّه المدرسة مقفولة اليوم؟؟؟

- لا... ما هي مقفولة... بس لازم نقفلها ساعة الفسحة عشان ممنوع خروج التلاميذ..

- طيب... أنا أبغا أقابل السيد ماجد عشقي.

- مدير التحضيرية... موجود... أوقفي عندك وأنا أدخل آخدلك إذن منه.

نهض عن كرسيه بنشاط وخفة وحركة... وعَبْر فتحة الباب الضيقة دخل وغاب دقائق ثم عاد وهو يقول:

– السيد في الغرفة اللّي على يسارك وإنتي داخلة... ينتظرك..

دخلنا، وكان باب غرفة السيد ماجد مفتوحاً... وهو وراء مكتب خشب صغير... وخلفه دولاب فيه صفوف من الكتب، وما كدنا نخطو عَبْر الباب حتى ارتفع صوته يقول:

– ادخلي، يا بنتي... واجلسي إنتي والولد... شو في عندك الكرسيين هنا.

وجلسنا، وتكلمت أمّي باختصار، وبصوت منخفض.. وكان أهم ما قالته إني قد (فكّيت الحرف) في كتّاب الشيخ العريف محمد بن سالم... وإنه هو الذي أمرها بأن تتقدّم إليه..

التفت السيد ماجد إليّ وهو يقول:

– إنت فكيت الحرف؟؟

– أيوه... وحفظت جزء عمّ كله.

– طيّب.. تعال هنا.. وعندما وقفت أمامه – وبيني وبينه المكتب الذي يجلس خلفه – وضع أمامي صفحات ورق مكتوبة بحروف كبيرة... هي نفس الحروف التي تعلمت قراءتها، (في اللوح) أولاً... ثم في (جزء عمّ)... وقال لي وهو يشير بطرق القلم الرصاص بين إصبعي يده السمراء الكبيرة:

– إقرأ من هذا السطر.. وسمِّعني... يعني إرفع صوتك...

لم أجد أي صعوبة في ما طلب مني قراءته... قرأت السطر الذي كان يسير بقلمه الرصاص على كلماته واحدة بعد الأخرى... ثم هبط بالقلم بين إصبعيه إلى سطر مكتوب في آخر الصفحة، وهو يقول:

– طيب.. هيّا إقرأ هنا كمان... وإرفع صوتك..

ومرة أخرى قرأت بسهولة السطر كله.. ورفعت وجهي أنظر إليه، لأرى وجهه الأسمر النحيل تحت (العمة المدني) متهلّلاً، ترتسم على فمه ابتسامة... أو مشروع ابتسامة... وسحب الورقة إليه وهو يقول:

– خلاص.. يا بنتي... هادا ولد شاطر... رايحين نقبله في سنة أولى (تحضيري) هيّا اعطيني اسمه.. واسم أبوه...

أخرج من درج مكتبه دفتراً كبيراً وطويلاً أسود التجليد... وتناول القلم البوص الذي

كان غارقاً في الدواة الزجاجية أمامه، وأخذ يكتب ما تمليه عليه أمّي من معلومات... وعندما ذكرت له اسم ابي (زاهد)... تساءل أهو (ميّت) أم (مسافر)... وقصت عليه قصة سفره الذي لم يعد منه... وأضافت أنها الآن متزوجة بعد أن حصلت على الطلاق منه من المحكمة على المذهب المالكي... ولم تختصر قصتها... فقالت له شيئاً عن حماة وحلب وموت أبيها (جدي) هناك... بدا الأستاذ مهتماً بما كان يسمعه منها... وكان هو أيضاً من الذين هاجروا من المدينة أيام الحرب.. ولكنه لم يبق في الشام.. بل ذهب إلى اسطنبول، وعندما انتهت الحرب عاد إلى المدينة... ليعمل في هذه المدرسة... التي كان يعمل فيها قبل الحرب والتي كانت تسمّى (المدرسة الرشدية)... ورفع صوته منادياً:

- حمزة سليم... يا حمزة...

دخل المُنادى - حمزة سليم... ووقف متأدباً... ويسمع من السيد ماجد:

- خد هادا التلميذ... يدخل الصف الأول... وقول للعريف (عبدالحفيظ حماد) يجلِّسه في الرَّحلة اللّي فيها (أبو الفتوح) ولد الناظر.

والتفت إلى أمّي يقول:

- وهوّه بالطبع يعرف يروح البيت... فين بيتكم؟؟

وخلف (حمزة سليم) الذي تلقى الأوامر من السيد ماجد عشقي.. مشيت تاركاً أمّي تنهض هي أيضاً لتعود إلى البيت. وأنا أسمعها تتحدث إلى السيد ماجد باللغة التركية كلاماً لم أعْنَ بأن أفهم منه شيئاً... ولكني أدركت أن السيد ماجد يعرف التركية... وإن كانت ملامحه لا تدلّ على أنه تركي...

ما هي إلا خطوات قليلة حتى وقف بي حمزة سليم أمام باب طرقه... وعندما فتح رأيت الفصل والتلاميذ كل ثلاثة على مقعد كنا نسميه (الرَّحلة..) وكل منها مزوّد بمنضدة، فيها لكل تلميذ (درج)... وكما أمر الأستاذ السيد ماجد عشقي، نهض العريف (حمّاد) وأجلسني.

كانت تلك هي المرة الأولى في حياتي، التي أرى فيها التلاميذ يجلسون بهذا النظام... وقد كانت أرض تلك الغرفة مفروشة بحصير نظيف أصفر اللون... لم ألتفت إلى المدرّس الذي كان يجلس على كرسي وظهره إلى الجدار.. أمام صفوف المقاعد. وحين جلست إلى جانب أبو الفتوح رأيت الأستاذ المدرّس فارتبكت

قليلاً... وهنا لكزني (أبو الفتوح) وهمس يقول: (ما سلّمت على الأستاذ... قوم سلّم على يدّه...) وقبل أن أنهض لأنفّذ ما أشار به زميلي... صاح الأستاذ يقول:

- إذا ما سكت يابو الفتوح... أنادي حمزة سليم يطلعك برّة..

خرس أبو الفتوح... والتزمت مكاني إذ اتّضح لي أن المطلوب هو التزام الصمت والإصغاء إلى ما يقوله المدرّس... وأخذت أصغي بإنتباه... فاستأنف الأستاذ كلامه عن (جدول الجمع) في الحساب... وهو مادة لم يسبق لي بها أي صلة... ولكن كنت أعرف العد إلى (100) وأن عشر مئات تساوي الألف... والفضل في ذلك يعود لتلك الأيام التي كنت أعدُّ فيها الأيام بحبات الفاصوليا في دهليز بيتنا في زقاق القفل... وأعني أيام الشهور الباقية لبلوغي السن السابعة من العمر التي إذا بلغتها يصح لأمي أن تتقدّم بطلب الطلاق من أبي الذي سافر قبل الحرب ولم يعد.

وارتفع صوت الأستاذ يسأل أحد التلاميذ:

- ما دام عرفنا إنّو 7 + 7 تساوي 14... مين منكم اللّي يقدر يقول لي 70 + 70 تساوي كم؟ وارتفع عدد من الأيدي وإصبع السبابة في كل منها منفلت بينما بقية الأصابع مجتمعة... وكانت هي تلك المرة الأولى التي أشهد فيها حركة من هذا النوع... وإصبع السبابة منفلت مرتفع... وأخذت الإجابات تتلاحق.. والأستاذ يرفضها... وحمدت الله على أنه لم يطلب مني إجابة... وأخذ هو يشرح كيف نستنتج أن حاصل جمع 70 + 70 تساوي مئة وأربعين.

وفجأة سمعنا صوت (صافرة) نسميها (صُفيرة)... ونهض الأستاذ وخرج... وأخذنا نخرج من الفصل لأسمع أكثر من زميل من الزملاء، يستوقفني ويسألني عن اسمي... ثم يسألني إن كنت قد دخلت مدرسة قبل هذه المدرسة... فإذا قلت:

- "لا.. أنا دخلت كتّاب العريف ابن سالم..." يسمع أكثر من واحد منهم يقول:

- كم مرة أكلت علقة بالخيزرانة المبلولة؟؟..

خرجنا إلى فناء المدرسة وهو عبارة عن ساحة مستطيلة ممتدة من باب المدرسة إلى باب يقابله... وإلى اليمين سلالم رأيت عدداً كبيراً من التلاميذ يهبطون منها ورفعت بصري لأرى الدور الثاني... شرفة أو (بلكونة طويلة) تطل على فناء المدرسة ومن التلاميذ من يقف يتحدث مع زميل له وأيديهم تمسك الدرابزين من الحديد المشغول.. وقف إلى جانبي (أبو الفتوح) وهو يقول:

- هادول تلاميذ الراقية... كلّهم فوق..

- طيب.. لكن ما هو نحن كمان في الراقية..

- لا نحن تحضيري... وبعد التحضيري... فيه فوق التأهيلي... وبعدها الراقية..

- يعني كم شهر، إلين نوصل الراقية؟؟

- كم شهر؟؟ قول كم سنة... التحضيري سنتين... والتأهيلي سنة... والراقية ثلاث سنوات ولاّ أربعة...

وضحك ضحكة هادئة وهو يقول:

- يعني نكبر، ونشيّب ونحن في هادي المدرسة... قول لي إنت جبت معاك غدا؟؟

- لأ.. أنا كنت آخذ "قُفّة" الغدا في الكتّاب... لكن أُمي ما أعطتني القفة اليوم.

وعاد يضحك وهو يقول:

- خلاص... إن كان عندك فلوس... حمزة سليم عنده شريك وجبنة... والشاهي كمان... والغدا اللّي أنا جايبه يكفينا نحن الاتنين..

هكذا بدأت أول يوم من أيام المدرسة (الراقية)... في موقعها من ساحة باب المجيدي ومع هؤلاء الزملاء، وفي مقدمتهم هذا الذي أمر السيد ماجد عشقي أن أجلس في (رحلته) لأنه آخر تلاميذ الفصل، أبو الفتوح ولد الناظر.

كانت المفاجأة عند وقت الغداء في المدرسة، أني في اللحظة التي كنت أمشي فيها مع (أبو الفتوح) إلى حمزة سليم لشراء الشريك والجبنة وفنجان الشاهي، لأن أمّي قد سبق أن زودتني بقطع من النقود عند خروجنا من المنزل في مقعد بني حسين إلى الكتّاب ثم هذه المدرسة... وكنت أقنعت أبو الفتوح بأني لا أريد مقاسمته غداه الذي قال إنه يكفينا نحن الاثنين، ما دمت أحمل من (الفلوس) ما يكفي لشراء ما يبيعه حمزة سليم... كانت المفاجأة أن حمزة هذا ما كاد يراني أقف أمامه حتى قال:

- أنت اسمك عزيز؟؟

- أيوه نعم اسمي عزيز...

- هيّا خذ هادا (السفرطاس)... فيه أكل... أرسلوا لك هوه من البيت، مع واحد عسكري..

كان أبو الفتوح يسمع... فالتفت إليّ وهو يقول:

- هادول أهلك يحبوك كتير... جيْبك مليان فلوس.. وكمان يرسلوا لك الغدا... وكمان مع واحد عسكري.. ليه أبوك باشا؟؟

- لأ.. أنا أبويا مسافر من زمان... وما رجع - وأمّي متجوّزة (عمّي)... ضابط وعنده اتنين عساكر...

- يا بختك.. خلاص إنت صاحبي... هيّا تعال نتغدّى سوا...

- فين نتغدّى؟؟

- شايف هاداك الباب اللّي في آخر هذا الحوش... ندخل منه نلتقي كل التلاميذ بيتغدوا هناك.

***

في اللحظات التي كنت أمشي فيها إلى جانب (أبو الفتوح)، وفي يد كل منا هذا الذي يسمّونه في المدينة (سفرطاس) وأخواننا المصريون يسمونه (عمود) وأظنه يسمى في مكة وجدة (مطْبقية)، في طريقنا إلى تلك الغرفة أو القاعة التي يتناول فيها التلاميذ وجبة الغداء... كنت أشعر بأني أكتشف قلب (أمي)... وأني كنت فيه كما ظللت منذ فتحت عينيَّ على الحياة... ولم يكن فيه أبي الذي سافر وتركني في حضنها وعمري تسعة شهور.. وأحسست كأن قلبي يطير من صدري فرحاً... ولو كان يسعني أن أراها في تلك اللحظة لألقيت بنفسي على صدرها أقبّلها وأقبّل يديها... فهي التي أخذتني بيدها إلى كتّاب العريف الشيخ أبن سالم، وهي التي جاءت بي اليوم إلى المدرسة الراقية.. ثم ها هي لم تنس أن تبعث إليّ الأكل في هذا (السفرطاس)... ولا أدري بأي شعور، أو ضمير، أو وجدان، أفسّر ما دار بذهني في هذه اللحظات مع تيار من ذكريات العمر معها في تلك الرحلة التي قضيناها في الشام أقسى معاناة الجوع والرعب، ودفن الموتى من أهلنا... ثم هذا السؤال الذي وجدته ينهش صدري وهو أنا في قلبها... وليس فيه أبي... ولكن أليس فيه هذا الرجل الذي أصبح زوجها؟؟.. لا بد أن أعترف اليوم أنه كان سؤالاً يرفضه الواقع المترف الذي أصبحت أعيشه في كنف هذا الرجل - كان سؤالاً فيه الكثير المخزي من الجحود... لأن هذا الرجل كان يعاملني بشحنة من الحب والحنان، لا أبالغ إذا قلت إنها ربما أكثر كثيراً من حنان أمّي نفسها.

على أية حال، لا بد أن القارئ يدرك أني كنت صغيراً، أخطو إلى العاشرة من

عمري وإن كان مما يثيره ويثيرني اليوم - أن تكون النفس الإنسانية في تلك السن القابلة للاستجابة - ربما التلقائية - لنوازع النكران والجحود التي لا ندري كيف تتم في ضمير الإنسان ووجدانه حتى في تلك السن.

***

ما أكثر الذكريات في القسم التحضيري من المدرسة الراقية - ومع (أبو الفتوح) بالذات، فقد كان ممن يوصف - ليس بالذكاء - وإنما بفنون من (الشقاوة) التي لا تخطر ببال أحد من تلاميذ تلك المرحلة سواه... فمن هذه الذكريات ذلك التصرف الخبيث ولكنه المضحك في الوقت نفسه.

كانت الحصة الأولى وكل يوم لقراءة القرآن الكريم، ومن جزء تبارك كما تعلمنا أن نسميه... وكان أستاذ الحصة من أجلّاء القراء - كما عرفته بعد أن كبرت، وعرفت الدنيا... كان الأستاذ يدخل الفصل، فيرتفع صوت العريف (الحماد) بأمر عسكري من كلمة واحدة هي: (أحترم).. فنقف وكفوف أيدينا اليمني على جباهنا (مثل العسكر) ونظلّ واقفين ولا نجلس إلى أن نسمع منه (جلوس) فنجلس ونلتزم الصمت بينما يأخذ الأستاذ مجلسه على كرسيه، أمامنا، وخلفه السبورة السوداء... وكان رحمه الله لا يكاد يستقرّ في مجلسه، حتى يرتفع صوته آمراً:

- اقرأ يا ولد!

والقراءة هناك تكون على أساس متوالية مقننة تبدأ من العريف ثم من يليه وهكذا إلى أن تصل إلى (أبو الفتوح) ثم إليّ وكنت آخر تلاميذ الفصل.

لكن الأستاذ يكاد لا يسمع من القارئين بهذه المتتالية، إلا العريف ثم الذي يليه، حتى تراه قد استغرق في نعاس، بل هو نوم عميق،... فإذا حدث أن مال عنقه أو انحنى برأسه على صدره، يرتفع صوته مرة أخرى، قائلاً من دون أن يفتح عينيه:

- إقرأ يا ولد.

وهنا تجيء المهزلة، أو التصرّف الخبيث الذي ابتكره زميلي (أبو الفتوح) وهي تبدأ على التحديد من حشرة (الخنفساء) السوداء التي لا أدري لماذا كانت كثيرة الظهور في فصلنا.

فقد جاء (أبو الفتوح) ذات صباح وفي جيبه علبة صغيرة فيها عدد من هذه الخنافس وجلس إلى جانبي وفتح غطاء العلبة ليريني ما فيها... كانت ثلاث خنافس ثم أخرج

من جيبه أيضاً (عقرباً)... لا أخفي أني تقززت... وكدت أبتعد عنه... ثم فهمت أنه هو الذي صنع تمثالاً للعقربة من مادة سوداء كنا نسميها (زفت)... كان التمثال بالغ الدقة والإتقان بحيث قد لا يشك من يراه أنه (عقربة) فعلاً، وفي نهاية فصوص ذيلها المعقوف إلى أعلى شوكة كما هي صورة العقربة المألوفة.

***

الخنافس الحية..

والقارئ لا بد أن يتساءل عن علاقة الخنافس بتمثال العقربة؟؟ وكان هذا هو السؤال الذي همست به في أذن (أبو الفتوح) فضحك ضحكة خافتة وقَلَبَ تمثال العقربة - لأراه محفوراً، وأخذ يتمم العملية... وضع إحدى الخنافس في الحفرة، أو الفراغ المعدّ لها في التمثال كانت أصغر مما يجب... فجرّب الثانية، واستقرّت الثالثة... فطوَّقها بما حولها من الزِّفت... ووضعها أمامي على المنضدة، فأخذت تمشي (عقربة) بكل شكلها الخطر.

كان الأستاذ قد رفع صوته بكلمة (اقرأ يا ولد) ثم استغرق في النوم كعادته... فإذا (بأبو الفتوح) ينهض عن مقعده، وينطلق على رؤوس أصابعه إلى الأستاذ، ويضع العقربة على صدره تقريباً..

الأعجب أن تلاميذ الفصل كانوا يتابعون حركة أبو الفتوح وانتظروا إلى أن عاد إلى مقعده، وقد أخذت العقربة تمشي على صدر الأستاذ، ليصرخ أحدهم:

- عقربة... عقربة يا أستاذ..

ويتصايح آخرون:

- عقربة... عقربة يا أستاذ.

ارتعب الأستاذ طبعاً ولا أدري كيف وقع بصره على صدره والعقربة لا تزال تتسلَّق أو تسرح عليه، فأخذ يصرخ هو أيضاً:

- العقربة... العقربة يا حمزة... يا حمزة...

نهض عن الكرسي الذي يجلس عليه لتسقط العقربة وهو لا يزال يردد (العقربة... العقربة يا حمزة)..

وقبل أن يسمعه (حمزة سليم) ويدخل الفصل وفي يده (فردة نعاله الثقيلة)، كان الأستاذ قد خرج وهو لا يزال يردّد (العقربة... العقربة).

العجيب أن العقربة قد سقطت على الحصير الأصفر، ولم تتوقف عن الحركة... كانت تمشي، وذيلها المعقوف بشوكته مرتفع إلى أعلى، ولم يسع حمزة سليم إلاّ أن ينقض بفردة نعاله الثقيلة على العقربة.

هنا كانت (الفضيحة)، فقد تبطط تمثال العقربة وفيه الخنفساء اللعينة على الحصيرة، وأدرك حمزة (اللعبة)... حرص على أن يرفعها كما هي. ومن دون أن يتكلّم خرج بها في يده من الفصل.

كان الفصل - قبل الفضيحة - يضج بالضحك والصخب... ولكن بعدها اصفرَّت الوجوه، وأخذ كل منا يحملق في الآخر... وهنا كانت البادرة التي لا أزال معجباً بها... بهؤلاء الأطفال وأكبرهم - العريف - لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره.

كلنا كنا نعرف أن (أبو الفتوح) هو الذي قام بالعملية كلها، وهو الذي تسلّل ووضع العقربة على صدر الأستاذ المستغرق في النوم... كما كنا - وكل منا يحملق في وجه الآخر- ندرك أن حمزة سليم قد ذهب بالعقربة إلى (السيد ماجد عشقي)، أو حتى إلى السيد حسين طه (مدير الراقية)... بل كنا ندرك أن الأستاذ نفسه قد دخل مرعوباً على السيد ماجد عشقي.

لم يتكلّم أحد منا ليقول أيّ كلمة... ربما لأننا لا نجد ما يمكن أن يقال... ظللنا واقفين، ننتظر نداء حمزة سليم يقودنا إلى مصيرنا المجهول، وما هي إلا دقائق حتى دخل حمزة، وهو يتساءل:

- قولولي... مين اللي...

قبل أن يكمل سؤاله... وجدنا أنفسنا - كلنا - نقول:

- ما ندري..

واحتدم حمزة وهو يقول:

- خلاص... كلّكم تمشو معايا... هيا تعالوا...

مشينا خلفه لننتهي إلى غرفة (السيد ماجد عشقي مدير التحضيرية) وكان معه إلى جانبه (السيد حسين طه مدير الراقية) وعلى مقعد في ركن الغرفة جلس الأستاذ... وهذا يعني أن المسألة أخذت حجماً ضخماً... ولكن أعجب ما في الأمر أن (أبو

الفتوح) نفسه كان متماسكاً ليس في ملامحه ما يمكن أن ينم عن أنه هو الذي فعلها... ولم نكن نحن نختلف عنه تماسكاً وتظاهراً بالإصرار على كلمة: (ما ندري...).

بدأ السيد ماجد عشقي التحقيق... كان يطلب من كل منا أن يتقدم إلى مكتبه، فيركّز عليه نظرته الحادة، ويسأل:

- مين منكم اللّي سوَّى العقربة... ومين اللّي حطّها على صدر الأستاذ؟

لم يقل أحد منا إلا نفس الجواب:

- ما أدري يا أستاذ...

أدرك الأستاذ السيد ماجد عشقي، ومعه السيد حسين طه أننا لن نقول شيئاً... أدركا أنه موقف جماعي باتفاق سابق بيننا جميعاً، فلا سبيل إلى معرفة الفاعل، ولذلك أخذ الأستاذان أو المديران يتحدثان بالتركية... ثم طلب السيد ماجد، من حمزة سليم أن يجيئه (بالفلكة) و(الخيزرانة) وهو يقول:

- كل واحد منكم ياكل فرش إلى أن يعترف ويقول مين اللّي عملها.

بالفعل، جاءت الفلكة... والخيزرانة، ومع حمزة سليم البواب، بدأت عملية (الجلد) على باطن القدمين... وليس خمس جلدات أو عشراً، وإنما أكثر من عشرين.. والعادة، أن يردّد الذي جلد من التلاميذ صارخاً كلمة:

- أتوب... والله أتوب يا أستاذ.

لكن هذا لم يحدث، كل منّا كان يضع ذيل ثوبه في فمه، ويتجلّد فلا يقول هذه الكلمة التقليدية... تمّ جلد الجميع... ولكن من دون أن يقول أحد منا، من الذي فعلها.

بعد أن نال كل منا نصيبه من الجلد، عدنا إلى الفصل بانتظار صفارة (الفسحة للغداء)... ولكن ليس في عيوننا أي أثر للدموع... كنا نتألم ونحن نمشي... ولكن لا بكاء، ولا كلام.

اكتشفت بعد ذلك، أن العملية كلها كانت باتفاق سابق بين تلاميذ الفصل بمن فيهم العريف... للخلاص من الأستاذ الذي يقول: (إقرأ... يا ولدا!) ثم يستغرق في النوم... واختاروا أبو الفتوح، لأنه هو صاحبُ الفكرة وهو الذي كانوا يعرفون براعته في صنع تماثيل لمختلف الحشرات أو حتى الحيوانات من (الزفت) الذي لا أدري ماذا يسمّى هذه الأيام.

***

أما في البيت، ومع أمي، وعمي، فقد أخذت أسمع، وأفهم أن أمّي توشك أن تضع طفلاً، وأنهم يستشيرون المستشفى العسكري، عن (الداية) التي يمكن الاعتماد عليها في الولادة.

***

أمي توشك أن تضع طفلاً..

كانت الأحاديث الهامسة التي أخذتُ أسمعها تدور بين (منكْشة) و(أمي باجي) بالتركية التي لم يعد يصعب عليّ فهمها، عن أن أمّي سوف تضع طفلاً، وأن البحث جارٍ عن (داية) يعتمد عليها بمعرفة المستشفى العسكري... كانت هذه الأحاديث تلعبُ أو تعبث بمشاعري، ولعلّي لا أخفي اليوم أن أهم وأقسى ما كان يجعلني أتلوّى، وأتأوه من صدرٍ مشحون بالمخاوف والهواجس، وهو (قلب) أمي، الذي لم أنس قط، أني كنت الوحِيد فيه، ثم جاء زواجها فشاركني فيه هذا الرجل الذي تعوّدت أن أسميه (عمّي)، والذي كثيراً ما أحسست بأن ما يحيطني به من رعاية وعطف وحنان يفوق ما أجده عند أمّي نفسها، ولكن الآن، وهذا الطفل القادم خلال شهرين، أراه مستقراً في بطنها المنتفخ، فكيف يعقل أن أظلّ الوحيد في قلبها؟؟؟ لا شك أنه الذي سوف يزيحني عن هذا القلب، ليستقرّ هو وحده فيه... ولم يكن يسعني أن أدرك أنه سوف يكون أخي... وهنا تعود بي الذكرى إلى شقيقي - عبدالغفور - الذي مات في حماه... وفي هذه الذكرى أنها قد بكته كثيراً، وحزنت لفقده، بل بلغ بها الأمر أن أغضبت والدها - جدّي (أحمد صفا) - لأنه قسا عليه، حين ضاق ببكائه وعويله، قسوة، اعتقدتْ أمّي أنها كانت السبب في موته... وأجد نفسي أتساءل: ترى ما الفرق بين عبدالغفور، وبين هذا القادم بعد شهرين... كلنا نجيء من بطنها... وأقرّر بما يشبه محاولة التخفيف من وقع الهواجس، أن الذين يجيئون من بطن واحدة إخوان على كل حال، فما الذي يخيفني أو يشحن صدري بهذه الهواجس والأفكار... ثم كان مما أستغرب له اليوم، أني لم أجرؤ على أن أسأل أمّي نفسها عن صحة ما يدور من أحاديث هامسة بين منكْشة و(أمي باجي)... وليس ذلك لأني لم أكن أصدق أنها ستلد هذا الطفل، وإنما على الأقل لاكتشاف شيء، لم يسبق لي قط أن سألت

العجوزين، لأني قدرت أنهما لا تتهامسان أمامي، وباللغة التركية التي تحسبان أني لا أفهمها، إلا لأنهما قد أمرتا بأن تخفيا عني هذه الأخبار..وفي هذه الأيام، - بعد دخولي المدرسة بعد الكتّاب - ومع هذه الهواجس اعتدت أن أطيل الجلوس في الحديقة الصغيرة وقتاً يطول، إلى أن أسمع أذان صلاة المغرب، ويدهشني أن يغيب عني محيا الفتاة التي سميتها بيني وبين نفسي (بنت المنْور)... وهي بنت الخالة (أم الفرج)... لكن في يوم من تلك الأيام، وأنا في مكاني في الحديقة، ومع هواجسي ومخاوفي أشرق وجهها في (المنْور)... وقد بدا عليه الذبول والإعياء... سألتها:

- إنتي فين من زمان ما أشوفك؟؟؟

- أنا كنت وجعانة.. وما قمت من الفراش إلا اليوم...

ثم، قبل أن أقول شيئاً قالت:

- اسمع... ليه ما تجينا تشوف أخويا علي... وتلعب معاه، بدل ما تقعد لوحدك؟؟

ابتهجت للدعوة... وأسرعت أقول:

- طيب... بس لازم أقول لأمي... يمكن ما ترضى..

- أيوه أخبرها... وما تقول (لا)... هيه جاتنا مرتين وإنت في المدرسة.

لم أفكر طويلاً أو أتردد، بل نهضت من مكاني.. وأسرعت إلى أمي.. وأخبرتها أني أريد أن أذهب إلى بيت (الخالة أم الفرج) لألعب مع ابنها (علي).

ولكم كان سروري وفرحتي بما سمعتها تقول:

- طيّب.. روح.. يودِّيك إسماعيل... ولما تبغا تيجي... خليهم ينادوا إسماعيل من (المنْور)...

خرجت مع إسماعيل، وكان بيت (الخالة أم الفرج) في عطفة نستدير معها إلى باب البيت. وقد وجدنا الباب مُشرعاً... وفي الدهليز تلك (المِسْرجة) التي توضع عادة لإضاءة الطريق لمن يجيء ويدخل من الباب... ولا أدري كيف أحسُّوا بأني جئت فإذا بها هي، وإلى جانبها علي يستقبلانني عند أول السلالم إلى الدور العلوي. وفي المجلس الذي مشيا معي إليه، كانت الخالة (أم الفرج)... واثنان من أبنائها الكبار... أكبرهم عرفت في ما بعد أن اسمه (حمزة) وهو الذي يعول أمه وأخويه وأخته... ويصعب أن أتجاوز وصف هذا المجلس، فقد كان كل ما فيه من أثاث حنبل مهترئ،

وطوّالتين ومساند في أغلفة ممزّقة من الدُّمُسك القديم... كانت الخالة والأبناء حول طبلية من الخشب، عليها صينية مملوءة بالأرز المطبوخ... وعدد من الأرغفة... وكوم من الفلفل الأخضر... ووعاء فيه سلطة مكوَّنة من (الخل) والفلفل والملح... وما أسرع ما عادت بي الذكرى إلى أيامنا - أمّي وأنا - في حماه وحلب... وفي حلب بالذات التي عانينا فيها من الجوع إلى الحد الذي كنا لا نأكل معه إلا تلك الوجبات من خبز الشعير والكِرْسنّة نغمس اللقمة في عصير الرمان الحامض والملح، التي يسمونها (زنَّانة)... وقبل أن أسمع كلمة من الخالة (أم الفرج).. كنت أجلس وإلى جانبي (بنت المنْور) ومن الجانب الآخر أخوها (علي)، والعجيب أني لم أنتظر أن يعزموا عليّ بالأكل بل أخذت أطرف ملعقة ملأتها بذلك الأرز... حشوت بها فمي... ثم ملأتها من (السلطة)... سلطة الخل والفلفل... وشرعت (أبلعْ) بها لقمة الأرز... وحين رأيتهم يأكلون (الفلفل الأخضر) مددت يدي وأخذت أقضم منه.. وأستمر في الأكل.. وكأني لم أذق طعاماً ألذ وأشهى من هذا الطعام... لا شك في أنهم قد دهشوا لإقبالي على الأكل بهذا النهم... وليس في ذهن أحد منهم أني آكل ذكريات أيام الجوع التي عشتها في حلب... وأني مع كل لقمة أستعيد الكثير من مراحل تلك الحياة، وأني أحن إليها وكأني أتمنى أن تعود... وأن لا أفارق يد أمي، حين تخرج معي لقضاء حوائجها، ثم صدرها في فراشنا، في تلك الليالي، التي تدوي فيها وتزلزل البيت أصوات الانفجارات والمدافع ومعها زخات الرصاص التي لا تتوقف طول الليل... وانتهى العشاء، ونهضت (بنت المنْور) ورفعت ما على الطبلية... ونهض علي، ورفع الطبلية نفسها... وأخذت مجلسي، أخيراً بجانب الخالة (أم الفرج)... التي أخذت ترحّب بي، وتسألني عما إذا كان (أكلهم) قد أعجبني. وقبل أن أجيب قالت (بنت المنْور):

- أيوه يا أمّي الأكل عجبو... أنا شفته بياكل الفلفل... لَهْلَبْ فَمُّه.. ولكن برضه كان بياكل..

وهنا فقط تكلَّم (حمزة) ليقول:

- ما دام الأكل عجبك... هادا أكلنا وعشانا كل يوم... تعال واتعشى معانا... وشوفنا كلنا فرحانين بك.

لم أعرف بماذا أجيب... لكنني لا أزال أذكر حتى اليوم.. أني جعلتها عادة أن أنتهز

فرصة انشغال أمّي بزائراتها، بين وقت وآخر، لأخبرها أني ذاهب إلى بيت الخالة (أم الفرج) فتأذن لي... فأنطلق وحدي... وأتناول ذلك العشاء الذي لم يتغير قط... الأرز المطبوخ بقليل جداً من السمن... وسلطة (الخل والفلفل)... والفلفل الحراق الأخضر... الذي يلهب فمي وحنجرتي، ولكني أجده ألذَّ ألف مرة من كل ما في البيت من ألوان تجيد طهوها (أمي باجي)... ولا أستطيع التعليل حتى اليوم... أتراها الذكريات التي أعيشها من جديد مع هذه الوجبات البسيطة أم هي (بنت المنْور) التي استردت عافيتها فأشرق محياها بجمال أعترف أنه قد أنساني (بدرية) بل أنساني حتى الأخريات اللائي كن يزرننا مع أمهاتهن (الهوانم).

لا أحتاج أن أقول إني لم أنقطع عن المدرسة، بل كنت حريصاً على أن أذاكر كل مادة بحماسة واحتدام بالغين... فإذا كان البيت مزدحماً بالزائرات... أو الزائرين، فإني - بعد أن أتناول وجبة عشائي في بيت (بنت المنْور) أو في بيتي، أنسحب إلى أي ركن بعيد عن الضجة والازدحام وأعكف على المذاكرة وعمل الواجب، ولا أنام إلا بعد أن أكون متأكداً من أني قد استوعبت المواد المطلوبة مني في اليوم التالي... وهنا لا يفوتني أن أذكر أن (علي) أخو (بنت المنْور) لم يدخل المدرسة الراقية كما سبق أن قالت أخته... وفهمت أن أخاه الكبير (حمزة) فضّل أن يصطحبه إلى العمل ليضيف إلى دخله من أعمال البناء التي أذكر أنهم كانوا يسمونها (الحجر والطين)... كانوا كلهم يتعاونون على تأمين لقمة العيش بالعمل... وكأنهم ينتزعونها من أشداق الفقر الذي ظلّ ينهش حياة معظم الناس في المدينة بعد تلك الحرب... وبعد عودتهم من هجرتهم إلى الشام... ومن جانبي، ظلّت علاقتي بهم متصلة لا أنقطع عن مشاركتهم وجبة العشاء، وعن زيارتهم حتى بعد أن تركوا سكنهم في مقعد بني حسين إلى سكن آخر... بل حتى بعد أن كبرت، وأخذت أدخل مرحلة المراهقة والشباب..

***

طوال الفترة التي عشتها وعاشها معي كل أفراد المنزل، بل و(الخالة أم الفرج) التي أصبحت تزورنا يومياً تقريباً، في انتظار أن تضع أمّي طفلها، كانت هواجسي لا تنقطع، وإن كانت تتراجع يوماً بعد يوم، مع مشاعر الفرحة التي تشيعها الخالة (أم الفرج) وابنتها في إنتظار يوم الولادة، الذي أصبح واضحاً أنه يقترب... وكانت الخالة (أم الفرج) هي التي أرشدت عمي إلى (الداية) التي قالت إنها أفضل داية في المدينة في تلك الأيام.

أما أمي، رحمها الله، فلم تخفِ ارتياحها كما لم تهمل أو تتخلى عن رعايتها لي التي كانت تظهر عندما تجدني منصرفاً للدراسة والمذاكرة وعمل الواجب... كانت تجلس إلى جانبي... وتُعني بمراجعة ما تعرفه من المواد التي أدرسها... ثم تربت على كتفي، وقد تضمّني إلى صدرها... ولكن من دون أن تشير إلى أنها سوف تلد طفلاً... كأنها كانت تعلم أو تشعر بأني أدرك الواقع... ولعلّها كانت تنتظر أن أسألها أنا... وإذ لم يحدث أن تجرأت على السؤال، فقد فضَّلَتْ التزام الصمت.

فجأة، بالنسبة لي في ذات ليلة، بعد صلاة العشاء، رأيت الخالة (أم الفرج) تجيء وإلى جانبها عجوز عرفت أنها (الداية) التي اختارتْها ووافق عليها المختصون في المستشفى العسكري... وهذا لم يكن له تفسير إلا أن الطفل المنتظر آتٍ في تلك الليلة... دخلت (الداية) ومعها أمّي التي كانت تتوجع في صمت، إلى الغرفة التي أعدّت لاستقبال الطفل ودخل معهما (عمي).. ومنْكشة و(أمي باجي)، وهما تحملان أواني الماء الدافئ، وكميات كبيرة من (القطن الطبي)... ولم يسمحوا لي بالدخول معهم، فهبطت إلى الدور الأوسط حيث (المجلس) الذي نستقبل فيه الضيوف... وقد وضعوا فيه سريراً صغيراً يتأرجح، مغطى بزخارف تُشبه تلك التي كانت على (الكَرْيوله) التي تمت فيها عملية (الختان) وعملية (زحلقة) النقود التي ركبت بها الحمار، وأكلت تلك (العلقة)... وذلك السجن في المرحاض.

جلست في الروشان، واستسلمت لأفكاري وذكرياتي، ثم لهواجسي... ومنها تساؤلي عن هذا الطفل... ترى هل يجيء وفيه ما يشبهني، أم مثل أخي عبدالغفور، الذي كان وسيماً؟ وكانت أمّي لا تنسى وسامته، وهي تتحدث عنه، حتى بعد أن انقضت على رحيله سنوات.

رغم أن الغرفة أو المجلس كان مضاءً بلمبة (علاقي) ضئيلة الضوء، ما يغري عادة بالنعاس أو حتى النوم... فقد كنت جالساً متحفزاً بكل حواسي في انتظار ذلك الطفل.

لم يطل إنتظاري، فقد دخلت الخالة (أم الفرج) وهي تردد (الحمدلله... الحمدلله...) وإذ وجدتني أمامها قالت:

- يا عزيز، أحمد الله... أمك بخير... وربنا رزقَك أختْ... أختْ زي القمر..

ثم خرجت... وغابت فترة، لتعود، وهي تحمل في (اللَّفة) ويسمونها (كافولة) تلك الأخت... ولأنهض مسرعاً... وألقي نظرة على وجه هذه الطفلة، التي أدركت

ساعتها أنها أختي... وأني منذ تلك اللحظة أصبحت أخاً لأخت صغيرة جميلة... قبّلتُها، وحين وضَعتْها الخالة في ذلك السرير، قالت:

- خلاص يا عزيز... أنت اللّي رايح تسهر معاها الليلة... عشان أمك لازم تنام وحدها...

سهرت معها فعلاً إلى الصباح... لم تبك إلا مرة واحدة... عالجتها بأن حملتها من الفراش وأخذت أمشي بها في المجلس... إلى أن جاءت (أمي باجي)... وفي يدها ما أخذت تضعه في فم الصغيرة... ثم وضعتها في السرير... الذي حرصتُ على أن أمَرجِحَه إلى الفجر..

***

وبعد..

فقد انتهت بهذه الليلة مرحلة من حياتي... وانتهى أيضاً الجزء الثالث، من قصة هذه الحياة... وقد لا يضيق القرّاء بما بدا إسرافاً في ذكر هذه التفاصيل، التي يقول لي كثيرون إن هناك من كانوا ينتظرونها... وينتظرون أن تصدر مطبوعة بين دفتي كتاب... وهذا ما أجدني ميّالاً إلى إرجاء التفكير فيه... والخير في ما يختاره الله على كل حال.

***

زيارة مدير المعارف

الإحساس بالسعادة، بالنسبة لأي طفل في حوالى العاشرة من العمر لا بد أن يكون نتيجة للنقيض من مشاعر البؤس، أو على الأقل مشاعر الحرمان من المباهج المألوفة لدى الآخرين في سنّه. وحين أقول اليوم، إن الفترة القصيرة التي قضيتها تلميذاً في تلك المدرسة (الراقية الهاشمية)، التي أخذتني إليها أمّي ذات يوم بعد استئذان الشيخ العريف محمد بن سالم... هذه الفترة كانت هي التي أحسست بها بالسعادة، بمفهوم يختلف كلياً عن الإحساس بها في تلك المراحل التي بدأت يوم نقلنا قطار التهجير من المدينة المنورة، إلى تلك المدن من (الشام) لنعايش (الجوع)، و(الحرب)، ورحيل الأهل واحداً بعد الآخر، بحيث انتهت الرحلة إلى العودة مع الأم، على (جمل)، تستوقفه في ساحة ما كان يسمى (الإستاسيون)، لتتوضّأ، وتصلي ركعتي الفجر، ثم تلصق وجهها بالتراب فتلعق منه ما يملأ فمها.. وترفع يديها وهي تردد (الحمدلله)... وأتجاوز الواقع، لو قلت إني فهمت يومها أو لحظتها السبب الذي جعلها تحمد الله على أنها لعقت من تراب الأرض في ذلك الصباح، ولكن اليوم... ونحن نشهد متناقضات، قضية الإنتماء إلى الأرض، أجد من حقي أن أقول إن ما فعلته أمي... إن تصرّفها، الذي لم أفهم منه شيئاً، في تلك اللحظات من الفجر، هو (الجوهر) من مضمون الإنتماء إلى الأرض... لقد دفنت في حلب وقبلها في حماه من مدن (الشام)، من تُوفي من أهلنا، ولا شك أبداً، في أنها قد أيقنت أنها عندما تعود إلى المدينة؛ لن تجد في البيت، أحداً من أولئك الذين أُهيل عليهم التراب هناك... وقد شهدت الموتى الذين تساقطوا على الأرصفة وعرض الشوارع في حلب، وشهدت رؤوسهم وأقدامهم مكدّسة في تلك العربات، تنقلهم إلى حيث يهال عليهم التراب، من دون أن يبكيهم أحد، أو يمشي في جنازتهم مخلوق.

ورغم كل ذلك وطوال الفترة، حيث لم يكن هناك أي شك لدى الناس، في حلب وفي غيرها من مدن الشام، أن الأشراف الذين ثاروا على الدولة العثمانية، ووراءهم الإنكليز قد انتصروا، وأن فلول الجيش التركي تتخلّى عن مواقعها، متجهة إلى المدن التركية المجاورة... وعلى الخصوص بعد أن وقّع مصطفى كمال وثيقة أو وثائق الموافقة على التخلّي عن آخر موقع كانت تحكمه الدولة العثمانية - من الأرض العربية... رغم أن أمّي بالذات لم تكن تجهل، أن المدينة المنورة قد أصبحت تحت حكم الأشراف، ولم يبق فيها للدولة العثمانية أي أثر، فقد عاشت حلمها الذي لم تستيقظ منه، إلاّ في تلك اللحظات التي صلّت فيها ركعتي صلاة الفجر، ثم أزاحت عن وجهها الحجاب وهي تسجد ثم تلعق التراب من الأرض، ثم تنهض وترفع يديها، وهي تردّد: (الحمدلله... الحمدلله..).

والسعادة التي أحسست بها في الفترة القصيرة، التي قضيتها في تلك المدرسة هي سعادة الإحساس بأني بدأت مرحلة جديدة في الحياة... وأهمها أني أصبحت في عداد هؤلاء التلاميذ الذين كان بينهم من يكبرني سناً، ولكني لا أقل عنهم نشاطاً، وممارسة لكثير من تصرفات (الشقاوة)، التي نبرع في إخفائها والتستر عليها فلا نتعرض لمثل تلك (العلقة الرهيبة)، التي أكلناها جميعاً بسبب تلك العقربة، التي قام بلعبتها (أبو الفتوح)، ومارس مثيلاتها، مع بعض الزملاء، إذ كان يخرج من جيبه صرصاراً حياً يضعه على ظهر أحد الزملاء، فلا يكادون يرونه حتى يتسابقون إلى إزاحته، ولكن بخفق ظهر الزميل مع عاصفة من الضحك... وقد يشكو الزميل هذا الموقف إلى (المراقب)... فإذا سئل أبو الفتوح، كان ينكر اللعبة، ويطلب ما يثبت الدعوى... ولا سبيل... إذ يكون الصرصار، قد قتل ودهسته الأقدام، أو اختفى، وهو يهرب من الأيدي الهاوية على ظهر الزميل.

لم يكن يسعني - في تلك السن - أن أدرك شيئاً من الهمس الذي أخذ يدور بين كبار التلاميذ خلال ساعة تناول وجبة الغداء، عن الأخبار التي يسمعونها من البدو الذين يجيئون بقوافل السلع من ينبع، أو غيرها... وهي عن (مناوشات) بين قبائل الشريف، وقبائل أخرى، وعن مواقع، في مكان ما، اسمه (تربة)... ولم تكن هذه الهمسات، تخلو من كلمة (حرب)...

وكلمة (حرب) هذه هي التي لا أجهل أنها التي عشت طفولتي معها منذ ذلك الصباح الذي خرجنا فيه من بيتنا في زقاق القفل، إلى (البابور)، إلى أن عدنا (أمي

وأنا) وقد فقدنا كل الذين دُفنوا من الأهل في حماه وحلب من أراضي الشام...

مع ذلك فإن الكلمة نفسها قد لا تعني شيئاً مما أعرف، لأني أصبحت أعرف أيضاً أن من قبائل البدو حول المدينة قبيلة اسمها قبيلة (حرب)... فلعل الكلمة التي سمعتهم يتهامسون بها هي عن هذه القبيلة، التي كثيراً ما ترددت أخبار قطعهم الطريق على الحجاج الذين يأتون من مكة لزيارة المدينة المنورة.

لكني - مع ذلك - تساءلت: (من أين لكبار التلاميذ هذه الأخبار؟؟؟)... لم يكن صعباً أن أدرك أنهم يسمعونها من آبائهم... من أهلهم... ما الذي يمنع أن أسأل أنا أيضاً (عمّي) الذي كنت أرى أن ضيوفه من رجال يبدون من مظهرهم وأرديتهم المتميزة، أنهم من (الكُبارية) كما يسمّون في المدينة المنورة؟؟؟

مع أنه رحمه الله، لم يكن يضيق ببعض ما أتحدث به عن المدرسة والأساتذة، فإن ما رسّخته أمّي في نموذج سلوكي معه، ومع الكبار، هو أن ألتزم الصمت المطبق إذا كنت في مجلسهم... ولا أفتح فمي بكلمة واحدة، إلاّ إذا طلبوا مني أن أقول شيئاً عما يبدو لهم أن يسألوني عنه من مواضيع تافهة، مثل تواجد (الخِربز، والضِّميري) في سوق الخضرة؟ وعَمَّ إذا كنت أرى أحداً من أبناء أيّ منهم في المدرسة... وقد يكون السؤال الأهم، هو عَمَّ إذا كنت قد مُنحت شهادةً من الشهادات التي تمنح للمتميزين في دراستهم كل يوم خميس؟ وهي (التلطيف... والتحسين... والامتياز) إلخ... وكان عليّ أن أجيب باختصار، وبصوت خفيض مراعاة (للأدب) في مجلس الكبار.

أمام هذا الحشد من (الأصول في آداب السلوك)، ومع ما ظل يدور في نفسي عن تلك الأخبار التي يتهامس بها الكبار من التلاميذ في قاعة تناول وجبة الغداء، لم أجد بُدّاً من أن ألتمس مساعدة أمي... فهي التي تستطيع طبعاً أن تسأل عمّي، أو أن تنصحني بالطريقة التي أتقدم بها إليه بالسؤال.

لم تخيّب أمّي رجائي في محاولة اكتشاف الموضوع الذي يدور حوله التهامس، وفيه كلمة (الحرب)، حيث قالت، بعد أن حذرتني من أن أخوض في مثل هذه (المسائل)، لا في المدرسة ولا في غيرها... قالت:

- الناس بيقولوا، إنّو فيه حرب، بين الشريف في مكة، وبين قبائل من الشروق اسمهم المتديّنة... اللّي الناس بيقولوا كمان، إنهم من زمان دخلوا المدينة وقعدوا فيها سبع سنين، وما خرجوا منها إلاّ لما جاتهم (شوطة) الجدري...

- يعني هادول يمكن همّه اللّي بيحاربوا الشريف في مكة... ويمكن يجوا المدينة كمان؟؟؟

- فال الله ولا فالك... قول الله لا يقدر...

- ليه... همّه يخوّفو كثير...

- الحكاية اللّي سمعناها عنهم تخوّف كتير... قول: الله لا يقدّر.

قلت: (الله لا يقدّر) كما طلبت. وفي صوتها هزّة رعب وتخوّف... واكتفيت بهذه المعلومات فلم أحاول أن أسأل عمّي عن شيء، قدّرت أنه من المسائل التي لا يجوز للصغار أن يخوضوا فيها. لكن لم يطل إنتظاري وجميع تلاميذ المدرسة لمعرفة حقيقة هذه الأخبار، إذ فوجئنا يوم الخميس بحمزة سليم، ينبّه علينا بأن نخرج من الفصول قبل الموعد المعتاد، وأن (نصطف) في الفناء بمجرد سماع (الصفيرة)... والسبب هو أن (مدير المعارف) بنفسه سيحضر ليرى جميع التلاميذ، وينصحهم.

لم نكن قد سمعنا عن (مدير المعارف)... ولم يسبق أن رأيناه، لأن مدير المدرسة هو السيد حسين طه (للراقية والتأهيلي) والسيد ماجد عشقي (للتحضيري).

سمعنا (الصفيرة)، وأخذنا نتدفّق إلى الفناء، ونصطف صفين متقابلين، وهو المألوف في كل يوم خميس. وهناك (المراقب)، وإلى جانبه (حمزة سليم)... ووقفنا ننتظر بضع دقائق، لنرى السيد حسين طه، والسيد ماجد عشقي، يتقدمان الأساتذة: أحمد صقر، ومحمد صقر، ومحمود الحمصي... ويصطفون هم أيضاً في نهاية الفناء، في إنتظار هذا المدير الذي هبط من الدور العلوي، ومشى نحو صف الأساتذة، حيث أفسحوا له مكاناً متوسطاً بينهم.

كان واضحاً أنه شخصية متميّزة... بعمامته البيضاء، ولحيته التي وخطها الشيب وجبّته السوداء على ثوب أبيض... لست أدري حتى اليوم كيف أصبنا جميعاً (بحبسة أنفاس) فالتزمنا الصمت، وعدم الحركة، وأبصارنا معلّقة بشخصه. إلى أن بدأ يتكلم بصوت ضعيف، ولكنّه مسموع...

كان يتكلم بالفصحى - كأنه يقرأ كلاماً مكتوباً - وكان كلامه عن أن المدرسة (يمكن أن تغلق أبوابها، ولكن بعد الامتحانات... وأن جميع التلاميذ - في التحضيري والتأهيلي والراقية - يجب أن يستمروا في مذاكرة دروسهم في بيوتهم، ويمكن أن يراجعوا أساتذتهم، في بيوتهم أيضاً... وأضاف:

- حتى أنا موجود في بيتي ويمكن أن تراجعوني إذا كان الأستاذ مشغولاً، أو غائباً عن بيته.

وما كاد ينتهي من كلامه حتى ارتفع صوت حمزة سليم بأمر (احترِمْ)... والاحترام أن نؤدي تحية عسكرية متقنة كأننا جنود.

ثم ارتفع صوته مرة أخرى بأمر (انصراف إلى الفصول)...

فتفرّقنا، وانصرفنا إلى فصولنا... وكنت في الصف (التأهيلي) وهو في الدور العلوي... ومن زملائي الذين لا أنساهم، السيد عبدالرحمن طه، والسيد عبدالهادي برزنجي، والسيد ماجد مدني، والسيد يوسف مدني، والسيد هاشم أو (ماجد) برّادة... لم يكن أبو الفتوح إلى جانبي في التأهيلي، ليس لأنه رسب أو رفت، بل لأن أباه (كان ناظر التكية المصرية) أمره بأن يظل في البيت - في هذه الأيام -؟!

بدأنا نتساءل عن (الحكاية)؟؟؟.. ما هو السبب... فاقترح أحدنا أن نسأل (الكبار) وهم تلاميذ الراقية، الذين كنا نسمع ما يتهامسون به في قاعة وجبة الغداء.

من جانبي... لا أخفي أني فرحت كثيراً، أننا سنستقبل أيام عطلة طويلة، لأن مدير المعارف، لم يحدد اليوم الذي تفتح فيه أبواب المدرسة.. وكانت في ذهني (لعبة الكبوش)... إلى جانب (التزقير) - التي لا أشترك فيها لأني دون السن - ثم (لعبة البربر) و(الكَبَتْ)... وكلها كانت أمّي تسمح لي بأن أمارسها، (في العصر) إلى أن نسمع صوت الأذان في المغرب... فأسرع إلى البيت، وفي حسابي أنها - رحمها الله - تنتظرني لتقوم بعملية تحميمي... وهي العملية التي أحمل همّها طوال ساعات العصر واللعب، لأنها كثيراً ما يصاحبها مصع الأذنين... وحتى التهديد بالضرب بما يسمى (سيف المنسج) الذي تضعه إلى جانبها... وكل ذلك حين ترى قَدَمَيّ وساقَيّ، وقد غمرها التراب والوحْل من أرض الشارع، وعلى الخصوص إذا كانت الساحة الصغيرة أمام كل بيت، قد (رُشت) بالماء كما هي العادة للتخفيف من تصاعد الغبار... وهي مهمة تقوم بها (الجواري) في الغالب.

أمّا (القشاع)، بين (عيال) الساحة التي نسكن فيها، (وعيال المناخة) فهو مرحلة لا بد أن أروي تفاصيلها، وطريقة ممارستي لها - ومعي أختي التي كانت شديدة الذكاء، وكانت رغم صغر سنها عني، تجد ألف طريقة لتخرج معي يوم (القشاع)... ولكن لا بد من إرجاء هذا الحديث إلى أن نصل إلى مسيرة الأحداث، بعد ذلك اليوم الذي

أعلن فيه (مدير المعارف) خبر، أو أمر إغلاق المدرسة أبوابها، إلى أجلٍ غير محدود.

مع هذه الفرحة بالانفلات، واللعب الذي أعددت نفسي له، وجدت نفسي مشغول الذهن بسبب إغلاق أبواب المدرسة التي سبق أن قلت إنها التي أحسست في أيامها بتلك السعادة، وأعني سعادة الخروج من مرحلة الطفولة إلى مرحلة تقترب من الرجولة، ومن تكوين شخصية غير شخصية الطفل الذي تدلّـله (أمي باجي) والدادة (منكْشة) والذي ينتظر في الحديقة الصغيرة (بنت المنور). وقد تطوّرت علاقتي بأسرتها إلى حد ألا يفوتني دائماً عشاء (الرز الأبيض وسلطة الخل المملح، والفلفل الأخضر).

ما كدت أدخل المنزل في ذلك اليوم، حتى أسرعت إلى أمّي أقصّ عليها كل (الحكاية) وأخبرها أن المدرسة سوف تغلق أبوابها بعد الامتحانات التي لن تتأخر عن أسبوعين قادمين... وأن الذي أخبرنا بذلك هو (مدير المعارف) بنفسه... ولم أغفل ان أصف هذا المدير وشخصيته المهيبة، وحكاية أننا وقفنا صفّين في فناء المدرسة إلخ...

استغربتْ من جانبها... وعلّقت بجملة واحدة هي:

- لازم فيه شي... ولمّا يجي عمّك يمكن نفهم منّو...

وجاء عمّي في موعده المحدّد، على حصانه الأبيض... وصادف أني كنت في طريقه إلى الدور العلوي من المنزل... فمسح رأسي بيده، وهي حركة الحنوّ التي تعودتها منه... وإلى مائدة الغداء فتحت أمّي الموضوع، وفي صوتها رنّة استغراب ودهشة... وقد فتحت من جانبي أذنيّ متلهفاً على اكتشاف هذا الحدث، الذي لم أستطع أن أعرف له سبباً.

الباشا يستعد للحرب

أدهشني عمي، حين سمعته يتحدث إلى أمّي باللغة العربية (الدارجة)، من دون أن يحاول تجنّب اشتراكي في سماع ما يقول... - المشكلة يا فاطمة هي في المعاشات... كانوا بيصرفوها كل شهر... لكن من أكثر من ثلاثة شهور ما صرفوا معاشات الموظفين، حتى نحن في المستشفى... يعني الأطباء... والصيادلة، وحتى الخدم والممرضين ما استلموا شي... حتى الأساتذة... وباين إنو الشيخ عبدالقادر الشلبي، مدير المعارف، فهم وعرف إنّو الحكومة، ما هي رايحة تقدر تصرف المعاشات، إلاّ بعد مدة، ما أحد يدري متى.

- وهوّه الشيخ عبدالقادر الشلبي هادا يعرف هادي المسألة أكتر منّكم؟؟

- يمكن... لأنو يقرأ الجرايد اللّي تجيله من الشام، ومن مصر ويقولوا كمان من مكة وجدة...

- لكن ليه ما تشتكوا للأمير (أحمد بن منصور) أو (عبدالمجيد باشا)، أو...

- الأمير بنفسه ما بيستلم معاشه... (وعبد المجيد باشا) ما هو عارف كيف يسكّت العسكر اللّي كل واحد منّهم ما بيستلم شي... غير (الكروانه) و(التعيين)... وحتى الكروانه يمكن توقف... لمّا يخلص الدقيق، اللّي في المخازن.

- لكن أيش السبب؟؟ هوّه بيحارب قبايل الشروق؟؟؟

- هادا اللّي بنسمعه..

- طيّب ليه يحارب الشروق، وهوّه ما هو قادر يصرف على العسكر... في المدينة، وعليكم كلّكم.

- ما يقدر يصرف هنا، وهنا... والسبب زي ما بيقولوا عندنا في المستشفى...

يحيى بك ومحمود بك، وحتى السيد محمد هاشم، والشيخ يوسف ديولي اللّي يزورونا، ويشربوا الشاهي عندنا في (بخشة المستشفى) بعد العصر... السبب إنّو الإنكليز وقّفوا عن الشريف المساعدة اللّي كان يستلمها منهم من يوم ما قام بالحركة اللّي حارب بها الدولة العثمانية، واللي يسمّوها (النهضة العربية)...

- يعني، هادي حرب... وكمان يمكن توصل المدينة... موكده؟؟؟

- العلم عند الله... بس، نحن لازم نشتري شوية أرزاق... ونحاسب في المصروف...

- خلاص... أنا اليوم أنبّه على (أمي باجي)... و(أمي حسينة)... وكمان (منكشة) أنهم يحاسبوا.

هنا رفع إصبعه وصوّب نظرته إلى أمّي وهو يقول:

- لأ يا فاطمة... لا تقولي لهم شي عن اللّي سمعتيه... هادا كلام ما هو لازم يعرفوه...

ثم التفت إليّ شخصياً ورفع يده بأصبعه وهو يهزّها ليقول:

- وإنت يا ولدي، سمعت كل الكلام... لكن إصحا تقول لأحد عن اللّي سمعته... إنت كبرت... وأنا شايف إنك صرت رجّال... والرجّال لازم يعرف كيف يسكت وما يقول لأحد شي من اللّي يسمعوا من عمّه أو من أمّه...

- خلاص يا عمّي... ما أقول لأحد شي من اللّي سمعته... لكن...

- لكن إيه...

- لكن فيه خوف عليّ إذا لعبت مع أصحابي في الزقاق؟

وهنا ضحك ضحكة خفيفة، لم تشاركه أمّي فيها وقال:

- لأ... ما في خوف ابداً دحّين... ولمّا يصير خوف، رايح تعرف إنت ورايحين أصحابك كمان يعرفوا... ولكن قول: (الله لا يقدّر)...

- الله لا يقدّر...

وأذكر اليوم، أني قد حرصت فعلاً على ألا أتحدث إلى أحد عمّا سمعته، وقلت في نفسي:

- إنها الحرب مرة أخرى... ولكن ما دام يمكن أن ألعب من دون خوف... فالمهم

أن (أعدّ) (الكبوش) التي اختزنها تحت الحنية... وأن أجد (اليُغل) الكبير الذي لم أنس أني (رصّصْته) عند (أبو دربالة) وكسبت به هذا العدد الكبير من الكبوش.

استقبلت بعد ذلك اليوم، أياماً في اللعب، ما أكثر ما تطوّرت، وأصبحت لها حكايات وقصص تقرأها في الفصول المقبلة، إن شاء الله.

وقد لا يعرف أبناء هذا الجيل، وربما جيلين قبلهما، شيئاً عن (الكُبُوش)، وعن (اليُغُل) الذي يُعتمد عليه في كسب أكبر عدد من (الكبوش)... ولا أجد لزوماً للشرح والتعريف، وقد أقوم بهذا الشرح، في هامش الكتاب عند طباعته.

المهم، هو أني هبطت إلى (الحَنِية) في الدهليز، وحملتُ (الكبوش) في (عُبّي) وخرجت بها إلى دكّة الدهليز التي لم يعد فيها الجنديان، كما كانا في بيت (مقعد بني حسين) وقد أذكر أن السبب، هو أنهما نقلا إلى المستشفى...

نشرت على الأرض المفروشة بالحنبل الهندي، كل ما في عبي من الكبوش، وأخذت أعدها (عشرينات)... كل عشرين منفصلة عن الأخرى... وكدت أزعق فرحاً حين وجدت أنها أكثر من مئتين... كما وجدت أني أملك أكثر من (يُغُل مرصّص)... فلم يبق إلاّ أن أعيد الثروة الهائلة إلى مخبئها في الحَنّية، وانطلق إلى الشارع في انتظار اللاعبين.

قد يحسن أن يعرف جيل هذه الأيام، ذلك النوع من العلاقة التي تربط بين اللاعبين، فهم أبناء الجيران في شارع الساحة، ولكن من دون الابتعاد في هذا الشارع إلى أكثر من عطفة (الحماطة) في اتجاه اليمين، وعطفة زقاق لا أذكر اسمه الآن في الاتجاه الآخر يؤدي إلى خلفية بيوت (السلطانية)... التي تنفصل عن بعضها البعض ويمكن أن يمرّ عبر الفواصل الضيقة، مَنْ يريد المرور لأي غرض.

كان هذا اليوم، هو أول أيام هذه العطلة التي أغلقت معها أبواب المدرسة الراقية، ولم يَخب ظني، إذ ما كدت أقف على باب البيت والتفت هنا وهناك، حتى رأيت عدداً من أبناء الجيران، وبعضهم من زملاء المدرسة... مجتمعين، يتحاورون حول (الخظ) الذي يرسُمونه على الأرض حفراً خفيفاً في التراب، لِلُعبة (الكَبَتْ)... ولأني لم أكن من عشّاق هذه اللعبة، وربما كنت أكرهها لأن قدميّ، والساقين، يغرقان في التراب الذي يتصاعد أثناء المبارزة... وهذا يعني ما لا بد أن أجد جزاءَه عندما أمّي عندما تقوم بتحميمي كعادتها عند عودتي من (الزقاق كما كانوا يسمونه) والجزاء هو

كما سبق أن ذكرت مصع الأذنين والضرب - عند اللزوم - بسيف المنسج.

لاحظت أن واحداً من المجتمعين، يبتعد، بعد أن تم تقسيم الفريقين اللذين سيمارسان اللعبة، وهو ابنُ الجار (أو الجارة) التي تسكن البيت المواجه تقريباً لبيتنا، ووجدتُها فرصة... فرفعت صوتي أناديه: (يا إبراهيم...) وما كاد يلتفت ويراني حتى أشرق وجهه الوسيم بابتسامة... ثم انطلق مسرعاً في اتجاهي... لم أضع وقتاً... إذ بادرت إلى (خشخشة) ما في جيبي من الكبوش... وأنا أقول له:

- هيا، هات كبوشك... وخلينا نلعب.

- ما عندي كبوش...

- ليه فين راحت كبوشك... كان عندك كتير؟

- أمي، أمرت دادة حسينة، ترميها كلّها في البير...

- ليه؟؟ يعني ما تبغاك تلعب... هادي الأيام خلاص ما في مدرسة.

- خالي قال، اللّي يكسب من الكبوش اليوم... يكسب من لعب القمار لمّا يكبر.

- قمار؟؟؟ يعني إيه قمار؟؟؟

- لعب ما يعرفوه إلاّ الكبار...

- طيب... لكن أيش تبغانا نلعب؟؟؟

- ما نلعب... الأحسن نتمشّى... تعال نروح الحماطة... نشوف المناخة وباب الشامي.

- يعني أيش رايحين نشوف؟؟؟ المناخة نشوفها لمّا يوم القشاع يجي...

- لأ يقولوا إننا نشوف العسكر اللّي بيتعلّموا...

- يتعلّموا... يتعلّموا إيه؟؟؟

- يتعلّموا كيف يمشوا... وكيف يجروا... وكيف ينبطحوا على وجوههم...

- مين اللّي قال لك هادا الكلام؟؟؟

- خالي... أنا سمعتو وهوّه بيقول لأمي أنّو الباشا بيستعد للحرب...

- يستعد للحرب؟؟؟

- أيوه... كده قال لأمي... وقال لها كمان لازم تشتري أرزاق... وقال كمان أنّو هوّه اشترى أرزاق، والأسعار صارت زيّ النار.

- بس ليه الأسعار صارت زي النار؟؟

- عشان ما عادت القوافل بتجيب شي من ينبع..

- هادا اللّي يسمّوه (حصار)... يعني فيه ناس بيحاصروا... يعني يمنعوا عن المدينة الأرزاق... هادا زي أيام فخري... لمّا سفّر أهل المدينة (بالبابور) إلى الشام.

- أيوه... أمّي بتقول كده كمان.

- لكن عبدالمجيد باشا رايح يسفّر أهل المدينة؟؟؟

- ما أدري... هيا تعال نتمشّى ونشوف التعليم في المناخة...

***

الموت ولا الخيانة

مشينا إبراهيم وأنا إلى الحماطة... وقد كانت منطقة فيها مجموعة من البيوت التي تطلّ على ساحة المناخة، وباب الشامي، وتحتها سقف لمجموعة من دكاكين مفتوحة على المناخة... منها دكان بائع الخردوات التي منها كل ما يمكن أن يحتاجه الناس من لوازم صيانة أقفال الأبواب... أو صنابير المياه أو تسليك (البربخ) - وهو مجرى المرحاض - ولكن منها أيضاً كل ما يمكن أن يحتاجه مالك (البندقية) التي طرأ عليها خلل ما... وقفنا على سطح هذه الدكاكين وأخذنا نتفرّج على طوابير العسكر، الذين كان هناك ضباط يأمرونهم بصوت عال بالحركة أو الوقوف... أو الانبطاح السريع على الأرض والبنادق مصوّبة إلى الأمام، قال إبراهيم:

- يعني... هذا تعليم للحرب...

- لكن... الحرب مع مين؟؟؟ مين اللّي رايح يحارب المدينة؟؟؟

- خالي، قال كلام كتير... لكن أمّي هي اللّي قالت إنّو أمها قالت لها عنهم حكايات تخوّف وهم الشروق، اللّي دخلوا المدينة من زمان...

- الشروق؟؟؟ يعني مين؟؟؟ يعني إيه الشروق؟؟؟

- لازم همّه اللّي بنشوفهم في سوق الشروق؟؟؟

- أيوه صحيح... لما نجي خارجين من جوَّه المدينة، وقبل ما نخرج من باب المصري، أشوف سوق طويل... فيه دكاكين تبيع أشياء كتيرة... منها الشماغ والعقال الأسود..

- لكن هادول ناس طيبين...

- صحيح... كلهم ناس طيبين... وإنت تعرف جارنا في البيت اللّي في صفكم اللّي اسمه القاضِي... أمّي تقول إنّو من الشروق.

- هادا رجّال طيب... وعياله كمان عمرهم ما يآذوا أحد.

- الحاصل... ما دام الشيخ (مدير المعارف) قفل المدرسة، وقال إننا نقرأ في البيت لازم هادي الحرب اللّي بيقولوا عنّها أصبحت قريبة...

- أنا يا إبراهيم أعرف الحرب... أنا من الناس اللّي سفَّرهم فخري إلى الشام... كنت صغير... لكن ما نسيت... كانت أصوات المدافع ورصاص الرشاشات، ما تسكت لا ليل ولا نهار... والناس يموتوا من الجوع.

- وعشان كده خالي قال لازم أمّي تخزّن أرزاق.

- لكن يا ترى أيش أسباب الجوع؟؟

- السبب، هو إنّو القوافل ما عاد تقدر تجيب شي من ينبع ولا من غيرها... يمنعوها من الوصول إلى المدينة...

- لكن في الشام... في أيام الحرب اللّي ما نسيتها، كانت الحكومة هي اللّي عندها الأرزاق... وهي اللّي يروحوا الناس ياخدوا منها اللّي يسمّوه (التعيين).

- طيّب ما دامت الحكومة بتعطيهم الأرزاق زي ما بتقول، ليه الناس ماتوا من الجوع؟؟

- ما أدري... لكن هادي الأرزاق كانت الحكومة تعطيها للناس اللي سفّرهم فخري من المدينة... وما أنسى أبداً أننا فضلنا أيام وليالي ما ناخذ غير أقراص صغيرة من الشعير... وبعدين من شي يسمّوه (الكرسنّة)... وفي الشهر مرة واحدة علبة لحم... لكن قول لي... إنتو ما سفّركم فخري إلى الشام؟؟؟

- لأ... نحن سافرنا بنفسنا... خالي هوّه اللّي سافر بنا على الجِمال إلى مكة... عشان مكة كان فيها الشريف... وأنا ما أنسى أبداً إنو كان يحفّضني سورة (لإيلاف قريش) وفيها الآية اللّي تقول فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف... والبيت، هو بيت الله... الكعبة... إنت ما رحت مكة أبداً؟؟

- لا أنا ما رحت مكة... لكن أمّي دايماً بتقول إنها لازم تروح مكة عشان تحج...

- أيوه يا عزيز... كل المسلمين لازم يحجّوا... إنت ما حفظت أركان الإسلام؟؟؟

- إلاّ... حافظها... بس ما كنت أعرف معنى (حج البيت...).

- حج البيت يعني (بيت الله... الكعبة)...

وانتبه إبراهيم إلى صوت المؤذن لصلاة الظهر، فقال وفي صوته شيء من الرعب..

- نحن اتأخرنا... دحّين أمي... وداده (صفا) لازم بيدوَّروا عليّ... هيا نروح البيت قوام... وأنت شايف إنو العسكر كمان، خلاص راحوا... لازم دحّين بيروحوا القشلة.. إنت تعرف فين القشلة؟؟؟

- أيوه أعرف... هادي قدّام التكيّة المصريّة...

- هيا نمشي قوام...

ومشينا مسرعين إلى المنطقة التي نسكنها في حي الساحة... ولم نكد نظهر... حتى سمعنا أصوات، أمي... وأم ابراهيم، ومعهما أصوات (داده بشرى) من بيتنا... و(دادة صفا) من بيت إبراهيم، يتساءلن أين كنّا؟؟؟ وكيف ابتعدنا عن البيت؟؟؟ إلخ... وكان جيبي لا يزال يحمل (الكبوش) و(اليُغلْ)... ولذلك حرصت على الدخول إلى البيت وإلى الحنية التي أخبئ فيها تلك الثروة الهائلة من الكبوش... وأفلحت، قبل أن أسمع صوت (داده بشرى)... في الدهليز وهي تقول:

- يا ويلك... إنت اليوم رايح تاكلها، من أمك ومن عمّك كمان.. فين كنت؟؟؟ ستّي آسيا، أم إبراهيم قاعدة في الروشان وأمك زيّها... ما تقول... إنت وإبراهيم كنتو فين؟؟؟

- كنا في الحماطة... بنتفرج على تعليم العسكر في المناخة.

- العسكر في المناخة؟؟؟

- وإنتو أيش لكم شغل بتعليم العسكر...

- معليش يا أمّي بشرى... إنتي تتشفّعيلي عند أمّي.

- والله هيّه وستي آسيا، بيحلفوا لازم تاكلوا العلقة... هيا ادخل وغسّل رجليك من هادا التراب و...

- بس رايحة تتشفَّعيلي... موكده؟؟؟ ولم تقل شيئاً، بل انطلقت تصعد راكضة إلى الطابق العلوي... وهي تسمع نداء أمّي الصارخ.

***

وإلى مائدة الطعام، لاحظت أن عمّي، لم يخلع بدلته العسكرية... وسمعت أمّي تسأله:

– خير إن شاء الله... إنت راجع المستشفى اليوم؟

– أيوه... لازم إرجع قوام.. عشان لازم نعرف الأدوية اللّي في المستودع... أنا عندي كل شي مقيّد، ولكن لازم نراجع الموجود على الدفاتر..

– إنت سمعت عن استعداد عبدالمجيد باشا للحرب؟؟

– هوه هادا السبب في إنو لازم نعرف الموجود من الأدوية.

– يعني رايح يكون فيه حصار... موكده؟؟

– الحصار بدأ... والبوسطة انقطعت... وما عاد فيه اتصال إلاّ باللاسلكي مع مكة.

– طيّب... والأرزاق؟؟ الجيران... أقصد خالة آسيا ناويين يشتروا أرزاق.

– ونحن كمان لازم نشتري... لكن ما في فلوس... ما صرفوا المعاشات تلات أشهر، وهادا الرابع... كيف نقدر نشتري أرزاق؟؟؟ الحقيقة يمكن بالدَّيْن... لكن... كيف نسدِّد هادا الدَّيْن بعدين.

– بعدين... متى يعني؟

– لمّا تنتهي الحرب.

– يعني يمكن تنتهي بعد شهر أو شهرين؟؟؟

– ما أظن... عبدالمجيد قال للضباط إنو: (لازم ما نسلّم المدينة لهم أبداً).

– بس همّه مين؟؟؟

– همّه اللّي بيحاربوا الشريف... والشريف كمان قال كلام إنو لازم يطاردهم، إلين يدخل بلادهم... ويعطيهم درس... ما يرجعوا بعده لتهديده...

– بس هُمّه ما بيعترفوا بأن الشريف هو ملك كل العرب...

– لكن مين اللّي رايح يكون ملك كل العرب غير الشريف... إنت عارف إنو حارب الدولة... واستولى على الشام كلها، وكمان سمعت إنو استولى على العراق...

– هادا كله، لمّا كانوا الإنكليز معاه.. يساعدوه... الأخبار هادي الأيام بتقول إنهم وقّفوا المساعدة...

– وقّفوا المساعدة؟؟؟ ليه... وهوّه اللّي ساعدهم ومشي معاهم الين ضاعت الدولة، وما عاد بقي لها وجود.

- بيقولوا... إنّو بيطلب منهم ينفذوا وعدهم... إنّو يكون ملك كل البلدان العربية الشام والعراق... وكمان بلدان المغاربة...

- ما دام وعدوه... لازم ينفذوا... موكده؟؟

- هادا كان كلام... كلام فارغ... عشان همّه اللّي يبغوا يحكموا جميع البلاد اللّي خلصوها من حكم الدولة العثمانية.

ثم توقف عن الأكل... وألقى على الساعة في معصمه نظرة... وقال وهو يضحك ضحكة خفيفة... وكمان عبدالمجيد باشا قال ليحيى بك إنهم محتاجين (بارود)... المخزون عندهم ما يكفي إذا طالت الحرب.

- بس، وهوّه البارود في المستشفى؟؟؟

- لا... البارود، انا اللّي مطلوب مني أني أصنعه..

- بس.. يعني، ما في عليك خطر؟

- البارود دايماً خطر... إذا وصلته النار ولو شرارة صغيرة!

- وفين رايح تصنعه... في مستشفى "درب الجنايز"؟؟؟ لا بد ما هو كتير...

ضحك وهو يقول...

- المطلوب ما هو أقل من مائتين كيلو جرام... وبعدين إذا الحرب استمرت لازم يكون عندنا دايماً احتياطي 300 كيلو غرام...

- يعني رايح يكون عندهم مصنع كبير...

- بس أنا خايف إنهم يطلبوا منّا (ديناميت).

- وإنت تعرف تصنّع الديناميت كمان؟

- بالطبع.. لمّا كنّا في حرب اليمن صنعنا - أنا والإخوان... بس خسارة، لمّا صدرت الأوامر نيجي هنا - في الحجاز... تركنا في المخازن شي كتير... لازم اليمنيين، وهُمّه بيحاربوا بعض، قتلوا ناس كتير...

ولا أحتاج أن أقول إني قد أصغيت إلى هذا الكلام بتركيز واهتمام شديدين... كانت المرة الأولى التي أعلم فيها أن عمّي يستطيع أن يصنع البارود... والديناميت... ولا أستطيع أن أصف اليوم ما أحسست به من الرغبة في أن أتعلم صنع البارود والديناميت... وتساءلت بيني وبين نفسي: لما لا أطلب منه أن يصطحبني إلى مستشفى

درب الجنايز... فأكون في خدمته وهو يصنع البارود أو الديناميت... ووجدت أن هذا أفضل من أن ألعب في الشارع. ولم أجرؤ على الإفصاح عن رغبتي... لكن بعد أن نهض عن المائدة.. وذهب... تسلّلت إلى حضن أمي، في جلستها على السرير... استغربت... إذ أصبح من النادر جداً أن تحتضنني هي، أو أن أحاول أنا الالتصاق بها واحتضانها كما كنت أفعل أيام زمان قبل أن تتزوج...وقبل أن تصبح أختي هي التي تتمتع بالأحضان والقبلات والتدليل... أدركت أنني سأطلب منها شيئاً... واحتضنتني فعلاً بحرارة... وقالت:

- ها... أيش تبغا؟؟؟

- أبغى أروح مع عمي، مستشفى درب الجنايز... عشان أتعلم كيف يصنع البارود...

ما كدت أكمل عبارتي حتى انتفضت... وأبعدتني عن حضنها وقالت:

- إنت ولد أصبحت تخوّفني... أيش اللّي جايب في راسك، إنك تتعلم صناعة البارود..

- ما هو أحسن من اللعب في الشارع؟؟؟

- إسمع يا عزيز... أبغاك تفهم اللّي أقول لك هوّه...

وامتدت يدها إلى أذني... واحتدمت لهجتها وهي تقول:

- إصحا... إصحا... إنّو أحد... وما أدري كيف قعد يتكلم... وإنت بتسمع... كان لازم ما تسمع هادا الكلام أبداً...

ولا أدري كيف، وبأي إحساس قلت لها:

- هو يا أمّي عارف إني أصبحت رجّال... والرجّال ما يتكلم في الأسرار اللّي يسمعها...

- خلاص انكتم دحّين... وإصحا... إصحا تتكلّم مع العيال عن اللّي سمعته...

- بس ... باين إنو الحرب قريبة...

- قول ربنا يبعدها عنّا ويكفينا شرّها... قول يا رب... يا رب...

كانت هذه العطلة التي تمّت بإغلاق المدرسة، هي أهم ما جعلنا ننتظر الحرب. فإذا اجتمعنا للعب، يسأل أحدنا الآخر، متى نسمع أصوات المدافع؟؟؟ متى تبدأ

هذه الحرب...؟؟ وتختلف الأجوبة بيننا على ضوء ما سمعناه من الآباء والحديث الذي نسمعه يدور بين السيدات في السهرة بعد المغرب... وهن يردّدن ما يسمعنه من الرجال...

لم يكن عجيباً، أو حتى محل ملاحظة منّا نحن الأطفال، أننا أخذنا نتمنّى أن تطول أيام هذه الحرب، لنستمتع بكل ما أتاحته العطلة من الانصراف إلى اللعب في الشارع... وكانت أهم الألعاب التي برع فيها الأطفال، هي (التزقير...) و(الكبت)... أما الكبوش فقد تطوّرت، إذ لم يعد اللعب بها بين اثنين فقط، وإنما بين أكثر من ثلاثة وحتى أربعة... وذلك بأن نرسم الدائرة على الأرض، ونقف في اتجاه معيّن.. ثم يخرج كل منّا الكبش أو الكبشين... يضعهما في القطر الذي يقسم الدائرة إلى قسمين ثم نبتعد عن الدائرة خطوات، ونبدأ تصويب (اليغل) إلى الصف من هذه الكبوش... فالذي يصاب ويتزحزح من مكانه بعيداً عن الصف يكون من حق الذي قام بالتصويب... أي هو المكسب، وله الحق أن يكرّر التصويب ما دام قد كسب.

كان (اليغل المرصّص) الذي أصوّب به يحقق النتائج التي أصبحت أشعر بأنها تملأ نفوس اللاعبين غيظاً وحنقاً... كسبت كثيراً جداً... إلى الحد الذي أخذ بعضهم يطلب مني أن أبيعه مما عندي، فأخذت فعلاً أبيع كل خمسة كبوش بـ(هللة)... واكتشفت أنهم يفضلون شراء ما عندي، على أن يذهبوا إلى سوق الخضرة والجزارة لجمع ما يتوفر فيهما من هذه البضاعة... وذلك لأن الكبش الجديد، لا يصلح للعب إلاّ بعد عملية طويلة من التنظيف والمسح، بينما الكبوش عندي (جاهزة). وبهذا تحولت كميات الكبوش عندي إلى (هلل... والهلل إلى قروش...)... والقروش يمكن أن أشتري بها أشياء كثيرة... لكن لا بد أن يتم ذلك في منتهى السرية... لذلك اتخذت علبة من الصفيح، أضع فيها القروش والهلل وأخبئها في الحنية وراء أكياس الفحم، التي يستحيل أن تقع عليها يد (أمي بشرى) أو غيرها.

مرّت أيام طويلة ونحن ننتظر الحرب... أو أن تنفتح أبواب المدرسة... ومع انصرافي إلى اللعب، ظل ذهني مشغولاً بالبارود الذي يصنعه عمّي: ترى هل صنع شيئاً منه..؟؟ وكيف يتاح لي أن أرى شكله؟؟ لونه؟؟؟ كنت أعرف أن الرصاص الذي تشحن به البندقية لا بد أن يكون فيه هذا البارود... وفي المنزل بندقيتان (أم خمس) لا واحدة.. وهناك حزام فيه كمية كبيرة من الرصاص... وتوقف تفكيري عند هذا الرصاص... لم لا أحاول أن آخذ رصاصة واحدة... أنتزع رأسها الذي ينطلق...

فأرى ما فيها من البارود... كان الحزام معلّقاً مع البندقيتين، في غرفة عمّي الخاصة التي لا يدخلها أحد سواه... ولكنها مفتوحة... دخلتها متهيبا، وبمنتهى الحذر... ورأيت الرصاص في الحزامين... لاحظت أن خروج واحدة سوف يلفت نظر عمي... لذلك لا بد أن أنتهي من عملية إنتزاع الرأس، وإخراج البارود، ثم إعادتها إلى مكانها فلا تلفت النظر... ولا تسبّب لي مصيبة مع عمي... وأمي... والجميع.

أجّلت تنفيذ الفكرة، إلى وقت آخر... بحيث أبدأ في وقت مبكر بعد خروج عمّي وأغلق باب الغرفة، فلا يدخلها أحد سواي أثناء التنفيذ...

لا أدري في الواقع - وأنا في تلك السن - ما الذي ألهب أعصابي وذهني وجعلني لا أفكر في شيء سوى هذه العملية... التي تصوّرت خطورتها... لو مثلاً انفجرت الرصاصة عندما إنتزع رأسها... أو لو - مثلاً أيضاً - اشتعل البارود الذي أخرجه من تجويف الرصاصة، ولكن المفاجأة الصاعقة كانت بعيدة عن كل هذه التحسبات، إذ، انفتح الباب فجأة، وكان الداخل هو عمّي وقد فوجىء بدوره إذ رآني في غرفته التي لا يدخلها أحد سواه، أصبت وأنا أراه بما يشبه التجمّد أو الشلل، فلم أتحرّك، بل لم أنطق بكلمة واحدة... أدرك حالة الرعب التي أصبت بها.

وقف لحظات وهو في بدلته الرسمية... ثم قال بصوت هادىء:

- ليش دخلت الغرفة؟؟؟ إمك تبغا شي منها؟؟؟

- لا...

- طيّب إنت أيش تبغا من الغرفة...؟

لم أجرؤ على اختلاق أي مبرّر... فالتزمت الصمت لحظات ثم قلت:

- كنت... كنت إبغا آخذ رصاصة من هادا الحزام.

ومع الدهشة البالغة في ملامحه، قال مستوضحاً:

- رصاصة من الحزام؟؟؟ أيش تبغا بها؟؟

- إبغا... إبغا... أشوف البارود اللّي فيها؟؟

وازدادت دهشته... وجعل يعطيني مجالاً للاعتراف بكل ما كنت أخطط له. فرأيته يبتسم وهو يقول:

- بس... ليه تبغا تشوف البارود؟؟؟

- عشان سمعت منكم، إنكم تصنعوه... للحرب اللّي بيقولوا الناس إنها خلاص قربت..

- طيّب وإنت ايش تقدر تسوّي بالبارود؟؟؟

كان هذا السؤال الذي لم أجد له جواباً... إذ ما الذي يمكن أن أفعله حتى ولو استطعت أن أحصل على أي كمية منه... فالتزمت الصمت... وأدرك هو أني لا أدري شيئاً، فمشى خطوات إلى حزام الرصاص... وأخرج رصاصة واحدة... أمسكها بيده وقال:

- تعال شوف الشي اللّي ما تدري عنو... وهوّه اللّي يخلي الرصاصة تتور وتخرج من ماسورة البندقية... وتروح للهدف... يعني للجهة اللّي بتصوب عليها...

تقدمت إلى حيث كان واقفاً، وفي يده الرصاصة التي عكسها لأرى في قاعدتها شيئاً أحمر مستديراً مغروساً في القاعدة... ثم قال:

- هذه التي تراها هنا... هي اللّي إذا ضربت بمسمار صغير تفجِّر البارود... وتنطلق الرصاصة... ولا يعلم إلاّ الله ماذا يحدث... حريق... انفجار الرصاص في الحزام يعني... مصيبة كبيرة...

- وهادي ما يمكن تخرج من مكانها؟؟؟

- أبداً... يعني كنت رايح تعمل في البيت مصيبة كبيرة... هيا دحّين توعدني إنك ما عاد تمسك الرصاص... وإنت بتقول كنت تبغا تشوف البارود... هيا أنا أوريك هوّه...

تناول من أحد الرفوف المرتفعة علبة طويلة من الكرتون.. فتحها... وهو يقول:

- هادا هوه البارود اللّي بنصنعه في مستشفى درب الجنايز...

ورأيت العلبة ممتلئة بمسحوق أسود... غرف منه في معلقة شاي صغيرة... دلقها على صحن صغير...

- هيا شوف...

ومن علبة الكبريت في جيبه، اشعل المسحوق الأسود في الصحن... فإذا به يشتعل لحظات ثم يخمد من دون أن يخلف شيئاً.

ووجدت في نفسي الجرأة لأقول:

- لكن أيش اللّي يخلّي البارود اللّي في الرصاص يفرقع، وصوت الفرقعة ينسمع من بعيد؟

لم يملك سوى ابتسامة واسعة... وهو يقول:

- إنت يا عزيز لما تكبر وتتعلم رايح تسبق كل واحد في سنك.

أدهشني أنه اهتم للسؤال واقتعد أحد الكراسي في المكتب... وأمرني أن أجلس أمامه على كرسي آخر... وشرع يشرح لي الكثير جداً، ليس عن الرصاصة، بل عن البندقية كلها، بل ذهب إلى حد شرح طريقة شحن البندقية بالرصاص... ثم عن تلك الشوكة أو هي المسمار الدقيق جداً الذي يتحرك، عندما يضغط الجندي على الزناد... ثم نهض وهو يقول:

- إنت دحّين عرفت كل شي عن البندقية والرصاص والبارود... لكن هات أذنك.

تقدّمت إليه مسلماً أذني... التي قسا في مصعها وهو يقول:

- كل اللّي سمعتو ما هو عشان تلعب بو... إنت لو لعبت بهادي الأشياء يمكن تتعوّر... أو تعوّر غيرك... إصحا... أشوفك مرة تانية في هادي الغرفة، وأنا أقدر أقفلها بالمفتاح... لكن رايح أخلّيها من دون قفل... عشان أنا أعرف إنك ولد صادق... وتسمع الكلام... ورايح أشوف... هيا اطلع قول لهم أنا جيت اتغدى بدري... عشان لازم إرجع للعمل...

أسرعت وأنا أحمد الله على أن المسألة انتهت بمصع الأذن... وفي اللحظة التي كنت أخرج فيها من الغرفة سمعت صوت (أمي بشرى) وهي تقول:

- هادا لازم بيلعب في الزقاق البعيد... في الحماطة أو في باب الشامي...

***

لم يطل انتظارنا لهدير المدافع ولعلعة الرصاص... إذ فوجئنا، ونحن إلى مائدة العشاء، بهذه الفرقعات التي لا شك في أنها ملأت أجواء المدينة كلها... كانت أمّي رحمها الله أوّل من علّق إذ قالت:

- هادا اللّي كنا نسمعه ونخاف منّو في حلب...

ورأيت عمّي يتوقّف عن تناول طعامه... وينصت، ثم يقول:

- هذه مدافع (ألاوبس)... من قلعة سلع... عبدالمجيد باشا أحسّ بأنهم يهجمون.

- ولكن مين اللّي بيهجموا؟؟؟

- اللّي يسموهم (الاخوان)... وناس يسمّوهم (الغطغط)... جيش ابن سعود...

- لكن عندهم مدافع، وأسلحة زي اللّي عند الباشا؟؟؟

- لا... ما أظن... لكن عندهم البنادق والسيوف...

- بس كيف قدروا يوصلوا المدينة؟؟؟ يعني الشريف ساكت وراضي عن هجومهم؟؟؟

- لا... الشريف حسين، يقولوا إنّو ترك مكة وولده الشريف علي هو اللّي أصبح الملك، ولكن أصبح كمان بيحارب من جدة...

- طيب... ما دام كده... أيش اللّي يخلي عبدالمجيد باشا يدافع عن المدينة...؟

عبدالمجيد باشا، وكلنا في المدينة، مع حكومة الشريف...وواجبنا ما نخون حكومتنا... عبدالمجيد باشا... قال إنو رايح يدافع عن المدينة حتى لو الأعداء هجموا عليه هوّه بنفسه... قال كلام زي اللّي قالوا فخري باشا... (الموت ولا الخيانة).

المدافع وأزير الرصاص

كان هدير المدافع وأزيز طلقات الرصاص، يملأ أجواء المدينة ليلاً ونهاراً، وكنا نحن الأطفال والصبية قد أخذنا نألفه، فلا يوقفنا عن اللعب... ولكن الذي جدّ هو أننا أصبحنا نطوّر اللعب... وانصرف اهتمامنا إلى (القِشاع) بين (الساحة) و(المناخة) وهناك لعبة أخرى، مضحكة ولكنها هي التي أصبحنا نمارسها بإصرار... وهي القشاع بيننا نحن (أبناء الساحة)... كان أحد أبناء عائلة (البري) من أبناء الساحة هو الذي اقترحها، أو (علّمنا) كيف نمارسها... وهي نوع من القشاع أيضاً، ولكن السلاح الذي نتقاشع به ليس الحجارة، أو العصي، والسكاكين، التي (يتقاشع بها الكبار) في المناخة... وإنما هي (بعر الجِمال)...

تفصيل الحكاية يطول... ولكن أهم ما فيها أننا أصبحنا لا هم لنا إلاّ أن نجمع (بعر الجِمال)...

نضع البعرة في (المقلاع) نقذفه في وجوه الذين يواجهوننا باعتبارهم أعداء كما يقذفوننا هم بالسلاح نفسه... والميدان هو (البرحة أمام السلطانية)...

في هذه المرحلة، كانت أختي قد أصبحت ترافقني، في هذه الاشتباكات... وإذ لم تكن تستطيع التعامل مع (المقلاع)، فقد كانت مهمتها أن تجمع أكبر قدر من (بعر الجِمال) وتزودني به (بعرة وراء بعرة)، أثناء القشاع... ثم تطوّرت المسألة إلى مرحلة المشاركة في (القشاع) بين أبناء الساحة والمناخة... فكانت مهمتها، أن تجمع كل ما تستطيع جمعه من الحجارة، قبل موعد القشاع بعد صلاة العصر... تجمعها في كومة، وتضع عليها مجموعة من أوراق البقدونس أو النعناع ليعرف الآخرون أنها تخصني... كان موقعنا نحن الأطفال في سن العاشرة، أو أقل، هو مكاننا المختار (الحماطة) التي تشرف على المناخة وهي ساحة المعركة بين الطرفين ليس بالحجارة والمقلاع، بل

بالعصي الغليظة (المزقَرة) التي تعلمنا أن اسمها (النّبوت)...ولكل فريق من الفريقين شيخ أو أكثر من شيخ، يسمّونه (المِشْكل) الذي يقود المعركة بمهارته في حركة النبوت وبراعته في النزال، الذي لا بد أن يصعق الخصم بضربة النبوت على (الرأس) وكثيراً ما تسيل الدماء وتملأ وجهه... ولكنه لا يخرج من المعركة... بل يستل من (حزامه) سكيناً يهاجم بها الخصم، أو حتى مجموعة الخصوم من الفريق الآخر، فإذا هجم بالسكين تتحوّل المعركة من قشاع بالنبابيت، إلى قشاع أو التحام بالسكاكين... فيسقط هذا وذاك على الأرض... أو يهرب من يجد أن ليس له إلاّ الهرب والخروج، ووجهه مغمور بالدماء التي فجرتها الضربة بالنبوت على الرأس، أو الطعنة بالسكين في الوجه أو الكتف... وهنا يرتفع صوت الشيخ (المشكل) وقد يكون هو أيضاً جريحاً بحيث يسمعه الجميع (الدم مدفون... الدم مدفون).

أما نحن الصغار في الحماطة وفي يد كل منّا (المقلاع) نشحنه بالحجر، ونقذف به أبناء المناخة... ونتصايح فرحاً إذا ما أصاب الحجر واحداً من الخصوم...

واصطلاح (الدم مدفون) تعلمنا أنه يعني عدم إبلاغ الشرطة، أو حتى الآباء، ويكون الرد عندما يسمع الجريح صيحة (الدم مدفون) كلمة متفق عليها بين الجميع وهي: (على مثلها وسواها) التي تعني الثأر في المعركة القادمة.

لكن أعجب، ما في اشتباكات القشاع هذه... أن بعض الآباء أو الأخوال والأعمام كان يطيب لهم أن يقفوا بعيداً عن الساحة، وترتفع منهم صيحات الإعجاب والتشجيع... ومنهم من يكون مزوداً بالبُن المسحوق والمناديل، يكبس به الجرح ويذهب مع الجريح إلى البيت وهو يردّد أيضاً: (على مثلها وسواها...).

قد يتساءل القارئ: (أين الحكومة من هذه المعارك الدموية؟؟؟) والمثير للدهشة حقاً - في تلك الأيام - أن مخفر الشرطة ليس بعيداً عن ساحة المعركة... هناك في (باب الشامي) قوة من رجال الشرطة، مع الضابط... ولكنهم لا يتدخلون بالتفريق بين الطرفين إلاّ إذا راجعهم أحد الذين جُرحوا - وذلك لا يحدث إلاّ نادراً... فإذا رأى المشتبكون في المعركة الضابط، ومعه العساكر... ينفضّون ويتسلّلون إلى الأزقة والمنافذ، ويستحيل في جميع الأحوال أن يعرفوا من هو الذي يجب أن يلقى عليه القبض. هكذا يظل الدم مدفوناً (إلى مثلها وسواها...) وينتهي الأمر، إلى أن يقع الاشتباك في يوم آخر.

***

لم تمض فترة طويلة لنشعر بأن الكثير من الأرزاق لم يعد له وجود في الأسواق... حتى ذلك الدكان الصغير في الركن الذي ننطلق منه إلى الحماطة، لم يعد صاحبه يفتحه لأنه لا يجد السلع التي يبيعها لسكان الضاحية، ومنها الخبز... والسكر... والشاي... والأرز (البكة)، وهو الذي تنبعث منه رائحة مقرفة بعد الطهو... وكنا مع ذلك نأكله بنهم إذ أصبح من المستحيل أن نجد الأرز (المزه) أو (الهورة)... وفي منزلنا كانت مشكلة الخبز محلولة... لأن في البيت أكثر من كيسين من الدقيق تقوم (أمي بشرى) بعجنه وإعداده للخبز في الفرن... وكنت أنا الذي يحمل (اللوح) وقد وضعت عليه (أمي بشرى) عدداً من الأرغفة. ما زلت أذكر، كيف أن أبناء الجيران، وهم يحملون الألواح، إلى الفرن مثلي، كانوا يتساءلون عما عندنا من أكياس دقيق الحب؟؟؟ فإذا قلت (كتير...) يقول بعضهم: (يا ريت تبيعونا من هادا الكتير... آخر كيس عندنا ما بقى فيه إلاّ اللّي يكفينا ثلاثة أيام.

مع هذا الشِّح ونفاد ما في المدينة من الأرزاق، كان هدير مدافع (الأوبس) يتواصل في الليل وأحياناً في النهار... لكن من أعجب التجارب، أننا لم نعد نرتعب من هديرها... بل قد بلغ ببعضنا الأمر أن يتساءل: (لماذا سكتت المدافع اليوم؟؟).

لم نعد - نحن الصبية والأطفال - نخاف من هدير المدافع، وقد يكون السبب هو (الألفة) ولكن عندما نجتمع يدور بيننا - أحياناً - كلام عن (الباشا) في قلعة جبل سلع... وقد يقول أحدنا، لماذا لا يسلّم؟؟ فلا يكاد ينتهي من هذه الجملة، حتى تتحملق العيون وتتقطب الحواجب، وتسمع من هذا والآخر قولهم:

- يسلّم؟؟؟ يسلّم لمين؟؟؟

ويضيف آخر:

- إنت ما سمعت عن الشي اللّي يحصل علينا، لو دخلوا؟؟

ويستطرد آخر:

- يا شيخ اسأل إبراهيم مفتي، عن الحكايات التي سمعها من أمه..

ويتابع آخر:

- يا شيخ فال الله ولا فالك، ربنا ينصر (الباشا) اللّي بيدافع عن البلد.

ويقول أحدهم:

- طيّب، ليه ما نخلّيهم يدخلوا ونحن ندافع عن أنفسنا... بيوتنا كلها فيها الأسلحة... وآبانا، رجال وزيهم الأعمام والأخوال..

هنا يتدخل غازي ابن الشريف جدوع، ليقول: أنا واخواني نعرف كيف نضرب بالبندقية... وعندنا سلاح كثير.. وأبويا قال للباشا، يخلّينا نخرج لهم... لكن الباشا قال إنّو: هو المسؤول...

- يعني إيه مسؤول؟؟

- يعني الحكومة هيّه اللّي أمرته يدافع عن المدينة وأهلها.

- حكومة؟؟.؟ هيه فين الحكومة؟؟؟

- في مكة... وجدة وينبع... حكومة الشريف.

- بس... نحن بنسمع، إنو العسكر ما استلموا المعاشات... من زمان..

- بس... يا ترى ياكلوا منين؟؟

- الكروانة... كلهم، ياكلوا الكروانة، والتعيين..

مرت الأيام، والحصار، وشحّ الأرزاق أو انعدامها في الأسواق أدّى إلى أن نرى جميع الدكاكين، في المناخة وباب المصري وغيرهما مغلقة تماماً... وعندنا في البيت لم يبق من دقيق الحب شيء، وأصبحت الوجبات التي نجدها هي المخزون القليل من الفاصوليا واللوبيا... وحتى هذه قالت (أمي بشرى) علينا أن نكتفي بوجبة الغداء في الظهر... ولا شيء بعد ذلك إلاّ في صباح اليوم التالي، حيث لا أدري كيف كانت تؤمن لنا ما يسمّى (حريرة) وهي نوع من الحساء، نتناوله بالملاعق... ونظل ننتظر وجبة الفاصوليا أو اللوبيا... ولكن بمقادير محسوبة..

ثم كانت مفاجأة لم تخطر على بال أحد في المدينة كلها... وهي حركة (القطار) لأول مرة، وكان قائده هو العم (محمد علي هوندجي)... سمعنا في المدينة صوت الصافرة، فما أكثر ما فرحنا وكل منّا يقفز وهو يسمع أن القطار جاء بأرزاق سلّمها للباشا... والباشا بدوره، وزع منها على العسكر وبعض التجار.

بعد بضعة أيام دخل علينا عمّي، وهو يقول لأمي:

- محمد علي أفندي، طلب أن تسكن عائلته عندنا، لأنه يخاف عليهم أثناء سفره بالقطار.

أُفرغ الطابق العلوي في المنزل من الأثاث، لتشغله عائلة العم محمد علي... وهي مكوّنة من أمه العجوز... وزوجته الشابة وابنه الصغير في (الكافولية).

كانت فرحة أمّي بالعائلة لا توصف... إذ خففت من وحشة الوحدة عندما يذهب عمّي للعمل... كما كانت فرحتنا بسكن عائلة العم محمد علي، لسبب آخر وهو أنها جاءت بكمية وافرة من الدقيق والأرز والسمن وعلب اللحم... جعلنا نشعر بالفرج، إذ لم تبخل أم العم محمد علي، بالإصرار على أمّي أن تأخذ نصيباً وافراً من هذه الأرزاق التي جاء بها العم محمد علي... ولا أدري من أين... ولا كيف تحرّك القطار الذي لم يسبق أن تحرك منذ خربته قوات الشريف في حصارها للمدينة، التي كان يدافع عنها فخري باشا، في عهد الدولة العثمانية.

قد يذكر القرّاء تلك الفترة من حياتي، عندما كنا نسكن (مقعد بني حسين)... في ذلك البيت الذي تمّت فيه حفلة الختان، التي بلغ من فخامتها، أن عزفت موسيقى الجيش وأضيء الزقاق كله بالأتاريك... وربما الأهم من الذكريات (بنت المنور) وأسرتها التي كنت أحرص على أن أشاركهم وجبة العشاء المكوّنة من الأرز الأبيض وسلطة الخل والفلفل الأخضر... بل ما لن أنساه قط، ركوب الحمير، بالنقود التي جمعتها بعد أن زحلقتها من تحت المخدة، وتلك العلقة الساخنة والسجن في المرحاض، إلخ...

لكن بعد أن سكنّا في هذا البيت الفخم، في حي الساحة، وجيراننا كلهم من أكابر عوائل المدينة، وأخذنا نتعوّد على انفجارات القنابل وأزيز الرصاص، كما نتعود على الجوع نتيجة لعدم وجود أي شيء يباع في الأسواق... يبدو أني، وحتى أمّي نسينا الكثير الذي عشناه في الفترة التي أعقبت عودتنا من الشام، ثم زواج أمّي من عمي، وأولئك الهوانم اللائي كن يزرن أمي، وكانت هي أيضاً تزورهن... وميلاد أختي التي سهرت ليلة ميلادها وهي في الهندول المتأرجح حتى الصباح.

كان شغلنا الشاغل هو هذه الحرب التي أعطتنا وقتاً طويلاً، للعب بأنواعه، وأهمه (القشاع) ببعر الجِمال، في برحة السلطانية، وذلك من موقعنا في الحماطة، وبالحجارة في المقلاع نصوّبه نحو أبناء المناخة.

لا بد أن اقول، إن نسياني كل الذي عشناه بعد العودة حتى في زقاق القفل وزقاق الطوال، ثم مقعد بني حسين - قبل أن ننتقل إلى هذا البيت في الساحة - كان نتيجة

لأن أمّي نفسها، كانت نادراً ما تخرج لزيارة صديقاتها سواء من (الهوانم) زوجات الأطباء أو من (زقاق القفل وزقاق الطوال).

لكن الذي حدث فجأة - والحرب لا تزال دائرة بين الباشا في قلعة جبل سلع وبين (الأخوان الغطغط) هو أن أمّي سمعت بوفاة (الخالة فاطمة جادة)، ورأيتها تضع وجهها بين يديها وهي تبكي بصمت... لم تكن تدري حين سمعت بهذا الخبر أين يكون العزاء؟؟؟... وفي صباح اليوم التالي، أخذتني في يدها، ومشينا على طول شارع الساحة في اتجاه المنطقة التي يقع فيها زقاق القفل - وأمامه زقاق الحبس - دخلت بي الزقاق وفيه بيتنا المغلق، وأمامه مباشرة بيت الخالة (فاطمة جادة)... كان هذا مغلقاً أيضاً... طرقت الباب، فلم يجبها أو يفتح لها أحد... لا شك في أنها كانت تتساءل:

- ترى أين ذلك العم محمد سعيد؟؟؟ وأين تعيش بدرية وزوجها؟؟؟

عاودت طرق الباب... فإذا بصوت سيدة يسمع من الجهة المقابلة... وكانت الخالة (خاتون الهندية)... قالت وهي تخرج رأسها قليلاً من الشباك:

- مين؟؟؟

ثم أردفت تقول وفي صوتها فرحة ودهشة:

- أختي فاطمة؟؟ الله يجزي الأسباب خير... تعالي... تعالي خلّيني أسمع أخبارك... تعالي... خالتك فاطمة (الله يرحمها) والعم محمد سعيد، يقولوا وجعان كتير يمكن يكون عند بدرية... تعالي... أنا في هادا البيت لوحدي... البيبي... والتانيين كلهم سافروا الهند... يا شيخة تعالي...

- لكن فين نعزي، في الخالة فاطمة رحمة الله عليها؟؟

- العزاء عند بدرية.. في باب المجيدي... يبغالك تسألي جوزها... وأظن إنّو في المحكمة...

- لكن هية متى ماتت؟؟... يعني قبل كم يوم؟؟

- قبل أكثر من شهرين.

- وماتت هنا في بيتها... ولا عند بدرية؟؟

- ماتت - رحمة الله عليها - في بيتها... ما رضيت أبداً تخرج من البيت...

- يا شيخة أنا زعلانة كتير اللّي انقطعت عنها وعنكم كلكم..

- ونحن كلنا زعلانين عليكي... إنتي أصبحت من الكبارية، اللّي ما يشوفوا الناس اللّي زينا... جماعتك هادي الأيام، هم (الهوانم) اللّي سمعنا عنهم.

- اسكتي يا شيخة... حتى الهوانم هادول ما عاد بنشوفهم... مع هادي الحرب..

- ليه... يخافوا يمشوا ويزوروكم؟؟؟

- أيوه كلنا، نبّهوا علينا، ما نخرج، لا في الليل ولا في النهار...

- لكن إنتو ساكنين فين؟؟

- برضه في الساحة، بعد بيت السيد هاشم... جنب بيت الشريف جدّوع..

- طيّب يعني بيتك هادا تاركينو مقفول بعدما ماتت (منكْشَة) الله يرحمها؟؟

- جوزي ما يبغا يسكن في زقاق القفل... وعندي بنتي اللّي تخاف من الزقاق.

- يا فاطمة يا أختي... هادا البيت هو اللّي ولدتي فيه... وعشتي فيه مع أمك الخالة حميدة، وأبوكي عمنا الشيخ أحمد صفا... وكمان هو البيت اللّي اتجوزتي فيه أبو عزيز وجاكي عزيز وحتى لما اتجوزتي الدكتور... كنتي ساكنة هنا...

- بس إنتي عارفة، إني لازم أكون مع جوزي وبنتي..

- صحيح... عندك حق... لكن ليه ما تأجّريه... البيت لما يفضل مهجور يسير خرابة.

- بس فين اللّي يبغاه؟؟؟

- صحيح... شوفي البيوت اللّي في الزقاق كلها خالية... كل الناس اللّي كانوا يسكنوا في الزقاق... منهم اللّي ماتوا في الشام، ومنهم اللّي بيسكنوا في بيوت باب المجيدي... بيقولوا إنها بيوت جميلة وشرحة.

وكأنها لاحظت أن الحديث قد طال، وأمي واقفة عند باب بيت الخالة فاطمة جادة فاستدركت وأخذت تقول:

- طيّب ليه ما تيجي عندي، البيبي تفتح لك الباب. هيّا تعالي خلينا نهرج.

- مرة ثانية.. إنتي عارفة إني لازم أكون في البيت قبل ما يجي جوزي ونتغدى.

- طيّب على راحتك... وأنا رايحة أجي أقيِّل عندكم وآكل هاديك الأكلة اللّي نسيت اسمها...

- طيب... هيا في أمان الله...

- في أمان الله يا أختي... بس لا تقطعينا...

دار كل هذا الحديث، بين أمّي والخالة (خاتون الهندية) كما كانت تسمى دائماً، وأنا واقف أصغي، بينما ذاكرتي تبحر، في خضم الذكريات البعيدة، وقد أحسست بما يشبه الحزن والتفجع، لأني لم أكن لأذكر شيئاً منها لولا هذا الحديث... بل كان شعوري بالجحود عاصفاً وأنا أستعرض علاقتنا الطويلة بـ(أمي منكشة) التي ماتت في هذا البيت، وحيدة، وقد أعجزها المرض والشيخوخة عن الحركة، ولم يشعر بموتها أحد إلاّ ذلك الجندي الذي لا أدري أين هو الآن... وأعني: (إسماعيل)... الذي كان يحرص على زيارتها كل يوم، ويؤمن لها ما تحتاج إليه من غذاء وعلاج... بل تذكرت أن أمّي كانت جاحدة لفضل تلك العجوز التي ظلّت تحرس البيت أيام غيابنا عن المدينة في الشام... لم أفهم وقتها كيف كان على أمي، ألا تذهب لتشييع جنازتها، عندما جاء إسماعيل يخبرنا أنها قد ماتت... رحمها الله، لا أنسى اليوم أن أمي، ظلت تلقي عليها ظل اتهامها بأنها ربما هي التي شاركت في نهب كل الموجود في البيت من الأثاث... ولا أنسى أني حاورت أمّي أكثر من مرة، في سوء ظنها... ولكنها ظلت على ظنها السيء، رغم أن منكشة، واصلت عملها في البيت بعد زواج أمّي من زوجها الدكتور... ولم تذهب لتعيش في بيت زقاق القفل، إلاّ بعد أن أعجزتها الشيخوخة عن المشي، كان عمّي هو الذي أشفق عليها، وأمر بنقلها إلى بيتها في زقاق القفل، كما أمر (إسماعيل)بألا ينسى زيارتها، وبتأمين ما تحتاج إليه كل يوم.

عندما مدّت أمّي يدها لتأخذ يدي كما هي عادتها ونحن نخرج من زقاق القفل، ألقيت نظرة فيها الإحساس بالحسرة، على ذلك البيت التي ذكّرتنا الخالة (خاتون الهندية) بالكثير مما شهده من حياتنا.

أمي وأنا... وقبلنا تلك الأجيال التي عاشت فيه طوال فترة من الزمن، ربما امتدت مائة أو مائتين من السنين، مع هذا الإحساس الغامر، وأنا أمشي مع أمّي جال في ذهني شعور، ربما أومض كالبرق، وظل يومض إلى أن خرجنا من الزقاق وأخذنا نتجه إلى بيتنا، وهو أني لم أعد طفلاً... وإلا، فكيف لم يساورني شعور بالحزن والأسى كهذا الشعور الذي تملّكني في هذه اللحظات؟؟؟ لم أجد إجابة لِمَ تساءلت عنه سوى أن الأطفال قلّما يعانون مثل هذه المشاعر... وأني لم أعد ذلك الطفل.

الخروج من زقاق القفل، لا بد أن يمر بمدخل زقاق الحبس... وهنا لم أملك إلاّ أن أسأل نفسي، عن صديقي (يحيى)... الذي تعلّمت منه كيف يمكن أن أعيش - بعيداً عن أمّي وزوجها، وذلك بالعمل في سوق الخضرة... نحمل ما يتسوّقه الكبار الذين يحتاجون إلى من يحمل لهم ما يتسوقونه في (القفّة)... وذلك (المجيدي) الذي أقرضني إياه يحيى، على أن أسدده من الأجور التي أتقاضاها لقاء عملي... ترى أين يحيى في هذه الأيام؟؟؟ وكيف لم أحاول منذ ترافقنا في ركوب الحمير بالهروب من الكتّاب... أنا من كتّاب العريف محمد بن سالم... وهو من كتّاب (القبّة) أن أسأل عنه؟

خطر لي أن أطلب من أمّي أن ندخل زقاق الحبس، وأن نذهب إلى بيت العم عبدالنبي، والعم حسين، الذي لم يكن يحيى يخاف من مخلوق كما يخاف من (سيدي حسين)... لكني التزمت الصمت، وظللت أمشي معها، وفي رأسي هذا الوميض المتلاحق من المشاعر التي كانت نائمة ولم يوقظها إلاّ هذه الوقفة أمام بيت الخالة فاطمة جادة، ونحن نسمع كلام الخالة (خاتون الهندية).

عندما دخلنا البيت، كان أول ما تساءلت واهتمت به أمّي هو مجيء عمي؟؟؟ وماذا أعدّت (أمي بشرى) للغداء ... وسؤال ربما كان الأهم... هو هل هناك أي خبر عن العم محمد علي هوندجي؟؟؟ لقد غادر المدينة بالقطار منذ أكثر من 20 يوماً... وانقطعت أخباره مع القطار الذي يقوده، ولم يعد أحد يتذكّر أنه حرّك القطار... وجاء به محملاً بالأرزاق... ثم في الصباح الباكر من ذات يوم، ودّع أمه وزوجته الشابة الصغيرة وابنه الرضيع وخرج لأنه سيسافر بالقطار... أمه ومعها زوجته - وأحياناً أمّي ودادة بشرى - إذا قاموا بصلاة الظهر، وبعد نهايتها في جلستهم، ويرفعون أيديهم، وكل منهن تتضرع إلى الله أن يكتب له السلامة وأن يروه يعود... وبعد أن يتفرقن في المنزل، أسمع أمّي تقول:

- مساكين... مين لهم لو ما رجع - لا سمح الله -؟؟؟

عندما جاء عمّي للغداء بدا عليه أنه (مهموم) ومشغول الذهن. لذلك لم يجرؤ أحد أن يسأله شيئاً... وجلسنا حول المائدة نأكل غداءنا من الفاصوليا والكرنب، ولكن من دون أي قطعة من الخبز... إذ لم يعد في البيت دقيق، وما قدّمته الخالة أم محمد علي هوندجي، قد نفد وكان المذاق شهياً بفضل ما عالجته (أمي بشرى) من البهارات والتوابل.. مما جعل عمي يضحك وهو يقول:

أمي بشرى شاطرة جداً... الأكل لذيذ... والكرنب، مادّة مغذية جداً تغني عن اللحم... ولكن أبشّركم... يمكن بعد يومين تكون عندكم (القنيطة)... وصفيحة ممتلئة باللحم...

توقفت أمّي عن الأكل لتتساءل: هل جاء محمد علي أفندي بالقطار (البابور)؟؟؟ وعادت إلى وجهه مسحة الحزن والهموم ليقول:

- يقولون إن القطار، معطل في المحطة القريبة من المدينة... المشكلة هي في الفحم... الفحم خلص يمكن أن يترك القطار ويجيء إلى المدينة على جمل... ومن الإستاسيون يأخذ كفايته من الفحم الموجود في المخازن... بس.. هادا لازم ياخد سبعة تمانية أيام... الله يكون في عونه..

وسرعان ما نهضت أمّي عن المائدة مسرعة وهي تقول:

- أروح أبشّر الخالة (هوندجية) وزوجته. دول بيبكوا عليه ليل ونهار. أبشّرهم أنه حي وبخير... وإنو يجي على الجِمال...

وبعد أن عادت وعيناها دامعتان، لم تنس أن تسأل:

- لكن إيه هيه (القنيطة)... وتنكة اللحم... يمكن دي زي اللّي كانوا بيعطونا هيّه في الشام.

- هادا في الأيام الأولى قبل ما تشتد الحرب... لكن بعدين ما كانوا يعطونا إلاّ خبز الشعير الأسود... وفي الشهر مرة واحدة علبة اللحم.

- سمعنا إنو حتى خبز الشعير انقطع... في الأيام الأخيرة.

- أيوه انقطع عن بعض الهاجرين... لكن أنا - بعد موت أبويا - كنت أروح أستلم التعيين... وما انقطع إلاّ لمّا صار التسليم... بين الشريف والإنكليز... والباشا التركي... عشان الأسواق اتملت بكل شي... لكن يا حسرة... كانت الفلوس هيّه التي تعبنا كتير في تدبيرها.

- يا ترى كيف كنت تدبريها؟؟؟

- بشغل التطريز على المنسج... وبالخياطة... أخيط تياب لأطفال الجيران.

- حالتكم كانت أحسن من حالة أهل المدينة... فيه ناس أكلوا لحم البساس والحمير الميتة.

- يا لطيف... كثيرين ماتوا بالجوع... رحمة الله عليهم.

لم يكن قد خلع بزته الرسمية فنهض عن المائدة وهو يقول:

- لازم أروح مستشفى درب الجنايز قوام... علشان اليوم لازم نرسل لجبل سلع البارود اللّي يحتاجه الباشا... وكمان نرسل القنيطة وتنكات اللحم، وعلب الخضار إلى القشلة.

- عندكم كتير؟؟

- أيوه... عندنا في مخازن المستشفى شي كتير - والحمدلله - يكفي العسكر أكتر من ستة شهور.

- يا سلام... وهادا مين اللّي جاب لكم كل هادي الأشياء؟؟

- من أيام فخري باشا... سلموني هيّه قبل التسليم بثلاثة أشهر. وأنا أدخلتها المخازن... وما فتحت المخازن... لأنها أمانة... لكن فخري باشا راح، والخلافة كمان راحت... وأصبح الباشا في جبل سلع... والعسكر اللّي بيدافعوا معاه عن المدينة يستحقوها... ولما أعطيهم هيّه... ما أكون خنت الأمانة... أنا أعطيها... أخرجها من ذمتي، للعسكر اللّي بيدافعوا عن المدينة... زي ما كان فخري باشا بيدافع عنها.

أخذ يتمشّى في الغرفة جيئة وذهاباً... وهو يفكر... ثم التفت فجأة إلى أمّي يسألها:

- لكن فين (كوزيدة)... ما شفتها في الصبح عشان كانت نايمة... لكن دحّين فينها؟

وضحكت أمّي ضحكة صغيرة... وهي تقول:

- هادي طول يومها مع (النونو) ولد (مريم)... تشيله وتمرجحو على رجلينها.

- لكن ما تاكل؟ يا ترى عندهم أكل؟

- الخالة فاطمة، هي اللّي تطبخ... وكمان تسوّي الحريرة من الدقيق... وكمان تلحسه من العسل اللّي عندها... وكوزيدة بتاكل معاهم.. ولا تنزل إلاّ لما تروح مع عزيز في العصر للقشاع في الحماطة...

حين أخذ يخطو للخروج من الغرفة، امتلأ الجو بهدير مدافع (الأوبس)... لكن هذه المرة بطلقات متوالية وسريعة... وكان الوقت عز الظهر... مما استوقف عمّي ليقول:

- أظن الباشا رآهم يهجمون، ربما من جهة قبا والعوالي...

- ولكن كيف تخرج، تحت هادا الضرب... وبتقول إنهم بيهجموا؟؟؟

- المدافع من سلع، يعني الباشا يريد أن يوقف حركتهم... فلا خوف على أي واحد يمشي في المدينة... وأنا اليوم سأركب الحصان إلى درب الجنايز... يعني أقل من ربع ساعة... هيا في أمان الله..

وخرج وسمعنا وقع حوافر جواده منطلقاً في الشارع لحظات... بينما ظللنا نحن في المنزل نسمع هدير المدافع يتواصل، ومعه زخات لا تنقطع من طلقات رصاص الرشاشات في أيدي الجنود المتمركزين في مدخل قبا.

ما كاد يذهب... وتقوم أمّي بشرى برفع الأطباق عن المائدة... حتى انطلقت من جانبي إلى الدهليز... وليس لأستعد بـ(الكبوش) وإنما لأرى (محمد علي) ذلك الجندي الشاب الذي طالما صاحبته في بيت مقعد بني حسين... كان جالساً على دكة الدهليز، وليس في يده بندقية كالعادة... وإنما، عرفت في ما بعد أنها تسمى (مِزْيَتَة) وهي وعاء أسطواني صغير ورفيع يكون ممتلئاً بالزيت، يستعمل لتزييت البندقية... قال إنه نسيها وجاء اليوم يبحث عنها وقد وجدها... وعرضها في يده... وهو يبتسم... ثم وضعها أمامي على الأرض وهو يقول بلهجته العربية المكسرة:

- هادي... ممكن تسير (مدفع)... بس لو كان فيه بارود... كان يمكن تتعلم تسوّي مدفع كل الأولاد يخافوا منّو.

ما كاد ينتهي من كلامه حتى وجدت نفسي أكاد أطير فرحاً... مدفع؟؟؟ أحارب به جميع الأولاد؟؟؟ ولا ينقصه إلاّ البارود؟؟؟ وأبرقت في ذهني فكرة (اللعبة) التي رأيتها بالبارود؟؟؟ وقلت له:

- إذا كان البارود موجود... كيف تصبح هذه المزيتة مدفع؟؟؟

وأخذ يشرح لي العملية... جاء بمسمار وضعه على الناحية المغلقة من المزيتة، وبمطرقة صغيرة وجدها في رف الدهليز، فتح بالمسمار خرماً في نهاية المزيتة... ثم أخذ يقول:

- هنا... قبل البارود في المزيتة... فتيلة في هذا الخرم... ثم بعد البارود قطن... يمنع خروج البارود... بالكبريت... على الفتيلة... وخلاص... هادا مدفع...

تخوّفت أن أجيئه بالبارود، لئلاّ يفتضح أمري وقد خططت لسرقة حاجتي من

البارود من تلك (العلبة الكرتون) في غرفة عمي... اكتفيت بأخذ المزيتة منه... وأنا أردّد بالتركية تشكر إيداريم... تشكر إيداريم...

عندما غادر الدهليز، وهو مثلنا يسمع هدير المدافع وزخات الرصاص... قال:

- هذا ما لازم يلعب... هادا خطر... يمكن ماما... بابا يزعلو كتير..

لم أدرك يومها.. وحتى اليوم.. ما الذي جعل محمد علي يعلِّمني أن أصنع من المزيتة مدفعاً، وفي ما بيني وبين نفسي رجّحت أنها لعبة يعرفها... وأحب أن يعطيني بها تفاصيل صنع وحركة المدافع التي كنا نسمع هديرها...

من جانبي، وقد عرفت كيف تصنع المدافع... أخذت أخطط لصنع هذا المدفع... والبارود موجود... وسوف أصنع المدفع... وأهزم به جميع الأعداء إذا شحنته بالبارود والفتيلة..

إذا شحنته بالبارود والفتيلة، أهزم جميع الأعداء... كان هذا هو الهاجس الأول الذي قفز له قلبي فرحاً. لم أضع وقتاً... أسرعت إلى مكتب عمّي الذي لم أنس أنه حذرني من دخوله، مع أن بابه قد تُرك مفتوحاً. وإلى تلك العلبة من الكرتون... تناولتها من موقعها بكثير من الحذر... أعددت قبل أن أدخل الغرفة (علبة صغيرة وملعقة شاي) فتحتها لأرى المسحوق الأسود وهو البارود، وقد انبعثت منه رائحة معينة.. وبالملعقة الصغيرة غرفت أكثر من ثلاث ملاعق وضعتها في العلبة... ولكن قبل أن أعيد العلبة إلى مكانها في الرف، لاحظت أن الغَرْف قد ترك أثره على سطح المسحوق... مما يترتب عليه اكتشاف سرقتي... وبورقة صغيرة هناك سوّيت السطح، بحيث عاد كما كان لا يدل على شيء... وأسرعت بالخروج ملاحظاً ألا أكون قد تركت أثراً لقدميّ في الأرض... وحين أذكر هذا التصرّف ومثيله في إخفاء أثر السرقة... أحمد الله على أنه جنبني الاستفادة من هذا الذكاء الخبيث، فلم أمارس نشاطاً من هذا النوع في ما استقبلت من أيام العمر... وإن كنت لا أنسى في الوقت نفسه أن هذا الذكاء، قد أفادني في اكتشاف بعض الجرائم عندما أراد الله لي أن أعمل في سلك الشرطة في ما بعد.

أسرعت بالبارود في العلبة، إلى دكّة الدهليز، وتناولت المزيتة، وصنعت من القطن الفتيلة التي توضع في الثقب نهاية المزيتة... وأدخلتها ثم سكبت شيئاً من البارود، ثم حشوت القطن بمقدار قدّرت أنه كافٍ لإحداث الفرقعة عندما يشتعل البارود...

قدّرت بطبيعة الحال أن إشعال الفتيلة، وانطلاق المدفع في دكة الدهليز سوف يتسبب في ضبطي متلبساً، ومن المرجح أن الذي سيضبطني هو (داده بشرى) إلاّ أنني لم أستبعد أن أمّي نفسها يمكن أن تهبط منزعجة من صوت الانفجار... وتلك هي الطامة الكبرى... ولذلك فالشارع هو الموقع أو المكان الأفضل لإشعال الفتيلة وانفجار الطلقة من المدفع (المزيتة) وطبعاً - في منطقي حينئذ - أن توجه طلقة المدفع إلى الأعداء.

هنا، فوجئت بأني أتساءل:

- من هم الأعداء؟؟ وأين أجدهم لأوجه إليهم طلقة المدفع..

***

مدافع أبو دربالة

من هم الأعداء... سؤال ظلّ يتردّد في نفسي طوال الوقت الذي قضيته أمام باب المنزل... أبناء الجيران الذين ألعب معهم كل يوم... هل يمكن أن يكونوا أعداء؟؟؟ وحتى أبناء ساحة المناخة، ما الذي يجعلني أوجّه إليهم طلقة المدفع، ولا أعرف أحداً منهم... والقشاع بين أبناء الساحة وأبناء المناخة يبدو كأنّه لعبة رغم ما يدور بينهما من معارك... وهذه المعارك، هي من (أصول اللعبة)... وكان المدفع أو (المزيتة) المشحونة في يدي... بدا لي أنه لم يعد لهذا المدفع لزوم أو فائدة ما دام لا يوجد أعداء... وجال في ذهني: إن المهم هو تجريب هذا (الاختراع) والتأكّد من أنه مدفع بالفعل، وإن كان في حجم هذه (المزيتة)... والتجربة لا تحتاج إلى وجود أعداء توجّه إليهم الطلقة... يمكن أن توجه إلى فضاء الشارع، وعلى الخصوص في تلك اللحظة، حيث لم يكن فيه أحد من الأطفال أو غيرهم... كان الوقت ظهراً.. فأخرجت علبة الكبريت... وأشعلت الفتيلة التي أخذت بعض الوقت لتصل إلى البارود... وما هي إلاّ لحظات حتى انطلق المحشو في المزيتة بصوت خافت الفرقعة... لكن الذي لم أفهمه... هو أن المزيتة رجعت إلى الخلف وابتعدتْ أكثر من ثلاث خطوات... وهذا أعطاني فكرة أن الطلقة تذهب إلى الأمام... أما المزيتة فترجع إلى الوراء... ويمكن أن تؤذيني لو كنت واقفاً في مجال رجوعها السريع.

أسرعت، بالمدفع في يدي، وعلبة البارود في جيبي إلى المكان في الحنية تحت السلم، الذي أخبئ فيه (الكبوش) وغيرها من لوازم اللعب (الممنوع). قبل أن أستلم السلالم إلى الطابق الأعلى، أفزعني، بل جعلني أنكفئ إلى الأرض صوت قصف المدافع من جبل سلع... وتوالى القصف مرات وأنا منبطح على الأرض... وفي الوقت نفسه أسمع صوت (أمي بشرى) تناديني، وتُطمئِن أمّي بأني لا بد أن أكون عند

باب المنزل. طالت فترة القصف المتلاحق، بحيث وجدت نفسي أسترجع قدرتي على النهوض، وفي الوقت نفسه الإسراع بالصعود إلى الطابق العلوي حيث أجد أمّي وقد جلست تستقبل القبلة رافعة يديها وإلى جانبها الخالة أم العم محمد علي هوندجي الذي انقطعت أخباره، وقيل إنه في محطة اسمها (هدية) ينتظر الفحم الذي نفد فتوقّف القطار، ولا يدري عن حاله أحد... كان هدير القصف المتلاحق من جبل سلع، يجعلنا جميعاً نتساءل في أي اتجاه يا ترى، تنطلق قذائف المدافع؟؟؟ كان مما استقرّ في أذهاننا أن القذائف موجّهة للهجوم في منطقة العوالي وقُبا... لكن اليوم لا شك أنها موجهة إلى جهة أخرى وما دمنا نسمع هديرها الرهيب، كأنها سوف تهبط على رؤوسنا، فإن أمّي رجّحت أنها موجّهة إلى منطقة وراء البقيع... وقالت بصوت مرعوب..

- يعني بيهجموا من جميع الجهات...

وتدخلت أم العم محمد علي لتقول:

- يمكن كمان بيهجموا على (البابور)..

هنا لا أدري كيف أُلْهِمَتْ أمّي أن تقول مُطمئِنة العجوز الخائفة على مصير ابنها:

- العم محمد علي في (البابور) معاه عسكر... وكل عسكري عنده (رشاش)...

انقطع هدير القصف... وبدا كأن المعركة إنتهت... فقالت أمي:

- الباشا ما يوقف المدافع إلاّ لما يشوفهم أموات على الأرض، أو هربوا..

لم تمض بضع دقائق حتى دخل علينا (عمي)، وفي ملامحه مسحة من مشاعر القلق... ودار ببصره في أرجاء المجلس، ثم قال:

- فين كوزيدة... فين كانت لما سمعتوا فرقعات المدافع؟؟

أسرعت بدرية زوجة العم محمد علي تقول:

- هيّة دايماً مع حسين... تهزّه على رجلينها، ولمّا ينام تنام هيّه كمان جنبه.

- طيب... الحمدلله... الحقيقة لازم ما تخافوا من أصوات المدافع... عشان اللّي بيهجموا، بيشوفهم الباشا، ويعرف كيف يوقف هجومهم... واليوم لازم كتيرين منهم ماتوا... عشان عددهم كان كبير... وحاولوا يدخلوا من باب الجمعة... عشان ما في بهادا المكان عسكر...

بعد أن جلس على أحد المقاعد فترة من الوقت نهض.. ورأيناه يهبط إلى الطابق

الثاني ولا أدري لماذا خطر لي أن أمشي وراءه... رأيته يفتح باب مكتبه... وحين رآني خلفه لم يمنعني من متابعته... رأيته يتجه نحو البندقيتين (أم خمس) المعلّقتين في صدر الغرفة ويتناول إحداهما يختبر حركتها، ثم يتناول الأخرى... ثم يلتفت إليّ يقول:

- الليلة، إسماعيل ومحمد علي، رايحين يباتو عندنا...

ثم أضاف:

- يمكن نحتاج ندافع عن أنفسنا... ما أحد يدري أيش اللي يمكن يصير...

كانت هناك بندقية ثالثة معلقة هي أيضاً، ولكنها على مبعدة من البندقيتين... فقلت:

- وهادي التالتة يا عمي.. أنا كمان أقدر أكون مع محمد علي وإسماعيل.

ابتسم، وهو يُصغي إليّ، ثم تناول البندقية، وقال:

- هادي يسموها (أم أصبع)... ما تشيل غير رصاصة وحدة... وكمان اللّي بيستعملها لازم يكون عنده صدر قوي... يتحمّل صدمتها... وأنت صغير... هادي تطرحك في الأرض. وهنا فتح البندقية... وتناول من (المجنّد) الذي يحمل رصاصها، رصاصة، عرضها في كفه وهو يقول:

- أنظر... كم هي كبيرة... والرصاصة نفسها كبيرة الحجم... هذه عندما تصيب الهدف، تمزّق كل ما حول الإصابة... رهيبة جداً يا عزيز... وهي من صنع اليونان...

عندما خرجنا من الغرفة، كان الذي يدور بذهني، قوله: يمكن نحتاج ندافع عن أنفسنا... وتساءلت:

- لماذا إسماعيل ومحمد علي فقط؟ عمّي وأنا... أنا أيضاً، لازم ندافع عن أنفسنا... وما عندنا إلاّ البنادق الثلاث... لازم تكون عندنا بنادق... أم أصبع ما تصلح لي... لو عندنا أربعة أم خمس، خلاص كلنا يمكن ندافع عن أنفسنا.

هنا راودتني فكرة المدفع (المزيتة) التي رأيت أنها (مجرد لعبة)... فهل يمكن أن أصنع مدفعاً قوياً... وليس لعبة... إذا لم نحصل على بندقيتين (أم خمس)؟؟؟ فالمدفع قوي، يمكن أن يساعد في الدفاع... ولكن كيف؟؟ كيف يمكن أن أصنع مدفعاً (على أصولو).

سرعان ما برق في ذهني اسم (أبو دربالة)... الذي نشتري منه (الكورة المزقرة) و(المقلاع)، وكذلك (المزويقات) و(المداوين) و(العجلة الحديد) التي نطلقها بين فكين من (سيخ)، وننطلق معها في الشارع ويروقنا صوت انطلاقها، ونحن نتسابق في الشارع بها.

أبو دربالة، الذي نعرف محلّه الكبير، في الدكاكين المشرفة على ساحة المناخة من الطابق السفلي (للحماطة)... وقضيت وقتاً أفكر في ما إذا كان يوافق على فكرتي في صنع المدفع، وقلت بصوت هامس:

- أنا عندي البارود والقطن... والفتيلة... ويمكن أن أحشوه مع القطن بكمية من الحجارة أو (الدّحَل) الحديد...

كان لا بد أن أذهب إلى محل (أبو دربالة) في وقت لا تكون فيه الساحة مشغولة (بالقشاع) ولذلك، فقد قرّرت أن أذهب إليه قبيل الظهر... وتوجست شيئاً من التحسّب في الذهاب إليه وحدي، إذ المشهور عنه أنه رجل (جبار)... يضرب بالمطرقة على نافوخ الذي لا يحسن التفاهم معه.

رأيت - في اللحظات التي كنت أدير فيها هذه الفكرة في رأسي -جاري في البيت المقابل لبيتنا وهو (إبراهيم مفتي)... الذي تضرب أمه عليه حصاراً عنيفاً، فلا يخرج للعب إلاّ بإذن... ولا يذهب إلى أي مكان إلاّ مع (الدادة صفا) أو مع (العبد العجوز) الذي نادراً ما يُرى خارج البيت، متوكّئاً على عصاه، ليقضي للسيدة (أم إبراهيم) بعض حوائجها الخاصة من السوق.

أسرعت أقول لإبراهيم:

- إنتوا عندكم بنادق... ورصاص... تدافعوا عن أنفسكم...؟؟

- عندنا بنادق ورصاص... لكن (دادي أمان) هو اللّي حاططهم في الدولاب... وخالي هو اللّي عنده المفتاح... هو اللّي يجي يزيّت البنادق ويمسحها ويرجع يحطها في الدولاب.

- لكن ما عندكم في البيت رجّال غيرك، و(دادتك العجوز)... مين اللّي رايح يدافع عنّكم لو دخلوا المدينة؟ نحن عندنا... محمد علي وإسماعيل... وعمّي بنفسه... وكما أنا..

- خالي دايماً يقول: هوّه عنده جماعته (ورجاله) ولازم ما نخاف من شي...

- كيف ما نخاف؟؟؟ والناس بيقولوا إن اللّي يهجموا ويدخلوا المدينة ما عندهم غير القتل... والذَّبح بالسيوف والسكاكين...

- بيقولوا كده... وفي الحقيقة أمّي خايفة كثير... لكن خالي بيذْبح (طلي) ويعزم جماعته على الغدا أو العشا... ويقول كلهم رايحين يدافعوا عنّنا...

خطر لي، بعد أن وصل بنا الحوار إلى هذا الحد، أن أسأل إبراهيم رأيه في أن تكون عندنا مدافع... ورأيت في عيني صديقي مشاعر الدهشة:

- مدافع؟؟

- أيوه مدافع... لكن صغيرة نقدر نصوب منها على اللّي يهجموا..

- طيّب ومنين نجيب هادي المدافع؟؟

هنا... أدركت أني قد وصلت إلى غرضي في الحديث معه، فأسرعت أقول:

- أبو دربالة...

- أبو دربالة؟؟؟ عنده مدافع صغيرة؟؟

- إمشي معايا... نروح عنده... وأنا اللّي أتكلم معاه... وهو اللّي يعرف يصنع المدفع اللّي أعرف أنا كيف يسوّيه.

وافق إبراهيم... وأسرعنا في الذهاب إلى محل (أبو دربالة)... وقد وجدناه جالساً على كرسي شريط طويل... وفي يده (منشّة) يطرد بها الذباب عن وجهه... وقفنا أمامه... فالتفت إلينا وهو يقول:

- ها أيش تبغوا؟؟؟ ما عندي (دَحَلْ)... لكن عندي مداوين ما في زيّها... ورخيصة..

وجدت نفسي أقول بجرأة... لا... لا يا عم أبو دربالة.. نحن اليوم جينا نبغا (مدافع).

فرقع الرجل ضحكة صاخبة وهو يتساءل مندهشاً:

- مدافع؟؟؟ بتقول مدافع؟؟؟

أسرعت بالدخول في الموضوع... شرحت له فكرتي... ابتداءً من المزيتة... إلى المدفع الذي أعتقد أنه يستطيع صنعه لي...

التفت (أبو دربالة) إلى زميلي (إبراهيم مفتي) وسأله:

- وإنت كمان تبغا مدفع زي صاحبك.

- لا... لا أنا ما ابغا مدفع... نحن عندنا بنادق.

ضحك (أبو دربالة) مرة أخرى وهو يقول:

- وأنا عندي مدافع... لكن ما أبيعها إلاّ للحكومة، أو للرجال... يعني أبوكم أو خالكم... الحاصل واحد كبير...

استوقفني هذا الكلام، ودار بذهني أن أطلب منه رؤية المدافع التي يقول إنه لا يبيعها إلاّ للكبار... فتقدّمت من مركازه خطوة وقلت:

- أنا أخلّي أبويا يجيك ويشتري منّك... بس إبغا أشوف هادي المدافع عشان أقول له عنها.

هنا نهض عن المركاز... وقال:

- هيا تعال أورّيك...

ومشى إلى داخل المحل، ثم استدار فيه إلى مكان مظلم تقريباً ولكن يمكن أن ترى العين بعض ما فيه... وكانت أشياء كثيرة... مرتّبة ترتيباً يدلّ على أنه أعدّ كل ما في المكان للعرض والبيع... ووقف عند زاوية إلى اليمين، عليها ستارة من حصير مثل الذي نجده في الحرم... وزحزح الستارة لتظهر مساحة كبيرة فيها عدد من المدافع، التي كنت أرى مثلها في بعض الصور..

لم أملك إلاّ أن أسأله وفي صوتي نبرة الدهشة:

- يا عم... كيف اشتريت هادي المدافع؟؟؟ مين اللّي باعها لك؟

هنا أعاد الستارة إلى الأرض، لتختفي المدافع عن الأنظار... وراح يقول:

- هادي مسائل أتكلم فيها لما يجيني أبوك... هوّه يعرف إنّو عساكر الشريف بعدما سلّمت المدينة... يعني بعد ما راح فخري... والحكومة استغنت عنهم... كانوا يبيعوا السلاح اللّي كان عندهم... وأنا بعت كتير من البنادق، وحتى الرشاشات، وكمان الرصاص، لكن ما قدرت أبيع المدافع... عشان ما أحد يقدر يشتريها... وترى عندي (الدانات)... عندي كتير...

كان إبراهيم قد آثر عدم الدخول معي ولذلك، انحنى العم أبو دربالة قليلاً ليهمس في أذني:

- ترى لا تقول لصاحبك شي... وقول لي.. أبوك فين يشتغل؟؟

- أبويا (ضابط) في (الخستخانة)... واليوم قال لنا: (نحن يمكن لازم ندافع عن أنفسنا).

وكان قد استدار للخروج من هذا المخزن... ومشى وأنا خلفه.. وهو يردد:

- نحن يمكن لازم ندافع عن أنفسنا؟؟؟ يعني يمكن يدخلوا المدينة... اسمع قول لأبوك.. أنا مستعد أعطي الباشا، هادي المدافع، والرشاشات والبنادق... وهوّه اللّي يعرف يسلّح بها اللّي لازم يدافعوا عن أنفسهم... تقدر تقول لأبوك هادا الكلام؟؟؟

- أيوه أقدر...

- وقول له كمان... أنا أعطي الباشا كل اللّي عندي... وما ابغا فلوس... وربنا يستر العاقبة...

- أقول له.. يا عم... بس أنا ابغا مدفع لنفسي...

- فاهم.. إنت تبغا مدفع زي مدفع (المزيتة)... أبشر... تعال بعد بكرا أعطيك مدفع على قدّك... لكن قول لي منين تجيب البارود؟؟؟

- أنا عندي البارود... أبويا هوّه اللّي بيصنع البارود اللّي يحتاجه الباشا..

- أيوه سمعت... سمعت إنهم بيصنعوا البارود اللّي يحتاجه الباشا... طيّب دحّين راح الوقت... تعال بعد بكرا... تلقى المدفع اللّي تبغاه... لكن قول لأبوك كل الكلام اللّي سمعته منّي... وقول له كمان... أنا عندي بارود أسلّمه للباشا مع السلاح..

ومرة أخرى، مال على أذني وهمس:

- ترى لا تقول لأحد غير أبوك، الكلام اللّي سمعته منّي...

كنا الآن قد وصلنا إلى المركاز الذي يجلس عليه... وكان إبراهيم واقفاً، وقد بدا عليه الضيق ولذلك أسرعت أقول له:

- هيّا... نروح البيت... أصلي أنا شفت أشياء كثيرة... ما في أحد في المدينة عنده زيّها... ومشينا مسرعين...

ما كدنا ندخل الشارع الذي فيه بيوتنا حتى سمعنا صوت (دادة صفا) من بيت إبراهيم... و(أمي بشرى) من بيتنا.. وهما تردّدان الكلام... عن غيابنا...

رأتني (أمي بشرى) وأنا أدخل البيت... ولذلك وجدتها في الدهليز... تنذرني بأن

أمّي سألت العيال اللّي بيلعبوا، عنّي... وعرفت أني غايب... وعشان كده... الله يعلم كيف رايحة تربّيك... ثم التزمت الصمت لحظات... لتقول:

- أحسن لك تطلع على طول عند الخالة (هوندجية) وهي اللّي تقدر تخلّيها تسكت عنّك...

طلعت على طول، متلصصاً على رؤوس أصابع قدميّ... إلى الطابق الذي أجد فيه (الخالة هوندجية) وزوجة ابنها... وكانتا هناك... ومعهما أختي الصغيرة، نائمة إلى جانب الرضيع..

ظلت محاولة الحصول على المدفع الذي يصنعه أبو دربالة معلّقة لا حل لها بضعة أيام... كما ظلّت أقواله عن استعداده لتسليم ما في مخزنه من المدافع والأسلحة... حبيسة في صدري لا أدري كيف أفضي بها إلى عمّي كما وعدت الرجل... والسبب أني أتحاشى افتضاح علاقتي به... ومنها حكاية المدفع الذي وعدني بصنعه..

خلال هذه الأيام، اشتدّ قصف المدافع من قلعة سلع، كما اشتدت المخاوف من هجومهم ليلاً أو نهاراً - بدليل أن القصف كان لا يتوقف إلاّ وقتاً قصيراً ليعود حتى في الليل، إذ كنا نرى من نوافذ الطابق العلوي القنابل أو هي (الدانات) وهي تنطلق ملتهبة في اتجاهين هما العوالي، وما وراء (باب الجمعة). لا أذكر الآن أين يقع هذا الباب وما وراءه.

مع احتدام القصف، وتزايد المخاوف، اشتدّ الحصار كما اشتدّ انغلاق الدكاكين التي تبيع المواد الاستهلاكية. أصبحت المدينة كأنها مدينة أشباح، تمشي في الشوارع والأزقة فلا ترى إلاّ الأطفال، الذين يسمح لهم باللعب في الزقاق قبيل الظهر، أما بعد الظهر فالجميع في المنازل... وقد يبدو بعضهم مع أمهاتهم أو مع الدادات من نوافذ الرواشين إلى أن يهبط الليل، فيسود الظلام - والكل يعلمون أن الرجال وراء الأبواب وفي أيديهم أسلحتهم استعداداً للدفاع إذا نجح الهجوم. لم يكن من سبيل للإطمئنان إلاّ دوي وهدير القصف من جبل سلع... إنه يعني أن عبدالمجيد باشا لم ينم ولا ينام، ما دام يرى محاولات الهجوم، ولا ندري كيف كان يراها، ولم نكتشف ذلك إلاّ بعد إنتهاء الحرب عندما أتيح لي ولمجموعة من الأطفال الصعود إلى جبل سلع، لنجد في عدة مواقع منه مناظير، حاولنا أن نرى بها.. فرأينا من يمشي بين النخيل في العوالي أو من يسوق حمير السواني في قبا وقربان، فإذا تركنا المنظار، لا نرى شيئاً من هذه التفاصيل...

أصبحت الشكوى من الجوع عامة.. لعدم وجود ما يُشترى أو يؤكل في الأسواق... شعرنا بها في المنزل، إذ لم يبق عندنا ما يؤكل إلاّ القنيطة واللحم (المصبّر) في الصفيحتين اللتين أرسلهما عمي، وقد كانا (نعمة كبرى) لأن غيرنا من الجيران، أصبحوا لا يجدون حتى خبز الشعير...

عادت بي الذاكرة إلى صُوَر الجوع الذي عانيناه - أمّي وأنا والذين ماتوا - في حلب، وتساءلت ترى هل سوف يموت الناس بالجوع -ويحملون إلى المقابر في مثل تلك العربات إلى حيث يدفنون معاً..

أذكر على سبيل المثال... أن مشاعر الجوع في المنزل، قد أصبحت الشغل الشاغل للجميع بمن فيهم الخالة (هوندجية) وزوجة ابنها الشابة (مريم)... إذ يبدو أن ما كانت تختزنه من التموين الذي يجيئها به ابنها محمد علي، كلما عاد من رحلاته بالقطار، قد أوشكت على النهاية...

العجيب - ولعلّه الطبيعي - أن الأطفال انطلقوا في شوارع وأزقة الساحة، يخرجون في الضحى ويبدأون ممارسة نشاطهم... وكان لهذه الظاهرة الفضل في أن "إسماعيل ومحمد علي"، أخذا يتهاونان في منعي من الخروج مع أختي إلى الشارع، بل وحتى الذهاب بعيداً عن الباب... والاشتراك في اللعب بالكبوش. وفي اليوم الذي نسمع فيه أن هناك معركة قشاع بين عيال الساحة، وعيال المناخة... كنا نحن الصغار من أبناء الساحة، نجمع الحجارة لنضعها أكواماً في الحماطة ليعتمد عليها الكبار الذين يحسنون حصب خصومهم في ساحة المناخة بالمقاليع.

لم يفتني وأنا أجمع الحجارة على سطح الدكاكين مع كوزيدة، أن أتذكر أن دكاكين العم أبو دربالة... تحت هذا الموقع... ولا بد أنه الآن يتفرج على القشاع وهو جالس على مركازه... ويبيع ما يصنعه من "المزاويق" و"المداوين" والمقاليع المصنوعة من الصوف، يشتريها رخيصة من الذين يصنعونها ويعرضونها في مواقعهم تحت أشجار النبق في ساحة باب المصري، ثم يبيعها بالثمن الذي يفرضه على (المشاكلة) الكبار أمثال أحمد حوال والزمزي والطيار.

حكاية المدفع الذي اشتريته

كان الوحيد الذي لا يشترك معنا، لا في لعب (الكبوش أو التزقير) ولا في جمع الحجارة في أيام القشاع هو إبراهيم مفتي... كانت أمه التي نسميها الخالة (آسيا الطيارية)/ نسبة إلى بيت الطيار ومعها (دادة أمان) و(الدادة صفا) لا يسمحون لإبراهيم بأكثر من أن يُطلّ علينا من شباك الروشان، أو الجلوس على إحدى الإسطوإنتين من الحجر الأسود عند الباب... كان المشهور عن الخالة (آسيا) أنها جادة في علاقتها بالجيران، وشديدة الحرص على أن يظل إبراهيم تحت نظرها دائماً، لأنه وحيدها الذي مات عنه أبوه وهو لا يزال طفلاً صغيراً.. وكان أبوه من كبار أثرياء مكة كما كانت هي نفسها من أسرة معروفة بالثراء والجاه في المدينة، فكأنها تربأ بوحيدها أن يتأثر بسلوكيات أطفال ترى كيف يصخبون ويتعاركون، ويملأون الشارع ضجيجاً، لا ينتهي إلاّ عندما يلوذون بمنازلهم بعد صلاة الظهر، أو عند الغروب عندما تلاحقهم صيحات الآباء أو الكبار من الأعمام والأخوال.

وإبراهيم، هو الذي ذهب معي في ذلك اليوم إلى العم أبو دربالة، وهو الذي يعلم حكاية المدفع الذي وعدنا أن يكون جاهزاً (بعد بكرا)... وقد مضت عدة أيام ولم نذهب... من جانبي لم أكن حريصاً في الواقع على أن نذهب معاً، ولكني في الوقت نفسه كنت أتهيّب العم أبو دربالة وأفضّل ألا أذهب إليه وحدي.

ذات صباح إنتهزت فرصة جلوس إبراهيم على تلك الأسطوانة السوداء عند الباب، فأسرعت إليه وقلتُ هامساً:

- هيا قوم نروح نجيب المدفع من أبو دربالة.

- بس لما دادي أمان يجي ويدخل البيت.

وما هي إلاّ لحظات حتى كان دادي أمان قادماً وفي يده (قفة)... وقف عند الباب وهو يرانا معاً ثم ابتسم، ووضع (القفة) على الاسطوانة السوداء المقابلة.. ثم ملأ كفيه من التمر... وهو يقول: خذ يا إبراهيم... وإنت كمان يا عزيز... وأخذنا.. وبدأنا نأكل، ليدخل هو إلى البيت، وما كدنا نسمع وقع خطواته تغيب في الدهليز حتى نهض إبراهيم وهو يقول:

- هيا نروح قوام... قبل ما ينتبه لنا هوّه أو دادة صفا.

انطلقنا مسرعين، ولم يخب ظننا، فقد كان العم أبو دربالة هناك على كرسي الشريط وفي يده المنشة. ما كاد يرانا مقبلين حتى ملأت وجهه العجوز ابتسامة عريضة وهو يقول لي:

- جيت تاخد المدفع موكده؟

- أيوه.. بس نحن مستعجلين... لازم ما نتأخر.

- طيّب وفين الفلوس؟ وكمان قول لي إنت اخبرت أبوك باللّي سمعتو مني.

كنت منذ فترة قد صررت في (دكة السروال) أربعة أرباع مجيدي لأدفع ثمن المدفع عندما استلمه منه. فأسرعت أرفع الثوب، وأفك دكة السروال، وهو - ومعه إبراهيم - يلاحقاني بنظراتهما، وقبل أن أفرغ من فك الدكة عن أرباع المجيدي نهض العم أبو دربالة عن الكرسي الشريط ومشى إلى داخل الدكان، ثم عاد وفي يده المدفع.

كان مدفعاً حقاً - كان رائع الصناعة والإعداد... ماسورة طولها أكثر من شبر (من أشبار الصغار) سوداء لامعة، وقد ثبّتها على عربة بعجلتين مصنوعة من حديد أسود لامع...

وأخذ يضحك وهو يقول:

- شوف هذا مدفع ما في زيّه إلاّ المدفع الكبير اللّي عند الباشا... أنا دحّين اتعلمت كيف أسوّي حتى المدفع الكبير... وخذ كمان هادا (القيطان) تقصّ منه الفتيلة اللّي تدخلها هنا في هادا الغار بعد ما تغطيها بالبارود وقليل من الكاز.

ومدّدت يدي بأرباع المجيدي الأربعة، ففرقع ضحكة عالية وهو يقول:

- أربعة أرباع؟... لا يا ولدي هادا يستاهل عشرة... وأنا عارف إنو ما عندك غير هادي الأربعة.. خلّيهم عندك، وخد المدفع، وإذا قلت لأبوك الكلام اللّي سمعتو منّي... يكون هادا المدفع بخشيش..

لم يغفل العجوز عن ضرورة ألا يرى أحد المدفع في يدي... فدخل الدكان وعاد وفي يده (فردة جورب) صوف أسود وأدخل فيها المدفع، ورزمها وهو يقول:

- لا أحد يشوفه عندك... وحسّك تقول لأحد غير أبوك إني أنا اللّي صنعته وصاحبك هادا كمان لازم ما يقول لأحد إني صنعته... إنتو فاهمين؟

وقلنا معاً:

- فاهمين يا عم...

انطلقنا نركض عائدين... المدفع في يدي وأرباع المجيدي الأربعة في جيبي، ودخل إبراهيم بيته، وتريثت أنا قليلاً قبل أن أدفع درفة الباب فأتسلل إلى الدهليز... ولحسن حظي لم يكن إسماعيل أو محمد علي في مكانهما على الدكة.. أسرعت إلى الحنية التي أخبئ فيها وراء أكياس الفحم الكبوش والممنوعات من الألعاب مثل المزاويق والمداوين إلخ...

بقي شغل ذهني الشاغل الآن أن أجرّب المدفع العظيم... أن أحشوه بعد إدخال الفتيلة في الثقب بالبارود والقطن، ثم أشعل الفتيلة لينطلق شحنته، وقد تصوّرت صوت انطلاقها القوي ولم أضيّع وقتاً... صعدت إلى الدور الذي فيه مكتب عمّي وعلبة البارود... وبالطريقة البارعة في أخذ الكمية التي احتاجها، ملأت فنجان قهوة... ثم مسحت السطح... بحيث لا يبدو أثر الجريمة التي ارتكبتها...

كان لا بد أن أحفظ البارود في وعاء غير الفنجان المفتوح خوفاً من أن يشتعل إذا ما لامسته سيجارة أو شرارة... وجدت علبة دخان صدئة قديمة في الحنية... أفرغت فيها ما في الفنجان، ثم حرصت على تنظيف الفنجان تنظيفاً جيداً.

أما المكان الذي أعد فيه المدفع للإطلاق، فلم يكن مشكلة... هناك الديوان الذي يُترك خالياً في أيام الشتاء... والإعداد، خطوة تأتي بعدها خطوة إشعال الفتيلة والإطلاق... وكانت المشكلة هي في أي مكان يمكن أن أشعل الفتيلة فينطلق المدفع العظيم..

هنا تذكرت يحيى، وعجبت في نفسي أن صلتي به قد انقطعت منذ بدأ حصار المدينة... فكّرت أن أذهب للبحث عنه... والاستعانة به في ما أنا مقدم عليه، ثم تذكّرت أني سمعت من أمّي أن يحيى وأهله قد تركوا منزلهم في زقاق الحبس بعد وفاة جدهم العم عبدالنبي إلى موقع آخر.

على أية حال قرّرت أن أبدأ الخطوة الأولى في الديوان، وهي إعداد المدفع وإخفاؤه بعد ذلك أبحث عن المكان الملائم.

حملت المدفع والبارود و(القيطان) وكمية من القطن ودخلت الديوان ثم أحكمت إغلاق بابه من الداخل.

كانت الأرض مغطاة بطبقة من الغبار، بل رأيت هنا عقربتين سوداوين كبيرتين، ولكنهما بعيدتان عن الأرض... كانتا في (الدكّة).

جلست، وشرعت في عملية الإعداد، وبسرعة فائقة، وبدا لي أن القطن قليل، ولكن وجدت مزقة من القماش أكملت بها الحشو، كما أغرقت قطعة القيطان بالبارود بحيث تستغني عن (الكاز) وحملت كل ذلك وخرجت إلى المخبأ... ووضعت فيه ذخيرتي الخطيرة من الممنوعات وراء أكياس الفحم. ظلّ هاجسي طوال الوقت - ليلاً ونهاراً (هو المكان الذي أشعل فيه الفتيلة لتنطلق الشحنة) ويسمع لفرقعتها الصوت الذي ظللت أتخيل أنه لن يقل عن صوت مدفع الباشا من جبل سلع.

لم يطل بي الوقت، فقد كنت على فراشي للنوم في الليل كالعادة عندما (وجدتها)؟!

وجدت المكان الذي أشعل فيه تلك الفتيلة ويتم الانطلاق والفرقعة، حين تذكرت أن تحت عمارة الخالة (آسيا الطيارية) دكانين... ولكل منهما مخزن محفور في الأرض.. يقف عليه صاحب الدكان، ولكن يستطيع أن يهبط إليه، من فتحة صغيرة إذا شاء.

قلت: هو هذا المخزن في واحد من الدكانين الذي أشعل فيه الفتيلة، ويتم كل شيء كما أريد.

***

لا أدري كيف استيقظت مبكراً جداً والكل في البيت نيام... ولكن من دون أن أغادر الفراش... تريثت إلى أن أكلنا وجبة الإفطار من الخبز (القنيطة) والشاي المصنوع من (ورق الورد الجاف) لعدم إمكان الحصول على الشاي في الأسواق... وأما السكر فهو سكر بُنّي اللون، أظن أنهم يسمّونه (سكر قنْد).

وما كاد عمّي يخرج لعمله في المستشفى العسكري، وانصرفت أمّي للعناية بأختي الصغيرة، وقامت دادة بشرى بعملها في رفع الأطباق عن المائدة.. حتى أسرعت إلى

الطابق السفلي، راجياً في نفسي ألا أجد إسماعيل ومحمد علي، اللذين لا بد أن يمنعاني من الخروج إذا رأيا ما أحمل من خطر.

خاب ظني... فقد كانا هناك على دكّة الدهليز... ولكن سمعت في الحوار بينهما ما فهمت منه أن الحرب أو إطلاق المدافع من جبل سلع يمكن أن يتوقف اليوم ولم أفهم لماذا... وكيف تلقيا هذه المعلومة ولم يكن يهمني في الواقع أن أفهم... إذ الأهم هو ما خططت له من تنفيذ إشعال الفتيلة وانطلاق المدفع في ذلك المخزن تحت أرض أحد الدكانين...

كالمألوف من عادتهما، رأيت كل واحد منهما يأخذ في مسح وتنظيف بندقيته... بل رأيتهما يحشوانها بالرصاص... وأدركت أن هناك خطراً يستعدان لمواجهته ولكن ماذا يمكن أن يكون هذا الخطر؟ وكيف يتفق ما فهمته مع ما بدا عليهما من استعداد للحرب؟!

دار في نفسي أن هناك شيئاً ما سوف يحدث على كل حال... وقلت: فليكن... المهم أن أجد الطريق إلى الشارع... وإلى واحد من الدكاكين...

فضّلت أن أصعد إلى أمّي وأن أظل عندها فترة قد يخلو بعدها الطريق إلى الباب... لم أجد أمّي في (المؤخرة)... كما لم أجد دادة بشرى... لا شكّ أنهما عند الخالة (هوندجية).

صعدت لأجدهما... ومعهما أختي الصغيرة، وسمعت أمّي تكمل حديثاً بدأتْه، كما سمعت الخالة العجوز تردّد (إن شاء الله)... (ربّنا كريم).

استمرّت أمّي تكمل حديثها وهي تقول:

– أيوه يا خالة... الباشا قال إنّو يسلّم للأمير اللّي جا... وهوّه ولد ابن سعود... وهادول البدو في العوالي وقبا وقربان تحت أمره.. ما يقدروا يهجموا إذا منعهم من الهجوم.

– بس، يعني، خلاص تنتهي الحرب؟؟

– أيوهْ.. إذا سار التسليم بين الباشا والأمير تنتهي الحرب.. يعني زي لما فخري باشا سلّم المدينة – إنتهت الحرب وبدأوا الناس اللّي هاجروا يرجعوا من الشام.

وجدت نفسي أقول:

- إذا إنتهت الحرب ما يبقى لزوم للمدفع... ثم وجدت نفسي أضحك - إذ دار بذهني... ماذا يمكن أن أفعل بهذا المدفع، وكيف أطلقه على الأعداء، وهم مسلحون بالبنادق أم خمس... وهذا المدفع لا ينطلق إلاّ بعد إعداده وحشوه بوقت طويل.

مع ذلك ظللت مصرّاً على إطلاقه وفي أحد الدكانين.. تركت الجميع منهمكين في الكلام عن الأمير والباشا، وهبطت لأجد دكة الدهليز خالية من إسماعيل ومحمد علي، فأسرعت إلى المخبأ وراء أكياس الفحم... تناولت المدفع وعلبة الكبريت في يدي، وانطلقت إلى أحد الدكانين تحت منزل الخالة (آسيا الطيارية)، وكنت قد تعمّدت أن تكون الفتيلة طويلة، ليتاح لي أن أهرب إلى المنزل قبل أن تحدث الفرقعة... أشعلت طرف الفتيلة المغموسة في البارود... وما كدت أراها تشتعل حتى تراجعت وهربت إلى المنزل وصعدت إلى المجلس بسرعة هائلة... وقبل أن أستقرّ عند النافذة الروشان وقع الانفجار - وكان رهيباً فعلاً. إذ يبدو أني قد أسرفت في الحشو إلى أقصى حد.

ملأ الصوت، فضاء المنطقة، وأخذ الدخان يتصاعد من فوهة المخزن الأرضي في الدكان... وهنا ارتفع صوت الدادة صفا... بل ومعها الخالة آسيا نفسها... من المنزل الأمامي. وما هي إلاّ لحظات حتى كانت الدادة بشرى تدخل فتراني عند النافذة وهي تتساءل مرعوبة: هل هجموا في الشارع؟

التزمت الصمت... ولكن الدادة صفا، بدت وكأنها تتولّى الإجابة... إذ قالت بأعلى صوتها:

- هذا الشقي عزيز... هو اللّي عنده المدفع الكبير.

والتزمت بشرى الصمت لحظات، وتقدمت إليّ تقول:

- هادا اللّي بتقوله صفا صحيح يا عزيز؟

لم أجد ما أجيب به، ولكن ما هي إلاّ لحظات حتى رأيت العساكر وفي مقدمتهم الضابط منصور أفندي الذي وقف أمام الدكان وهو يرى الدخان يتسلّل منه وهتف يقول لمن معه:

- أوقفو بعيد، يمكن فيه قنبلة ثانية تنفجر...

لكن تلاشى الدخان، ولم تنفجر قنبلة ثانية.. فتقدّم أحد الجنود، واكتشف

الحقيقة... وهي ذلك المدفع الصغير من صنع أبو دربالة.

حين رأيته بيد الجندي أيقنت أن ما سوف يحدث أصبح (مصيبة) عندما رفعت داده صفا صوتها من النافذة وإلى جانبها الخالة آسيا تقول:

- أيوه يا أفندي... هادا المدفع حق الشقي عزيز.. ولد الدكتور في البيت اللّي وراك..

- عزيز مين؟

- عزيز ولد الدكتور ضياء بك.

- وهو فين؟

- لا بد أنه مدسوس عند أمه في البيت.

- خلاص أنا أعرف الدكتور.. أنا رايح أشوفه.. وهوّه ما يرضى أبداً.. لا بد يربّيه.

كانت أمّي قد دخلت المجلس من دون أن أشعر. وقد سمعت أكثر ما دار من حوار بين دادة صفا، والضابط. قلت في نفسي من دون أن التفت أو أتحرك عن موقعي عند النافذة من الروشان.. قلت:

- خلاص! العلقة، ويمكن الفلكة، وكمان يمكن الضابط يطلب إنّو يحبسني!!

استغربت أن أمّي لم تنبس بكلمة واحدة وأحسست بها تخرج ومعها بشرى... وهذا معناه، أنها هي التي ستتولى تأديبي بالطريقة التي تفضلها. وأنا أعلم أنها - عند اللزوم - تكون أشدّ قسوة من أي مخلوق.

***

جاء عمّي قبل موعده المعتاد، وكنت قد إنتقلت إلى غرفة نومي.. أحسست بقدومه من وقع أقدامه على حجر السلالم.. وكنت أتوقع أن يناديني أو يسأل عني.

ظللت أنتظر الأسوأ إلى أن حان وقت الغداء... وهو الذي أصبح يقتصر على القنيطة ولحم الصفيحة وشيء من (الطرشي) كما يسمى (المخلل) في المدينة.

كنت أتظاهر بالنوم عندما فتحت الباب أمّي بشرى وقالت بصوت خفيض.. هيا الغداء... ولم أملك إلاّ أن أنهض... ليس فقط لأني جائع، وإنما لأستقبل ما ينتظرني من تأديب يسبقه التأنيب.

جلست إلى المائدة، وأدهشني جداً أن أرى وجه عمّي، وحتى وجه أمي، لا يعبّر عن غضب أو نذير بما لا بد أن يتم.

أخذت أتناول طعامي ملتزماً الإغضاء ومن دون أن أتدخل بملاحظة على الحديث الذي دار بين عمّي وأمي، وكان خطيراً إلى أبعد حد. وأهم ما فيه أن وعد (الملك علي) بإرسال (المعاشات للجيش) بالطائرة لم يتحقق... وأن مدينة جدة يمكن أن تسقط خلال أيام... ولا يدري أحد شيئاً عن مصير الملك علي ومعه الجيش الذي لم تصرف له معاشات وأرزاق منذ أكثر من ستة شهور.

ثم قال عمّي - وهو يتأسّف:

- عبدالمجيد باشا مصرّ على الدفاع عن المدينة... على أنهم يقولون إن الأمير المسؤول عن الحرب قد وعد الباشا بأن جيشه من البدو يتوقف عن الهجوم، إذا وافق على وقف ضربهم بالمدافع.

سمعت كل هذه الأخبار وظللت أستغرب كيف لا يفاتحني عمّي عن حكاية المدفع، وكيف لا أرى على وجه أمّي وعمي أي أثر للغضب والوعيد.

عندما فرغنا من تناول الغداء نهض عمّي والتفت إليّ قائلاً:

- تعال يا عزيز.

ومشيت خلفه... إلى أن فتح باب مكتبه ودخل ووقف في وسط الغرفة.. وهو يقول:

- هيّا.. قل لي، أيش حكاية المدفع... الضابط منصور الجندي جاءني في المستشفى وأخبرني بكل شيء.

- هادا المدفع أنا فكّرت أني أسويه عشان أدافع...

- لكن مين اللّي صنعه... ومنين جبت البارود.

وأخبرته بصراحة كاملة عن طريقتي في سرقة البارود من العلبة.. ثم أفضيت إليه بجميع ما طلب مني أبو دربالة أن أخبره عن الأسلحة التي في مخزنه وأنه مستعد لتقديمها للباشا إلخ... الموضوع.

عندما كنت أسرد هذه التفاصيل، كان يبدو على قسمات وجهه تعبير عن الإعجاب، وإنتهى الأمر بأن قال:

- كانت أمك تبغا تربيك بطريقتها، ولكن أنا قلت لها... إني أعرفك وأعرف إنك شيطان... ولكن ذكي... وعفريت... ولازم ما تضربك... ما دام إنت بتعمل شي تبغا تدافع به إذا هجموا... هيّا أوعدني إنك ما عاد تعملها أبداً.

وعدته.. وأنا أحمد الله على الخلاص من مصيبة كبيرة ، وعلمت في ما بعد، أن الباشا قد استلم من أبو دربالة جميع المدافع والذخيرة وغيرها.

***

التسليم.... ورفع الحصار

بسبب من استمرار اعتمادنا على (القنّيطة ولحم الصفائح) في الغداء والعشاء، وعلى أوراق الورد الجافة والسكر البني اللون، للتعويض عن الشاي الذي لم يعد له وجود في أسواق المدينة... كنت أفهم أن الحصار على المدينة مستمر، ولا يدري أحد إلى متى؟؟ كان السؤال يتردّد على ألسنة من يحدث أن يزورونا من الرجال - أصدقاء عمّي - بل ومن النساء أيضاً، هو: (هل ينتهي هذا الحصار بدخول البدو الذين يحاصرون المدينة وما زالت قذائف مدافع جبل سلع تؤكد أنهم يحاولون الهجوم؟؟)؛ (وإذا انتصروا ودخلوا فما الذي سوف يواجهه الناس منهم...)... ثم قد يتهامس بعض الزائرين من الرجال، بأن عبدالمجيد باشا هو الذي ما زال يرفض التسليم للأمير الذي أقام مخيّمه في منطقة العيون... رغم أن هناك من أهل المدينة من قابلوه ونصحوه بأن يقبل التسليم بشروط مرضية، ولكنه يرفض لأنه لا يزال يعتقد بأن حكومة الشريف في جدة لم تسلم، وأنها وعدت بأن ترسل إليه الكفاية من المال بالطائرة لدفع رواتب العسكر...

وأضاف أحدهم ذات مرة: إنه يقلّد فخري باشا ولكن فخري أخرج الناس من المدينة خوفاً عليهم من الجوع... واحتفظ في مستودعاته بالأرزاق الضرورية لمعيشة العسكر... والدليل هو هذه القنيطة واللحم الذي وجده الدكتور ضياء في مستودعات الصحة (في درب الجنائز) وقدّم الكثير منه لعبدالمجيد.. ولكن ما هي إلاّ أيام ولا يبقى لا قنيطة ولا لحم..

هنا ارتفع صوت أحدهم يقول:

- ولكن الناس؟! أهل البلد كلهم من أين يأكلون، لم يبق في الأسواق شي، كل

الدكاكين مغلقة... والتجار الكبار لا يبيعون ما عندهم إلاّ بدم القلب... بالمصوغات والمجوهرات... وهذه لا يملكها إلاّ الأغنياء... أما الناس... أهل البلد... فإني أسمع أن في البيوت الكثير من النساء والأطفال مرضى، ولا سبيل إلى الدواء، ولا إلى الغذاء.

ومع أن البعض كان يصرّ على أن عبدالمجيد مخطىء ويعرّض البلد للجوع والمرض، فقد كان هناك من يذكّر المجلس كله، بالمخاوف المحتملة، وبالمذابح إذا تم التسليم، ودخل هؤلاء البدو المدينة... والكل يعلم أنهم لا يرحمون...

لكن ما أسرع ما يردّ آخر قائلاً:

- ولكن لم نسمع أنهم قتلوا أحداً في مكة عندما دخلوها.

- لأن (ابن سعود) نفسه كان السلطان عليهم.

- خلاص... يا أخي... في (العيون) الآن (ولد بن سعود)... وهؤلاء البدو يستحيل أن يخالفوا أمره... والذين قابلوا عبدالمجيد أكّدوا له أن الأمير يوافق على تنفيذ جميع الشروط. أهمها فك الحصار... وعدم الاعتداء على أحد من الأهالي أو على العسكر إلاّ إذا اعتدى أحد عليهم...

- لكن عبدالمجيد قال إنّه يعتبر نفسه خائناً للأمانة في عنقه... وأنه أرسل برقية إلى حكومة الشريف في جدة يخبرها... وينتظر الرد.

- ولكن يقال إن حكومة الشريف في جدة يمكن أن تسلِّم خلال أيام...

***

اشتد تأثير الحصار على الناس... وعلينا نحن أيضاً في البيت... وكان أسوأ ما جاءتنا (أمي بشرى) هو أنه لم يبق "من القنيطة" إلاّ عشراً فقط... أما اللحم فلا تزال الصفيحة الثانية ممتلئة... فكيف يكون الحال إذا أكلنا العشر الباقية؟... هل نظل نأكل اللحم فقط؟

مع هذا الحصار والجوع والأخبار عن عناد الباشا، هل تواجد الأطفال الذين ألعب معهم... ولذلك فقد تعوّدت أن أعوّض عن اللعب بالجولة التي أقوم بها في الأسواق المقفرة - جوّه المدينة - وباب السلام والعودة عبر سوق الخضرة إلى (الساحة)، وكان مما يلفت نظري أن متجراً كان يظل مفتوحاً وصاحبه يسميه الجميع (العم عابدين)... كان يُرى جالساً وراء المنضدة الطويلة التي يسمّونها (البنك) وحوله مع

الصناديق الصغيرة في الأرفف، شابّان أسودان علمت في ما بعد أنهما مملوكان للعم عابدين.

في إحدى هذه الجولات - وعند مروري بمتجر العم عابدين - استوقفني بنداء يقول:

- إنت يا ولد... إسمع... تعال..

توقفت، بل وتقدمت نحوه - فإذا به يسألني:

- مو إنت ولد الدكتور ضياء؟

- أيوه... عمي...

- طيب... تعالى.. لا تروح...

التفت نحو أحد المملوكين وهو يأمر:

- هات القفة المليانة.

جاء المملوك بقفة كبيرة مما جرت العادة أن يحملها الشيالون من الصبية الكبار، في خدمة المتسوّقين.

كانت القفة ممتلئة فعلاً بالكثير من الأكياس الصغيرة، والأوعية الكبيرة والمتوسطة، وكان الأكثر لفتاً للنظر كيس كبير نوعاً... حمله المملوك الآخر على كتفه... وحين حمل أحدهما القفة على رأسه وضع الكيس على كتفه.. والتفت إلى العم عابدين وهو يقول:

-يروح هادا بحملته معاك البيت. وتسلّم على أبوك وتقول له هادي هدية من صاحبه عابدين بغدادي.. وإذا شفته زعل واتغيّر وجهه.. قل له يقول لك عابدين (النبي قبل الهدية).

***

لن أنسى حتى اليوم كيف استقبلت (أمي بشرى) هذه الهدية. وعلى الخصوص ذلك الكيس الكبير نوعاً - فقد كان ما فيه هو (الأرز) الذي لم نذقه طوال شهور الحصار... مع أن أمّي لم تستطع أن تخفي فرحتها، فقد شرعت تحقّق معي... ما الذي جعلني أذهب إلى (جوّه المدينة؟ و؟... وكيف تعرّفت إلى هذا الرجل؟! بل كيف أعطاني كل هذه الأغذية ومنها (الأرز المعدوم من الأسواق).. بل والسمن ايضاً؟ وهنا قاطعتها (أمي بشرى) وهي ترفع بيدها قرطاساً كبيراً وهي تقول:

- هادا يا ستي كمان ورد ناشف وورق (بافرة)... وهادا... هنا... شوفي.. سكر أبيض.

كنت أعلم أن الورد الجاف أصبح البديل للشاي، ويمكن أن يكون البديل للدخان ايضاً. ولكن لفّ (السيجارة) ورق من الورد الجاف، كان يحتاج إلى الورق (البافرة) وقد انعدم من الأسواق أيضاً وتحتفظ أمّي (بدفتر) من الدفاتر لنفسها تلفّ به ورق الورد للتدخين لعمي الذي خفّف كثيراً من حاجته إلى (السيجارة) في هذه الأيام.

شاركت الجميع هذه الفرحة الخالة هوندجية وزوجة ابنها (مريم)... وعلّقت أنها تعرف عابدين بغدادي، ولكنه رجل بخيل.. فكيف هان عليه أن يعطي كل هذا الخير...

مع استمرار هذه الحال، فوجئنا بمرض عمّي مرضاً ثقيلاً يسمّونه في المدينة (الجمبة) أو هي (ذات الجنب)... وأذكر أنه قال هكذا كنت مريضاً عندما سلّم فخري للشريف. ولذلك فقد أخذ البيت يمتلىء بالزائرين من أصدقائه الكُثُر، ومنهم زملاؤه أطباء المستشفى العسكري، الذي أذكر أنه لم ينقطع قط عن العمل فيه، إلاّ عندما مرض... كان رحمه الله مثالاً نادراً لأداء الواجب في عمله، وفي علاقته بالأسرة، وهي أمّي وأختي التي بدا عليها الهزال، فنصح أمّي بألا تتركها تلعب أو تخرج معي، لأن صحتها تحتاج للراحة.. وإذا لم تخنّي الذاكرة فقد شهدت هذه الأيام ميلاد أخي شاكر الذي كان رضيعاً يوم رأيت مشهد تسليم المدينة.

كنت قد سمعت من عمّي، أن عبدالمجيد باشا قد وافق أخيراً على التسليم، لأن حكومة الشريف في جدة قد انتهت منذ شهور... ولكنه لا يزال متردّداً إذ يفترض بأنه قد وافق على (الغطغط) الذين يمكن أن ينتقموا منه إذا دخلوا رغم وجود الأمير (ولد ابن سعود)..

كان عمّي لا يزال طريح الفراش، عندما سمعت زميلاً من زملائه يقول له بالتركية التي أصبحت أفهمها...

- تمّ الاتفاق بين الأمير والباشا.. ويقال إنهما سيدخلان من باب الشامي فيراهما جميع الناس بعد صلاة العصر..

ورفع الرجل كفَّيه وهو يردّد:

- الحمدلله ... الحمدلله...

عندما رأيت جمهرة من الأطفال في صباح ذلك اليوم، وجميعهم قد علموا أنهم سيرون الأمير والباشا بعد صلاة العصر... اتفقنا جميعنا على أن نقف عند عتبة باب (السلطانية) المرتفعة عن أرض الشارع ليتاح لنا ونحن أطفال أن نرى هذا الأمير، ومعه الباشا يدخلان من باب الشامي. لأن الأمير يأتي من مخيمه في منطقة العيون... والباشا يهبط من قلعته في جبل سلع ويتقابلان، ثم يمشيان ليدخلا المدينة معاً.

قبل صلاة العصر، كنّا على عتبة باب (السلطانية) وكان عدد من الجنود، ومعهم منصور أفندي الضابط الذي قام بدوره في حادث المدفع الذي انفجر وتسبّب في أكبر ضجة من نوعها، كانوا منتشرين في المنطقة يمنعون الناس من التزاحم في الطريق... وكان هذا في تقديرنا هو الدليل على أن الأمير والباشا قادمان فعلاً..

لم يطل بنا الإنتظار... فقد تسارعت حركة الجنود تبعد الكثيرين عن الوقوف في الطريق... ورأينا مجموعة أخرى من الجنود، ربما كانوا من جنود الباشا، يدخلون في ثلاثة أو أربعة صفوف من باب الشامي وعلى أكتافهم أسلحتهم... ثم ما كادوا يدخلون، حتى رأينا الباشا في ملابسه العسكرية على حصان، وإلى جانبه الأمير الشاب في عباءته وعقاله على الشماغ على حصان آخر، وخلفهما عدد كبير من الفرسان والمشاة، أدركنا أنهم جميعاً رجال الأمير، وخلف هؤلاء فصيل من الجنود.

مرّ الموكب أمامنا... إلى الباب الذي يخرج منه إلى ساحة المناخة... وترامت إلى مسمعنا، همسات الناس الذين وقفوا يشاهدونه.. ومنها:

- الحمدلله... ربنا يختار لنا ما فيه الخير. المهم خلصنا من الحصار.. من الخوف ليل ونهار.. إلخ...

كان أعجب ما رأيناه ونحن نعود إلى بيوتنا، هو تلك الدكاكين التي كانت مغلقة طوال شهور... وقد فتحت وأصحابها يبيعون ما يطلب منهم وللقلة من الزبائن الذين ربما كانوا يشترون القليل الذي يمكن أن يُشترى بالنقود التي لا يملكون سواها في ذلك المساء، ولم أستطع أن أفهم لماذا كانوا يغلقون دكاكينهم ما دام فيها ما يباع للناس؟

***

إلى مدرسة الطب

لا أذكر الآن ولا أدري، لماذا كنا ننتقل من بيت إلى آخر.. إذ عندما تم التسليم، كنا نسكن في الساحة، وهي تعتبر المنطقة التي يسكنها أكابر أهل المدينة... ولكن بعد التسليم إنتقلنا إلى بيت في بداية شارع العنبرية، أذكر أنه من بيوت (الحكيم - أو صالح حكيم)، ويقع في مواجهة المستشفى العسكري الذي يعمل فيه المرحوم عمّي. ولكنني تعلمت في ما بعد أن الذين يمكلون البيوت يؤجرونها للذين لا يملكونها.

في هذا البيت المكوّن من ثلاث طبقات (يسمّى الدور طبقة) بدأت أفتح عينيّ، فأدرك الكثير من المسؤوليات التي تقع على عواتق الرجال، ومنها العمل لتأمين لقمة العيش... وكانت المناسبة ما كان يدور بين أمّي وعمي بالتركية، التي لم أعد أجهل الكثير من مفرداتها، عن قلقه بخصوص الراتب الذي لم يعرف مقداره بعد في حكومة (ابن سعود)... من كلامه مثلاً: (في الحكومة السابقة كان الراتب يكفي لأجرة البيت والأكل، ولكن المؤسف أنهم لم يكونوا في السنوات الأخيرة يدفعون هذا الراتب بانتظام، ولذلك فقد إنتهت الحكومة وفي ذمتها للموظفين رواتب أكثر من ثمانية أو تسعة شهور... فكم سيكون الراتب مع هذه الحكومة... وهل ستصرف الرواتب بإنتظام...؟!

وأجابته أمي:

- هذا هو المهم.. حتى ولو كان أقل من الراتب في الحكومة السابقة... استلام كل شهر بإنتظام يمكن أن يكفي بالتدبير.. ثم نحمد الله، فكل شيء أصبح رخيصاً جداً، المجيدي الواحد يكفي المقاضي ويزيد.

تذكّرت أني أصبحت أقوم بحمل (الزنبيل الصغير) وتناولني أمّي المجيدي

الواحد، لأقوم بشراء (المقاضي) وهي المواد الغذائية التي يحتاجها البيت في اليوم الواحد، من سوق الخضار القريب من المنزل، وفي البيت إضافة إلى الأم والأب والأطفال الثلاثة - وأنا أحدهم - أمّي بشرى وأمي (باجي) وهي القادرة على طهو جميع الأطباق التركية الشهيرة التي فوجئ بها على مائدتها سليمان شفيق باشا الذي كان في رفقة رجال ابن سعود... وإسماعيل، ومحمد علي، وهؤلاء غير الضيوف من السيدات اللائي كن يجئن أحياناً (بلا موعد) لما يسمّى (القيلة) وهي المجيء في وقت الضحى، والجلوس إلى وقت الغروب.

كان الرخاء في تلك الأيام، بعد أن إنتهى الحصار ظاهرة لا أذكر أنها تكرّرت بعد ذلك في المملكة حتى اليوم.

كنت أنطلق بالزنبيل والمجيدي في يدي إلى العم عبدالقادر حافظ في السوق.. فأتزوّد منه بعدد من أنواع الخضروات، ويكرمني معها بكمية (من الورد، والدوش، والنعناع... والنوامي)، وأحياناً بكوز من (الطلع)، وكل ما يأخذه من المجيدي لا يزيد على ثلاثة قروش... والمجيدي يساوي عشرين قرشاً... ويرفع صوته عالياً ليقول للجزّار بالقرب من دكانه:

- أعطيله أحسن لحم للخضار اللّي في الزنبيل.

كانت الأقة هي الوزن المألوف، فآخذ اقتين بعشرة قروش... ومن البقال بالقرب منه أشتري الأشياء الأخرى، ثم أعود إلى أمّي وفي يدي ثلاثة أو أربعة قروش.

لم نمض في هذا المنزل القريب من منطقة سوق الخضار، مع أنه على الشارع العام الذي ينتهي إلى (الإستاسيون) سوى فترة قصيرة، حتى سمعت من عمّي وهو يتحدث إلى أمّي أن الحكومة فتحت مدرسة للصحة في مكة، وقالت أمّي يمكن أن تكون مدرسة للطب، وأضافت: ليتهم يقبلون التحاق عزيز بها... هو صغير فعلاً، ولكنه (رجّال) ما ينخاف عليه... هل يقبلونه؟؟.. وقال عمي: لا أظن أنها مدرسة للطب... ولكن لا مانع من التحاق عزيز بها، فقد طال انقطاعه عن المدرسة طول أيام الحرب، هذا إذا قبلوه لأنه صغير. واستوعبت الحديث، والتزمت الصمت من جانبي، ولكني أحسست بأنه لم يعد مما يشرّفني أن أعاود اللعب في الشارع... وتساءلت بيني وبين نفسي: "هل أستطيع أن أقرأ وأكتب كما كنت قبل أيام اللعب والانقطاع عن المدرسة".

قبيل الغروب من ذلك اليوم دخلت الغرفة المخصّصة لي، وتناولت حقيبة المدرسة، وأخذت أقلّب صفحات الكتب والكراريس وفوجئت بأن الكثير من مادة (الحساب، والهندسة) لا أذكر منها شيئاً... بدت لي كأنها ألغاز... فكيف أسترجع ما تعلّمته منها على يد (السيد حسين طه)... ثم اين السيد حسين الآن... ما دامت المدرسة لا تزال مغلقة. هل أذهب إليه في بيته الذي أعرف حيث سبق لي أن ذهبت إليه مع أخيه وزميلي في الراقية (السيد عبدالرحمن)؟... لكن ماذا يستطيع أن يفعل... ثم لا بد أنه يكون مشغولاً مع أبيه (السيد طه)... ولفّ ذهني نوع من الحيرة والأسف... بل والإحساس بالذنب.

وعندما جاءت أمّي بشرى تناديني لوجبة العشاء، ورأت أمامي الكتب والكراريس وقفت أمامي.. وهي تقول:

- يعني خلاص... ما في كبوش؟... ولا مدفع؟ ولا كورة التزقير ولا كَبَت؟!؟

ووجدتني أقول لها:

- خلاص... أنا رايح مدرسة الطب في مكة...

قلت ذلك بطريقة عفوية وتلقائية، بحيث دهشتُ أنا نفسي لما قلت من دون تفكير أو قرار أو إحساس بالرغبة... ونهضت معها وأنا أسمعها تقول:

- أيوه كده... إن شاء الله - يا رب - ترجع لنا من مكة وإنت دكتور زي عمك تمام.. يا رب... يا رب.

وتطوّعت هي، وقد سبقتني بخطوات نحو المائدة ترفع صوتها بفرحة وعلى وجهها ابتسامة وضحكة... تقول:

- هيّا هاتو البشارة...عزيز رايح يسير دكتور زي عمّه تمام... رايح المدرسة اللّي قال إنها مدرسة الطب في مكة.

عندما أخذت مقعدي إلى المائدة وأخذت أجيل النظر في وَجْهَيْ أمّي وعمي... رأيت الدهشة والتساؤل مع ما نمّ عن شعور بالفرحة.

بدأت أمّي الكلام متسائلة:

- صحيح يا عزيز تبغا تروح مدرسة الطب في مكة؟

- أيوه صحيح يا أمي... بس عمّي قال: يمكن ما يقبلوني لأني صغير.

- إنت صغير في السن... ولكن رجّال.

وقال عمي:

- صحيح إنت صغير... لكن رجّال... وهمّ عاملين جماعة.. هي اللّي تقبل اللّي ينجح في الاختبار، وهادي الجماعة فيها عمّك يحيى بك ومحمود بك وعزمي أفندي المحاسب كمان.

وتساءلت:

- يعني فيها إمتحان؟

- لا بد فيها إمتحان، وعشان كده لازم تراجع الدروس اللّي تعلمتها في المدرسة..

***

شرعت أراجع الكراريس والدفاتر، وأضع علامة على المواضيع التي شعرت بأنها ضاعت... وتلاشت من ذهني تماماً.

ومضت أيام لا أخرج خلالها من باب الشارع إلاّ إلى سوق الخضار القريب. كان إحساسي باحتمال عدم قبولي لصغر سني، يجعلني أقف أمام المرآة وأرفع قامتي على رؤوس أصابع رجليّ... ثم أتنهد لأني أرى نفسي صغيراً فعلاً.

مع أن الحديث عن هذه المدرسة انقطع فترة من الزمن، بحيث بدا لي كأنهم انتهوا من قبول من قبلوهم، وأنه لم تعد هناك ضرورة لتفكيري بها... إلاّ أني ومعي أمّي و(أمي بشرى) فوجئنا بعمّي عندما جاء لتناول الغداء، ينظر إلينا مبتسماً ليقول:

- الجماعة وافقوا على أنهم يقبلوا عزيز ولو أنه صغير في السن إذا نجح في الامتحان... وأضاف: والامتحان...

وهنا وجّه كلامه إليّ شخصياً وقال:

الامتحان يوم السبت.. يعني ما عندك غير الليلة ويوم الجمعة بطوله هيّا وريني شطارتك.

ثم أضاف يقول:

- ترى اللّي طلبوا يروحوا هادي المدرسة أكثر من خمسة وعشرين ولد... كلهم أكبر من عزيز... وفيهم كبار... رجال زيّ فهمي الحشاني اللّي بيشتغل مضمد عندنا وواحد اسمه محمد شريف وصالح طاهر.

وما لا أنساه طول العمر... اهتمام أمّي وعمي بقضية نجاحي.

أمي وضعتني أمامها وأخذت تملي عليّ نصوصاً من الكتب الدراسية... من مختلف المواضيع.

أما عمّي فقد إنتهز فرصة ما بعد تناول العشاء فأخذني إلى غرفته... وأخذ يطلب مني أن أكتب أرقاماً متتالية عمودياً ثم يقول لي أجمع هذه الأرقام ولكن بسرعة ومن دون خطأ...

ثم طلب أن أكتب رقماً من الآحاد حتى الألوف... وتحته رقمان... وطلب أن أضرب... وأعطيه نتيجة الضرب، ثم قال:

- هل نسيت جدول الضرب؟؟

لم أكن قد نسيته... فكلما سألني عن حاصل ضرب رقمين من الجدول... كنت أُسرع في الإجابة..

وبقيت القسمة... وهذه هي التي لم أنجح فيها... وهي التي كنت أبسط يدي ليضربني بالمسطرة السيد حسين طه رحمه الله لأني أفشل فيها.

ضحك عمّي عندما رأى ارتباكي في عملية (القسمة) ثم ترك الورق كلّه ونهض ونهضت معه أمّي وهو يقول:

- الله يختار ما فيه الخير... أظن أنك من الناجحين إن شاء الله.

التفتت إليّ أمّي وأخذت بيدي إلى الحمام. وبعد الاستحمام بالماء الدافئ مشت معي إلى فراشي، وبعد أن استلقيت جلست على طرف السرير، ومسحت رأسي بيدها، وحين رفعت نظري إلى وجهها رأيت في عينيها دموعاً واحمراراً، وأذكر أن هذه ربما كانت المرة الأولى بعد زواجها التي جلست فيها على حافة السرير بجانبي ومسحت رأسي، وامتلأت عيناها بالدموع... وقبل أن تنهض انحنت على وجهي وقبّلتني قبلات متعدّدة على جبهتي وخدي... ومشت عني... وعنقها يلتفت إليّ وهي تقول:

- تصبح على خير... ورفعت كفيها إلى السماء... وهتفت...

" يا رب.. يا رب.."

لعلّ من أغرب تصرفات المرء أن يغلبه التفكير والاهتمام بما هو مقدم عليه، فينام بدلاً من أن يسهر... إذ فوجئت بأمي رحمها الله هي التي توقظني مع ضوء الفجر وقد وجد مجاله في الغرفة التي أنام فيها.

أخذتني هذه المرة بيدها ووقفت تراقب وضوئي للصلاة وهي تكرّر كلما أتممت حركة مثل غسل اليدين إلى المرفقين... تكرر... تمام.. تمام.

بعد الصلاة، كان الذي يغمر ذهني وأذهان من في البيت جميعهم الذهاب إلى الامتحان.

قبل أن يخرج عمّي إلى عمله في المستشفى العسكري وموقعه يقابل البيت الذي نسكنه.. أعطى إسماعيل تعليمات اصطحابي إلى المستشفى والغرفة أو المكان الذي يأخذني إليه.

كان مما أمتلكه من بقايا أيام الدراسة مرسمة وقلم بوص أتمرّن به على مادة (حسن الخط)... وقد حرصت أن يكون في جيبي... ومشيت مع عم إسماعيل ويدي في يده ودخلنا بوابة المستشفى الكبيرة، وما هي إلا خطوة أو اثنتين، حتى رأينا (فهمي الحشاني) الذي كنت أعرفه، وأعرف أنه يعمل (مضمّداً) أو مساعد مضمد في المستشفى... وقف مندهشاً وهو يسأل عم إسماعيل:

- مجروح؟... مضاربة؟؟

لم يقل عم إسماعيل شيئاً لأنه لا يجيد العربية ولكنه استطاع أن يسأل فهمي:

-إمتهان... إمتهان فين؟

والتفت فهمي إليّ وهو يقول:

- إنت جي للامتحان... تبغا تروح معانا مدرسة الطب.

- أيون أنا جي للامتحان... وإن شاء الله أروح مكة إلى مدرسة الطب.

- بس إنت صغير يا عزيز... يمكن ما يقبلوك.

لم أُحِرْ جواباً... ولم يقل من جانبه شيئاً، ومشى أمامنا إلى ساحة مشجّرة فيها أبواب غرف عديدة وقف عند أحدها... وطرق الباب، وما كاد يفتح حتى دخلنا هو وأنا بجانبه لنرى مجموعة من الذين فهمت أنهم يريدون الذهاب إلى مدرسة الطب وقد جاءوا للامتحان... كانوا جميعاً جالسين على كراسٍ مصفوفة على طول القاعة، وكان في صدر القاعة باب مغلق يقف عنده عسكري... صامت ينتظر أن يؤمر.

ما هي إلاّ دقائق حتى فُتح الباب، وكان الذي فتحه رجل كبير في السن، عرفنا في ما بعد أنه (المحاسب) وهو الذي يتولّى امتحاننا في الحساب.

***

إنتهى الامتحان... بدخولنا واحداً بعد الآخر... وربما كنت الخامس أو السادس - وكالعادة كان كل منّا يسأل الآخر بماذا أجاب... وكيف كان امتحان الحساب؟؟ وكان هذا الامتحان بالذات هو الذي جعل أكثرنا يشكّ في النجاح؟

كان الذين نجحوا - وأنا منهم - أربعة وعشرون شخصاً... لا بدّ أن نسميهم طلاباً... عرفت منهم عبدالحميد أبو الطاهر، وكان زميلي في المدرسة الراقية - ولكنه ظلّ في القسم التأهيلي عندما إنتقلت إلى (أولى راقية)... ولم يكن الفارق في العمر بيني وبينه كبيراً. كما كنت أعرف فهمي الحشاني بطبيعة عمله في المستشفى... ولم يحدّد لنا يوم السفر إلى مكة... ولكن قال لنا المحاسب.. وهو يعرف العربية من دون لكنة تركية.. قال:

- جهّزوا أنفسكم... كل واحد لحاف ومخدة وبطانية - وأكل بقسماط، وجبنة، وحلاوة طحينية وكمان رز وعدس ودلة سمن - لا بد كبار السن منكم يعرفوا يطبخوا... أو تفضلوا تاكلوا النواشف إلى أن تصلوا مكة... ولا تخافوا من المشي في الليل. ترى الطريق أمان... ما عاد فيه اللّي يقطعوا الطريق.

لم يطل إنتظارنا ليوم السفر، فقد استيقظت أحد أصباح أيام الإنتظار هذه لتقول لي (أمي بشرى) وعينها دامعة:

- هيا يا عزيزي شوف الجمال... والشقادف مرصوصة قدام باب المستشفى... يعني اليوم يمكن تسافروا بإذن الله.

كانت قد لفّت رحمها الله اللحاف والمخدتين والبطانية في سجادة عجمي (أذكر أني ظللت أحتفظ بها إلى أيام الشباب ثم لا أدري الآن كيف فقدتها).

ودخلت أمّي متجهّمة عابسة وهي تقول:

- يعني على هادي الجِمال وفي الشقادف من هنا إلى مكة.

- لكن يا ستي كيف يروحوا مكة... كل الحجاج اللّي يجوا يزوروا المدينة بالجِمال والشقادف، ويسافروا كمان بالجِمال والشقادف.

وهنا لاح على ملامح أمّي مشروع ابتسامة وانفراج حيث قالت:

- أيوه يا بشرى... أنا ما أنسى الجمل اللّي ركبناه من ينبع أنا وعزيز نطّاطي.. إلى المدينة... إلى بيتنا في زقاق القفل.. أيوه يا عزيز في الشقدف، وعلى الجمل إلى مكة بالسلامة إن شاء الله... ولما ينادوك عشان تركبوا... عمك إسماعيل يشيل

هادي اللفّة... وكمان الأكل اللّي يكفيكم... وكمان فيه رز وعدس وعُكة صغيرة فيها السمن وكيس صغير فيه دقيق، وهذا غير البقسماط بالسمن والشاهي والسكر.. وكل شي.

وهنا تدخل أمّي بشرى تقول:

لكن فين؟... فين يشيل هادا كله... وهوّه يعرف يطبخ؟

وأجابتها أمّي تقول:

- عمّه ربنا يخليه وصّى عليه فهمي الحشاني، وأنا أعرفه وأعرف بيت الدهبي اللّي متزوج أمه... وهو ولد طيّب وكمان بيشتغل مضمِّد في المستشفى...

***

عندما سمعنا أذان صلاة العصر، كنت على أهبّة الاستعداد للسفر... كان عمّي واقفاً على تراس المستشفى يلاحظ وضع (الشقادف) على الجمال... كانوا على ما أذكر اليوم اثنا عشر جملاً وعلى كل جمل شقدف... وكان لَا بد من بسط أرضية الشقدف باللحاف والمخدة والبطانية ووضع (الخرج) على ما عرفنا - في ما بعد - أنه يسمّى (الوِسْق) وهو ظهر الجمل الذي يفصل بين جناحي الشقدف الذي يرتفق كل من الراكبين جناحاً منه، ثم هناك قِرب الماء (جمع قربة) تعلق على الجانبين تحت كل جناح من الشقدف.

كل هذا كان يحدث وأنا أشاهده من الشباك بين أمّي - وأمي سعدية - ونخبة من السيدات صويحبات أمي، ومنهن مريم والخالة زبيدة وأمها - أم الفرج - التي جاءتني بأختي بعد ولادتها لأقوم بأرجحتها حتى الصباح.

***

هنا كان أغرب ما يدور بذهني بل ويهزّني.. وهو أني سأمشي بالجمال في الطريقة نفسها التي مشت فيها (الحبيبة) التي قلت إني ظللت أبكي رحيلها اياماً وليالي عندما سافرت مع أبيها وأخيها وأمها. أجل هذا هو الطريق الذي مشت بها الجمال فيه... كلاّ.. لم يدرْ في خلدي خيال سخيف أني يمكن أن أراها، فقد رحلت منذ شهرين أو ثلاثة ولكن لا شك أني سأرى جميع المناظر التي وقعت عليها عيناها... عيناها... ألا ما كان أجمل عينيها... الأهداب التي تصل إلى الوجنتين عندما تغمضهما... وتلقي ظلاً على وجنتيها الورديتين عندما تفتحهما وتنظر إليّ، ونحن نتحدث إلى بعض بعد

الغروب حيث تسمح لها أمها بأن تظل مع أخيها نلهو بالحكايات التي نسمعها من (أمي بشرى) وأحياناً من (أمي باجي) الطاهية بلكنتها التركية التي نفهمها ونستغرق في الضحك حين تصف لنا بعض القردة التي كانت تشاهدها في سراي (البادیشاه) أو حين نحاول لعبة (الضومنة) التي تعلّمنا بعض قواعدها من الكبار...

هنا لا أدري لم ظلّ يدور في نفسي سؤال عن سبب سفرهم؟؟؟ وكان منطقي المحدود أنهم يسافرون إلى إستامبول، لأن الأم تركية... والأب سوري فلا بد أنهم ذهبوا إلى هناك... ثم لحظات الفراق كانت لها مقدمات هي التي لا تزال تحيا في ذاكرتي حتى اليوم... فلقد باعوا كل ما في منزلهم من أثاث سوى أفرشة النوم... ولذلك فقد قرّروا أن ينام الأطفال عندنا... كانت فرحتنا لا توصف... كنا نعلم أنها يسافرون غداً، ولكن أن نقضي هذه الليلة معاً كان حادثاً... كالحلم. قضينا الليل كله تقريباً نلهو، نركض هنا وهناك... ومن ألعابنا ما يسمى الآن (الأستغماية)... لقد حدث أن كنت مغمض العينين... وكانت هي التي أمسكتها... ولا أدري بأي شعور ظللت ممسكاً بها ولفت هي ذراعيها حول اكتفي وعنقي... ثم قبّلتني في وجنتي... وقبّلتها بشراهة واستغراق ولهفة... وعندما وقف كل منّا بعيداً عن الآخر مسافة قصيرة... رأيت في عينيها دموعاً وتدفقت من عينيّ دموع... وسمعتها تقول:

- بكره ... خلاص؟!

- أيوه... بكره خلاص.

ذهبت إلى فراشها بجانب أخيها... اضطجعت على فراشي بجانبه الآخر، فهو بيننا... وساد بيننا الصمت حين أطلت أمها... وهي تقول بالتركية ما معناه...

- ناموا... لأن غداً هو يوم السفر.

وسمعتها مرة أخرى تقول:

- بكره خلاص؟!

ووجدتني أنا وأخوها نقول معاً:

- أيوه... بكره خلاص.

***

طالت لحظات وداع أمّي والسيدات صويحباتها... وقد أدهشني - حتى اليوم -

أن (أمي بشرى) هي التي كانت تبكي مع الأخريات، أما أمّي فقد كانت متجهّمة، وكأنها عابسة: وعندما عانقتني عناقاً طويلاً وأخذت تقبّلني، ثم تتركني لأهبط فألحق بالجِمال وعليها الشقادف، والعم إسماعيل واقف وخطام أحد الجِمال في يده... تركتني ورفعت وجهي بين يديها وهي تقول:

- إنت رجّال... من زمان وأنت رجّال... هيّا روح وفي أمان الله...

***

أناخ الجمّال الجمل الذي كان يمسك العم إسماعيل بخطامه، وكان يقف بجانبه الأخ عبدالحميد أبو الطاهر - فعرفت أننا معاً في هذا الشقدف لأننا متقاربان في السن والوزن.

ثم أنهض الجمّال الجمل وهو يقول:

- أمسكوا في (الوسْق).

وقفنا لحظات... رأيت خلالها عمّي واقفاً مع فهمي الحشاني ويدفع له كيساً صغيراً من الأكياس التي توضع فيها النقود تلك الأيام.

ورفع عمّي يده وهو يبتسم، ورفع صوته يقول:

- في أمان الله... خليك شاطر زي ما أعرفك.

- إن شاء الله.. إن شاء الله..

عند الغروب مشت بنا القافلة خطواتها إلى مكة المكرمة... إلى مدرسة الطب...

***

طرائف في الرحلة

تطول جداً تفاصيل رحلتنا إلى مكة على الجمال في الشقادف، وربما كان ما أفرحني في صباح اليوم التالي للرحلة، أن القَافلة توقفت وأنيخت الجمال. وفهمنا أن السفر على الجِمال يكون في الليل دائماً... أما النهار فللراحة إلَى أن تغيب الشمس.

جاءني فهمي الحشاني رحمه الله، وفي يده كيس النقود الذي استلمه من عمي... وقال:

- هادي فلوسك يا عزيز... جنيه ذهب وثلاثة مجايدة وأرباع ما أدري كم... تخليها عندك ولاّ احفظها لك عندي؟

- أخذت منه (أرباع المجيدي) ولعلّها كانت خمسة وتركت الباقي لديه.

لا حاجة بي للحديث عن الطرائف التي عشناها يوماً وراء الآخر... وكان الذي يلفت نظري هو أن قافلتنا تقف في الصباح عند بئر تُملأ منه القُرَب بالماء... لا شك أن الجمّال هو الذي يعرفها. وأذكر أنه في ذات صباح وقفت بنا القافلة تحت مجموعة من الأشجار، وعلى الخصوص أشجار النبق التي كنّا نعرفها... وهناك بين الأشجار غدير ماء ذكر لنا الجمّال اسمه الذي لا أذكره الآن ولم يكن فيه عمق... كنا نرى الحصوة النظيفة تمشي عليها المياه، اقترح الجمّال أن نغتسل إذا شئنا... كان الأسرع إلى الاغتسال محمد شريف وهو أكبرنا سناً... ثم فهمي... ولا أدري لم امتنعت أنا وعبدالحميد من الاغتسال واكتفينا بأن ندلّي أرجلنا وسيقاننا.. كان الماء جارياً وبارداً ولذيذاً... كانت الأشجار ظليلة، وقام كبار السن من بيننا محمد شريف، وفهمي الحشاني، وحسن طاهر بطبخ وجبة الأرز والعدس... وكانت أشهى أكلة في ذلك المكان.

بعد صلاة العصر - واقتراب وقت الغروب كنا في الشقادف لنقضي طول الليلة فيها.. كان عبدالحميد قليل الكلام بطبيعته... وحين أراه صامتاً وكأنه يفكّر أقدّر أنه حزين على فراق أهله... فوجدت في نفسي الرغبة في أن أجعله يتحدّث... يحكي لي حكاية مثلاً... فإذا هو يبتسم ويقول:

- لا... إنت حكيلي حكايتك لمّا الأغوات في الحرم حطوا رجليك في الفلكة وفرشك الآغا الكبير؟

عادت بي الذاكرة إلى أيام إغلاق المدرسة، حيث أخذنا نمارس فنوناً من (الشقاوة)... ليس فقط في الشارع.. بل في الحرم النبوي الشريف الذي نلوذ به عند الغروب لنزعم للأهل أننا كنا في الحرم للصلاة، وهي أكذوبة أرجو من الله أن يغفرها لنا.

كانت جريمتي التي أُلقي عليّ القبض بسببها وعوقبت عليها جريمة كبيرة... لا أزال أعترف بأني أستحق عليها أكثر من العلقة في دكّة الأغوات...

من المفروض أن جميع مَنْ في الحرم يتأهبون للصلاة عند سماع الأذان... ويحدث كثيراً أن يستثني الصبية أنفسهم من الصلاة، ينتهزونها فرصة للّعب في الحصوة وحول الحديقة الصغيرة فيها التي لم يعد لها وجود هي والبئر التي يملأ الزمازمة (الدوارق) منها، ليضعوها في فجوات بين الأعمدة... كان الناس يعتقدون البركة في شربها:

لا أدري الآن أي شيطان لعين وسْوس في ذهني أن أنتهز سجود المصلين... وأن أضع خلف كل ساجد واحداً من هذه الدوارق.

لم أتردّد في تنفيذ الفكرة السخيفة، بينما كان صبية آخرون يلاحظون ما أقوم به، وفي وجوههم الخوف والفزع... إذ إن ما كانوا يرونني أقوم به تصرّف خطير... بل خطير جداً...

وضعت خمسة دوارق بسرعة فائقة وراء خمسة أشخاص وشرعت أركض نحو الحصوة، فإذا بيدٍ كالحديد تطبق على عنقي وتدفعني أو هي تسحبني في اتجاه (دكّة الأغوات)...

إنتهت الصلاة، واجتمع الأغوات بأرديتهم المعروفة وفي يد كل منهم عصاة أو نبّوت طويل لا يفارق أيديهم، وعلى رؤوسهم لفافة لا يرتديها غيرهم، أظن أنهم كانوا يسمّونها (كودَبان)، وجلسوا في ما يشبه دائرة في وسطها (سليم

آغا) وهو كبيرهم الذي أذكر أنه عاش عمراً طويلاً إذ يذكره الكثيرون الذين يزورون المدينة المنوّرة حتى الأيام التي كنت فيها رئيساً للمنطقة الثالثة في مكة.

تكلم الآغا الذي ألقى القبض عليّ قبل أن أصل إلى الحصوة بعد أن ارتكبت ذلك العبث أو الجريمة السخيفة.

كان كلامه باللغة التركية التي فهمت منها أنه يطلب الحكم عليّ بالتأديب... ودار الحوار بينهم عن العقوبة التي يجب أن توقع عليّ...

وهنا تكلّم سليم آغا من مجلسه في وسط الدائرة، وسرعان ما نهض أحدهم وغادر الدكّة، ليعود وفي يده فلكة مصنوعة بطريقة تختلف عن الفلكة المعتادة في المدارس... وفي اليد الأخرى خيزرانة رفيعة متوسطة الطول.

فهمت أن عقوبتي هي (الجلد) على الرجلين... وبدأت أردّد بصوت مرتفع مع البكاء:

- أتوب... أتوب...

كان كل هذا يتم وهناك حول الدكّة التي أذكر السجادة الحمراء على أرضها... مجموعة من الصبية من أقراني في السن.

وقال سليم آغا:

- توبة يوك... خطأ كبير... لازم ضرب...

ما هي إلاّ لحظات... حتى طرحني الآغا الذي ألقى القبض عليّ أرضاً... وقام آخر بوضع رجليّ في الفلكة... وقام ثالث من محله ورفع الخيزرانة الرئيسية، وبدأ الجلد..

تلك الخيزرانة الرفيعة كانت أشدّ لذعاً وإيجاعاً من أي خيزرانة سبق أن جُلدت بها، وتكرّرت الجلدات وسليم آغا هو الذي يَعُد وأظنها لم تزد على خمس أو ست جلدات..

وأطلق اللذان يمسكان بطرفي الفلكة رجلي... وأنا أبكي لشدّة لذعات تلك الخيزرانة اللعينة وقبل أن أقف... قال أحدهم بعربية مكسّرة:

- هادا مرّة... ضرب... مرة ثانية ضرب وحبس كمان...

منذ ذلك اليوم التزمت السلوك الحسن في الحرم والحمد لله.

***

تلك كانت الحكاية التي سمعها مني عبدالحميد وهو يضحك... وأنهى ضحكاته وهو يقول:

- كنت أنا من الذين كانوا يتفرّجون عليك في دكّة الأغوات وكلنا قلنا: يستاهل!!

***

رابغ، وموت الجمال
والسفر بالبحَر!

قبل أن نصل إلى رابغ أخذ أصحاب الجِمال يردّدون أنهم يخافون أن الجِمال كلّها سوف تموت... لا أدري السبب حتى اليوم ولكن الذي وقع وهو أننا عندما وصلنا رابغ وأنزلت الشقادف عن الجمال... رأينا الجمال تستلقي على الأرض... وتخرج ما في جوفها بكميات كبيرة... ثم لا تمضي ساعة أو ساعتان، حتى تموت فعلاً...

قال (الجمّالة): - إنهم كانوا يأكلون من (الربيع) - ويقصدون العشب الذي ينبت بعد الأمطار - ولا بد أن فيه أعشاباً سامة.

المهم أن الجِمال قد ماتت وكنا قد آوينا منذ وصولنا إلى أحد المقاهي... وبسط كل منّا لحافه وفراشه على الكراسي الشريط... وكان صاحب المقهى قد أفهمنا أن أجرة كل كرسي ربع مجيدي في الليلة... تدفع كل مغرب... وهنا تدخل زميلنا وأكبرنا محمد شريف، وتفاهم مع الرجل على أن ندفع المطلوب يوم السفر... وأضاف يقول:

- لا تخاف... نحن من الحكومة... هيّه اللّي طلبت إننا نروح مكة...

- لكن هادي الجمال ماتت... مساكين الجمّالة، لكن كيف رايحين تسافروا مكة من دون جمال؟؟؟ وكانت هذه الكلمة التي استقرّت في أذهاننا وأخذ بعضنا يردّد همساً....

- أيوه صحيح... كيف رايحين نسافر إلى مكة؟

ازدادت المشكلة تعقيداً... عندما أخذ كل من في المجموعة يراجع ما يملك من نقود... لكن من جانبي كنت مطمئناً، لأن فهمي الحشاني الذي كان مركازه على امتداد المركاز الذي أنام عليه فكان رأسي يقابل رأسه عند النوم.. إنتهز فرصة استغراق الزملاء في النوم... ليفتح كيس النقود لأرى أن الجنيه الذهب وعدداً من (المجايدة) لا تزال فيه...

***

كان المقهى الذي نعيش فيه قريباً من المسجد، ولذلك ما كدنا نسمع صوت المؤذن للفجر حتى استيقظنا جميعاً وأخذ كل منّا إبريقاً من الصفيح، ملأناه من (الزير) الكبير بمغراف من النحاس الثقيل... كان قضاء الحاجة يستلزم المشي مسافة بعيدة عن المقهى والمسجد وعدد من البيوت الصغيرة من الطين والحجر.

بعد الصلاة رأيت فهمي الحشاني يفتح حقيبة صغيرة كان حريصاً على أن يحملها أينما نكون... دفعني الفضول أن أرى ما فيها... لم يكن فيها ما يهم... سوى أربطة من الشاش الطبي وأدوات طبية وزجاجات صغيرة من صبغة اليود التي تستعمل للجراح... وكذلك سمّاعة من التي تُرى معلقة في أعناق الأطباء، لم أستغرب إذ أعلم أنه كان (مضمِّداً) وسمعت منه إلى ذلك اليوم أنه يتمنى أن يدرس الطب... ثم يرفع يديه ضارعاً إلى الله أن يحقق له أمله الكبير.

***

بعد أن أشرقت الشمس رأينا الجمّالة مجتمعين في المقهى، وكل منهم يتساءل: هل الحكومة ستعوّضهم عن الجِمال التي فقدت؟ وقال أحدهم:

- لكن هيّ ما اشترت الجِمال... هيّ مستأجرتها... وإن كان رايحة تدفع لنا شي... ما هو غير الأجرة... هادا إذاً وصَّلنا الحملة إلى مكة... ونحن مقطوعين في رابغ.

وتساءل آخر:

- وهادي الشقادف مين اللّي دفع قيمتها؟

- هادي ما يدري عنها أحد... إن جاك ظني... اللّي دفع قيمتها هو (المقوّم).

وارتفع صوت صاحب المقهى يقول:

- خلاص... المقوّم هو كمان اللّي يدفع لكم الأجرة وهو اللّي يجي يبيع الشقادف.. في رابغ لها زباين يحتاجوها للحج.

ثم التفت إلينا صاحب المقهى وقد تجمّع بعضنا يشربون الشاي بعد أن تناول كل منهم فطوره مما في (خرجه) من الحلوى والبقسماط وربما الجبنة والتمر... وقال بنبرة ضاحكة:

- لكن إنتو... ليه رايحين توصلوا مكة؟

وقال أحدنا:

- الشقادف موجودة.. ولا بد نلتقي اللّي نستأجر منهم الجِمال.

- أصحاب الجمال هنا - لا بد ياخدوا الأجرة قبل ما تسافروا... خايفين لا يحصل لهم زي اللّي حصل للمساكين اللّي ماتت جمالهم... يعني عندكم فلوس تدفعولهم الأجرة مقدم؟..

اتضح بعد قليل من التشاور والكلام مراجعة الموجود عند كل واحد من النقود، أننا لا نملك الكفاية من المال... وصارحنا صاحب المقهى بالحقيقة... فالتزم الصمت فترة كان يفكر خلالها ليقول:

- ما عندكم غير إنكم تراجعوا الشيخ ابن مبيريك... وهوّه أمير رابغ وإنتو كلكم من الحكومة، ولا بد عنده حل.

كان رأياً سليماً فعلاً... فهو أمير رابغ... يعني هو الحكومة ... وكلنا مطلوبون للسفر إلى مكة بأمر الحكومة...

هنا تساءل فهمي الحشاني:

- لكن فين مكان هادا الأمير؟

فقال صاحب المقهى:

- بعيد شويه... عند (الفُرضة)...

فهمنا أخيراً... أن علينا أن نذهب إليه في منزله بالقرب من الميناء..

قاد الحملة وبدأ تنفيذ الفكرة فهمي الحشاني الذي قال:

- اسمعوا... نحن كلنا مطلوبين للحكومة لدراسة الطب... وأنا رئيسكم... وأنا دكتور... هيا نتوكّل على الله...

صاحبنا دليل يعرف موقع بيت الشيخ ابن مبيريك أمير رابغ... وكان بيتاً كبيراً، وإن كانت معظم جدرانه مبنية بالطين... وعلى الباب الكبير كان الحراس متمنطقين بالسيوف، وفي أيديهم البنادق، وقد جعلنا فهمي الحشاني، والسماعة معلّقة في عنقه يتقدّمنا جميعاً... وقبل أن نقف، كان الدليل قد أخبر الحراس أننا (الدخاتره) جاءوا من المدينة، وهم يريدون مقابلة الأمير.

يبدو أن مظهر فهمي قد أقنع الحراس بأنه (الدختور)... فانبرى أحدهم يقودنا إلى ساحة واسعة... ثم إلى باب مفتوح دخل منه وأشار بيده أن نتبعه... وتبعناه فعلاً يتقدمنا فهمي الحشاني...

دخلنا مجلساً واسعاً يتصدّره على (الأرض) رجل شديد السمرة بلحية خطها الشيب وعلى رأسه (شال) من نوع الصوف الأبيض يحبط به عقال (قصب).

- هذا الدختور.. ومعاه الدخاتره اللّي كانوا رايحين مكة... ويقول اللّي دفعهم علينا جمالهم ماتت...

تقدّم فهمي من الأمير ماداً يمينه لمصافحته فنهض الأمير وصافحه... ثم أخذ كل منّا يصافحه... وبعد أن جلسنا على الأرض كجميع الذين في المجلس... وقد أجلس فهمي إلى جانبه وقال:

- يا دختور أنا بخير والحمدلله لكن عندي ولدي - عمره سبع سنين كان يلعب، وطاح على حجر، وانجرح... لكن الجرح ما طاب وفيه قيح... يا ريت تشوفه يمكن عندك دوا.

جاء الصبي، يمشي بشيء من العرج... لم يتردّد فهمي في فتح حقيبته مستعداً لعلاج الجرح... قام بتنظيفه أولاً. وعلى قطعة من القطن أراق شيئاً من صبغة اليود... وعلى قطعة أخرى وضع مرهماً ربما كان مما يصلح للجراح ذات الصديد... وصرخ الولد من حرقة صبغة اليود على الجرح... فتداركه فهمي بقطعة القطن وعليها المرهم، وربط الموقع في الساق برباط من الشاش... وقدم زجاجة المرهم، مع لفة من الشاش والقطن للأمير وقال:

- لازم ما يفكّ الرباط إلاّ بكره... وهادا الدوا المرهم... تتغير القطنة. وكل مرّة تحطوا عليها من هذا الدوا... وكلها ثلاثة أو أربعة أيام ما يبقى شي بحول الله.

ثم زاد فاقترح أن يكشف على الأمير نفسه... وضع السمّاعة على صدره... وعلى ظهره... وانتهى من هذه العملية وهو يقول:

- ما شاء الله... الأمير في قلب العافية.

***

كنا ننتظر أن يأمر الأمير بالجِمال التي تحملنا إلى مكة.. فإذا به يقول:

- ما عندنا جمال هادي الأيام، كل اللّي عندنا يرعى في البر... وعسى ما يحصل لها مثل اللّي حصل للجمال اللّي ماتت من عشب الربيع..

بدت على وجه كل منّا مشاعر الخيبة... إذ كيف نعيش في رابغ؟؟؟ وإلى متى؟؟

ولكن فهمي قال:

- ترى الحكومة هيّة اللّي تدفع أجرة الجِمال... المهم أننا نسافر...

وقال الأمير ببساطة.. بعد أن سأل أحد رجاله... عن (أم الخير) وأجابه هذا بأنها لا تزال في (الفرضه) ويقصدون (الميناء).

وقال الأمير:

- خلاص... ما عندكم إلاّ إنكم تسافروا بالبحر... (وأم الخير) ساعية مبروكة، وربانها رجّال طيب... ودايماً ينقل لنا الأرزاق من جدة... وينقل أكياس التمر من رابغ... تمر رابغ مطلوب في جدة ومكة زي تمر المدينة.

وبضحكة صغيرة قال:

- أمّا (الحوت)... رايحين تاكلوا حوت عمركم ما تاكلوا أحسن منه... هوّه بنفسه اللّي يقليه... ويطبخ معاه الأرز... نحن دايماً عندنا... والعيال كلّهم يحبوه...

حين كان الأمير يتكلم عن الحوت والأرز تذكرنا أن صاحب المقهى هو الذي يجهّز لنا وجبات السمك... أذكر أننا لم نذق طعم لحم الخروف عنده إلاّ مرتين... وكل واحد يدفع ثلاثة قروش... ومن عندنا الشاهي والسكر... وأذكر اليوم ما عرفنا أن اسمها (البطّة) وهي الوعاء الذي يوقد تحته النار باستمرار ويتوفر فيه الماء المغلي لتجهيز طلبات الشاي للزبائن، الذين كثيراً ما يبيتون ليلة أو اثنتين، في طريق ذهابهم إلى مكة أو في طريقهم إلى المدينة...

كنّا نشعر بالأسى والإشفاق على أصحاب الجمال التي نفقت، لكن تفتق ذهن كبيرنا محمد شريف عن فكرة سرعان ما اتفقنا عليها جَميعاً. وهي أن يأخذ أصحاب الجِمال التي نفقت جميع الشقادف ومعها قرب الماء... وكان المبرّر - الذي أقنعنا به هو أن هذه الشقادف ملك الحكومة، أو المخرج الذي زوّدنا بها... وما دامت الجمال قد نفقت وخسر أصحاب الجِمال هذه الخسارة الفادحة، حلال عليهم الشقادف يأخذونها فيبيعونها لمن يرغب فيهاَ من أهل رابغ للحج. وتمّ الأمر، اتفقنا وقد عبّر أصحاب الجِمال عن رضاهم وزاد محمد شريف فكتب لهم ورقة وقّعنا عليها، وفيها تمام البيع.

بدأنا نستعد للانتقال إلى الميناء حيث ترسو فيها السفينة أم الخير... قام كل منّا بلف وربط اللحاف والمخدات وقطعة السجادة والخرج الصغير الذي فيه بقية الحلاوة الطحينية والأرز والعدس والدقيق، والسمن، إلخ...

حمل كل منّا أغراضه... وأخذنا نودّع صاحب المقهى الذي تسامح مع الذين لم يستطيعوا أن يدفعوا المبالغ الصغيرة التي عليهم.

كان الطريق إلى الميناء طويلاً جداً بحيث كنّا نضطر إلى الجلوس للاستراحة بعض الوقت، وأخيراً... ها هو البحر... وهذا هو الميناء... وها نحن نرى السفينة أو الساعية (أم الخير...). استقبلنا الربّان ويسمّونه (الناخودة) بكلمات الترحيب، ولكنه رفض أن ندخل السفينة إلاّ في الفجر بعد الصلاة. وكان له ما أمر.. لم يكن صعودنا إلى السفينة مشكلة.. فهناك سلم قصير معلّق على طرف السفينة - وممتد إلى أرض الرصيف... تسلقناه واحداً بعد الآخر.. كان سطح السفينة واسعاً... يتّسع لفرش ما ننام عليه. اختار كل منا المكان المناسب، وكان هناك في الصدر مُرتفَع هو موقع الناخودة، وتحت المرتفع باب صغير، يفتح إلى ما عرفنا في ما بعد أنّه المخزن الذي تحفظ فيه السلع التي يُخشى عليها من المياه، وكذلك المكان الذي يأوي إليه إذا اشتد البرد أو احتدم عصف الرياح. والأهم الذي لفت نظرنا هو الساريتان اللتان تحملان الشراعين.. وكان هناك شباب مساعدون للناخودة - هم الذين يتسلّقون إلى أعلى السارية ولا ندري ماذا يفعلون لينشروا الشراعين.. وبدأت السفينة تغادر الرصيف الذين وقف عليه جمهور من الأهالي وربما كانوا من العمال الذي يفرغون السفن عند وصولها، ويحملونها عند إقلاعها.

كان نسيم البحر لطيفاً، أحسسنا معه كأننا قد خرجنا من الفرن إلى الجنة.. إذ كان الحر في رابغ شديداً... النسيم متوقف كأن أبوابه قد أغلقت تماماً. وهذا مع الرطوبة بحيث يشعر المرء كأنه يختنق.. مع العرق يتفصّد من أجسامنا..

أقلعت السفينة، وأصبحت في عرض البحر... كانت الأمواج قليلة الارتفاع وأقرب إلى الهدوء إذ قليلاً ما شعرنا بأثرها... بعضنا استغرق في نوم عميق...

كالعادة منذ تركنا المدينة كان محمد شريف هو الذي يتولّى مسؤولية الغداء بالذات وهو الأرز والعدس، وعندما كنا في المقهى كان الأرز والسمك... بينما كان الآخرون، ومنهم أنا وعبدالقادر أولياء وعبدالحميد أبو الطاهر نقوم بغسل الأواني... وتجهيز الشاي وغسل الفناجين إلخ...

بعد أن قطعت السفينة بنا مسافة طويلة، رأينا عمّال السفينة يعود كل منهم إلى الناخودة في مقعده المرتفع وفي يده ثلاث أو أربع سمكات اصطادوها... وكلها متوسطة الحجم، ولكن اثنتين كانتا كبيرتين جداً... فرح بهما الناخودة... وسمعنا العم (فالح)... وهو اسم الناخودة ينادي...

- مين فيكم اللّي يطبخ الأرز ويسوّي لنا السلطة... ترى عندنا مخلل وطرشي من جدة بس لا بد من السلطة والأرز..

كان العمال قد نظّفوا السمك وأعدّوه للقلي... ووضعوا الصاج أو الطاجن الأسود الكبير على (الدافور الكبير) كما وضعوا الكفاية من الزيت... في هذا الطاجن.

قام محمد شريف بما طُلب منه... طبخ الأرز وأعدّ السلطة من مجموعة الخضار الموجودة في مخزن العم فالح...

كل هذا تم والسفينة تشق البحر في رقّة وهدوء.. والشراعان الكبيران قد امتلآ بالريح المواتية الهادئة.

جلسنا للغذاء... والعم فالح يزودنا بقطع من السمك الكبير اللذيذ، ربما لم نُطعم ألذّ منه من قبل.. بل كان هذا الغداء والسفينة تبحر بنا في عرض البحر هو ألذّ غداء تناولناه منذ خرجنا من المدينة المنورة.

وسألنا العم فالح:

- متى نصل جدة؟

فأجابنا وهو يضحك:

- إذا ساعدتنا (الحَايهْ) بكرا في العصر نكون في رصيف جدة إن شاء الله... قولوا يا رب..

ورفعنا كلّنا أيدينا ونحن نقول:

- يا رب...

اقتربنا من وقت الغروب... كانت الشمس مشرقة لا تحجبها أستار أو تحيط بها الغيوم.. لكن قبل أن تغرب تماماً... تكاثفت حولها الغيوم السود وأخذت الريح تشتد وتملأ الشراعين... والسفينة تشقّ البحر والأمواج التي شاهدناها تهتاج وتتلاحق وترتفع حتى لقد أخذت تتجاوز حافة السفينة لتغمرنا بالمياه.

سمعنا العم حامد يقول لا تخافوا... هادي يمكن تمطر الليلة... لكن الحاية معانا... يِمكن نوصل جدة في الصباح بحول الله...

أصيب بعضنا بالدوار، والاستفراغ وأظلمت السماء، وبدأ الليل ثقيلاً مرعباً... وليس في السماء فوقنا والبحر حولنا إلاّ الظلام الدامس ثم البرق والرعد... وأمطرت

السماء مطراً ثقيلاً وكانت الريح شديدة البرودة، بحيث اضطر بعضنا إلى التلحّف بما لديه من الأغطية... لم نكن ندري كم كان الوقت من الليل، ولكن باستثناء المصابين بالدوار ظللنا تحت رحمة المطر الثقيل، بحيث لم يبق في ساحة السفينة كلها مكان لم تغمره مياه المطر من جهة، ورشقات الأمواج المتلاحقة في عبث صاخب من جهة أخرى، ولا شك بأن العَمْ فالح قد أشفق علينا، فرفع صوته يأمر العمال بفتح الباب الذي ينتهي إلى المخزن... وقال:

- ادخلوا... واجلسوا... استلطفوا الله إلى أن يكفّ هطول الأمطار.

ما كدنا ندخل هذا المأوى حتى تنفّسنا الصعداء لم يكن فيه أثر للمطر وكشحات الموج، وقد اتّسع لجلوس كل منّا بجانب الآخر متزاحمين، وفي نفوسنا شي من الخوف من استمرار الحال طويلاً ومما يمكن أن يحدث من أحداث ما أكثر ما سمعنا عنها وسمعنا عن الذين غرقوا مع السفينة نفسها وذهبوا طعاماً للحيتان الكبيرة.

***

لا ندري كم قضينا من الوقت في هذا المخزن الذي رحمنا الله فيه من الأمطار والأمواج، وقد جلس العم فالح معنا وقتاً قصيراً ثم خرج ليقود السفينة، فهو ربانها.

غلب بعضنا النوم... وكان للظلام والدفء تأثيرهما... نام بعضنا وربما في ذهنه أحلام الغرق والحيتان، فنراه يرفع رأسه مرعوباً... ثم يعود إلى النوم. ولم يستيقظ إلاّ على صوت العم فالح يقول:

- هيا يا عيال... هادي جدة قدامنا، قوموا شوفوها.

خرجنا من مخبأنا واحداً بعد الآخر لنرى ضوء النهار... ونرى معه مدينة جدة ولكن بعيدة جداً... كنا نرى مبانيها الكبيرة ومآذن المساجد لكن لم نرَ أحداً... لم نر أناساً يمشون أو يتحرّكون... وقال أحدنا للعم فالح:

- هادي بعيدة كثيرة يا عم فالح... والسفينة وقفت كيف نوصل البلد؟

وقال العم فالح متسائلاً:

- إنتو ما بتشوفوا الشراع؟... ما في نسمة هواء... رمينا البروسي ووقفنا ولا بد أننا ننتظر (الحاية)...

- لكن متى تجي هادي الحاية يا عم فالح...؟

- العلم عند الله... يمكن بعد ساعة ويمكن بكرا..

- طيّب ما في طريقة نوصل بها البلد ونحن شايفينها؟

- لا يا ولدي... ما في غير (لَنْش الكرنتينة) وهادا ما يتحرك إلاّ بأمر الحكومة للبواخر الكبيرة... زي هادي اللّي بنشوفها قدامنا... هاديك (تالودي) باخرة مصرية... وهاديك اللّي هناك اللّي لونها أسود وأحمر باخرة هندية رايحة تاخد حجاج الهند...

- طيّب وبعدين؟

- ولا قبلين... ننتظر الحاية وربنا كريم...

ظللنا في السفينة (أم الخير) في إنتظار الحاية التي ظلت مصرّة على الامتناع عن المجيء... ولم تكن (أم الخير) هي الوحيدة العاجزة عن الحركة إلى أن (تهب) الحاية وفي وقت لا يعلمه إلاّ الله.

كان هناك عدد من السفن الواقفة في عرض البحر وكلّها في إنتظار الحاية للوصول إلى جدة.

تعودنا أن نقضي الوقت في لعب الورق أو أي ألعاب أخرى... ولم يكن الأكل مشكلة، فالبحر يعطينا ما يكفي ويزيد من السمك... كنا نأكل ونشرب الشاي، ولدينا الماء العذب الذي يحتفظ به العم فالح للشرب وللشاي فقط... أما الوضوء للصلاة فمن البحر...

ثم بدا لي أن أسأل العم فالح عن القوارب الصغيرة التي نراها على حافة الباخرة الهندية... أليس من الممكن أن نطلب منهم إسعافنا؟

وضحك العم فالح وهو يقول:

- هادي مسألة لازم يأمر بها القبطان إذا وجدوا أنها حالة إسعاف أو أحد بيغرق، أو جماعة معرّضين للخطر... الأحسن يا وليدي ترفعوا أيديكم وتقولوا يا رب..

ورفعنا جميعاً أيدينا... ونحن نقول:

- يا رب..

مع فجر اليوم الثالث أحسسنا بأن الجو قد تغيّر.. كانت الريح قد بدأت تهب فتبعث في أرواحنا شعوراً بأننا قد خرجنا من جوف نفق كبير جداً عجز حتى البحر عن الخروج من إطباق صمته وسكونه واحتباس أنفاسه.

ما هي إلاّ دقائق حتى رأينا العمّال يتسلقون الساريتين، ويأخذون في نشر الشراعين... مع أن المفروض أن يمتلىء كل شراع بالرياح... ولكنها كانت رياحاً كسولة بطيئة الهبوب، ومع ذلك فقد ارتفع صوت العم فالح وهو في مكان القيادة يقول:

- كمان شوية ونرفع البروسي... هادا أول الحاية... قولوا: (الحمدلله).

أسرع بعضنا يقف متطلّعاً إلى جدة التي ظلت تكايدنا يومين وليلتين - نراها ونحلم بالوصول إليها من دون جدوى.وتمّ رفع (البروسي)... وأحسسنا أن أم الخير أخذت تتقدّم... وتشقّ البحر في ما يشبه الرفق والدلال... وسمعنا العم فالح يقول:

- معليه... الحاية ضعيفة، لكن ما عاد إلاّ نوصل الرصيف بحول الله.

وهتفنا ونكاد نتقافز فرحاً..

- متى يا عم فالح؟

- قبل صلاة العصر بإذن الله.

كان الوقت ضحى... فمعنى كلامه إذاً أننا سنظل في حالة الإنتظار هذه... أو في رؤية استمرار جدّة في المكايدة والدلع إلى ما بعد الظهر.

***

أخيراً، أخذت (أم الخير) تقترب من الرصيف الذي كانت تصطف أمامه أكثر من ثلاث سفن... لا بد أن تفرغ حمولتها... ثم يأتي دور سفينتنا...

المهم أننا رأينا عدداً كبيراً من الناس منهم العمال، ومنهم ربما التجار أو عمالهم الذين يتناولون السلع في الصناديق أو الأكياس، ولكن الأهم بالنسبة لنا نحن طلاب مدرسة الطب... هو أين سنستقر؟ إلى أين نذهب؟.. أين يا ترى المستشفى الذي لا بد أن يكون موجوداً مثل مستشفى المدينة؟ وهل يعلم مدير المستشفى أننا طلاب (مدرسة الطب؟) ثم كيف نذهب إلى مكة، وقد ماتت جمالنا في رابغ ولم نصل إلى جدة إلاّ بالبحر على سطح أم الخير؟

***

الوصول إلى جدّة

سمعنا فجأة صوت العم فالح الناخودة مرتفعاً ينادي (الدكتور فهمي) وجماعته، التفتنا نحو الصوت لنراه وعيناه تبحثان عنا.

أسرع السيد فهمي، وظللنا حيث نحن على مقاعد خشب طويلة ولكن بلا ظهور، وطبعاً بلا أي شي يفصل بين الخشب والجالس عليه... وعندما عاد فهمي، أخبرنا أن العم فالح يقول إنه استلمكم من أمير رابغ... ولا بد أن يسلمكم إلى أمير جدة... وبيده ورقة فيها حكاية أننا انقطعنا في رابغ وهو قد سلّمنا إلى العم فالح ليقوم بتسليمنا إلى أمير جدة.

أحسسنا أننا في ورطة لا نعرف شيئاً عن نهايتها وفاجأنا فهمي وهو يقول:

- هيا نمشي مع العم فالح... الرجال في إنتظارنا...

وقلنا نسأله:

- وأين نترك أشياءنا وفيها كل ما بقي لنا بعد هذه الرحلة؟؟

هنا قال محمد شريف:

- أنا تعبان من الحر... وما هو ضروري أروح معاكم... خلوا كل شي عندي.

اتفقنا... وأخذ بعضنا يصلح من هندامه وينظّم لف رأسه بالشال الغباني، كما كانت العادة في تلك الأيام.

عندما بدأنا نمشي خلف العم فالح، استوقفنا جميعاً شاب سوري الملامح وسألنا إلى أين نحن ذاهبون؟

وأجابه العم فالح:

- إلى الأمير... أمير جدة... استلمتهم من أمير رابغ والأمر اللّي عندي إني أسلّمهم لأمير جدة، والتفت إلينا الشاب متسائلاً: من نكون وما هي حكايتنا؟

وتصدّى له فهمي قائلاً:

- لكن من أنت؟

- أنا مندوب مدير الكرنتينا... سمع المدير أنكم وصلتم بالسفينة... يعني بالبحر... وكل واحد يصل جدة بطريق البحر لازم (يِتْكَرتَنْ).

وسأله فهمي:

- يعني إيه يتكرتن؟

- يعني ما يدخل جدة إلاّ بعد يومين أو ثلاثة أيام.

- ليه؟

- عَلَشان نتأكد أنه غير مصاب بالكوليرا... كثيرين من اللّي من الهند بيكونوا مصابين بهادا الوباء والعياذ بالله.

هنا سمعنا العم فالح ينادي قائلاً:

- راح الوقت يا جماعة.. أخاف يكون الأمير قام من المجلس.

هنا تصدى له الشاب السوري يقول:

- مستحيل إلاّ بعد ما يتكرتنوا.

محمد شريف الذي كان جالساً متوكئاً على إحدى لفات الأفرشة... تدخّل يخاطب الشاب السوري:

- لكن يا أخينا نحن من أهل المدينة... ما معنا أي هندي... كلنا جايين من رابغ، ورايحين مكة علشان مدرسة الطب.

كانت المفاجأة أن الشاب السوري ما كاد يسمع أننا (رايحين مكة مدرسة الطب) حتى تهلّل وجهه وابتسم وهو يتساءل:

- إنتو طلاب مدرسة الصحة؟ أهلاً وسهلاً ومشى أمامنا وهو يقول:

- اتفضلوا... اتفضلوا، الدكتور يمكن يحب يتعرّف عليكم.

وعاد صوت العم فالح ينادي، وينذر بأن يكون الأمير قد غادر المجلس.. فمشى

نحو الشاب السوري مندوب الكرنتينا، وهو يقول:

- خلاص الجماعة كلهم عند الدكتور مدير الكرنتينا... وقول لأمير جدة إنك سلّمتهم للدكتور.

هنا قال العم فالح:

- تعطيني ورقة باستلامهم... وإنهم عند مدير الكرنتينا.

لم يتردّد الشاب السوري في الصعود ركضاً، وعاد بالورقة المطلوبة... ثم قال:

- اتفضلوا... الدكتور ينتظركم.

***

عندما دخلنا مكتب الدكتور الذي رأيناه فخماً يطل على البحر... نهض مرحّباً، فصافحناه واحداً بعد الآخر... وقصصنا عليه تفاصيل رحلتنا.. وقام فهمي بتقديم كل منا، واسمه واسم ابيه إلى أن قال:

- وهذا اسمه عزيز ابن الدكتور ضياء بك...

وارتسمت على وجه الدكتور معالم الدهشة وهو يقول:

- ولكن هادا طفل... كيف وافقوا على قبوله؟

- هوّه صغير فعلاً... وأنا الوصي عليه... لكنه شاطر جداً... وفي الامتحان في المدينة هو الأول... وكان الثاني (حسن حامد) وأشار إليه (ولم يكن طفلاً.. كان أقرب إلى مرحلة الشباب).. ثم قال:

- أما أنا فقد كنت الخامس... وكنت موظف في المستشفى... مضمد ومساعد تضميد.

ابتسم الدكتور وهو يقول:

- الليلة تناموا في المستشفى.. ولا بد بكره إلى مكة... على الجِمال... ولكن يمكن كل اثنين على جمل.. المسافة إلى مكة يومين.

تساءل عبدالحميد ربما لأول مرة:

- في الشقادف زي لما سافرنا من المدينة؟

ضحك الدكتور وهو يقول:

- ما في شقادف كلها يومين... تمشون في الليل وتستريحون في النهار. وقبل ما تمشوا أنا أخبر محمود بك إنكم وصلتوا لأنه هو والدكتور خيري بك ينتظروكم من زمان.

لم نكن نعرف من هو محمود بك، ومن هو الدكتور خيري بك، لم يجد أحد منّا ضرورة للاستعلام... وأكرمنا الدكتور بالشاي الذي توهمنا ونحن نشربه أننا سوف نعيش هذا المستوى الفخم ونعامل هذه المعاملة الكريمة في المدرسة الطبية.

قال الدكتور للشاب الذي فهمنا أنه الكاتب أو السكرتير عند الدكتور.

- هيا... روح مع الجماعة إلى المستشفى... يناموا الليلة... وخبّر مأمور الإدارة يستأجر لهم الجِمال.. كل اثنين على جمل...

***

مشينا مع الشاب سكرتير المدير إلى المستشفى، ورأينا الكثير من عمران جدة وحوايرها في مشوارنا الذي لم يستمر أكثر من نصف ساعة، مع زحام الحجاج الذين قال لنا الشاب، إنهم قد إنتهوا من الحج وهم في إنتظار البواخر التي ستحملهم إلى بلادهم، وهي جاوا والهند أو مصر وسوريا..

قادنا الشاب إلى غرفة على بابها لافتة تقول (مأمور الإدارة) الذي قال عندما رآنا واقفين أمامه:

- أيش الغداء اللّي يكفيهم؟ هادول ما شاء الله طابور... كان لازم ندبح لهم خروفين.

قال هذه الكلمات من دون أن يرحّب بنا، ثم نهض وخرج من الغرفة ينادي شخصاً بصوت منفعل... وبعد قليل عاد إلى الغرفة ليقول: خلاص... غداكم كباب... هيا اتفضلوا دحّين روحوا (القاووش) اللّي رايحين تناموا فيه.

قادنا الشاب الذي ما زال يرافقنا إلى (القاووش) الذي قال مأمور الإدارة إننا سننام فيه... والتفت إلى فهمي الحشاني، يقول:

- لا تاخدوا عليه... هوّه طبعه كده... ما يعرف غير يصيح وينفخ في كل واحد يراجعه.

دخلنا (القاووش).. وهو عبارة عن عنبر أو قاعة واسعة، لها نوافذ تطلّ على فناء

واسع.. حمدنا الله إذ استقبلنا هواءً ناعماً خفّف من ضيقنا بالحر الشديد. وفي هذا العنبر عدد من الأسِرَّة الحديد الصدئة كل ما عليها ألواح من الخشب يستحيل أن نستلقي عليها... وحمدنا الله على أننا ما زلنا نحتفظ بلفات اللحف والمخدات والسجاجيد...

أخذنا نتسابق في اختيار الأسرّة القريبة من النوافذ طلباً لذلك الهواء الناعم الرقيق... وقد حرص فهمي أن أكون على سرير بجانب سريره... وبسطنا اللحف والسجاجيد، واستلقى كل منا وهو يتنفّس الصعداء وتثقل أجفانه الرغبة في النوم الذي حرمنا منه منذ كنّا على سطح السفينة (أم الخير)... التي ما كادت تمرّ ذكراها بذهني حتى قلت لفهمي... كان لازم نودع العم فالح ونصافحه قبل ما نقابل مدير الكرنتينا... وسمعها آخرون بالقرب منا... فقالوا:

- صحيح... صحيح... هادا كان حنون علينا.

وقال آخر:

- كان يعاملنا كأننا أولاده.

لم تمضِ نصف ساعة تقريباً حتى دخل علينا في القاووش عدد من العمال وعلى رؤوسهم صواني الأكل... وكان الطعام هو الكباب الذي أمر به مأمور الإدارة، وكانت رائحته تفتح شهيتنا إلى حد وجدنا أنفسنا نتسابق في الجلوس على الأرض المفروشة بحصير نسميه في المدينة (خصف) لأنه يصنع من سعف النخل، وهذا هو الفرق بينه وبين الحصير الذي ربما كان يستورد من مصر في تلك الأيام.

تحلّقنا مجموعات حول الأطباق أو هي التباسي الكبيرة وفي كل منها عدد من الأطباق طافحة بالكباب... واذكر اليوم أنه كان أشهى أكلة كباب تمتّعنا بها منذ كنا على (أم الخير) حيث كان السمك هو الطعام في جميع الوجبات، وهو أيضاً الذي شبعنا منه في المقهى الذي عشنا فيه أياماً في رابغ.

والواقع أن كمية الكباب ومعها خبز "الحب" كانت كافية مشبعة.. وسألنا العمّال قبل أن يرفعوا الأطباق:

- أين نغسل أيدينا ونتوضأ للصلاة؟

لاذ أكثرهم بالصمت.. إلاّ أحدهم الذي قال: تعالوا ومشى أمامنا... عبر ممرات متلاحقة لاحظنا أن فيها أبواباً ربما لعنابر، مثل عنبرنا.. إلى أن وقف أمام باب بالغ

القذارة من المؤكّد أنه لم تلْمسه يد تنظف ما عليه من أقذار منذ دهر طويل... وفتح الباب... لنرى صفاً من أبواب قصيرة لا تقلّ قذارة عن الباب الرئيسي ثم التفت ليقول:

- عندكم الأباريق تملوها من هاديك البزابيز... بس إن كانت الحنفية مليانة...

أسرع حسن حامد وهو الوحيد الذي كان يترفّع عن الانغماس في ما يدور بيننا من أحاديث وحكايات ضاحكة أو مزاح من أي نوع. أسرع إلى إبريق من الصفيح، رأينا على وجهه اشمئزاز من قذارته.. ومشى به إلى صنبور الحنفية، ولكن لم تسقط منه قطرة واحدة من الماء.. معنى ذلك أننا جميعاً في ورطة لا سبيل إلى حلّها ليس فقط بالنسبة للوضوء للصلاة، وإنما قبل ذلك لقضاء الحاجة في المرحاض.

أخذ بعضنا ينظر إلى حسن حامد ليرى كيف يتصرف... وفوجئنا به يسرع بالخروج وهو يقول:

- مأمور الإدارة... تعالوا نذهب إليه كلنا.

ولكن لم نستجب لدعوته وظللنا في مواقعنا، ودخل بعضنا المراحيض ولا ندري كيف سيتصرف بعد قضاء حاجته.

كان حسن حامد قد خرج، وغاب فترة طويلة لنسمع أصوات ناس متعددين يتصايحون ويتشاجرون وكان صوت مأمور الإدارة واضحاً وهو يقول:

- كل واحد منكم يخدم نفسه... والماء موجود في الخزان الكبير.. كل واحد يقدر يشيل تنكة يمليها من هادا الخزان ويملي الحنفية هنا والتنك عندكم هنا في هادي الغرفة.

عرفنا ألا سبيل إلى حل المشكلة إلاّ بتنفيذ الأمر، ودارت في أذهاننا صورتنا وكل منّا يحمل صفيحة ماء يعود بها من الخزان الكبير إلى الحنفية.

هنا سمعنا محمد شريف يقول:

- إنت يا عمنا... عمرك سمعت طلاب مدرسة طب يشيلوا تنك مويه.

وأضاف حسن حامد:

- بلاش مدرسة الطب... لكن طلاب مدرسة تهينهم جنابك؟

وإذا بنا نتفاجأ بمأمور الإدارة يفرقع ضحكة صاخبة عاصفة، ويستمر فيها بحيث يعجز عن الكلام... لنسمعه أخيراً يقول ساخراً:

- مدرسة طب؟... إنتو طلاب مدرسة طب؟.. مين اللّي ضحك عليكم وقال لكم

مدرسة طب؟!

وقف حسن حامد إلى جانب محمد شريف كأنه يحتمي به إذا اشتبك مع مأمور الإدارة والفريق من الأشخاص الذين جاءوا معه، ولا ندري إن كانوا عمالاً أم موظفين، ثم قال حسن:

- إسمع... الحكومة في المدينة هي اللّي قالت إنها مدرسة طب.. وهيّه اللّي سفّرتنا إلى مكة.. ولازم تعرف نحن مين؟! لازم تعرف اللّي زيْنا ما يمكن يشيل تنك مويه. عمرنا ما اشتغلنا سَقّاية.

وارتفع صوت محمد شريف ليقول:

- وكمان يا جناب المأمور، إنت مسؤول عن راحة كل واحد مننا.. إنت موظف واسمك (مأمور) يعني تسمع الأوامر وتنفذها.

احتدم مأمور الإدارة وتقدّم نحو محمد شريف خطوة كأنه يهم بصفعه لكن سرعان ما تدخّل فهمي الحشاني وهو يقول:

- صلّوا على النبي يا جماعة... المسألة بسيطة... أنا عندي حل.

ثم التفت إليّ وطلب أن اقترب منه حيث همس يقول:

- أنا عندي من فلوسي خمسة مجايدة، وعندي من فلوسك الجنيه الذهب ومجيدي ونص... ندفع أجرة العمال اللّي يشيلوا التنك ويملّوا الحنفية... ما أدري كم ياخدوا.. لكن هادا هو اللّي نخلّص به المشكلة...

أسرعت أؤكد له موافقتي... قلت:

- فعلاً هادا هو الحل.

اتّجه فهمي إلى مأمور الإدارة الذي كان لا يزال واقفاً، متهيّج الأعصاب.. وعرض عليه الفكرة فوافق وقال، إن أجرة العامل الذي يحمل تنكتين ثلاثة قروش. وهكذا تمّ نقل المياه واستطعنا أن نقضي الحاجة ونتوضأ للصلاة، وكان كل المبلغ الذي دفعناه لا يزيد على مجيدين..

قضينا الوقت إلى المغرب في بحث الكلمة التي قالها مأمور الإدارة، وهي: (مين اللّي ضحك عليكم وقال لكم مدرسة طب)؟؟ وقال فهمي الحشاني:

- الحقيقة أنهم في المدينة قالوا إنها (مدرسة صحة).. وما قالوا (مدرسة طب)..

لكن كلنا فهمنا أنها مدرسة طب.

طال الحوار بيننا حول هذا الموضوع الذي سافرنا من المدينة وكل منا يعتقد أنه ذاهب إلى مكة لدراسة الطب.. ولم ننته إلى شي سوى أننا سوف نعرف الحقيقة عندما نصل إلى مكة.. وكلها يومان ونكون هناك بإذن الله.

بدأ ظلام الليل يتسلّل إلى (قاووشنا) المحترم، وقد لفت نظرنا عدم وجود أي نوع من الإضاءة في هذا المكان، وكذلك وبطبيعة الحال في دورة المياه، وكدنا ندخل في مشكلة جديدة، لولا أنه أطل علينا أحد عمال المستشفى وهو يحمل (فانوساً هندياً متوسط الحجم) أضاء الغرفة، وقال إننا نجد في دورة المياه مثله... فحمدنا الله، وأخذ النعاس يدب ويتغلّب علينا... لم يطل بنا الوقت حتى استغرقنا في نوم عميق لم نستيقظ منه إلاّ مع بزوغ أضواء الفجر.. حيث رأينا على الأرض، بل وفوق بعض الذين لم يفتحوا عيونهم بعد، فريقاً من الجرذان تتراكض وتمرح من دون أن يكون لوجودنا أي تأثير على حركتها. ألقيت نظرة نحو تلك النوافذ المفتوحة التي تهب علينا منها نسمات الهواء اللطيف الذي تعلمنا في ما بعد أن ريح الشمال التي يفرح بها ويرتاح إليها الناس، تقابلها ريح الجنوب وهي الثقيلة المشبّعة بالرطوبة والأتربة.. أسرعنا إلى الوضوء وقضاء الحاجة، وفي أذهاننا أننا اليوم سنسافر إلى مكة.

أخيراً إلى مدرسة الصحّة

لم يقل لنا أحد شيئاً عن الموعد الذي نغادر فيه جدة إلى مكة المكرمة، ولكن هذا لم يمنع أن نستعد بجمع ولف وتوضيب الأشياء التي جئنا بها من المدينة... كان الجديد الذي فكّر فيه ودعا إليه محمد شريف وفهمي الحشاني وغيرهما من الكبار هو (الإحرام) إذْ لا يجوز دخول مكة، إلاّ بالإحرام ونية العمرة... وأخذت أسمع تفاصيل العمرة وثوابها، والكعبة المشرّفة والحرم المكي الشريف اللذين كثيراً ما سمعت عنهما من أمّي وغيرها في المدينة. وتمنيت أن أنال ثواب هذه العمرة كالآخرين، لكن كانت المشكلة في رداء الإحرام... الذي كان لا بد من شرائه من السوق بينما كان الزملاء قد استعدّوا لذلك من المدينة... والذهاب إلى السوق مشكلة إذ لم أكن أعرف الطريق إلى السوق:

وقال فهمي:

- ومين اللّي يعرف يروح السوق اللّي نشتري منه الإحرام؟ كلنا هادي أول مرة نشوف فيها جدة.. ثم توقف عن الكلام لحظات ليقول:

- إنت لا تزال صغيراً... ليس عليك أن تؤدي العمرة، أو ترتدي الإحرام... يمكن عبدالحميد زيك كمان.

***

قبيل الظهر، جاء رسول من قادة الإدارة يخبرنا أن الرحلة إلى مكة ستبدأ بعد صلاة العصر، ولكن علينا أن نجهّز أنفسنا ونحمّل حاجاتنا على الجِمال.. التي ستكون عند باب المستشفى بعد صلاة الظهر..

وفي الموعد، وجدنا عشرة جِمال عند باب المستشفى فعلاً... حمّلناها حاجاتنا... وكما كنّا في السفر من المدينة، ترافقنا أنا وعبدالحميد على جمل وبدأت قافلتنا

مسيرتها قبيل الغروب... وبدأ الزملاء (المحرمون بِنيَّة العمرة) يردّدون (لبيك اللهم لبيك) اختلفنا قليلاً أنا وعبدالحميد على من يكون أمام الآخر على ظهر الجمل.. واتفقنا على أن نتبادل الأماكن بين وقت وآخر..

كانت أمامنا من القافلة أربعة أو خمسة جمال، يتقدّمها محمد شريف وفهمي معاً.. وكان الجمّال رجلاً طيباً حريصاً على إرضائنا.. وفي يده مغراف من النحاس كبير، يغرف فيه حاجاتنا من الماء من القرب المعلقة على الجِمال.

وقال الجمّال بعد مسيرة ساعة أو أكثر:

- هادي أم السلم... فيها عسكر الحكومة. وعرفنا أنها أولى خطوات طريقنا إلى مكة.. لم يكن فيها شيء غير مقهى صغير، وشجر على ربوة خلف المقهى.. قالوا إنها شجر (الشوك) ولذلك سمّوها أم السلم أي (أم الشوك).

نزلنا عن الجمال للوضوء والصلاة فقد غربت الشمس ودخل الليل... ويومها عرفت صلاة الجَّمع والقَصْر، أفهمنا ذلك محمد شريف، إذ قال:

- صلاة المغرب ثلاث ركعات، وبعدها صلاة العشاء ركعتان.. وهذا هو الجمع والقصر..

فجمع بين فرضين مع قصر الأربعة ركعات إلى اثنتين... وكان هو إمامنا.. وبعد الإنتهاء من الصلاة عدنا إلى ركوب الجِمال..

مع أننا في الهواء الطلق، فقد كان الحر شديداً وكانت أجسامنا لا تتوقف عن إفراز العرق، هذا إلى جانب الرطوبة اللزجة التي تخنق الأنفاس... ولكن لم يكن أمامنا إلاّ الصبر...

كان الظلام طافياً، وحتى الهلال وهو في أواخر أيامه، كان يحجبه الغمام.. لم يكن في السماء أي أثر للنجوم.. مررنا بمحطة اسمها (الشميسي) ولكن لم نتوقف عند المقهى الصغير الضيق الذي لا يضيئه إلاّ فانوس هندي صغير.. وظلت القافلة تسير، وأخذ الجمّال يغني ورفيقه يطيب له الغناء كلما انتهى من أقواله التي لم نكن نفهم كلمة من كلماتها.

ثم سكت الجمّال من غنائه، أحسسنا برهبة الليل في هذه القفار.. لم أشعر بالخوف إذ سبقت لي تجربة السفر على جمل واحد مع أمّي في عودتنا من ينبع إلى المدينة... لكن عبدالحميد قال:

- أنا خايف يا عزيز.

وما هي إلاّ لحظة حتى سمعنا عواء ذئب ثم عواء ذئاب أخرى.

قال عبد الحميد:

ـ إنت سامع يا عزيز.

- بالطبع سامع، هادي الدياب تعوي لأنها جائعة.

- بس إنت ما أشوف إنك خايف.

- أخاف من إيه؟ من صوت الدياب؟ أنا ما أخاف أبداً... عشان اللّي شفته وأنا طفل صغير علمني إني ما أخاف أبداً..

- ولا تخاف من الأموات؟.. من الناس اللّي يموتوا؟... أنا اللّي شفتهم ماتوا يغطوهم بشرشف، وبعدين ياخدوهم ويدفنوهم في البقيع... لكن أنا ما شفت وجوههم أبداً.

- وأيش اللّي جاب سيرة الأموات.. في عقلك... خايف تموت؟

- الظلام يا عزيز... الظلام هوّه اللّي يخلّي الواحد يفكر في الموت... الظلام... في القبر اللّي يدفنوا فيه الميت زي ما دفنوا عمي..

- أعوذ بالله من ظلام القبر.. هادا ظلام الدفن تحت التراب... أما هادا الظلام اللي نحن عايشين وماشيين فيه... ما هو ظلام... دحّين يمكن يبان القمر والنجوم..

- اللّي مات شفتهم غطوه بشرشف... وبعدين شالوه وفهمت إنهم دفنوه في البقيع كان وجهه يخوّف.. إنت ما تخاف لما تشوف الميت؟

ضحكت ضحكة خفيفة وقلت:

- أنا شفت مئات الأموات في حلب وأنا صغير مع أمّي في العربات التي تنقلهم بعدما تجمعهم من الشوارع والأرصفة... ويمكن معاهم العساكر اللّي انقتلوا في الحرب... مساكين مكشوفين... ما عليهم غطا... ولا أحد يبكي عليهم...

- ولكن أيش اللّي موّتهم؟؟

- المرض... والجوع... والحرب.

- قلت المرض؟ هوّ ما كان لهم أهل يداووهم؟

- أهلهم كانوا بيموتوا... يكونوا ماشيين في الشوارع وهم جيعانين ومرضانين ما يصحوا بهم إلاّ وهم طايحين في الأرض... يجوا يشوفوهم يلتقوهم أموات...

ثم أحببت اختصار الحكاية.. فقلت:

- هوّ إنتو ما سفّركم فخري في البابور على الشام؟

- لأ... نحنا رحنا ينبع، وما شفنا أي شي من الأشياء التي شفتوها في الشام.

- طيّب راح أحَكيلك حكاية تخوّف اللّي يخاف من الموت والأموات زيّك...

- حكاية ميت؟

- أيوه حكاية ميت... وميت في قبره كمان... كنت أتمشّى في الطريق إلى العوالي... وناوي أرجع البيت قبل المغرب، لكن اللّي حصل إني من دون ما أدري وعلى غفلة سقطت في حفرة... وقبل ما أحاول أخرج منها شفت قدامي جمجمة واحد ميت من سنين... اللّي كان ظاهر منه هو الجمجمة... أما جسمه فكان تحت التراب... وما أدري كيف تذكرت كلام عمّي جوز أمّي عن جمجمة الإنسان وكيف تتفكك..

- تتفكك؟

- أيوه تتفكك أوصالها عن بعض.. والحقيقة إني خفت من شكل الجمجمة وقعدت أفكّر كيف أقدر أفصلها عن الجسم كله... وأخذتها عشان أشوف كيف تتفكك.. وبعد شوية وجدت نفسي أنحني وأمسك الجمجمة بيدي وحرّكتها يمين وشمال، وبعدين بشيء من القوة سحبتها... والتقيتها في يديّ... كنت لافف راسي بشماغ... على طول فكيت اللفة وحطيت الجمجمة في الشماغ... وخرجت من الحفرة اللّي هي في الأصل قبر واحد مات ودفنوه في هادي الحفرة.. ورجعت أجري إلى البيت القريب ودخلت (حنية) أكياس الفحم وأخرجت الجمجمة وحطيتها في واحد كيس مفتوح من هادي الأكياس.

وسمعت عبدالحميد وهو يجلس أمامي يتكلّم بصوت لا يخلو من الرعب.. سمعته يقول:

- وبعدين يا عزيز؟

- وبعدين تاني يوم اشتريت ربع كيلة حمص اللّي يطبخوا منه البليلة... وحشيت

الحمص في الجمجمة من فتحة الفم وفتحة الأذن وفتحة العينين وكل فتحة.

عاد عبدالحميد يقول وفي صوته رعشة الرعب:

- وبعدين؟

- وبعدين رجّعت الجمجمة في كيس الفحم.

- علشان إيه؟

- علشان يبوش الحمص وينتفخ وبكده تتفكك العضام اللّي بتحفظ المخ.. وهادا اللّي سمعناه من عمي... قال إنهم لما كانوا في مدرسة الطب في اسطنبول كانوا يفكّكوا الجماجم بهادي الطريقة... لكن اللّي حصل كان مصيبة.

- مصيبة؟

- أيوه... أمّي بشرى جات تاخد فحم من الكيس التقت الجمجمة فاتحة فمها في وجهها صرخت وارتمت على الأرض... وجاءت أمي... وصرخت كمان... وسمعت أنا الصراخ... نزلت أجري.. ورفعت الجمجمة عن كيس الفحم... وخرجت من الحنية أجري... خايف من العلقة.

- وأيش اللّي حصل في الجمجمة مع الحمص.

- اتفككت عن بعض.. وعرفت ربنا مركبها بالطريقة اللّي يسموها عاشق ومعشوق.. يعني زيْ أصابع اليد لما تشبكها مع بعض.

هنا رفع عبدالحميد صوته ينادي الجمّال... واستغربت... ما الذي يريده ونحن في أحشاء هذا الليل المظلم... وجاء الجمّال... ليقول له عبدالحميد:

- أنا ما ابغا أركب مع عزيز...

- ليه..؟؟

- هادا مخاوي الجن والعفاريت..

- جن وعفاريت؟.. شفتهم معاه؟

- لا... لكن أنا ما أقدر أركب مع واحد طول عمره مع الأموات... ومع جماجم كمان.

وضحك الجمّال، وهو يقول:

- لا تخاف... خليك في محلك... بعد شوية نوصل بحرة وتشوف إخوانك وخلق الله... ولا عاد تخاف من شي.

***

عندما وصلنا بحرة والوقت يقترب من الفجر...وفيها عدد من المقاهي الآهلة بالنزلاء من الحجاج العائدين إلى بلادهم وبالأهالي من سكان جدة ومكة... إنتعشت نفوسنا وأخذنا مجلسنا في الكراسي الشريط... وكان المقهى يجهّز وجبات سريعة من الفول أو الأرز البخاري فطلبنا من الأكل ما عوّضنا الجوع بعد وجبة الكباب التي تكرّم بها مأمور الإدارة في مستشفى جدة قبل سفرنا...

قضينا النهار إلى العصر في بحرة... ولاحظت أن عبدالحميد كان يحكي حكاية الجمجمة للآخرين... وما أكثر ما سمعتهم يردّدون:

- العياذ بالله... هادا ما يخاف الله يفصل جمجمة الميت... ويفككها كمان؟ هادا لو ما كان صغير السن، كان ربنا يدخلوا النار.

وهنا تدخّل فهمي الحشاني:

- هادا هوّه اللّي رايح يسبقنا كلنا في مدرسة الطب.. علشان فاهم من عمه أشياء كتيرة، نحن ما نعرفها ولا سمعنا عنها.

وقبيل أذان العصر، تأهّبنا للرحيل إلى مكة المكرمة وفي أذهاننا ذلك الحلم الذي عشناه خلال هذه الرحلة الطويلة على الجِمال في الشقادِف، ثم في البحر على السفينة أم الخير، إلى جدة، ومنها ها نحن من بحرة إلى مكة... إلى بيت الله الحرام، وفيها مدرسة الطب التي نحلم أن نتخرّج منها دكاترة.

أخيراً مع الفجر دخلنا مكة عبر الباب الكبير في جرول... والجميع يردّدون (لبيّك اللهم لبيّك)... وقال لنا الجمّال وهو يلفت نظرنا إلى المعالم التي نراها:

- هادي القشلة... وأنا أعرف كيف أوصل (أجياد)... لكن ما أعرف فين اللّي قالوا إنها اسمها (الصحة).

وأجاب محمد شريف:

- إذا وصلنا أجياد، لا بد نلقى اللّي يدلّنا على (الصحة) وهيّة اللّي فيها المدرسة.

وظلّ الجمّال يذكر لنا ما نمرّ به في الطريق إلى أجياد إلى أن وصلنا منطقة فيها،

ما عرفنا أنه يسمى (البازان) حيث يقوم السُّقاة، بالصفيحتين على الكتف، أو بالقربة الكبيرة من الجلد على الظهر، بنقل المياه إلى البيوت... وهنا لم نحتج إلى من يدلّنا على الصحة التي لا يعرف الجمّال موقعها... فقد رأينا المبنى الكبير وعلى بوابته الواسعة لافتة قرأنا فيها (مديرية الصحة العامة والإسعاف..).

وهتف بعضنا:

- خلاص... وصلنا مدرسة الطب.

وللمرة الثانية قال فهمي الحشاني بنبرة خفيفة كأنه يحدث نفسه:

- ما قالوا إنها مدرسة الطب قالوا إنها مدرسة الصحة.

لم يخطر لأحد أن يتساءل عن الفرق بين الاثنين.

***

لم يطل إنتظارنا لنواجه الحقيقة المذهلة، فقد استقبلنا شاب سوري اسمه (تيسير أفندي) وأرشدنا إلى غرف النوم... حيث رأينا في كل غرفة ثلاثة أو أربعة أسرّة من الحديد عليها مراتب بيضاء نظيفة، وخزانة خشب عريضة حشدنا فيها أشياءنا بعد أن بسطنا عليها اللحف والمخدات التي جئنا بها من المدينة.. وعند الظهر تقريباً جاءنا (تيسير أفندي) وقادنا إلى المدير العام عبر حديقة فيها بعض الأشجار وبركة صغيرة جداً في الوسط والأرض خضراء بالنجيل.

في مكتبه الفخم رأيناه... وهو رجل تجاوز الخمسين من العمر أبيض اللون أشقر الشعر.. طويل القامة.. لم نجد على وجهه أثراً لابتسامة أو ارتياح... لاحظنا ونحن أمامه أن معنا آخرين من الشباب سرعان ما علمنا أنهم أيضاً طلاب في المدرسة مثلنا ومن أبناء مكة..

لم يقل المدير العام وهو واقف ينظر إلينا ويتأمل وجوهنا بعينيه الزرقاوين وراء نظارة ذهبية الإطار وملامحه الصارمة، لم يقل إلاّ كلمتين هما:

- التمريض مهنة شريفة.. والمجتهد منكم سوف تكون له وظيفة (ممرض ممتاز).. ثم التفت إلى تيسير أفندي، وقال له:

- خذهم إلى الدكتور خيري بك... ليعرفهم ويعرفوا هم أيضاً أنه مدير المدرسة.

التمريض وليس الطبّ، والنوم في القبّان

هكذا تبخّرت الأحلام التي ظلت تتصاعد في أذهاننا منذ سمعنا عن المدرسة في المدينة إلى هذه اللحظة التي كشف لنا فيها المدير العام أن التمريض مهنة شريفة وأن المجتهد سوف تكون له وظيفة (ممرّض ممتاز)... فهي مدرسة تمريض... لا أكثر.. لا أكثر إطلاقاً..

عند خروجنا من مكتب هذا الرجل، أحسست بأني أختنق وأكاد أجهش باكياً، أدركت لأول مرة أن الأمل العريض الذي توهّمت أني سأحققه في المدرسة التي توهّمنا أنها مدرسة الطب، قد تهشّم وتناثر، وضاع... وأن كل ما سوف أصل إليه هو أن أصبح ممرضاً... لم أكن أجهل معنى كلمة (ممرض) إذ رأيت في مستشفى المدينة رجالاً يقومون بخدمات لا تختلف عن أعمال الخدم... وكل ما يتميّزون به هو أنهم يضعون على رؤوسهم طواقي بيضاً، بل رأيت أحدهم ذات مرة وهو يحمل (قصرية فضلات تفوح منها رائحة).

مشينا مع تيسير أفندي إلى مبنى آخر عند المدخل حيث وقفنا ومعنا أبناء مكة.. أمام الدكتور خيري بك وهو كما قال المدير العام... مدير المدرسة.. كان رجلاً قصير القامة بشكل ملحوظ أشيب الشعر خفيض الصوت عندما يتكلّم... وقد نهض عن مكنة أو جهاز كان ينقر عليه بإصبعه لم يسبق أن رأيت مثله قط، وكانت على المكتب مجموعة من الكتب الضخمة.. نهض ورحّب بنا بوجه بشوش... وصافحنا بحرارة ثم إنتقل بنا إلى منضدة كبيرة عليها مجموعة كتب.. أخذ يعطي كل واحد منا كتابين وقلم رصاص وهو يقول:

- حاولوا أن تقرأوا أي كتاب من الكتابين... وأشّروا بالقلم على الكلام الذي لا تفهمونه... وفي الفصل غداً صباحاً أشرح لكم الموضوع إن شاء الله.

ثم وجّه الكلام إلى تيسير أفندي حيث قال:

- وزِّعهم على (قواويش المرضى)، وكل منهم يجب أن يعرف أنه سوف يكون المسؤول عن المرضى في هادا القاووش بعد جُمعتين (يقصد أسبوعين).

غادرنا مكتبه، وفي نفسي أن أعرف ذلك الجهاز الذي ينقر عليه بأصابعه، ولكن شغلت بمخاوفي من (القاووش) الذي سوف أكون مسؤولاً عنه، وبالمأساة التي أصبحت أرى في خيالي كل ما يتجمّع فيها من حقارة وذلّ، وجال في نفسي أني قد عشت تلك الطفولة البائسة فعلاً بكل فجائعها، ولكن الجوع والحرب لم يكن فيهما الذل والهوان... لم يحدث قط أني قمت بعمل خادم... يحمل قصرية الفضلات مثل ذلك الممرض الذي رأيته في مستشفى المدينة... واضح أن هذا القاووش سيكون فيه عدد من المرضى الذين يجب علينا خدمتهم... ترى ما هو الواجب الذي سوف أقوم به لخدمتهم؟

مشينا خلف تيسير أفندي، الذي توقف أمام غرفة دخلها وخرج منها مع رجل سوري الملامح، علمنا أنه رئيس الممرضين ومع هذين، قمنا بهذه الجولة التي عرف فيها كل منا (القاووش) الذي سوف يكون مسؤولاً عنه... وقد إنتهت بأن دخلنا غرفة رئيس الممرضين هذا الذي سلّم كل واحد منا (ورقة مطبوعة عليها أسماء الأسبوع) أو أرقام... وهو يقول:

- هذه اسمها (طَبَلة) (بالباء المفتوحة)... تعلّق على كل سرير، وهي التي لا بد أن يراها الدكتور كل صباح... وأنتم تقيّدون فيها (درجة الحرارة وعدد دقّات النبض...). مدّ ذراعه وطلب من أحد طلاب مكة أن يضع يده على الرسغ وسأل: هل تحس بالنبض؟ هذا هو الدليل على حركة القلب..

ثم توقف عن الكلام لحظات قال بعدها:

- هذه معلومات قليلة تعطيكم فكرة عن عملكم مع المرضى... أتمنى لكم التوفيق والنجاح...

أعدنا إليه الأوراق المطبوعة، وخرجنا لنقضي أول أيامنا في مدرسة الطب، التي أصبحت الآن مجرد (مدرسة تمريض)...

***

كما سبق أن قلت إني كنت في غرفة ذات ثلاثة أسرّة ومعي فيها فهمي الحشاني،

ومحمد شريف، ولاحظ فهمي أني غاضب أو متألم وحزين ولم يكن يجهل الأسباب... لأنه هو ومحمد شريف أيضاً لم يكونا يتصوران أن النهاية هي هذه المدرسة... والتفت فهمي إليّ وهو على سريره ليقول:

- ستكتب لهم في المدينة طبعاً.

- سأكتب لهم أنهم لم يكونوا يجهلون أنها مدرسة تمريض... فكيف هان عليهم... وعلى أمّي بالذات أن أعمل ممرضاً... خادماً للمرضى؟

يظهر أنها رأت أني أصبحت ثقيلاً عليها وعلى عمّي... ثم عندها الآن بنتها وابنها... تستغني بهما عني.

- لا يا عزيز... إنت غلطان... همّ اللّي في ذهنهم إنت خلاص أصبحت رجّال... وكل رجال لازم يشتغل عشان يعيش... يعيش هوّه وعياله بعد ما يتجوز..

- بس يمكن إتعلم أي صنعة... يمكن إرجع المدرسة الراقية اللّي سمعت فتحوها وآخد الشهادة وأتوظف في وظيفة أحسن من وظيفة (ممرض ممتاز) اللّي بشّرنا المدير العام بها إذا اجتهدنا ونجحنا.

لم يطل سكننا في غرف هذا الطابق السفلي في مبنى الإدارة... كانت الغرف ضيّقة والأسرّة تكاد تكون متلاصقة... وكان من زملائنا الذين التحقوا بالمدرسة من أبناء مكة، زميل لا يكبرني كثيراً، أو ربما كان في سني، اسمه (عبدالله منديلي) وقد فهمنا أنه (شريف) وأن عائلته من العوائل المعروفة بمكة... زارنا هذا الزميل في غرفتنا.. ورأى أنها كالعلبة وأن بعض حوائجنا ملقاة على الأرض أو فوق الأسرّة، لأن الدواليب الخشب الموجودة صغيرة... وضحك وهو يقول:

- هادي كأنها حبس ما فيها غير هادا (المِنْور)... غرفتنا مع محمد نور آشي وحسن حامد أوسع وفيها شبابيك على الشارع...

ووجدتني أسالُه:

- إنتو ابناء مكة؟..

- أيوه نحن أبناء مكة، وإنتو أبناء المدينة وبس إنتو فين اتعلّمتوا... في المدارس ولاّ في الكتاتيب زيّنا؟

- ليه إنتو ما عندكم مدارس زي المدرسة الراقية في المدينة؟

- فيه، مدرسة كان اسمها الرُّشدية... لكن أهلي ما دخلوني فيها... عشان كلنا عارفين إنو اللّي يدخلوها لازم يسيروا عساكر السلطان.

- وتعلمت إنت في الكتّاب؟

- في الكتّاب وفي الحرم على المشايخ الكبار... وأما الخط والإملاء، فأنا تعلمت حسن الخط من الخطاط (أديب أفندي) وخطاط تركي في باب زيادة.

لكن ما الذي يجعلك تنام معنا؟ وأنت من أبناء مكة، ولك بيت فيها.

- هادا شرط القبول في هادي المدرسة، كل تلميذ يجب أن ينام فيها، يسمّوها مدرسة داخلية.

بينما كنا في هذا الحوار عن غرفتنا الضيقة وغرفته الواسعة مع محمد نور آشي وحسن حامد، وأن فيها شبابيك تطل على الشارع، دخل علينا تيسير أفندي وفي وجهه تعبير عن الجدية والاهتمام ليقول:

- جهّزوا أنفسكم للإنتقال من هنا...

- إلى أين؟

- إلى القبّان.

لم نكن قد سمعنا بهذا المكان الذي قال إنه القبّان، ومعلوماتي المحدودة، تقول إن القبّان هو نوع من الموازين توزن به الأشياء الثقيلة، فدار بذهني أنهم قرّروا، أن يقوموا (بوزننا) ربما لأسباب علمها عند الله، ربما لعلّهم يريدون أن نتعلم طريقة الوزن بهذا القبّان، لنقوم بوزن ما قد يستوردونه من السلع الثقيلة، وفي اللحظة نفسها تذكّرت أن لقب مدير مدرستنا هو (القبّاني) مما يذكّر بأن أباه أو جدّه كان يقوم بأعمال الوزن بالقبّان للبضائع والسلع في دمشق... وقلت في نفسي:

- سبحان الله كان أبوه وجدّه هكذا، وأصبح هو دكتوراً ومديراً لمدرسة الصحة.

وبدا أن زميلنا (المنديلي) كان لا يزال جالساً في مكانه، قد لاحظ أني مشغول الذهن بحكاية القبّان الذي نجهّز أنفسنا للإنتقال إليه، فرفع صوته مازحاً يقول:

- إيه؟... فين إنت سارح... أيش اللّي بتفكر فيه؟

وتنبّهت فقلت:

- أنا بفكر في هادا اللّي قال تيسير أفندي إننا سننتقل إليه... هوّه إيه؟ وكمان مستغرب أيش اللي يخلينا كلنا ننتقل إليه؟

- إنت أيش تظن هادا القبّان؟

- إنت لا بد تعرف إنّو ميزان البضايع الثقيلة.

ضحك عبدالله، بل استغرق في الضحك، بينما دخل علينا في هذه اللحظة فهمي ومحمد شريف اللذان أصبحا يستأذنان ويخرجان معاً وقد لا نراهما إلاّ قبيل الغروب... ووقف فهمي يسألنا:

- عسى خير؟ هادا بيضحك على إيه؟

- عليّ أنا علشان أنا اللّي عارفه هوّه إن القبّان هو الميزان، وتيسير أفندي جانا وقال لازم نجهّز أنفسنا للإنتقال إليه... يا ترى رايحين يعلمونا كيف نشتغل على الميزان.

وعلى غير عادة فهمي الحشاني رأيت وجهه يتغيّر ويتساءل:

- تيسير أفندي بنفسه اللّي جا وقال ننتقل إلى القبّان؟

وتدخّل محمد شريف ليقول:

- يا تُرى أيش السبب؟ وفين هادا القبّان؟

وعاد المنديلي إلى الضحك ليقول:

- يا جماعة... القبّان مكان في المُدَّعى اسمه القبّان.. والكبار يقولوا إنه كان (دار أبو سفيان)... وفيه مسجد صغير كان أبو سفيان يصلّي فيه بعد ما أسلم.

وأخذت أضحك بدوري وأقول:

- فهمت.. فهمت.. أنا سمعت اليوم في الصباح إنهم رايحين يقوموا بأعمال ترميم في هادا القسم... اللّي أمر بيها خيري بك - يعني لازم يكون مكاننا هادا خالي من التلاميذ لعمال الترميم.

***

في صباح اليوم التالي كنّا قد جهّزنا أنفسنا للإنتقال إلى القبّان... أو كما قال المنديلي إلى (دار أبي سفيان)، وقبل أن نتناول فطورنا الذي نذهب لتناوله مجتمعين في عنبر من الخشب والورق المقوّى، عرفنا في ما بعد أنه صناعة ألمانية - منذ عهد الدولة العثمانية - كان الفطور في العادة: البيض المسلوق وقطعة وافرة من الجبن البلدي والزيتون والخبز الصامولي والشاي يقوم بملء أكوابه من البرّاد مع السكر من إناء يحمله وهو يحرص على أن يكون وافراً لا نحتاج إلى المزيد منه رجل سوري

أقرب إلى الشيخوخة... قبل أن نتناول هذا الفطور دخل علينا مأمور أو مساعد مأمور الإدارة، وهو السيد أحمد الدّباغ، ليقول:

- فين حوايجكم؟؟... هيا كل واحد يمشي ويحط حوايجه في العربة الواقفة قدّام الباب.

لم نتردّد أو نتمهّل في الحركة، إذ أخذ كل منّا يحمل اللفّة نفسها - وهي التي جئنا بها من المدينة - ووضعناها في عربة مكشوفة (كارُّو)... قام قائدها بتربيطها جيداً... وما كدنا نفرغ من ملاحظته حتى اقتعد مكانه للقيادة وانطلق.

قبل أن نتساءل: كيف؟ وما هو الطريق إلى القبّان، عاد السيد الدباغ إلى الظهور وهو يقول:

- بعد ما تفطروا... أنا اللّي أروح معاكم القبّان...

***

وجدنا القبّان الذي ندخله من بوابة واسعة بعد صعود عدد من السلالم الطويلة من الحجر الأسود بعرض البوابة الواسعة... ووجدناه مكاناً جميلاً في مواجهة الداخل المسجد الصغير الذي ذكره المنديلي، ثم وإلى يمين الممر الواسع أو ما يسمّى (الدهليز) حديقة وبركة ماء ممتلئة، ليست كبيرة، ولكنها تتناسب مع الفناء حولها. وفي الصدر من هذه الحديقة وعلى الجانبين أبواب فتح كلاً منها السيد أحمد ونحن نمشي خلفه. وهو يقول:

- هادي ثلاث قاعات.. وكل قاعة فيها الأسرّة بعددكم... وكل سرير زي ما إنتو شايفين عليه فراش نضيف وشرشف... يعني ما شاء الله آخر سلْطنة.

لاحظنا من جانبنا أن في القاعة الواسعة عدداً من الشبابيك تطل على الحديقة... يواجهها في أعلى الجدار عدد من (المناور المغلقة بدُرف من الزجاج، لكنها عالية لا بد لفتحها من سلّم).. ثم لفت نظرنا عدم وجود خزائن نضع فيها حوائجنا.. ولكن قبل أن نسأل السيد أين نضع هذه الحوائج والأشياء قال:

"فوق.. قبل ما تدخلوا السطح، تلتقوا غرفة فيها خزائن تحطوا فيها هادي الحوايج". ثم أخذ يتّجه نحو باب القاعة للانصراف! ولكنه توقّف ووضع كفّه أو إصبعه على صدغه وكأنّه يتذكر ثم قال:

- النوم في الليل في السطح عشان الدنيا صيف وحر - وفيه أسرّة بعددكم وكل

سرير عليه ناموسية... عشان الناموس هنا أكثر من (اجياد..) وعندكم أربعة خدم، همّ اللّي ينصبوا الناموسيات في الليل ويطبقوها في النهار، وهم كمان اللّي يملّوا الشراب بالماء النظيف من (بزبوز) الحنفية الكبيرة اللّي في البستان - يقصد الحديقة - وكمان يمكن ترسلوهم السوق... والمدّعى كلها زي ما شفتوها وزيها المسعى.. كلها سوق والدكاكين على الصفين مليانة من خيرات الله.

تقدّم منه فهمي الحشاني، وهو يقول:

- الدوام في المدرسة في مبنى المديرية؟

- وهيه دي مسألة يبغالها سؤال؟ كل واحد فيكم لازم يكون في الفصل في الصباح يعني بعد صلاة الصبح تبدأوا تجهّزوا أنفسكم وتيجوا المدرسة عشان تفطروا زي العادة، وبعد الفطور تكونوا في الفصل.

***

بعد انصراف السيد الدبّاغ ومع اقتراب المساء أخذنا نتجوّل في القاعات الثلاث ثم في الحديقة، استوقفتنا البركة التي لم نكن ندري كيف تمتلئ بالماء. لا شك أنه ماءٍ يتجدّد ونظيف إذ لم نر على سطحه ما يسمّى (الخوبان) ولعلّه ما يسمّى بالفصحى (الطّحلب)... وجاء المنديلي وفي يده عصا طويلة، وأدركنا أنه يريد أن يعرف بها عمق هذه البركة عندما أدخلها في الماء ثم أخرجها وابتسم وهو يقول:

"يمكن نتروّش فيها كلّنا هادي البركة؟.. ونوقف على أرضها وما نغرق". وانتبه الآشي وفي نظراته دهشة واستغراب ثم قال:

- يعني ناوي تتروش فيها؟

- بس أخاف من السيد الدبّاغ لو قال لواحد يروح يبلّغ المدير أو تيسير أفندي.

ارتفع صوت محمد شريف الذي كان يقف في الحافّة المقابلة من البركة يقول:

- أنا اللّي يبلغ السيّد، وغير السيّد... ترى خليك عاقل... وتحمد الله على أننا بنشوف هادي البركة وهادي الأزهار والأشجار.

التزم المنديلي الصمت، ثم انسحب والعصا في يده، في اتجاه باب المدخل أو هو المخرج فمشيت معه. وخرجنا إلى الدهليز الفسيح، وفيه باب ذلك المسجد الصغير المغلق، ثم باب آخر رأينا عبر قضبانه، التي كانت من الحديد المدهون بلون

أبيض، حديقة أخرى... بدت لنا أجمل من حديقتنا... ولكن لا سبيل إلى الدخول إليها لأن الباب محكم الإغلاق... فاقتربنا منه والتصقنا به لنستوفي رؤية ما وراءه... كانت الحديقة نظيفة، وأشجارها قصيرة، قال المنديلي إنها أشجار الليمون، وهناك أحواض منسّقة فيها مجموعة من النباتات المزهرة، عرفنا منها ما يسمّى (ورد الليل) و(تفاح الوَجَنْ) و(النرجس) ونبات متسلق على جذوع أشجار الليمون يعرف بأنه يسمّى (حبيب الصباح) لأنه يعطي أزهاراً تتفتح في الفجر.. ثم تذبل في الضحى... وأخذنا ندير نظراتنا بقدر ما يسمح التصاقنا بالباب، فرأينا بركة ماء بيضوية الاستدارة لا ترتفع عن الأرض أكثر من متر واحد تقريباً، وفي وسطها نافورة يتدفق منها الماء برفق وبطء... دار في ذهني أن اسأل ماذا في هذا المكان؟ ومن الذي يعمل فيه؟... ولعلّ ذلك قد دار في ذهن المنديلي أيضاً، ولكنه لم يتكلّم إذ ربما كان مبهوراً بما يرى.

تراجعنا عن الباب، لنفاجأ بمن يفتح باب المسجد ويخرج منه رجل هو كما فهمنا في ما بعد، البواب المكلّف بالباب الكبير الذي لا يفتحه إلاّ لمن يريد الدخول أو الخروج من الموظفين.

أقبلنا نريد دخول المسجد لنرى ما فيه، ولم يمانع البواب، ولكنه قال إنه مظلم، وعلينا أن ندخله في النهار وفهمنا منه، أنه نادراً ما صلّى فيه أحد، لأن الباب الكبير مغلق دائماً.. ثم إنه هو قد اعتاد أن ينام بعد الظهر... مع أنه خالٍ من أي نافذة ما عدا (مِنْورين مرتفعين بارتفاع مبنى القبّان).

بعد الغروب، وقد أخذ الظلام يزحف وينتشر في القبّان، رأينا ثلاثة من الخدم يدخلون من الباب وفي يد كل منهم (فانوس هندي) كبير وجديد، وقد أُشعلت فتيلته الكبيرة ليضيء مساحة واسعة، من الممشى إلى القاعات الثلاث. كما يضيء كل قاعة إلى الحد الذي يتيح لنا أن نرى ونعرف وجوه بعضنا، ولكنه لا يساعد على قراءة المواضيع، التي كان الدكتور خيري القباني، مدير المدرسة، قد نبّهنا إلى ضرورة قراءتها لنسمع منه في الفصل، شرحه لها.

لم نجد من نلجأ إليه لحل هذه العقدة، فاضطررنا إلى أن نقضي الوقت في الحديث والتعليق على هذا المكان... الذي لفّه الظلام، فلم نعد نرى شيئاً عبر النوافذ المطلّة على الحديقة.

مع أني نادراً ما خفت من الظلام أو أحسست بشيء من الرهبة أو الرعب، ولكن الظلام الذي افترس المكان والحديقة وأشجارها كان رهيباً، داخلني معه شي من الخوف وإحساس بالترقّب كأن شيئاً مجهولاً يمكن أن يفاجئنا في أي لحظة بما لا يعلمه إلاّ الله...

ثم كانت هناك مشكلة حاجتنا للعشاء... حين كنا في مهاجعنا في مبنى مديرية الصحة، كان المعتاد أن نجتمع في قاعة ذلك المطعم حيث يقدم لنا الرجل الطيب العشاء الذي يختاره لنا، وهو في الغالب الألوان نفسها التي يقدمها في وجبة الغداء، أما هنا فإننا لا نجد حتى هذه الساعة من المساء ما يدلّ على أننا سنجد فيه شيئاً نتعشى به، وأخذنا نتحدث عن هذه المشكلة، ونتبادل النكات والضحكات، ونتساءل: ترى هل قرّرت إدارة المدرسة أن (لا عشاء) ما دمنا في القبّان؟

لكن قبيل سماعنا أذان العشاء يرتفع من مآذن الحرم الشريف، رأينا السيد أحمد الدبّاغ وخلفه اثنان يحملان العشاء الذي لا أخفي أننا فضّلناه على وجبة العشاء التي تقدّم لنا عادة في العنبر أو المطعم في أجياد.

كان السيد أحمد رجلاً أحسسنا أنه يحنو علينا ويحاول جهده أن يخفّف عنّا ما شعرنا به من الوحشة في مقامنا في القبّان... كان العشاء مكوّناً من الفول الغارق في السمن البلدي، والمطبّق بنوعيه المالح المتخم بالبيض ومفروم اللحم، والحلو المحشو بالموز وربما القشطة والجبن الزقزق، والأنواع التي لم نذقها منذ قدومنا إلاّ في هذه الليلة من مقامنا في القبّان برعاية ذلك الرجل الكريم، وهي رعاية تختلف تماماً عن رعاية مجموعة المسؤولين في مديرية الصحة، وكلهم من سوريا... ولعلّها المرة الأولى التي جال في نفسي إحساس بالمواطنة لم يسبق أن أحسست به من قبل.. إحساس ترسّخ في ضميري حتى اليوم... مضمونه أن المواطن (ابن بلدي) هو الذي تربطني به أو تربطه بي علاقة، قد لا تكون الحب أو الود، ولكنها مع ذلك، علاقة مقرّرة كامنة في أعماق النفس، ومن هنا ربما كانت هي العلاقة الوحيدة التي تستغني تماماً عن مشاعر الحب في مفهومه الشائع المألوف والمعروف.

في الحب لا بد من باعث هو في الغالب التعلّق بالجمال وما يدخل في معناه من الرقة، والوداعة، واللطف، وحلاوة المعشر، إلخ... والحب بهذا المفهوم، أو هذا المعنى، محكوم بالضعف والضمور، ثم الزوال.. بغض النظر عن رومانسية قصص

الحب التي ملأت رحاب الدنيا كلها، فلا مجال للشك في أن لها نهاية ما، وهذا ما تتميّز به علاقة المواطنة... إذ يستحيل أن يطرأ عليها هذا الضعف أو الضمور... وهي مشاعر لا تنحصر في إنسان بعينه... أغرب وأعظم ما في خصائصها أن لها المقدرة على أن تحتوي الجميع... تحتوي من تربطك به علاقة معرفة، ومن لم يسبق أن رأيته قط... قد تكون مرتحلاً في بلد ما فتسمع وأنت تتسوّق أو تتنزّه أو تقف في إنتظار الحافلة التي تنتقل بها.. تسمع من يتحدث إلى آخر.. وتدرك على الفور أنه من مواطنيك، فإذا بك تمد يدك إليه، تصافحه وترحّب به... ليرحِّب هو أيضاً بك.. وكل منهما لم يسبق له أن رأى الآخر قط... إنها المواطنة... مشاعرها التي تنطلق من مكمنها في النفس لا ترتبط بمكان أو زمان، وهي أشبه شي بالغريزة التي تحكم التصرّف متجاوزة حدود العقل والمنطق والإرادة.

***

قادنا السيد أحمد إلى السطح، حيث وجد كل منّا سريره وقد نصبت فوقه الناموسية.. وما كدنا نستقر حتى أخذ النعاس يداعب أجفاننا، فلا نملك إلاّ أن نستسلم للنوم، ولكن لا أذكر كم مضى من الوقت حين أرغمنا على أن نصحو ونتوجّس أمراً لم يكن في الحسبان.

كانت هناك أصوات أكثر من رجل تهدّد وتتوعّد مع شحنة من الشتائم السوقية القذرة تتردّد عند كل صيحة تهديد ووعيد.

كان واضحاً أن هذه الأصوات تصدر من فتحات مقامة في السطح مرتفعة عن مستواه كالمداخن التي تقام عادة للمطابخ الكبيرة أو المدافئ في المدن التي تحتاج إلى التدفئة في أيام الشتاء.. وهذا يعني أن هذه الأصوات التي نسمعها تصدر من رجال يعيشون في غرف أو زنزانات تحتاج إلى هذه الفتحات... كثيرون من الزملاء خرجوا عن الناموسيات وجلسوا على حافة الأسرّة يتهامسون في البداية، ثم يتحدّثون متسائلين عن هذه الأصوات، وقد ذهب بعضهم إلى أنها أصوات (للجِنّ) الذين لا بد أن يكونوا قد وجدوا في دار أبي سفيان القديمة العريقة خير مكان يعيشون فيه، كما وجدت الإدارة في مدرسة الصحة أنها المكان الذي يمكن أن يعيش فيه التلاميذ إلى أن تتم عمليات الترميم في القسم الذي كنا نسكنه في مبنى (مديرية الصحة العامة والإسعاف).

***

العمل في قاووش المرضى..
وهدية الأمير فيصل

لم تطل إقامتنا في القبّان... أو في دار أبي سفيان فقد بشّرنا أحمد الدبّاغ أننا سنعود صباح يوم الجمعة إلى أجياد... كما بشّرنا أيضاً بأننا سوف ننام على سطح مبنى القسم الذي فيه فصل المدرسة والصيدلية والعيادة، لأن (الدنيا حر!) وأصبح من المستحيل أن ننام في الغرف التي شملها الترميم.

وقال وهو يضحك: لم يبق في هذه الغرف والدواليب مجال للصراصير والفئران التي كان يشكو ويخاف منها محمد سعيد وحسن حامد.

ضحك السيد أحمد واستغرق في الضحك عندما تحدث إلى أحدنا عن أصوات (الجن) التي تصرخ وتشتم وتهدّد، ثم قال إنها أصوات المصابين بأمراض عقلية محجوزين هناك:

– في الحقيقة دار (أبو سفيان) قديمة جداً... سمعت إنو واحد من سلاطين الدولة العثمانية هوّه اللّي أمر ببناء هذا المكان عشان يحفظ موقع دار أبو سفيان اللّي كان يصلّي فيه بعد إسلامه... ولا بد إنكم درستوا في السيرة النبوية الشريفة إنّو سيدنا رسول الله ﷺ – يوم فتح مكة قال (من دخل دار أبي سفيان كان آمناً).

***

في صباح يوم الجمعة إنتقلنا إلى غرف النوم في مبنى مديرية الصحة العامة والإسعاف.. كانت فعلاً نظيفة ولا أدري كيف تمّت توسعة غرفتنا التي كانت أكثر شبهاً بزنزانة منها بغرفة نوم ولثلاثة أشخاص... لم نوفق في اقتناص غرفة غيرها، لأن كل مجموعة من الزملاء حرصت على الاحتفاظ بالغرفة نفسها التي كانت تشغلها قبل الإنتقال إلى دار أبي سفيان أو إلى (القبّان) وهو الاسم الذي أصبحت تعرف به الدار الآن.

***

شملت عملية الترميم غرفة الفصل الذي نتلقّى فيه الدروس، إذ تمّ نظّف جدرانها، وأُعيد طلاؤها، كما تمّ تزويدها بسبورة تملأ مساحة واسعة من الجدار، الذي يواجه المقاعد الجديدة التي كان لها تأثيرها على مشاعرنا إذ أحسسنا بأننا فعلاً في مدرسة. ولم يعد يهمّنا أن تكون مدرسة طب أو مدرسة (تمريض).. وقد زاد من مشاعرنا بالارتياح، أنهم قد حدّدوا عدد الحصص ومدة كل حصة، بحيث تبدأ الدراسة في الصباح الباكر... قبيل الساعة الثانية (بالتوقيت الغروبي) وتنتهي عند صلاة الظهر أو في الساعة السادسة بهذا التوقيت.

لفت نظري تعدّد المدرسين ومنهم مدرّس للغة العربية، إضافة إلى مدرّسين للتشريح والصحة العامة والأمراض المُعدية (الوبائية) وهي الجدري، والحصبة والديزانتي والكوليرا، ومنها على الخصوص السل الرئوي، وكان مدرّس هذه الأمراض طبيب، ربما كان متخصّصاً فيها... ضايقنا منذ البداية بعبوسه وتعبير الاشمئزاز والتعالي على الغير، هذا مع انخفاض صوته، وغضبه إذا ما خطر لأحدنا أن يرفع إصبعه ليقول: (إنه لم يسمع ما يقال). فسرعان ما يطلب منه الوقوف ووجهه إلى الجدار لفترة لا تقلّ عن معظم وقت الحصة، أو الخروج من الفصل نهائياً مع الإنذار بالطرد من المدرسة أيضاً.

***

مع مرور الأيام، لم نعد نشعر بأثر تلك الصدمة العنيفة التي فوجئنا بها ونحن نكتشف أننا في مدرسة للتمريض وليس مدرسة للطب... ومن جانبي شخصياً عنيتُ بفكرة التفوّق في الدراسة، حتى ولو كانت دروس تمريض، والحافز الذي حرصت على كتمانه على جميع الزملاء، هو أن هذه الدروس يحتمل أن تفيدني عندما ألتحق بمدرسة أو كلية للطب في يوم ما، وربما كان للدكتور خيري القباني الفضل في هذه الفكرة، يوم اقترح أن أستفيد من وقت الفراغ - بعد الظهر - بالمواظبة على القيام ببعض الأعمال في مكتبه... وقد لفت نظري أن اقتراحه قد جاء بعد مراجعته لما دوّنته في كرّاس المادة التي يدرّسها لنا وهي (التشريح)... سألني بعد هذه المراجعة عن المدرسة التي تخرّجتُ منها... وهل كان من دروسها (حسن الخط) و(الإملاء) مما جعلني أدرك أنه معجب بالخط والإملاء في ما دوّنت.

بطبيعة الحال، فرحت بإعجابه وإن كان لم يقل شيئاً أكثر من ذلك السؤال.. لم

أتردّد في الصعود إليه في مكتبه ويومياً بعد الظهر بل حتى في الليل أحياناً وعلى الخصوص بعد أن رأيت أنه قام بنفسه بتشغيل محرِّك لتوليد الكهرباء استوردته مديرية الصحة ولكنها لم تجد من يعرف تشغيله.. فتركته في صناديقه، ولذلك اكتفت بالإضاءة الضعيفة التي يستمدها المستشفى من كهرباء الحرم الشريف. وقد كانت المنشآت التي أقامتها الدولة العثمانية في مكة المكرمة، ومنها إلى جانب الكهرباء المطبعة التي أصبحت تسمّى مطبعة أم القرى، لأنها تطبع الجريدة التي أصبحت تسمى بهذا الاسم، بعد أن كانت تطبع جريدة (القبلة) في عهد الشريف حسين، ولا أدري إن كانت تطبع أي جريدة في عهد الأتراك، ولكن لا شك في أنها كانت وما زالت تطبع السجلات والأوراق التي تتعامل بها الدوائر الحكومية.. وكان مما يلفت النظر تجاور هذه المنشآت التي ربما كان يهيمن عليها كلها ذلك المبنى الضخم الذي ظل يحمل اسم (الحميدية)، وقد أصبح الدور الأرضي منه مقراً للشرطة، وفي غرفة من هذا الدور مقرّ المحكمة المستعجلة، بينما كان في الدور العلوي وزارة الخارجية ثم المجلس الكبير الذي كان الملك عبدالعزيز يستقبل فيه أفواج الذين يتوافدون لمقابلته وعرض شكواهم عليه من الأهالي، ومشايخ القبائل. وفي الجانبين من هذا المجلس ممرات فيها غرف مختلف المصالح الحكومية... بعبارة أخرى، كان مبنى الحميدية هذا هو المجمّع الذي يضم المصالح الحكومية كلها... ويهيمن في الوقت نفسه على المطبعة وكهرباء الحرم، ومباني مديرية الصحة والإسعاف وفيه مدرستنا التي ظلّت تسمّى مدرسة الصحة وهو الاسم الذي أعلنوا عنه منذ البداية، وفهمنا أنها مدرسة للطب، لنكتشف أنها مدرسة للتمريض وكل ذلك إلى جانب ما يسمّى (بازان جياد) وهو الخزان الكبير لمياه زبيدة، الذي يتزاحم عنده السقاة ليتزوّدوا بحاجة السكان في محلة (أجياد) من هذه المياه... وهم سقاة (القِرَب) الكبيرة من الجلد تحمل على الظهر، وسقاة (الزفَة) وهم الذين يحمل الواحد منهم على الكتف صفيحتين معلقتين على عارضة من الخشب، ثم يمشي بها ليفرغها في خزان المنزل لقاء أجر لا يزيد على بضعة قروش من الريال. كلها منشآت قائمة منذ عهد الأتراك وقد قيل إنها أوقاف السلاطين لمصلحة الحرم الشريف وأهالي مكة المكرمة.

***

قد يحسن بي أن أعود إلى الدكتور خيري القبّاني الذي قلت إنه صاحب الفضل في ذلك الحافز على الاهتمام بالدراسة بغرض التفوّق، لأن هذه الدروس قد تفيدني

عندما ألتحق - يوماً ما - بكلية الطب في الخارج... كان بحمد الله هو الذي يقوم بكتابة جميع رسائل مديرية الصحة العامة على تلك الآلة التي ظننت في البداية أنها جهاز إرسال للتلغرافات، ثم رآني أقف إلى جانبه وفي ملامحي مشاعر الدهشة والاستغراب، فقال لي إنها (الآلة الكاتبة) التي تطبع كلمات الرسائل، وليس ما يمنع أن أتعلم منه الكتابة بواسطتها... وأجلسني أمامها على الكرسي الذي كان يرتفقه، وأخذ يشرح لي كيف أكتب... وبعد أن وجد أني قد فهمت وضع أمامي جريدة - وحدّد لي عموداً من الصفحة وهو يقول:

- أكتب هذا الكلام المكتوب في الجريدة عدة مرات إلى أن تتعب...

ثم جلس على أحد المقاعد، وهو يقول:

- اسمع يا ابني.. أنا أرى أنك ذكي، ونجيب، وتحب أن تتعلّم.. وما عليك إلاّ أن تجتهد وتتفوّق.. والدروس التي تتلقاها في المدرسة سوف تستفيد منها في يوم ما.. إذا وجدت فرصة للالتحاق بكلية الطب في دمشق أو مصر.. أنا يا ابني اليوم دكتور... لكن قد لا تصدق أني لم ألتحق بكلية الطب في اسطنبول إلاّ بعد أن درست في مدرسة الصحة في دمشق، وحملت شهادتها. أقصد يا ابني أن الدروس التي تتلقاها في مدرسة الصحة التي جئت مع زملائك من المدينة للدراسة فيها يمكن أن تساعدك في الالتحاق بكلية الطب في دمشق أو القاهرة أو غيرهما... في أيامنا كانت كلية اسطنبول هي الوحيدة... وكانت الدراسة فيها باللغة التركية. وحتى مدرسة الصحة في دمشق كانت الدراسة فيها باللغة التركية... بينما الدراسة عندكم باللغة العربية.. ويجوز أن يكون من الضروري أن تتعلّم اللغة الإنكليزية، المهم أن تجتهد في الدراسة لتحصل على الشهادة إذا كنت تتمنّى أن تكون دكتوراً...

انقضت بضعة أسابيع كنت أحرص خلالها على مذاكرة كل مادة من المواد التي نتلقاها في الفصل بدرجة جيدة جداً، بحيث اطمئن إلى أني أتفوّق على الزملاء، ثم أتابع التمرين على الآلة الكاتبة ليلاً، بهدف أن أصل إلى مستوى السرعة التي كنت أرى الدكتور خيري يكتب بها مذكرات رسمية وبحوثاً، أدركت أنه يترجمها عن لغة عرفت في ما بعد أنها اللغة الإنكليزية فازداد إعجابي بكفاءاته المتعدّدة والمتنوعة، فهو دكتور مرموق المكانة بدليل أنه مدير المدرسة، ومدرّس علم التشريح فيها وهو نائب أو مساعد مدير عام الصحة والإسعاف ويجيد اللغتين التركية والإنكليزية وربما

اللغة الفرنسية أيضاً. ثم لا أنسى أنه استطاع تشغيل محرك الكهرباء الذي لم يجدوا مهندساً يستطيع تشغيله فتركوه في صناديقه منذ استوردوه قبل سنتين، إلى أن شغّله الدكتور فتمّ بذلك الاستغناء عن الإضاءة الضعيفة التي كانت تأتي من كهرباء الحرم الشريف.. وكانت إضاءة هذا المحرك قوية وواسعة شملت مكاتب المدير العام، وغرفة نومنا في الطابق السفلي، وقاعات المرضى والممرات، ثم مكتب خيري بك نفسه... وأغرب ما لاحظته ولا أزال أذكره حتى اليوم، هو حرصه على تخفيف الضجة التي تصاحب المحرك عند تشغيله، فقد سمعته يتحدث عن الطريقة التي ابتكرها ثم يقول لمن سأله عن سبب ما عاناه من المتاعب لتنفيذ طريقته في تخفيف الضجة:

- هذا مستشفى فيه كثير من المرضى يحتاجون إلى الهدوء وفيه موظفون الذين يعملون في الليل ولا يستطيعون العمل إذا لم يكن الجو هادئاً... ولذلك فقد طلبت استيراد مراوح كهربائية لعنابر المرضى، ولغرف الموظفين، وأعتقد بأنها الآن قد شحنت من ألمانيا.

وحين تمر بذاكرتي اليوم صورة هذا الإنسان أجد نفسي أحمد الله سبحانه على توفيقه، بأن منحني رعاية هذا الإنسان في تلك السن وهي رعاية من حقه عليّ اليوم أن أذكرها بكثير من العرفان والامتنان، إذ أحسست بأنه يُعنى بتوجيهي عناية فيها مشاعر الأبوة وحنانها.. ولا أنسى كم كان إعجابه بي كبيراً عندما وجد أني أصبحت أكتب أكثر من خمس وثلاثين كلمة في الدقيقة، ولا أدري كيف أحصى عدد وزمن كتابة هذه الكلمات... فقد وضع يده على كتفي من موقفه خلفي وهو يردّد:

- أحسنت.. أحسنت.

ثم فاجأني في اليوم التالي عندما جلست للكتابة بعد الغروب، بهدية أعتز بها ولا أزل أذكرها، وهي قلم حبر أخضر اللون وهو يقول:

- هذا قلم (ووترمان) صنع ألمانيا، اشتريته عندما كنت في دمشق منذ سنتين أستعمله قليلاً فهو ليس جديداً ولكن لا يوجد مثله في أسواق مكة حتى الآن.

احتفظت بهذا القلم دهراً طويلاً... أغرسه في جيب المعطف متباهياً به ولا أستعمله إلاّ لكتابة الرسائل إلى عمّي وصديقي محمد نيازي رحمه الله.

***

كنا نتلقى الدروس في ذلك الفصل الذي لا بد أن نتواجد فيه في الساعة الثانية

(بالتوقيت الغروبي)، وكان مدرّس اللغة العربية رجلاً بديناً مهيب الطلعة يلتزم الكلام بالفصحى ليس فقط في الفصل، بل أيضا في ما يدور بينه وبين الآخرين من أحاديث عابرة... لم يكن يعتمد على كتاب مدرسي بل يرتجل الموضوع وعلينا أن ندوّن القواعد التي يشرحها بتوسُّع وإفاضة، كأنه يقرأ من كتاب مفتوح، كان إذا ذكر قاعدة من قواعد النحو أو الصرف يستشهد بأبيات من الشعر يطلب منا أن ندوّنها، وقد يطلب منا أن نقرأ هذه الأبيات، ويحتدّ إذا أخطأنا فينبّهنا إلى الخطأ ويستعيد سماع البيت مرات عدة، ولا يبخل بالثناء على من يحسن الإلقاء، ثم يستطرد للحديث عن الشاعر ومكانته بين الشعراء في عصره، ومن هنا يوالي استطراده ليتحدّث عن ازدهار الأدب وظهور الفحول من الشعراء... كان بعضنا يضيق وقد يقول بينه وبين نفسه - ما لنا نحن وهؤلاء الشعراء؟ وعلى الخصوص عندما ينتهي وقت الحصة وينسى أن حصة أخرى آتية بعد استراحة قصيرة تضيع علينا تماماً، وهو يتحدث ليفاجأ بدخول مدرّس الحصة الثانية، فيعتذر ليسرع بالخروج وهو يقول:

- لا تنسوا حفظ الأبيات غيباً، وسأسمعها منكم في الحصة القادمة إن شاء الله.

كانت أثقل الحصص علينا حصة ذلك الدكتور المتخصص في الأمراض المعدية... يدخل الفصل فنقف له كالمعتاد فيدور بنظراته في وجوهنا وطريقة وقوفنا، ويأمرنا بالجلوس، بينما يظل هو واقفاً ليبدأ شرح الموضوع الذي ربما كان قد بدأه في الحصة السابقة... وأذكر حتى اليوم أننا قد تعلمنا منه أن الأمراض المعدية تنتقل من المصاب بالمرض إلى الآخرين، بواسطة شي أو مخلوق اسمه (الميكروب)... وأن هذا الميكروب يتكاثر بسرعة هائلة، كما تعلّمنا أيضاً أن الذي اكتشف ميكروب مرض السل، عالم فرنسي اسمه (كوخ) وعلى ضوء اكتشافه أثبت علماء آخرون أن لكل مرض نوعاً من الميكروب فهناك ميكروب الكوليرا.. وميكروب الزحار أو الديزانتاري وميكروب الجدري، وحتى الزكام ينتشر بين الناس بواسطة ميكروب سريع الإنتشار، ولذلك يجب على المصاب بالزكام واسمه العلمي (انفلونزا) وقال وهو يبتسم:

- إن العرب يسمّون الانفلونزا (أنف العنزة).. يجب على المصاب أن يضع على أنفه منديلاً يحجز السوائل المخاطية عن الآخرين، كما يجب على الآخرين أن يبتعدوا عنه بقدر المستطاع... ثم يتّجه إلى السبورة ليرسم شكل بعض.الميكروبات وكيفية تكاثرها.. الواحد منها ينقسم إلى اثنين والاثنين سرعان ما يصبحان أربعة والأربعة

ثمانية وكل ذلك بسرعة هائلة بحيث لا تمضي دقائق معدودة حتى يصبح الجسم مشحوناً بالألوف أو حتى الملايين.

رغم أهمية المعلومات التي يفيض في شرحها الدكتور بعبوس، كنا نضيق به ونحسب الدقائق التي بقيت له من الحصة، فلا يكاد ينتهي ويخرج حتى نتسابق للخروج، أو للتعبير عن مشاعرنا نحوه بتعليقات نتفنن في ابتكارها... ولقد بلغ بنا الأمر، أننا ابتكرنا له أسماءً سخيفة لا ندري ماذا كان يمكن أن يفعل بنا لو سمعها... منها على سبيل المثال: (أبو رقعة) و(بارم ديله) و(العم شنطف)... وكان اسم (أبو رقعة) لأن قميصه الأبيض كانت به رقعة عند الكتف من الخلف لا ندري كيف لم يحاول التخلّص منها، أما (بارم ديله) فهو اسم لا علاقة له بشيء من المسمّى، سوى رغبتنا في السخرية منه، ويبقى (العم شنطف) وهو مقتبس من كلمات لعبة كنا نلهو بها في المدينة يردّدها المنتصر على زميله في اللعبة، ليقول: (عمك شنطف.. جاك ينظف.. أيش تدِّيله) ويجيبه الآخر (أديله مداس أو كورة) مثلاً وهي إجابة خاطئة وعندئذ يرّدد الجميع بصوت مرتفع وبنغمة خاصة مع التصفيق الحاد (عمك شنطف جاك ينظف أيش تدِّيله)...

واستقرّ (عمك شنطف) على ألسنتنا، نسميه به كلما دار الحديث عنه أو عن الميكروب، أو الجدري والكوليرا، وهي المعلومات التي اعترف اليوم بأنها كانت مفيدة وقد فتحت عيوننا على ضرورة الوقاية من مختلف العلل والأمراض.

لم يخطر ببال أحدٍ منّا أننا سنكلف بواجبات في عنابر المرضى... وربما كان ذلك ما ينبغي أن ندركه عندما علّمنا رئيس الممرضين كيف تؤخذ درجة حرارة المريض بميزان الحرارة، وكيف يحصى عدد نبضات القلب بلمس رسغ يد المريض... وكان الزميل فهمي الحشاني هو الذي أنذرنا بأنه قد (فهم الفولة!) إذ قال إننا سنقوم بأعمال في عنابر المرضى، وضحك وهو يقول:

- المهم ألا يكلفونا بنقل قصارى البراز من أسرة المرضى الذين يعجزون عن الذهاب إلى الحمّام.

كان إنذار الحشاني صاعقاً.. أخذنا نفكر كيف نرفض القيام بمثل هذه الواجبات القذرة، وزعم بعضنا أن كلمة (مدرسة) معناها الدراسة في الفصل والكتب وليس العمل في عنابر المرضى، لكن الأكبر سناً منا وهو محمد الشريف، قال:

- نحن في مدرسة للصحة أو التمريض (أو الطب) كما كنا نظن عند مجيئنا من المدينة... وكل المدارس فيها نظرية، يعني قراءة الكتب وحفظ ما فيها، وعملية، وهي التمرين العملي... لقد سمعت أنهم في كليات الطب يعلّمون (التشريح) مثلاً، على جثث الأموات... حتى ولو كانت متعفّنة..

وتدخّل فهمي الحشاني ليضيف قائلاً:

- فعلاً... في المستشفى الذي كنت أعمل فيه في المدينة، رأيت الأطباء في عهد الشريف، يشرّحون جثة ميت قتل بضربة (نبُّوت) والمطلوب من الشرطة معرفة هل الضربة هي السبب في الموت، أم أن القتيل كان مريضاً...

لا أخفي أني قد داخلني إحساس بالمهانة والذل لم يسبق قط أن عانيته حتى هذا اليوم الذي تأكدنا جميعاً فيه أننا سنبدأ في مرحلة الدراسة العملية في عنابر المرضى... ولا أدري كيف ولماذا اجتمعت في ذهني صور جميع الأمراض المعدية مع صورة الدكتور الذي قطعنا معه مرحلة طويلة في شرح المعلومات الدقيقة في الطريقة التي تنتشر بها، من شخص مصاب بها إلى آخر سليم، ثم العلاج الذي يخضع لكثير من عناية الأطباء والممرضين، ولنوع التغذية الذي يحتاج إليه المريض، بالإضافة إلى الجو في مختلف الفصول ومنه الهواء النقي والتعرّض للشمس والاستمرار في تناول العلاج...

زاد من مخاوفنا وإحساسنا بالهوان، أن (رئيس الممرضين) وهو رجل سوري تخطّى سن الشباب ولكنه يحتفظ بنشاط ملحوظ في مشيته وحركته وفي ملامحه ما يطمئن ويبعث مشاعر الارتياح، إذ لا تفارقه الابتسامة الخفيفة والنظرة الوادعة إذا ما تحدث مع أحدنا، أو مع زملائه من الموظفين، وهو الذي علّمنا كيف نستعمل ميزان درجة الحرارة، ونحسب عدد نبضات القلب بلمس رسغ يد المريض.

هذا الرجل استدعانا إلى غرفته، ورحّب بنا، حين دخلنا، ولكنه ظلّ واقفاً فوقفنا نحن أمامه إذ كانت الغرفة خالية من المقاعد أو الكراسي ما عدا الكرسي الصغير الملاصق لمكتبه المعدّ لجلوس شخص واحد فقط من الذين يراجعونه.. ولاحظنا على المكتب أمامه ورقة، لم يلبث أن القى عليها نظرة ثم قال:

- كل من أقرأ اسمه منكم يقف إلى اليسار...

وأشار بيده إلى مساحة محدودة في الغرفة إلى اليسار من موقفنا. وأخذ يقرأ

أسماءنا واحداً بعد الآخر، ولا أنسى تلك اللحظات التي كنت أنتظر أن أسمعه يقرأ أو يذكر اسمي ومعه رقم العنبر الذي سوف أكون المكلّف بالأعمال التي قال لنا إنها جانب من الدراسة العملية لعلم التمريض.

عصفت بذهني وحواسي مشاعر سخط واستنكار واستياء أعترف بأنها استهدفت أمّي وعمّي زوجها، إذ إن كلاً منهما قد هان عليه أن يتخلّص من وجودي معهما... وذلك بإدخالي هذه المدرسة بعيداً عنهما في مكة بعيداً عن المدينة... فلا سبيل إلى أن أراهما، أو إلى أن يشهدا ما أعانيه من إذلال وهوان في أعمال التمريض... وإذا كانت أمي لا تعرف شيئاً عن هذا التمريض فإن عمّي - زوجها - دكتور ويعرف كل شي عن هذا العمل السخيف الذي يهين الكرامة ويملأ النفس بمشاعر الذلّ والهوان.

سمعت الرجل يذكر اسمي... أعترف بأني ارتعدت وتملّكني شعور بالحسرة على الأيام التي انقضت من عمري، رغم كل ما عانيته مع أمّي من مآس وأحزان، بل وفجائع لازمتنا ولم تنته إلاّ بعد زواجها... كان منطقي في هذه اللحظة أنها كانت أياماً فيها بؤس وشقاء ولكن ليس فيها إذلال ومهانة - إذ لم أشعر خلالها بأني (خادم) -... ممرض - مجرد خادم للمرضى.

وأضاف الرجل أن العنبر (وكانوا يسمّونه القاووش) الذي سأكون المكلّف بالخدمة فيه هو العنبر الذي يشرف عليه الدكتور (...) وذكر اسم الدكتور الذي كنّا سميناه (أبو رقعة)... وكان وقع الاسم على سمعي صاعقاً... لم يكن هناك أي سبيل للرفض أو الاعتراض لأن جميع الذين ذُكرت أسماؤهم، والعنابر التي سوف يعملون فيها، والأطباء المسؤولون عن هذه العنابر.. جميعهم التزموا الصمت.

***

منذ صباح اليوم التالي بدأت العمل في العنبر المقرّر... كان فيه ما يقرب من ثلاثين سريراً وعلى كل سرير مريض شديد الهزال وبعضهم لا ينقطع عن السعال. وقد لاحظت ما هو معلّق على نهاية كل سرير وهو ورقة مطبوعة قرأت فيها اسم المريض وحقل لتدوين درجة الحرارة... وعدد النبض، إلخ... وحقول أخرى أدركت أنها من اختصاص الطبيب.. وعرفت في ما بعد أنهم يسمّون هذه الورقة (طَبَلَة) بفتح الطاء والباء... وقبل أن تمرّ دقائق، دخل العنبر شابٌّ فاحم السواد، بادي القوة والنشاط... وابتسم وهو يقول:

- صباح الخير...

ثم يضيف:

- يعني ما التقوا غيرك لخدمة هادا (القاووش)؟؟

واستأنست به وأخذت أسأله عن المرض الذي يعاني منه هؤلاء... فضاعت الابتسامة من وجهه وهو يقول:

- ربنا يحمينا ويكفينا الشر..

ثم وقف ليسألني عن اسمي ومن أي بلد جئت.. وقبل أن أجيبه قال:

- ربنا يحمينا ويكفينا الشر ويكتب الشفاء للمساكين اللّي شايفهم...

ثم سأل:

- يعني إنت ما تدري؟

قلت وأنا أكاد لا أملك القدرة على الوقوف من الرهبة التي ملأت قلبي ومشاعري:

- لا أنا ما أدري...

فقال:

- يا أفندي... هادا مرض (السل) وسمعتهم يسمّوه (السل الرئوي)... يعني والعياذ بالله (السل) اللّي ياكل (فِشّة) المريض... وإذا ربنا ما كتب له الشفا يموت..

سرعان ما برق في ذهني اسم العالم (كوخ) الذي قال الدكتور (أبو رقعة) إنه الذي اكتشف ميكروب السل... وإنه من الأمراض المعدية التي تنتقل في الهواء مع الأنفاس وعلى الخصوص إذا سعل المريض بالقرب من الإنسان السليم.

كنت أعلم بالطبع أن الدكتور (أبو رقعة) هو المسؤول عن المرضى في هذا العنبر بالذات لأنه المتخصص في الأمراض المعدية.

وما هي إلاّ دقائق حتى دخل الدكتور وقد تدلّى من عنقه جهاز الاستماع إلى نبض القلب وحركة التنفّس في الرئة. لم نسمع منه أية كلمة... إذ انطلق يمشي وهو ينظر إلى الأرض وجوانب الأسرّة.. وقد عرفت في ما بعد من (محمد الأسود) كما كان يُسمّى، أن الدكتور لا بد أن يتأكد من أن أرض العنبر قد غُسلت ثم مُسحت بمحلول (الأسيد فينيك)..

بعد أن قام بهذه الجولة التفت إليّ شخصياً وهو يسأل:

- هل أخذت درجة الحرارة؟

وتناول أقرب (طبَلة) من سرير أحد المرضى ورأى أنها خالية... فارتفع حاجبا وحملق في وجهي.. وهو يقول:

- مالذي قمت به منذ الصباح؟

قلت له بهدوء الخائف:

- هذا أول يوم بدأت فيه العمل.

- لكن رئيس الممرضين ألم يعلّمك ما يجب أن تقوم به... أين ميزان الحرارة؟

- علمني... وميزان الحرارة عندي... هذا هو.

وقد أخرجته وهو في محفظة معدنية كالأنبوبة.

ارتاحت أساريره إذ عاد حاجباه مسترخيين مكانهما... وهو يقول:

- لكن هل أعطاك رئيس الممرضين الكحول، أو الديتول الذي تطهّر به الميزان بعد استعماله؟

- رئيس الممرضين قال إن هذه الأنبوبة فيها المطهّر الذي يتغير بمعرفته كل يوم.

لأول مرة أرى في وجهه لمحة ابتسامة وهو يقول:

- إنت ولد طيّب وذكي... وأنا الذي طلبت أن تكون المسؤول معي عن هذا (القاووش)... وأضاف:

- إنت عارف أن جميع المرضى هنا مصابون بالسل الرئوي.. وقد عرفت من الدراسة في الفصل أن السل (الرئوي) على الخصوص مرض معد، ولذلك يجب عليك ألا تقترب من أي مريض (يسعل).

كان من أغرب نبض الذاكرة أن أعادت إلى ذهني أن خالتي خديجة كانت ضحية هذا المرض الخطير، واستغربت أني لم أصب به، رغم أني كنت في حضنها وكثيراً ما كنت أقبّلها قبل أن تموت رحمها الله.

ويبدو أن الدكتور قد تسامح معي اليوم فلم أسمع منه كلمة تأنيب... بل قام هو يأخذ درجة حرارة كل مريض واستمع إلى دقات قلبه وحركة تنفّسه، ولكنه لم يعف

أو يتسامح مع محمد الأسود إذ نبّهه بغلظة إلى ما لاحظه تحت أحد الأسرّة من مزقة (الخيشة) التي يمسح بها.

ثم خرج... لينظر كل منّا - أنا ومحمد - نحو الآخر ويتنفّس الصعداء.

***

عندما اجتمعنا إلى طعام الغداء، سمعت من الزملاء ملاحظاتهم على الأعمال التي قاموا بها في ذلك اليوم... وهو اليوم الأول، لما سمّوه (التدريب العملي) على التمريض، وارتفع صوت أحدهم يعلن أنه لا بد أن يترك هذه المدرسة ويعود إلى المدينة لأن جميع المرضى في العنبر الذي عمل فيه مصابون (بالإسهال) والمغص ورائحة العنبر لا تطاق. ثم أردف يقول:

- أنا لم أستطع أن اقوم على خدمة جدتي عندما كانت مصابة بهذا الإسهال، وتكلفني أمّي بالبقاء إلى جانبها لتقوم هي بأعمال المنزل.. هذا شي لا يطاق أبداً.

وعلّق آخرون بالنكات والضحك، وأضاف فهمي الحشاني:

- هادا هو عمل التمريض... جميع المستشفيات فيها هذه الحالات.. كان الأفضل أن تعرفوا هذه الحقائق من الأهل الذين توهّموا أنكم تذهبون لمدرسة الطب.

وارتفع صوت عبدالقادر أولياء يقول:

- والمصيبة حفظ هادي الدروس اللّي فيها كلام ما يمكن حفظه، وإنتو سمعتوا أن الامتحان خلاص يبدأ في أول الشهر... شهر شعبان... قبل رمضان..

***

قبل أن ننهض عن المائدة سمعت من يناديني باسمي: (عزيز) والتفت لأرى مراسل الدكتور خيري القباني يتقدم نحوي... ويقول:

- خيري بك يريد أن تكون عنده في المكتب بعد صلاة المغرب... ولا تتأخر...

سعدت بالطلب، مع أني كنت قد تعوّدت أن أكون عنده بعد الغروب ولكن التذكير من خيري بك بعدم التأخُّر، جعلني أتوقع أن يكلفني بكتابة مذكرات مهمّة ومستعجلة على الآلة الكاتبة التي أصبحت بارعاً في استعمالها إلى حدٍ جعله يثني عليّ ويؤكد أني سبقت حتى صهره (شفيق الإمام) الذي يعمل في مكتب المدير العام... كما كان يعجبه (خطي) وإملائي عندما أكتب ما يمليه عليّ بالقلم...

كان في إنتظاري عندما صعدت إليه في مكتبه... رأيت ذلك في نظرته وهو يقول:

- إسمع.. وإنتبه جيداً لما أقول... محمود بك (المدير العام) قرّر أن يدعو الأمير فيصل نائب الملك، لزيارة المستشفى...

من جانبي لم أدرك أي علاقة لي بهذه الزيارة... ولكن قبل أن أقول شيئاً أضاف:

- وأنا قرّرت أن نقيم مسابقة في الكتابة على الآلة الكاتبة... وهي بينك... وشفيق أفندي وكاتب سمعت أنه يعمل في الخارجية اسمه السيد عيدروس السقاف... المسابقة بينكم أنتم الثلاثة... وأنت قد لا تعلم أنه لا يوجد في مكة كتّاب آلة كاتبة غير السيد عيدروس في الخارجية وشفيق أفندي في مكتب محمود بك، وأنت عندي... والمطلوب منك أن تواظب على التمرين وعلى شرط من دون أي خطأ... إلى اليوم الذي يزورنا فيه الأمير فيصل...

- متى؟

- بعد أسبوع... اليوم الأحد، والزيارة سوف تكون يوم الاثنين من الأسبوع القادم.

ثم مدّ يده إلى مجموعة من الصحف العربية وضعها أمامي وهو يقول:

- أكتب من هذه الجرايد بقدر ما تستطيع... عن أي موضوع... وأنا أعتقد أنك سوف تكون من الفائزين...

واستدرك يقول:

- ولكن لاحظ أن الموضوع الذي تكون به المسابقة سيختاره محمود بك بنفسه، وهو الذي سوف يمليه عليكم... بحضور ومشاهدة الأمير فيصل.

لن أنسى حتى اليوم كيف التهبتُ حماسةلفكرة المسابقة، بحضور الأمير فيصل نفسه... وأمام المدير العام، وربما معه عدد كبير من المدعوّين.

فقد كنت أجلس إلى الآلة الكاتبة طوال الوقت الذي أفرغ فيه من الدراسة، والتدريب في عنبر مرضى السل الرئوي ثم الغداء والعشاء. ولا أغادر مكتب خيري بك إلاّ عندما يأمرني هو بالانصراف في وقت متأخر من الليل..

لاحظ الزملاء غيابي في مكتب خيري بك... وتساءل بعضهم عمَّ أقوم به من عمل كل هذا الوقت فأجيبهم بأني أكتب مذكرات... وقد حرصت على أن أخفي خبر زيارة الأمير فيصل ومسابقة الآلة الكاتبة بحضوره يوم الاثنين القادم.

***

بعد صلاة الجمعة التي كنا نؤديها في الحرم يصاحبنا السيد أحمد الدبّاغ المسؤول عن مراقبة خروجنا وعودتنا، ونحن إلى مائدة الغداء، قاطع أحاديثنا فهمي الحشاني ليقول:

- عندي لكم بشارة... عطلة من الدراسة من يوم السبت إلى الاثنين.

إنتبه والتفت إليه جميع الزملاء يتساءلون بكلمات مثل:

- خير إن شاء الله.. الله يبشّرك بالخير. وربما توقف أكثرهم عن متابعة الأكل فقال فهمي:

- كلنا رايحين نساعد، في نظافة المستشفى... الغرف والأرض... والجنينة وحتى (القواويش) والأسرّة.

- بس علشان إيه؟..

- محمود بك - المدير العام - عزم نائب الملك... الأمير فيصل.. طلب منه زيارة المستشفى... والأمير وافق على الزيارة يوم الاثنين بعد المغرب...

أوشكت أن أفاجئ الجميع بأن الأمير، وجميع المدعوّين سيشهدون مسابقة في الكتابة على الآلة الكاتبة وأني سأكون واحداً من ثلاثة في هذه المسابقة، لكني تمالكت واستطعت أن ألتزم الصمت مكتفياً بأن أسمع تعليقات الزملاء عن أعمال النظافة، وعلى الخصوص منها عنابر المرضى والأسرّة والغرف الأخرى في مبنى مكتب المدير العام، ومكتب خيري بك.

ابتداء من صباح يوم السبت بدأ جميع من يعملون في المستشفى في أعمال التنظيف.. بمن فيهم رئيس الممرضين، وموظفي المدير العام وفيهم (شفيق أفنديِ الإمام) الذي سيكون أحد المتسابقين على الآلة الكاتبة، لأنهم جاءوا به أصلاً من سوريا ليقوم بعمل الآلة الكاتبة في مكتب المدير العام... بل منهم أيضاً من يحرصون على أن يمنحوه لقب (بك) عندما يتحدثون عنه.

كلهم، ونحن معهم، بذلوا كل ما في وسعهم ليظهر المستشفى، ليس نظيفاً فقط وإنما على جانب كبير من الفخامة والنظافة حتى في المناطق التي لا ينتظر أن يراها الأمير، وقد كانت طافحة بالقاذورات والنفايات والمهترئ من شراشف الأسرّة وفضلات المرضى...

لأول مرة في حياتي رأيت صفاً من مصابيح الكهرباء تزيّن باب المستشفى

وبعض الممرات التي تفضي إلى المواقع التي ينتظر أن يراها الأمير... وكان خيري بك هو الذي قام بكل أعمال إضاءة هذه المصابيح وتنسيقها وتعليقها، وأهم هذه الأعمال إدارة (المحركات)... والتأكد من قدرتها على أداء مهمة الإضاءة كما ينبغي خلال الفترة التي يقوم خلالها الأمير بجولة على هذه المرافق في المستشفى الكبير.

***

لا بد من أن أقول إن يوم زيارة الأمير فيصل بن عبدالعزيز للمستشفى كان يوماً مشهوداً، ربما لم تشهد مثله مكة من قبل، فقد أضيئت مصابيح الكهرباء قبيل الغروب... وحرص الموظفون على أن يكونوا في أجمل ما يملكون من الثياب والكوفيات البيض يضعونها على رؤوسهم بالطريقة المعروفة لأبناء مكة، إذ لم تكن قد إنتشرت بعد ضرورة ارتفاق (الغترة والعقال)... بل يمكن القول إن الأمير وحده هو الذي كان يظهر متوّجاً بالغترة والعقال القصب (بلون الذهب).

بعد صلاة المغرب عندما كنت في عنبر النوم وإلى جانبي عبدالقادر أولياء رحمه الله، جاء مراسل خيري بك يخبرني أن أكون في مكتبه بعد قليل... وألا أتأخر عن الحضور، فساورني شعور بالفرحة والرعب أو الرهبة.

كان خيري بك في مكتبه، وقد أقام فيه مكتباً أو منضدة طويلة، عليها ثلاث آلات كاتبة... وخلفها ثلاثة كراسٍ، وقال لي وهو يشير إلى كرسي في الوسط بين اثنين:

- إنت تجلس هنا..

ثم وهو يرمقني بنظراته، قال:

- أراك خائفاً... يجب أن تكون شجاعاً.. لا تخف أبداً..

ثم قال وهو يرتّب بعض الأوراق والكتب والأضابير على مكتبه.

- أنا سأكون هنا... ومحمود بك هو الذي سوف يملي عليكم الكلمات... والآن إلى أن يحضر الأمير... إجلس على هذا الكرسي، وأشار بيده إلى عدد قليل من المقاعد...وأضاف:

- أظن أنك تعرف شفيق أفندي فهو سيحضر بعد قليل... وبعده سيحضر السيد عيدروس السقّاف.

لم تمض دقائق حتى حضر شفيق أفندي الإمام... فأخبره خيري بك أنه سوف يجلس إلى يميني..

وبدا، كأن شفيق أفندي لم يكن يدري أني سأكون أحد المتسابقين، ولكنه رمقني بنظرة لم تخلُ من الدهشة والشك وربما الاستهانة، إذ لم يكن يدري شيئاً عن شخصي أكثر من أني أحد تلامذة مدرسة التمريض. وقبل أن يجلس على أحد المقاعد، سمعنا صوت المراسل يقول:

- هذا الباب... تفضل...

دخل السيد عيدروس.. رحّب به الدكتور خيري بك، وحدّد له مكانه الذي يجلس فيه إلى يساري.. وعندما تساءل عن الآخرين، عرّفه بنا.. فنهضنا وصافحناه... ولم يجلس... بل أخذ مكانه خلف الآلة الكاتبة... وشرع يكتب... ثم قال:

- إنها جيدة...

وفهمنا أنه يتأكد من صلاحيتها.

ثم رأيناه يخلع (الجُبّة) التي يرتفقها في العادة أعيان السادة في مكة... وعلّقها بعد أن طواها على أحد المقاعد، إذ لم تكن في الغرفة (شمّاعة) لتعليق الملابس، بل ربما لم تكن شيئاً مألوفاً في تلك الأيام...

***

ترامت إلى أسماعنا ضجة أصوات الناس في الشارع، في اللحظات التي رأوا فيها الأمير فيصل، الذي لا أدري حتى اليوم كيف جاء من قصره الذي لم أكن أعرف أين هو، إلى المستشفى... والأرجح أنه جاء راكباً حصاناً وحوله الحرس راكبين مثله... وذلك لأن السيارة لم تكن قد دخلت أو عُرِفت في مكة حتى ذلك اليوم...

مضت فترة طويلة من الوقت قبل أن يدخل علينا مراسل خيري بك وغيره من الموظفين ليقول:

- الأمير.. الأمير..

أسرع خيري بك عند الباب ناهضاً من مكتبه ونهضنا معه، ووقفنا إلى جانبه لنستقبل الأمير.. الذي دخل وعلى وجهه ابتسامة عريضةٍ وهو يصافحنا... ودخل بعده المدير العام وكبار الموظفين وعدد من رجال الحرس... فأسرع كل منّا إلى مكانه خلف الآلات الكاتبة لنسمع محمود بك يقول:

- مسابقة في الكتابة على الآلة الكاتبة.. يسرنا يا سموّ الأمير أن تروها.

ثم تقدّم خيري بك يقدمنا وهو يقول:

- السيد عيدروس السقّاف وتعرفونه بالطبع... وهذا شفيق أفندي الإمام كاتب الآلة في مكتب محمود بك... وهذا عزيز ضياء.. تلميذ في مدرسة الصحة وقد تدرّب على الآلة الكاتبة وأصبح كاتباً جيداً يسركم أن يتم تدريبه إلى حد استحق معه أن يكون أحد المتسابقين.

***

بدأت المسابقة عندما أعلن محمود بك أن نستعد بعد خمس دقائق:

مضت الدقائق الخمس، وأعصاب كل منّا مشدودة متوترة. ولا أخفي أني في هذه الدقائق قد خالجني شعور بالرهبة، وأنا ألمح الأمير فيصل واقفاً.. قلت في نفسي لو لا أن الأمير يبتعد عنا قليلاً..

بدأ محمود بك يملي من ورقة في يده ونحن نتسابق لكتابة الكلمات عند سماعها منه، كان يملي جملة بكاملها، وكان علينا أن نفرغ من كتابتها قبل أن يملي الجملة التالية.

كان هناك بالطبع شرط عدم الخطأ في إملاء أي كلمة في الجملة.

وأذكر أني أحسست بالارتياح والثقة عندما كنت أسبق الاثنين في كتابة الجملة... إلى حد جعل محمود بك يسألني وقد فرغت من كتابة جملة أملاها: هل كتبت ما سمعت؟ ولم ينتظر جواباً إذ أخذ يملي جملة أخرى... وأخيراً قال: إنتهت المسابقة... ولاحظ أني كنت قد إنتهيت من كتابة آخر جملة أملاها، وتوقفت عن الكتابة بالطبع، بينما ظل شفيق أفندي، والسيد عيدروس يكتبان ويراجعان ما كتبا.

قدّمنا الأوراق بعد توقيعها، وكان الأمير لا يزال واقفاً أمامنا يتأمّل ما بدا أنه يراه لأول مرة، وانقضت بضع دقائق قبل أن يعلن محمود بك نتيجة المسابقة حيث قال:

- إلتلميذ عزيز... (52) كلمة في الدقيقة من دون أي خطأ.

- شفيق أفندي... (43) كلمة مع ثلاثة أخطاء.

- السيد عيدروس... (35) من دون أي خطأ.

ثم أضاف:

- الأول هو التلميذ بمدرسة الصحة عزيز، والثاني كاتب الآلة شفيق أفندي، والثالث هو السيد عيدروس السقاف.

وما كاد ينتهي من بلاغه حتى رأيت الأمير يبتسم وهو يقول:

- ما شاء الله..

ثم أدخل يده في جيب الصدر من المعطف الأبيض الذي يرتديه، وأخرج منه ما نفحني به وهو ثلاثة جنيهات ذهباً، وتابع يقول:

- باكر تصلك الهدية التي تستحقها بارك الله فيك.

واستدار متأهباً للخروج وهو يقول:

- لو لم يكن صغير السن وتلميذاً في المدرسة، لكان يمكن توظيفه للعمل مع السيد عيدروس.

واتّجه إلى الباب، وخلفه المدير العام، وبقية من كانوا يشهدون المسابقة معه مع المدعوين ورجال الحرس... ولحق به شفيق أفندي والسيد عيدروس... ولم يبق في المكتب أحد سوى خيري بك.

كان هذا الإنسان طيّب القلب إلى حد يجعلني لا أنسى أبداً ما غمرني به من عطف وحنان وحثٍّ على الصبر وبذل الجهد في المدرسة في مدرسة الصحة، التي قال إنها يمكن أن تفتح لي باب القبول في كلية الطب إذا أحسنت استيعاب المواد العلمية التي ندرسها.

تخلّص من بعض الأوراق أمامه إيذاناً بإنتهاء وقت العمل ثم قال:

- أحسنت... وأبشّرك بمستقبل طيّب إن شاء الله..

وجدت نفسي عاجزاً عن التعبير عن مشاعري نحوه، فالتزمت الصمت ورأسي منحنٍ ونظرتي متّجهة إلى الأرض.

غادر المكتب، لأخرج خلفه إلى عنبر العشاء مع الزملاء... وكانوا قد سمعوا أو عرفوا أني فزت في مسابقة الآلة الكاتبة.. ولكن أدهشني بعضهم بالتزام الصمت وكأنهم لم يسمعوا شيئاً... أما الآخرون، وفي مقدمتهم فهمي الحشاني - وهو على فكرة - لا يزال الوصي عليّ... كانت الابتسامة أو هي الفرحة بفوزي تملأ وجهه..

وقال إنه سيكتب إلى عمّي في المدينة... ثم عبدالله المنديلي الذي عبّر عن سعادته بفوزي، بإعلانه أنه يدعونا للعشاء في منزله يوم الخميس القادم.

عندما اضطجعت على السرير في عنبر النوم وبجانبي سرير عبدالقادر أولياء... ترك لي أقل من عشر دقائق ليطلب مني أن أذاكر له درس اللغة العربية. والكلمات غير العربية التي يجدها في كتاب (الأمراض المعدية)... وقال:

- خلاص... الامتحان أول شهر شعبان... يعني الباقي عشرة أيام...

نهضت وجلست أسمع منه يقرأ لأصحّح له ما يرتكب من أخطاء في قراءة قصيدة شعر من دروس اللغة العربية... ولكن لا أدري كيف لاحظ أني أغالب حالة نعاس أكاد لا أستطيع معها أن أظل مفتوح العينين... فقال وهو يلمس كتفي:

- اسمع... إنت نعسان بالمرّة... لكن لو شربت سيجارة واحدة راح يطير عنك النوم..

وقبل أن أجيبه بشيء... أخذ (يلفُّ) سيجارة في ورقة خاصة بالدخان الذي كان في علبة أذكر حتى اليوم أنها كانت حمراء وعليها عنوان أو تعريف (سمسون)... وأشعلها.. ثم قال:

- هيا... اسحب منها وهي في فمك.

رفضت في البداية.. ولكن وجدت نفسي أسحب منها بين شفتي.. ليتسلل الدخان إلى صدري... وكانت نوبة سعال استغرقت دقائق...

كان المفروض ألا أعود إلى التجربة ولكن عدت إليها... ليس في تلك الليلة فقط إنما في كل يوم طول العمر... ولكن لم أكن ألف.. بل كنت أشتري علبة فيها عشرون سيجارة... تحمل اسم (ماتوسيان) تستورد من مصر..

وبهذا يمكن أن اقول إن السيد عبدالقادر أولياء هو الذي ضمني إلى الملايين من مدمني التدخين في العالم... ولا حاجة بي أن أذكر أنواع السجاير التي كنت أدخنها بعد (ماتوسيان) إذ وجد ما كان يسمى (أبو جنيه) يستورده السادة، بن زقر... ثم (الثلاث خمسات) و(الثلاث تسعات) وهذه تتميز (بمبسم) ذهبي ولكن الكثيرين كانوا يفضلون (الثلاث ثلاثات)... ثم السجاير الأميركية التي سموها (أبو اسطوانة) وهي (لاكي سترايك) ومثلها (أبو جمل). كانت تجربة لعينة من دون شك، ولا بد أن الذين وقعوا في المصيدة مثلي، كانوا ضحايا أنواع من الإغراء عنصره الأساسي

تقليد الآخرين، ثم هذه الدعاية الواسعة في الصحف والمجلات والإعلانات الجدارية الضخمة حينما يتاح أن تلصق في الشوارع ووسائل النقل على اختلافها من الحافلات والقطارات والباخرة إلى الطائرة... ربما باستثناء مركبات الفضاء الآن.

***

وقبيل الظهر في اليوم التالي لليوم المشهود وهو زيارة أو تكريم الأمير فيصل نائب الملك، حين كنت مع الزملاء في الفصل - استأذن مراسل الدكتور خيري بك في الدخول ثم استأذن مدرّس الحصة في أن أذهب إلى مكتبه حالاً.

كانت المفاجأة في المكتب إذ كان فيه إلى جانب الدكتور خيري أحد (خويا) أو حرس الأمير... جالساً وبين يديه (بسكليته) (عجلة) لا تزال ملفوفة في ورقها... فما كاد يراني حتى وقف ماداً يده بعلبة مستطيلة، وهنا تكلم خيري بك ليقول:

- هذه هدية الأمير فيصل التي وعدك بها البارحة.

كانت العلبة الطويلة التي فتحها خيري بك وطلب أن أمد له يدي اليسرى (ساعة).. كان (سوارها) من الجلد الأسود واسعاً بحيث اضطر خيري بك إلى زيادة خرومها، ثلاثة خروم.. ثم قال:

مبارك يا ابني هذه ساعة ثمينة... ماركة (زينيث) من أرقى الماركات في سويسرا...

ثم أضاف:

- وهذه العجلة - من النوع الجيد وأظن أن الأمير رآك صغير السن تستطيع أن تتدرّب عليها... ولكن ليس في الشارع... ربما لا يوجد مثلها عند الكثيرين... وجلس إلى المكتب وكتب ورقة دفعها إلى الحارس الذي غادر الغرفة... وما كاد يخرج حتى وجدت الدموع تنذرف من عينيّ، وأكاد أجهش بالبكاء.

فتقدّم مني الدكتور الحبيب... ووضع يده على كتفي... يربّت ويكرّر:

- مبارك... مبارك وسأكتب إلى عمك في المدينة...

لم أجد ما يمكن أن أقوله سوى ترديد جملة: (الحمد لله... الحمد لله...).

***

مع أني كنت حتى اليوم خالي الذهن كلياً من علم أو فن أو أي شي اسمه (الأدب)، إلاّ أنني أخذت ألاحظ أنني قد استوعبت الكثير من المعلومات التي كانت تنشر في

الصف والتي كتبتها على الآلة الكاتبة بغرض التدريب... معلومات متنوعة استقرّ الكثير منها في ذهني... بحيث لم أعد أجد صعوبة في استيعاب درس اللغة العربية، نتلقاه من الأستاذ سعيد بك... بل كنت في مقدمة الذين يعجب بهم الأستاذ وعلى الخصوص في النحو... إذ سرعان ما أجيب الإجابة الصحيحة في إعراب جملة يطلب إعرابها، وهذا مع حفظ أبيات القصائد التي يشرح لنا معاني ألفاظها مع إعرابها... لكن الغريب أنه لم يقل قط إن هذا الذي ندرسه يسمّى (الأدب). لا بد أن أعترف اليوم أني قد أخذت أحب مدرسة التمريض هذه... ونسيت تماماً مشاعر الذلّ والهوان التي عشناها عندما اكتشفنا أننا سوف نكون (ممرضين ممتازين) كما قال رئيس الممرضين عندما كلفنا بالعمل في عنابر المرضى...

حتى العمل أو التدريب في عنبر المصابين بالسل الرئوي، لم أعد اشمئز منه أو أضيق به باستثناء الدكتور (أبو رقعة) الذي أسرف في الإساءة إليَّ وإلى (محمد الأسود) بالازدراء، والألفاظ الجارحة للكرامة... مما يدخل في معنى الشتائم ومنها (يا حمار... يا مغفل..).

لا أخفي أني من جانبي لم أعد أحرص على الدقة في تدوين درجة حرارة المرضى حيث أدوّن (38) أو حتى (40) ويكتشف الدكتور أني دوّنت هذه الأرقام من دون استعمال ميزان درجة الحرارة. فيشتعل غضباً.. وتتدفّق الشتائم وعبارات التحقير والإهانة، وأعترف بأني تصرفت على ضوء معرفتي أن درجة الحرارة تبدأ من 37 وتنتهي عند 40 فلا حاجة للميزان.

تحمّلت كل ذلك لأني وضعت نصب عينيّ أن أنجح. وأن أتفوّق كما نجحت وتفوّقت في الكتابة على الآلة الكاتبة، بل كما أصبحت متفوّقاً على الزملاء في مادة اللغة العربية، والأمراض المعدية والتشريح، إلخ... وحين كان هذا الواقع يسعدني ويدفعني إلى التفرّغ للدراسة، فإنه كان يثير حفيظة بعض الزملاء فأرى في علاقاتهم بي مشاعر النفور وربما الكراهية، ولا بد أن أستثني فهمي الحشاني، وعبدالقادر أولياء وعبدالله منديلي رحمهم الله.

كان المنديلي بالمناسبة قد وعد بأن يدعونا للعشاء في منزله يوم فوزي في المسابقة... وحدّد مساء يوم الخميس إذا وافقت إدارة المدرسة على أن نظل خارج المدرسة إلى ما قبل الساعة الرابعة ليلاً (بالتوقيت الغروبي). ولا أطيل، فقد وافقت

الإدارة، وكان الذي طلب الموافقة هو عبدالله نفسه... وذهبنا جميعنا إلى منزله في حي الشبيكة.. كان منزلاً ضخماً له بوابة كبيرة ضمن إطار كله مستدير من الحجر ومكوّن من أكثر من أربعة طوابق مشيّدة بالحجر الأسود.

استقبلنا عبدالله وأخوه ثم مجموعة من الأشخاص ربما كانوا من أقاربه أو (أتباع) أسرته لأنها من الأشراف وقد كان مألوفاً أن يكون للشريف عدد من الأتباع أو الحاشية.

كان المجلس - في الطابق الأول - كبيراً واسعاً كما كانت أرضه مكسوّة بالسجاد الإيراني الثمين والمقاعد صف طويل مما كان يسمى (الباطرمة) مكسوّة بالقطيفة الخضراء الموشاة بالقصب، أما الإضاءة فكانت بثلاثة أتاريك معلقة.

لفت نظري في أحد الأركان العود وآلات عزف أخرى... كنت أعرف العود، والطار أبو شناشن منذ كنت أراها في سهرات الشريف ناصر في منزلنا بالمدينة، ولكنني حتى ذلك اليوم لم أعرف القانون.

كانت سهرة جميلة لولا الحر الشديد إذ كانت جميع النوافذ محكمة الإغلاق خوفاً من أن يسمع (المطاوعة) العزف والغناء.

كان عبدالله يعزف العود، ولكن لا يستمر إذ يعطيه لآخر... وكان المغني رجلاً عرفت في ما بعد أنه (حسن جاوه) الذي لم يبق في مكة أو في الحجاز من لا يعرف أنه المطرب الكبير الذي تفوّق على آخرين قبله لا أتذكر أسماءهم.

***

في الموعد المحدّد بدأ امتحان تلاميذ مدرسة الصحة، واستمرّ ما يقرب من أسبوع. ولا أنسى يوم إنتهت الامتحانات وظهرت النتيجة، وكنت الأول وهو ما أعلنه تيسير أفندي عندما جمعنا في الفصل... وخاب ظننا في إنتهاء الدراسة نهائياً إذ قال:

- في السنة القادمة تنجحون إن شاء الله وتأخذون الشهادات، ويتم توظيفكم (ممرضين ممتازين) بالرواتب التي تساعدون بها عوائلكم... أو تساعدكم على الزواج.

من جانبي وأنا أسمع هذا الكلام كنت أهيم في حلمي الكبير، وهو أن تساعدني هذه الشهادة على دخول إحدى كليات الطب، كما قال الدكتور خيري بك.

***

لكن حدث ما لم يكن في الحسبان، وبدّد كل ما كنت أحلم به وأتمناه...

كان العمل في عنبر المصابين بالسل الرئوي لم يتوقف، رغم كل ما يصفعنا به الدكتور من الشتائم والسباب، وما سبق أن اعترفت به، فإنني لم أعد أعتمد على ميزان درجة الحرارة في ما أدوّنه في الأوراق التي تسمى (طَبَلة) وزاد من سوء تصرفي، حوادث موت أكثر من مريض خلال أسبوع واحد... ثم ازدياد نقمة الدكتور وشتائمه والتهديد بطردي من المدرسة...

لم يكن (محمد الأسود) أقلّ مني ضيقاً وحرداً على الدكتور.

لا أدري حتى اليوم كيف وجدت نفسي أقول، بعد خروج الدكتور من العنبر وبعد كل ما أمطرنا به من الشتائم:

- هادا ما ينفع فيه غير الضرب.. ولكن إذا ضربته لا بد أنهم يطردوني.

فإذا بي أسمع محمد الأسود يقول:

- صدقت... ما يبغاله غير ياكل علقة. ثم بعد لحظات، قال: اسمع... بكرا... أنا وأنت نديله العلقة اللّي عمره ما أكلها... أنا أكتّفه... أمسكه من ورا وأمسك يديه... وأنت تنزل فيه ضرب بيدك، وبالجزمة كمان.

اتفقنا... وباختصار نفذنا الخطة في اليوم التالي... إذ ما كاد يبدأ في مراجعة الطبلات والكلام والشتائم حتى وجد نفسه في حضن محمد الأسود لا يستطيع شيئاً... لا يستطيع أن يدافع عن نفسه...

وفي ثورة عارمة مكبوتة، وجدت نفسي أنهال عليه ضرباً باليدين، ثم بعصي المكانس التي كانت تجمع في أحد أركان العنبر.

كان المرضى يروننا وربما يصرخون، فلم نلتفت أو نهتم بشيء... استمرّت المعركة بضع دقائق، حيث طرح الدكتور على أحد الأسرة الخالية... لأطلق ساقيّ للريح، ومعي محمد الأسود...

أذكر أني تركت في عنبر النوم حقيبة ملابسي... أسرعت راكضاً... فتحتها وأخذت منها الكيس الصغير الذي أضع فيه ما أجمعه من النقود، ومنها الجنيهات التي نفحني إياها الأمير فيصل... وفي اللحظات التي سمعت فيها من يذكر اسم الدكتور وأنه طريح في عنبر مرضى السل، كنت أنا أركض وأخرج من باب المستشفى الكبير وأظل أركض في ساحة الحرم التي دخلتها من باب إبراهيم... لأخرج من باب زيادة واتجه

إلى منزل الشيخ عبدالعزيز القارئ المصري، الذي أوكل إليه عمّي رعاية ما يحتاج إلى الرعاية من شؤوني. ومنها تسليمي ما يرسله عمّي شهرياً لنفقاتي وهو مبلغ قدره جنيه إنكليزي ذهباً. فقد كان الشيخ يجيء إلى المستشفى كل شهر، وينتظرني في الصيدلية ليسلّمني الجنيه.

كان منزل الشيخ في محلة الشامية، على مقربة من قصر يوسف قطان من أعيان مكة، وهو قصر كبير فيه عدد من الخدم والحشم، ويفد إليه كثير من الناس.

طرقت باب منزل الشيخ مستعجلاً عدة طرقات متتالية خائفاً، وسمعت صوته يستمهلني إذ لم يكن يدري مَن الطارق.

وما كاد يفتح الباب حتى اندفعت وأنا ألهث من شدة الجري، والخوف ممن يمكن أن يكون في أثري من موظفي الصحة بعد اكتشاف اعتدائي على الدكتور بالضرب.

ولا أطيل فقد رحّب الشيخ بي وأغلق الباب بالترباس، وقد أدرك في ما يبدو أني هارب وأن هناك من يجري ويحاول إلقاء القبض عليّ.

بعد أن صعدنا معاً عدداً من درجات المنزل، تضيئه المناور الصغيرة، توقف وهو يقول:

- اجلس لترتاح قليلاً... لن يلحق بك أحد إلى هنا.

جلست على إحدى الدرجات وأخذت أتنفّس وأمسح ما تراكم من العرق على وجهي بطرف كم الثوب الأبيض الذي أرتديه.

وبعد ما يقرب من خمس دقائق سمعت صوت السيدة زوجة الشيخ تتساءل في قلق وبخوف:

- إيه اللّي حصل؟... إنت فين؟

وأجاب بصوت منخفض أنا هنا مع ولدنا عزيز..

رفعت صوتها مندهشة:

- عزيز؟

- أيوه عزيز... دي الوقت نطلع وتشوفيه..

- بس إيه اللّي حصل له؟

- لما نطلع حنعرف إيه اللّي حصل.

لكنها لم تنتظر أن نصعد، بل سرعان ما رأيتها واقفة إلى جانب زوجها الشيخ ومدّت يدها تساعدني مع الشيخ على الصعود إلى الطابق الذي يعيشان فيه من المنزل.

جلست على أحد (الطواويل) وأخذت أخبرهما بالحادث... بالجريمة التي ارتكبتها بعد أن ظللت أتحمل من إهانات الدكتور وشتائمه واحتقاره وتهديداته المتواصلة مدة تكليفي بالعمل في عنبر مرضى السل الرئوي، وتهديده الأخير، بطردي من المدرسة..

خلال هذا السرد الطويل لما كان السبب في الاعتداء عليه، كنت أرى في عيني السيدة الدموع حزناً على ما كابدته من معاناة وتعليقاتها بأن أمّي وعمي في المدينة هما اللذان قذفا بي إلى هذه المدرسة اللعينة... أما الشيخ عبدالعزيز فقد كان يسمع ويردّد:

- خيبة الله عليه.

وهو يقصد ما يسمع من تصرفات الدكتور، ثم أضاف متسائلاً:

- هل يعرف أحد أني وكيلك، وأنك تختبئ عندي.

- الذي يعرف ذلك هو فهمي الحشاني...

- هل تظن أنه سوف يرشدهم إلى منزلي..

- إنه لا يعرف أين منزلك.. حتى لو تذكّر أنك وكيلي، وربما رآك وأنت تجيء كل شهر لإعطائي (المصروف).. ولكنه لا يعرف أين تسكن...

أسرعت السيدة تقول:

- خلاص يا ابني... لا تخاف أبداً... وسيدنا الشيخ يكتب اليوم جواب لعمك وأمك في المدينة يخبرهم إنك عندنا... وإنت رايح تقعد معانا إلى أن يفرجها ربّنا.. بس خذ بالك... وأوعى يخطر لك تخرج من باب الزقاق...

لم يكن في منزل الشيخ عبدالعزيز أطفال ولا أحد في البيت غيره وزوجته... وقد ظللت ألقي نظرة على الشارع من النافذة الصغيرة المكسوّة بالشيش الذي يسمح للجالس خلفه بأن يرى الشارع، ولا يراه أحد... وهو الشكل نفسه الذي كان شائعاً في المدينة ومكة وجميع مدن الحجاز..

ساورني السأم والضيق، وأخذت تعاودني ذكرى الحادث الذي تورّطت فيه،

والمخاوف من عواقبه التي لم أستطع تصوّرها، ولكن لا أشك في أنها سوف تكون شديدة القسوة والعنف، إذ ليس من السهل أن يعتدي تلميذ صغير على الدكتور، ثم لا يُعاقب إن لم يكن بالجلد فبالسجن كأي مجرم من المجرمين...

حان وقت الغداء الذي كانت زوجة الشيخ قد انصرفت لتجهيزه واكتشفت، حين كانت تضع الأطباق على (طبلية) على الأرض أني جائع جداً... فكنت أول من جلس إلى جانب الشيخ وقد جلست السيدة أمامنا وهي تقول:

- أنا ما أنسى أبداً أمك الله يذكرها بالخير... والأكلات التركية التي كنا ناكلها عندها... أنا ما أعرف أطبخ زيّها... هيّا كل هادي الأكلة المصرية - اللّي يمكن تعجبك... هادي أكلة مشهورة في مصر... اسمها (فتة)... أنا عملتها باللحم علشان ما في بالبيت (كوارع) يعني... وهنا قاطعها الشيخ قائلاً:

- خلاص ناكل اليوم الموجود وبكرا إن شاء الله تعملي لنا (ملوخية بالأرانب).

بعد تناول الغداء عدت إلى مجلسي قرب النافذة، أفكر في ما سوف أواجهه من عقاب بعد الكتابة إلى عمّي وأمي...

دخل الشيخ وقد توضّأ وأخذ يقيم صلاة العصر، فأسرعت إلى الحمام وتوضأت وأدركت معه صلاة ركعتين جماعة والركعتين الباقيتين منفرداً... عند جلوسي للتشهّد لفت نظري رفّ هناك فيه مصاحف ومجموعة من الكتب. فرحت بها، وأسرعت بعد الصلاة إلى الرفّ أقلّب الكتب لأجد بينها كتاباً عنوانه (نور اليقين في سيرة سيد المرسلين). أعترف بأني حتى تلك اللحظة لم يكن في ذهني من السيرة النبوية أكثر من الذي تلقيته في المدرسة الراقية الهاشمية، وهو زهيد محدود، وقد نسيت معظم التفاصيل... ومع أني تمنيت لو أن بين الكتب الموجودة على الرف أي كتاب أتسلّى بقراءته، فقد وجدت نفسي أقبل على قراءة الصفحات الأولى من الكتاب، ثم استغرق في القراءة شاعراً بأني أكتشف في سيرة سيد الخلق ما أحسست بأن الجهل به شي معيب لا يليق بي وأنا ابن المدينة المنورة، وفيها مثواه صلوات الله عليه، ومسجده الذي يتوافد لزيارته المسلمون من جميع أقطار العالم...

قبيل الغروب، وبين يدي الكتاب وفي ذهني زحمة من الأفكار والمخاوف والتوقعات سمعت السيدة تناديني وتقول لي:

- اسمع يا عزيزي، ده واحد بيصيح وبينادي، ويقول كلام فيه اسمك ومدرسة الصحة.

هرعت إلى النافذة وراء الشيش أسمع وأحاول أن أرى هذا الذي ينادي ويذكر اسمي، كان صوتاً قوياً لرجل رأيته يمرّ بالقرب من المنزل الذي أختبئ فيه في يده نبُّوت يتوكأ عليه... ينادي ثم يلتقط أنفاسه ليعود إلى النداء، ومضمون النداء، الذي يصعب أن أصوغ الآن عباراته: إن المطلوب هو القبض على (ولد) عمره 12 سنة، هارب من مدرسة الصحة في ثوب أبيض، مكشوف الرأس... إلخ... وتسليمه للشرطة أو للمدرسة الصحية في أجياد.

مضى الرجل في طريقه... لأدرك أن وضعي أصبح ينذر بأوخم العواقب إذا ما أمكن إلقاء القبض عليّ.. كدت أجهش بالبكاء... قبل أن يدخل الغرفة الشيخ عبدالعزيز مبتسماً:

- خلاص إنت لازم تعرف إنك محبوس عندنا إلى أن يتصرّف عمك من المدينة... أنا كنت ناوي أبعت تلغراف لكن تذكرت أن التلغراف يمكن أن تعرف منه الحكومة إنك عندي. على كل حال... لا تخاف.. بس إصحا تخرج من باب البيت.

لم أخرج من باب البيت إطلاقاً وعلى الخصوص عندما تكرر النداء بالقبض عليَّ وتسليمي للشرطة ثلاثة أيام متتالية.

مع أن السيدة زوجة الشيخ كانت تحاول الترفيه عني بما تقصّه عليّ من حكايات عن مصر، وحياة الفلاحين ويساعدها الشيخ بتذكيرها ببعض الطرائف في حياتهما، قبل أن يهاجر معها إلى الحجاز عندما عرض عليه أحد معارفه أن يهاجر لأن صوته جميل، وقراءته للقرآن مطلوبة في المدينة ومكة، وهو يحمد الله على نعمة التوفيق، فقد نجح في المدينة وأصبح له فيها عملاء لا يستغنون عن دعوته للقراءة في ساعات الغروب وليالي رمضان وفي مناسبات الوفاة، ولكن بعد دخول حكومة ابن سعود، تكرّر منعه من القراءة (المنغمة) فاضطر إلى الإنتقال إلى مكة طلباً للرزق، ويحمد الله على (الستر).

كانت المشكلة التي عاناها الشيخ وزوجته بوجودي معهما في المنزل، هي النوم... وقد واجهتها معهما منذ الليلة الأولى، وذلك لكثرة البعوض، ولأن الفراش الذي ينامان عليه واحد... مرتبة واحدة عريضة تنصب عليها (الناموسية) ولا سبيل للخلاص من لسعات البعوض إلاّ بالنوم داخل هذه الناموسية...

فكّر كل منهما في البداية أن يقسما الناموسية بأن يقتطعا منها شريحة تنصب لأنام

داخلها وحدي، ولكنهما وجدا أنها عملية يمكن أن تحرم الجميع من الناموسية إذ كيف يمكن قصّ الشريحة من دون أن تتم خياطة الفتحة في الشريحتين...

وإنتهى الأمر بقرار فوجئت به وكان غريباً جداً، أخجلني وحيّرني وجعلني أشعر بما جرّته عليّ الجريمة التي ارتكبتها واضطرتني إلى الهروب واللجوء إلى منزل هذين الزوجين أزعجهما وأضعهما في موقف بالغ الحرج.

كان القرار الذي أعلنه الشيخ أن أنام معهما بينه وبين زوجته في الفراش العريض.

تمنّعت.. بل رفضت وأخذت أرجوهما أن يتركاني أنام من دون هذه الناموسية ولكنهما أصرّا على قرارهما... فأذعنت في النهاية... وأصبح مكان نومي بين الزوجين وكان ما سمعته منهما أني صغير كابن لهما،... وكانت تلك حقيقة إذ كنت في الحادية عشرة من عمري، ودون سن البلوغ.

لن أنسى ما حييت ذلك العطف والحنان اللذين غمراني به بروح فيها مشاعر الأبوة والأمومة التي حرمت منهما منذ تزوجت أمي، ولم يعد لي مجال أن أنام بجانبها وفي حضنها كما كان الحال قبل زواجها... لقد هيأت لي أمّي غرفة نوم وسرير مريح، وظلت تحرص على أن تنحني عليّ وتقبلني قبل أن تذهب لتنام مع زوجها... كانت تذهب فأشعر بأني أصبحت وحيداً محروماً من عطفها، كما كنت دائماً الطفل المحروم من الأب الذي لم أره ولم أسعد قط بوجوده إلى جانبي منذ فتحت عينيّ على الحياة، ورغم إنتظار عودته من سفره طوال السنوات التي عشتها واسمع من أمّي أنه لا بد أن يدخل علينا في يوم من الأيام التي انطوت وذهبت أدراج الرياح...

***

وصول أمي
وأوّل وظيفة في الدولة

انقضت أيام لم يتلق خلالها الشيخ من عمّي أي خبر، وكان ذلك باعثاً لقلقي أنا قبل الشيخ، إذ ظللت أتساءل: ترى ما هو مصيري إذا بقيت على هذه الحال؟!

ترامت إلى ذهني موجات متلاحقة من الأفكار... كانت أخطرها أن أهرب من هذا البيت وأحاول السفر إلى المدينة.. وكان ما يدعم هذه الفكرة في تقديري أن كيس النقود الذي حرصت على إنتشاله من حقيبة ملابسي في لحظات هربي من المستشفى.. كان لا يزال بخير، فيه عدد من الجنيهات الذهبي... منها تلك التي تسلّمتها هدية من يد الأمير فيصل، ومنها كذلك البقية مما كنت استلمه من الشيخ مرسلاً من عمّي في المدينة... هذه النقود تساعدني على أن أستأجر جملاً في قافلة إلى المدينة... استرحت لهذه الفكرة التي أخفيتها عن الشيخ وحرمه، ولم يبق إلاّ أن أحدّد يوم الهرب... كنت أعرف الطريق إلى (جرول) حيث رجّحت أن قوافل الحجاج الذين يذهبون لزيارة المسجد النبوي الشريف تتجمّع وتنطلق من هناك... وحتى ما احتاجه من الغذاء طوال اثني عشر يوماً، لم أشك في أني أستطيع شراءه وأنا في طريقي إلى جرول. ولكن وقفت أمامي عقبة هزت خطتي... وهي أني لا أزال أبدو لمن يراني طفلاً... والناس وعلى الخصوص منهم الجمّالين يتجنبّون التعامل مع الأطفال... لا بد أن يسألوا عن وليِّ أمري.. فمن هو الذي يرضى أن يكون وليّ أمري؟

تذكّرت فهمي الحشاني... وهو لن يتردد في مساعدتي، ولكن كيف يمكن أن أتصل به وهو في المدرسة.

خلاصة الموقف أني عشت عدة أيام مضطرب الذهن ضائعاً لا أدري كيف أجد المخرج من هذا الوضع.

كنت نائماً بين الشيخ وزوجته حين سمعت السيدة توقظ الشيخ وتقول:

- إنت سامع، ده خبط على الباب.

وتنبّهنا أنا والشيخ وأرهفنا السمع لنسمع هذا الخبط على الباب فعلاً... كانت أضواء الفجر قد بدأت تلوح عبر النافذة ذات الشبك... نهض الشيخ، خرج من الفراش مسرعاً وخرجت وراءه إلى النافذة... وكانت المفاجأة... جمّال يطرق الباب وجمل عليه (شقدف)...

لم يخطر بذهني إطلاقاً أن في الشقدف أمّي وأخوتي الصغار.. ولكن هذا ما اكتشفته وأنا أراهم يتسللون من الشقدف ويقفون أمام الشيخ عبدالعزيز وهو يرحّب بهم.

التفتّ لأبشّر السيدة، ولكني رأيتها تترك الغرفة مسرعة فلحقت بها... وفي الدهليز المعتم تمّ لقاء لا تزال صورته عالقة بذهني حتى اليوم... لقد كان فيه عناق أمّي وبكاء فرحتها برؤيتي... وبكائي أنا على كتفها... وعناق الصغيرين... وهما أختي منها وهي التي تصغرني تسع سنوات، وقد سبق أن تحدثت عن ليلة ميلادها في ما مضى من فصول هذا الكتاب، وأخي الذي يبلغ من العمر سبع سنوات.

ولا أطيل... صعدنا إلى المجلس في الدور الثالث الذي امتلأ بالأحاديث والأخبار، ومنها كيف أنه ذكر لعمي في رسالته أن المنزل بالقرب من بيت القطان، وهو كما سبق أن ذكرت بيت يعرفه أهل مكة كلها، إنه لشخصية لها اسمها ومكانتها العريقة في البلد.

وسردت قصة هروبي، واضطراري للجوء إلى بيت الشيخ عبدالعزيز.. كنت أنتظر أن أسمع منها شيئاً عن الطريقة التي تراها أو نصحها بها عمّي لخروجي من هذا المأزق، لكنها لم تقل شيئاً، وانصرفت إلى الحديث عن المدينة والصديقات اللائي يتساءلن عن الخالة تفيدة زوجة الشيخ.

مرّت بضعة أيام بدأ خلالها الكلام عن الحج، فأمي بعد أن وصلت مكة، وأدّت مناسك العمرة، تريد أن تحج، ولا يفوتها أن تحكي عن الحج مع والدها (سيدي أحمد صفا)، ثم هي لا ترى أن تصطحب أحداً منا - أعني أنا وأختي وأخي - وأقنعت الخالة تفيدة بأن تصاحبها، وهذا يعني أن الشيخ عبد العزيز هو الذي سيُعنى برعايتنا... ولا أدري بأي صدر رحب ونفس كريمة أخذ الشيخ على عاتقه هذه المهمة، وأهم ما فيها تجهيز وجبات الأكل، وملاحظة عدم خروج أحد منّا إلى الشارع، فقد ظللت

أشفق عليه من المتاعب التي سيواجهها من دون أن أملك أكثر من أكون تحت يده، في ما يطلب أو يحتاج إليه من الأدوات واللوازم لتجهيز كل وجبة.

ذات صباح سمعت أمّي تسأل الخالة تفيدة، إن كانت تعرف منزل (الشيخ سلطان) الذي قالت إنه زميل جدّي أحمد صفا، وكانت في المرات التي حجّت فيها معه، تنزل في هذا البيت، وتعرف من أهله فاطمة وسعدية وأبو الخير، أبناء الشيخ سلطان الذي علمت أنه توفى إلى رحمة الله أيام حكم الشريف.

لم تكن الخالة تفيدة تعرف شيئاً عن الذين ذكرتهم أمي، ولكن حين فهمت أن بيتهم في (الشامية) وهي الضاحية أو (الحارة) كما كانوا يسمّونها، قالت إن الشيخ عبدالعزيز، يعرف أكثر سكان هذه الحارة.

كانت مفاجأة للشيخ أن تسأله أمّي عن بيت (الشيخ سلطان)... شيخ حجاج القازاق في مكة... إذ أجابها أنه يعرف البيت وفيه عائلة المرحوم... وابنه أبو الخير الذي كثيراً ما يراه مع أقرانه من أبناء الحارة ولا يدري إن كان يتعلّم في المدرسة أم لا؟

***

كانت فرحة أمّي بهذه المعلومات عن بيت الشيخ سلطان، أكثر مما كنت أتوقع فقد أخذت تتأهّب للذهاب بعد أن فرغنا من تناول طعام الغداء... وقبيل الغروب، كانت تمشي وراء الشيخ إلى ذلك البيت وقد فضَّلَت أن أكون معها.. وحين ذكّرتها بأن (الحكومة) تبحث عني ويمكن أن تلقي القبض عليَّ... قالت:

- لا تخف... لا أظن أنهم لا يزالون يبحثون عنك...

التزم الشيخ الصمت، فلم يقل شيئاً.

لم يكن البيت بعيداً، إذ لم يطل مشينا أكثر من دقائق، حتى وقف الشيخ في ساحة واسعة تطل عليها بيوت كثيرة والتفت يقول وهو يشير إلى بيت مرتفع عن مستوى الأرض بعدد من السلالم: هذا بيت الشيخ سلطان.

دهشت كثيراً حين سمعتها تردّد:

- عرْفته... خلاص يا سيدي الشيخ.. أنا أطلع مع عزيز.

في هذه اللحظات رأيت فتى شاباً يلحق بنا ويقف إلى جانبنا وهو يقول:

- إنتو تبغو تشوفو أحد في البيت؟

التفتت إليه أمّي تقول:

- إيه يا ولدي... هادا بيت الشيخ سلطان و إبغا...

وقبل أن تكمل قاطعها يقول:

- وأنا يا خالة ولد الشيخ سلطان... أنا ولده أبو الخير.. لكن إنتو مين؟

- أنا بنت الشيخ أحمد صفا شيخ (القازاق) في المدينة.

وسرعان ما رأينا أبو الخير يقفز ويتقدّمنا مسرعاً صاعداً على السلالم العريضة وهو يقول:

- يا مرحبا... اتفضلوا... اتفضلوا.

***

تركنا أبو الخير خلفه وانطلق ودخل دهليز البيت مسرعاً، ورأيناه - رغم عتمة الغروب -يصعد إلى أعلى وسمعناه وهو يهتف منادياً:

- يا سْتيته...

ظللنا أمّي وأنا نصعد خلفه في إنتظار (ستيته) التي يناديها..

كانت ستيتة.. هي فاطمة التي ما كادت ترى أمّي حتى أخذتها في أحضانها وأخذت أمّي تشهق باكية فرحاً بهذا اللقاء... ورأيت إلى جانب ستيتة وأبو الخير صبية وطفلاً... علمت في ما بعد أن ستيته هي أمها...

أصرّت الأسرة على أن نبيت عندهم الليلة... لكن أمّي اعتذرت... وإن كنا قضينا وقتاً طويلاً دارت خلاله أحاديث ذكريات بعيدة منها أو أهمها أنهما سافرا معاً في حياة أبويهما الشيخ سلطان والد فاطمة، والشيخ أحمد صفا والد أمّي إلى بلاد (القازاق) عدة مرات، أكلتا لحم (الحصان) وشربتا اللبن الذي أذكر حتى اليوم أن اسمه (قِمِّيز).

ملأ الفضاء صوت أذان العشاء لننهض عائدين إلى منزل الشيخ عبدالعزيز... يرافقنا ويضيء طرقنا بفانوس يحمله أبو الخير، لأن الطرق والشوارع في مكة في تلك الأيام كانت محرومة من الإضاءة إلاّ ما يسمّى (فانوس البلدية) المعلّق على أعمدة بين أحدهما والآخر مسافة طويلة يلفّها الظلام.

***

أخذت الأحاديث تدور بين أمّي وحرم الشيخ عن هذه الزيارة التي كان واضحاً أن

أمّي فرحت بها إلى الحد الذي أنساها وجبة العشاء للصغيرين اللذين كانا يجلسان في إنتظارها وقد غلبهما النعاس.

قبل أن تنقضي فترة قصيرة سمعنا طرقاً على باب البيت فانتبه الشيخ وأسرع إلى النافذة يستطلع... ثم أخذ طريقه مسرعاً خارج الغرفة وهو يقول:

- خير إن شاء الله... هادا واحد رجال ومعه ولد يحمل فانوس.

غادر الشيخ الغرفة وفي يده هو أيضاً فانوس صغير يضيء طريقه إلى باب البيت... وتوترت أعصابنا قلقاً وترقّباً... بينما أخذ قلبي أنا يكاد يقفز من صدري رعباً، إذ لم يساورني شك في أنها (الحكومة)... اهتدت إلى مخبئي، فأرسلت من يلقي القبض عليَّ... فأسرعت أزحف إلى حضن أمّي التي بدا لي أنها هي أيضاً ومعها الخالة تفيدة قد ساورتهما المخاوف نفسها إذ لم تنسيا أني ظللت مختبئاً ولم أخرج من المنزل إلاّ في هذا اليوم...

لم يطل بنا الترقّب والإنتظار بل - والخوف - لنسمع صوت الشيخ يردّد عبارات الترحيب وكلمات (اتفضل... اتفضل).. أهلاً وسهلاً.. ثم يرتفع صوت الشيخ منادياً:

- يا أم عزيز... يا أم عزيز تعالي في المجلس... هادا الأخ محمد يبغي يكلمك.

أسرعت أمّي تنهض وتغادر الغرفة لتهبط إلى (المجلس) وهو عادة (غرفة استقبال الضيوف).. وخفّت مشاعر الخوف عندي إذ رجّحت أن الذي يستقبله الشيخ ويرحّب به مجرد (ضيف) ومع ذلك ظللت جالساً في مكاني في إنتظار أخبار هذا الضيف.. الذي سمعت الشيخ يقول إنه (الأخ محمد).

عندما عادت أمّي بعد فترة قصيرة رأيت على وجهها ابتسامة عريضة وهي تقول:

- هادا زوج فاطمة... جا يعزمنا كلنا على الغدا بكرا... والولد اللّي معاه هو أبو الخير ابن الشيخ سلطان.

***

في صباح اليوم التالي كنت مع أمّي والخالة تفيدة والطفلان والشيخ عبدالعزيز قد استكملنا ارتداء ما يليق بالعزومة من الملابس، وقبيل ارتفاع أذان الظهر كنا ندخل منزل الشيخ سلطان.. حيث كان (العم) محمد، ومعه بعض معارفه وأصدقائه يستقبلوننا بكلمات الترحيب المألوفة بينما كان أبو الخير يتقدّم أمّي والخالة تفيدة إلى حيث كانت الخالة فاطمة مع بنتها وولدها وسيدات أخريات في استقبالنا...

لا بد أن أقول إنها كانت (عزومة) ضخمة بكل معنى الكلمة.

كان هناك مجلسان... أحدهما للرجال والآخر للسيدات... ولا أذكر أين كان مجلس الرجال... ولكن مجلس السيدات كان بالغ الفخامة... ما زلت أذكر سقفه المزخرف والإطار الذهبي الذي يستوعب السقف على امتداده بزخارفه الرائعة. كما أذكر تلك المقاعد الوثيرة المتلاحقة وعليها (المساند)... وكلها مكسوّة (بالدومسك) الأخضر المشجّر الذي سمعت في ما بعد أنه يستورد من اسطنبول ولا يقتني الأثاث الذي يُكسى به إلاّ الأثرياء والوجهاء في تلك الأيام.

ينبغي أن أذكر أن العلاقة بيني وبين العم محمد، والأسرة كلها قد تطوّرت. وأن جور الظروف والأحداث التي ظلت تواجهها المملكة قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها، قد أسرفت في العصف بواقع كثير من العوائل، ومنها عائلة الشيخ سلطان أو العم محمد، بحيث لم يبق من تلك الوجاهة والأبّهة التي عشتها في يوم تلك (العزومة) إلاّ المنزل نفسه وسكانه وزخارف ذلك المجلس وقد حال لونها وبهت منظرها وقد أخذت تهب على المنزل كله رياح الفاقة والعوز ولكنها تعجز رغم استمرارها إلى حد يشبه الاستيطان عن أن تمس الكبرياء والكرامة وعزة النفوس التي لن أنسى أنها رغم هذه الظروف الخانقة كانت لا تبخل على من يلوذ بها أو يسألها العون بما يتيسر حتى ولو كان جانباً من عشاء الليلة أو غدائها. بل ولا أنسى أيام الأعياد وحاجة البعض من المعارف والجيران إلى ثياب جديدة للأطفال الذكور أو الإناث... كانت الأسرة تستعد بالميسور من الأقمشة تعكف على خياطتها الأم وتساعدها ابنتها.

وليلة العيد يتوافد هؤلاء الصغار إلى بيت الشيخ سلطان، ويخرج كل منهم وفي يده (بقشة) يجد فيها الثوب - أو الفستان للإناث - والملابس الداخلية، وعلى وجوههم ابتسامة الامتنان والعرفان.

***

يوم عادت أمّي مع الخالة تفيدة حرم الشيخ عبدالعزيز بدا أنها كانت مرهقة جداً، إذ ما كادت تستقرّ في الغرفة ثم تستحم، حتى استلقت على الفراش واستغرقت في نوم عميق حرصت الخالة أن تبعد عنها الطفلين اللذين فرحا بعودتها وأصرّت ابنتها على أن تظل في حضنها، بينما ظل ابنها يلهو باللعب التي كان اشتراها له الشيخ عبدالعزيز.

في اليوم التالي عرفت أن أمّي اعتزمت العودة إلى المدينة، لذلك تكرّرت زيارتها إلى بيت الشيخ سلطان، وفي الوقت نفسه انصرف الشيخ عبدالعزيز، لترتيب الجمل والشقدف الذي نرتفقه في الرحلة التي لا يجهل أحد أنها تستغرق اثني عشر يوماً... لم تنسَ أمّي أنها قامت بها في مجيئها إلى مكة فهي لا تهتم بطولها.. وإن كانت قد استوفت من الشيخ وحرمه معلومات عمّا يسمّى (الوسْق) الذي فهمت أن يكون في الوسط على ظهر الجمل بين جزئي الشقدف... حيث تكون أمّي في أحد الجزأين والطفلان في الجزء الآخر وأكون أنا في الوسط على ظهر الجمل مباشرة، ولا أخفي أني قد ارتحت وفرحت بذلك، وشرعت أنتظر اليوم الذي نبدأ فيه الرحلة، لم يطل إنتظارنا، فما هي إلاّ يومان حتى رأيت الشقدف عند باب البيت.

هنا تذكرت حكاية أني مطلوب عند الحكومة فكيف تستطيع أمّي أن تخلصني منها... فلم أتردّد في أن أسالها وأن أقول لها:

- هادي يا أمّي الحكومة... والناس كلّهم سمعوا المنادي... وسمعوا كمان عن مكافأة ياخدها اللّي يدلّهم عليَّ أو يمسكني.

هنا رأيتها تضحك ضحكة قصيرة لتقول:

- إنت ما تدري إني ما جيت مكة إلاّ عشان أخلصك من هادي الحكومة...

والتزَمت الصمت لحظات لتقول:

- عمّك (وهو كما نعلم زوجها) قد كتب إلى محمود بك حمدي المدير العام للعفو عنك... يعني المسألة إنتهت من يوم ما وصلت مكة... سيدي الشيخ عبدالعزيز هو اللّي سلّم المكتوب للمدير وسمع منه إنو المسالة إنتهت خلاص.

***

وصلنا المدينة المنورة بعد رحلة اثني عشر يوماً.. لا أنسى أنها كانت من أجمل الرحلات فوق الجمال لأن الأرض كلها على امتداد الرحلة تقريباً، كانت مكسوّة بالعشب بل والأزهار البرية، بل كانت بعض المواقع لا تزال تركد فيها بقية المياه التي يحرص الجمّال على أن نرتفق في خوضها خوفاً من أن يكون بعضها عميقاً يتعثر فيه الجمل.

في المدينة كانت الحفاوة بي كبيرة وليس فقط من عمّي وأصدقائه وإنما أيضاً من الأصدقاء الذين كنت أراسلهم، ومنهم على الخصوص محمد نيازي الذي كان شديد

الإعجاب بما أكتب، إذ كنت متأثراً بأسلوب جبران خليل جبران الذي عكفت على قراءة كتابه (العواصف) عدة مرات عندما كنت في مدرسة التمريض.

لفت نظري في المدينة أنها بدأت تتغيّر في بعض أسواقها، ثم في الحرم النبوي الشريف الذي أصبح لا يخلو من عدد من الذين أوكل إليهم منع الاقتراب من باب الحجرة حيث أضرحة الرسول صلوات الله عليه وصاحبيه، سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر رضي الله عنهما، ثم إنتشار الداعين إلى الصلاة في الأسواق، وفي يد كل منهم عصا يخيفون بها الذين يتأخرون عن ترك متاجرهم ولا يسرعون إلى الصلاة جماعة في المساجد، ومنها مسجد الغمامة الذي يقع في قلب السوق الذي يتميز بمحلات كبار تجار الغلال، وبأولئك النسوة اللائي يفترشن الأرض تحت ظلال أشجار (النبق) حيث يعرضن سلعاً من صنع أيديهن، كالمراوح، والمكانس المصنوعة من سعف النخل، مع (البيض) والورد والتفاح والفلِ والدوش وهي التي لا يستغني عنها بيت في المدينة، حيث لا يطيب مذاق الشاهي إلاّ بنكهتها تعبق بها الفناجين في أيدي السيدات في مجالسهن بعد الغروب.

كان عمّي قد علم بكثير من تفاصيل أسباب هروبي من تلك المدرسة، ولكنه كان يضحك وهو يطلب مني أن أقص عليه هذه التفاصيل ليسمعها ضيوفه الذين يندر أن يتخلّفوا عن قضاء السهرة معه... كان الجميع يرون أن الطبيب الذي ضربته ثم هربت يستحق هذه (العلقة) نظراً لما في سلوكه وتعامله من عنف وإهانة وإذلال.

مع أن الذين كنت ألعب معهم في حي الساحة أيام الحرب كانوا في هذه الفترة موجودين أيضاً، ولكن حياتهم أصبحت أقرب إلى الرجولة. وكان منهم من فضّل الاستمرار في الدراسة، بينما سمعت أن آخرين قد أصبحوا موظفين في الدوائر الحكومية، حيث يتقاضون رواتب شهرية، ولا أخفي أن هذه المعلومات قد أيقظت في نفسي هاجس (الوظيفة) والعمل في الحكومة، وليس رغبة في الراتب الشهري - فقد كانت حياتي برعاية عمّي رحمه الله، حياة موفورة الحظ من الرغد والرفاهة، ولكنها بادرة الطموح والتطلّع إلى أن أكون (رجلاً) كما أصبح غيري من أقراني يوصفون بأنهم أصبحوا (رجالاً)... ومع هذا الهاجس مشحوناً بالطموح، أخذت أسأل نفسي عن الأعمال التي أستطيع القيام بها في أية وظيفة فإذا بي أجد، أني بارع في الكتابة على الآلة الكاتبة... وعادت إلى ذاكرتي تلك.العناية التي خصّني بها الدكتور خيري القباني، بحيث استطعت أن أفوز بالدرجة الأولى في المسابقة

بيني وبين السيد عيدروس السقاف وشفيق الإمام، وأن يهديني الأمير فيصل تلك الساعة، والعجلة، والجنيهات الذهبية الثلاثة... كما استطعت أن أستوعب الكثير من المعلومات العامة لكثرة ما قرأت من تلك الصحف التي أكتبها بغرض إتقان الكتابة، وهي معلومات كنت أشعر بالارتياح وشيء من الزهو عندما أسمع ضيوف عمّي يتحدثون عن الأخبار وعن غيرها من الشؤون العامة التي أشعر بأني مُلمٌ بها، أو سبق أن مررت بها في ما قرأت من عشرات الصحف والمجلات بل وبعض الكتب في مكتب الدكتور خيري بك، الذي يبدو لي اليوم أنه كان أشبه بدائرة معارف يدعمها في دراساته معرفته باللغات الإنكليزية والتركية والفرنسية، واستمرار عكوفه على القراءة والبحث بحيث لا يتوقف إلاّ عندما يقابل زائريه... هنا أذكر وفي نفسي لوعة حارقة كيف عصف به الحزن عندما فقد ابنته في الثامنة من عمرها في حادث سقوطها من المِنْور في المنزل إلى قاع الدهليز... ولن أنساها، كان اسمها فاضلة كانت برعم وردة تتفتح وإشراقة حياة تشعّ الفرحة والبهجة بين من هم حولها من الأب والأم والأخوة - بل وكل من يراها - وكنت منهم حين تجيء للعب في حديقة المستشفى مع ابنة الدكتور محمود حمدي.

***

لم يطل بنا المقام في المدينة فقد صدر أمر تعيين عمّي (رئيساً للصيادلة) في مكة، فقامت والدتي بتصفية الأثاث في المنزل... ظلت تواصل بيعه في سوق الحراج، باستثناء السجاد والتحف من البلور وما شابه ذلك من الأشياء الثمينة التي أحسنت تعبئتها في صناديق صغيرة... وما هي إلاّ بضعة أيام حتى كنا على ظهور الجِمال في طريقنا إلى مكة.

أعجب ما قد يحسن أن اذكره اليوم هو أن هاجس الوظيفة ظلّ يدور في ذهني إلى أن وصلنا مكة، فإذا بعمّي رحمه الله يعود يوماً بعد الظهر من عمله في مستشفى أجياد ليدعوني إليه، ويضع يده على رأسي مبتسماً ويقول:

- إنت من بكرا موظف في مكتب المدير العام مقيد وكاتب آلة.

كان الخبر بالنسبة لي مفاجأة مذهلة، إذ لم أكن أتوقّع إطلاقاً أن أجد وظيفة بهذه السرعة، ولم يفت أمّي أن تسأل عن مقدار الراتب لتسمع من المرحوم أنه (ستة جنيهات)...

وهكذا وجدت نفسي موظفاً في مكتب المدير العام، أمامي مكتب متوسط الحجم ولي مقعد أو كرسي مثلي مثل بقية الموظفين في هذا المكتب.

كانت للمدير العام غرفته التي يفصلها عنّا باب، يفاجئنا بالدخول منه علينا... وكان رجلاً مهاباً يشعر الجميع، ليس فقط باحترامه، بل بالخوف منه... كما كان يشاركه في غرفته، مساعده الذي يقوم هو أيضاً بالدخول علينا بنظارته السميكة وصلعته الواسعة وابتسامته العريضة، ليسأل عن أوراق معينة، أو ملف يقوم أحد الموظفين بتقديمه إليه.. نسمع منه عبارة (شكراً... شكراً).

***

كنت أصغر الموجودين في المكتب عمراً وأقلّهم حجماً، وليس في وجهي شعر للشارب أو للحية... ويبدو أن واقعي هذا لم يمنع أحد الموظفين، أن يرفع صوته وهو يطلب مني معاملة من المعاملات التي أقيّدها... يناديني:

- يا ولد.

فالتفتّ إليه منفعلاً، لأقول له:

- لولا أني أحترم من هم أكبر مني سناً لقلت لك: إنت الولد.

ثم أضفت بصوت حاد: احترم نفسك.

كان يجاورني مكتب كبير يجلس وراءه بكرسي خاص يستوعب حجمه الضخم، موظف عرفت أنه رئيس (القلم) - وهو مجموعة الموظفين - هكذا كانوا يسمون القسم الذي يجمع الموظفين بمختلف تخصصاتهم.

فما كدت أنتهي من قولي منفعلاً: احترم نفسك، حتى سمعت جاري يرفع صوته ولكن من دون انفعال ليقول:

- أحسنت يا ابني.. الذي ينقص إخواننا في هذا (القلم) هو أن يحترموا أنفسهم، قبل أن ينتظروا الاحترام من الغير.

هنا نشبت معركة حوار بين جاري والآخرين اكتشفت خلالها أنه لا يتكلم إلاّ بالفصحى وأنه يحمل لقب (بيه.. بك) منذ كان يعمل في الجيش التركي وفي غير ذلك من الأعمال، مع هذه المعلومة عرفت اسمه: فهو (سعيد بك)، وهو الذي كان يدرّسنا اللغة العربية أيام الدراسة.

كانت مسؤوليته كرئيس (للقلم) أن يطّلع على كل مذكرة أو رسالة يكتبها أحدهم لتصحيح الأخطاء النحوية واللغوية... وكان مما يضحكني (بيني وبين نفسي) أنه يرفع صوته كلّما صحح كلمة - وكانت الأخطاء كثيرة - ليقول: وهذا خطأ نحوي.

ثم يضيف وهو شبه منفعل: بل هذا خطأ في الإملاء أيضاً.

ثم يتساءل بلهجة ساخرة: لا أدري في أية مدرسة تعلمتم القراءة والكتابة؟

هنا كان لا بد أن تنشب معركة الحوار بينه وبين كاتب المذكرة وترتفع أصوات الجانبين إلى حد أن يسمعها المدير العام، الذي ينتدب مساعده الذي عرفت أنه (الدكتور حسني الطاهر) يفتح الباب برفق، ويدخل فيسود الصمت ويبدو أنه كان قد ألف أسباب الشجار فيتّجه إلى (سعيد بك)، ويقف أمامه ليقول متسائلاً:

- طبعاً أخطاء نحوية ولغوية؟

- ولا تنتهي أبداً... كل مذكرة يكتبها أحدهم تحتاج إلى تصحيح... يستلزم أن يعيد كتابتها... كان الله في عون كاتب الآلة... لا أدري كيف يستطيع كتابتها..

ويضحك الدكتور حسني ضحكة خفيفة وهو يقول بلهجته المصرية:

- ما عليش يا أستاذ طوّل بالك... كلهم لازم يستفيدوا من التصحيح، وراح يجي يوم تلاقيهم كلّهم يكتبوا من دون أخطاء... إنت يا سعيد بك أستاذنا... كلّنا بنتعلّم منك...

وتهدأ ثائرة سعيد بك فيبتسم وهو يقول:

- إنت الوحيد يا دكتور الذي يكتب من دون أي خطأ..

ويمرّ بي الدكتور حسني ويقف لحظات يتأمل خلالها عملي في (دفتر) القيد... ثم يقول:

- خطك جميل ولغتك (خلاصة الموضوع) سليمة...

ثم يغادرنا عبر الباب إلى مكتبه في غرفة المدير العام.

***

كانت تلك هي بداية حياتي في وظائف الدولة، كما كانت أيضاً بداية إحساسي بأني أتمتع بموهبة في الكتابة تبشّر بأني سوف أحقق طموحاً لم يسبق أن كان مما أُعنَى بأن التفت إليه أو أحاول إفساح الطريق لتفاعله وتطلعه إلى العطاء الذي أدهشني

وألهب مشاعري. إنه الطريق إلى الشهرة ينعشها ويزيد من التعلّق بها (الإعجاب) وعبارات الثناء والإطراء.

كان الفضل في كل ذلك للدكتور حسني الطاهر رحمه الله، إذ قرأ لي رسالة أو كلاماً أكتبه إلى صديق في المدينة، فأبدى إعجابه بما قرأ، وسألني عما إذا كنت أحتفظ بغيرها، فقدّمت إليه مجموعة من هذه الرسائل التي كنت أكتبها وأضعها في درج المكتب.. أخذها وعاد إلى مكتبه وبعد أقل من ساعة عاد بها وهو يقول:

- من هم الذين قرأت لهم من الأدباء.

- جبران خليل جبران.

وتلعثمت وأنا أحاول ذكر اسم أو اسمين من الذين قرأت مؤلفاتهم التي يعيرني إياها صديق من الذين عرفتهم في مدرسة الصحة من أصدقاء فهمي الحشاني ومحمد شريف، وكان أول هذه المؤلفات التي قرأتها عدة مرات كتاب (العواصف) لجبران خليل جبران.

قال الدكتور حسني الطاهر:

- ولكن هل قرأت شيئاً للمنفلوطي.

ثم تابع قائلاً:

- أظن أنك ستستفيد لو قرأته لتحسين لغتك وأسلوبك.

ثم دخل مكتبه، ليتركني أفكر في (المنفلوطي) وأتساءل بيني وبين نفسي:

- من هو هذا المنفلوطي الذي لم يسبق قط أن سمعت عنه.

كانت مفاجأة الدكتور حسني بعد أقل من يومين أن خرج من مكتبه ومعه رجل آخر.. وفي أيديهما معاً مجموعة من الكتب..

كان الرجل الآخر زميلاً للدكتور حسني... عرفت أنه (الدكتور مصطفى عبدالخالق) طبيب في التكية المصرية.

وقفت مأخوذاً بالمفاجأة، إذ وضعا مجموعة الكتب على المكتب ليقول الدكتور مصطفى:

- هذا الذي وجدناه في (باب السلام) من كتب المنفلوطي.

وأضاف الدكتور حسني:

- والدكتور مصطفى سيطلب البقية من مصر.

لم أعرف كيف أعبّر عن شكري وامتناني... يبدو أنهما رأيا في عينيّ دموعاً، فقال الدكتور مصطفى:

- ننتظر أن نقرأ لك الكثير إن شاء الله.

وأضاف الدكتور حسني:

- لا توجد في مكة غير جريدة أم القرى ولذلك احتفظ بما تكتب لينشر في جريدة يمكن أن تظهر، أو حتى في الجرائد المصرية... فما تكتبه يستحق النشر فعلاً.

***

لا أذكر اليوم، كيف شعرت بأن قلبي يكاد يقفز من صدري، وإن رأسي قد تضخّم، فلا تتسع له الغرفة كلها.

أن يأتي يوم أرى فيه اسمي منشوراً في جريدة تحت هذه الكلمات التي أُعجب بها الدكتور حسني الطاهر وصديقه الدكتور مصطفى، فذلك حلم لم يسبق قط أن طاف بذهني في صحو أو منام.

منذ ذلك اليوم، لم أقرأ مؤلفات المنفلوطي فقط، وإنما أخذت أقرأ الكثير من الكتب التي أجدها في مكاتب باب السلام، بل وجدت نفسي أتلهّف على شراء الصحف والمجلات التي توجد في المكتبات، ومنها الأهرام، واللطائف المصوّرة والمقطم... كنت أقرأ الصحيفة من الألف إلى الياء... لا أترك خبراً، أو كلمة، أو قصيدة شعر... ثم كانت المفاجأة التي لن أنساها يوم وجدت بين ما يعرض من الصحف والمجلات، مجلة (السياسة الأسبوعية)... اصطحبتها إلى المكتب ثم إلى البيت وانهمكت ألتهم ما نشر فيها بأقلام كتّاب عرفت بمرور الأيام أنهم أعلام الفكر والأدب في العالم العربي، وهم: محمد حسنين هيكل رئيس تحرير المجلة، ثم إبراهيم المازني والدكتور طه حسين، والأستاذ مصطفى عبدالرزاق، والأستاذ عباس محمود العقاد، والشاعر إبراهيم شكري، إلى جانب رعيل من الشعراء ذاع صيتهم وتهافت المثقفون على قراءة شعرهم أينما وجدوه، إلى أن ظهرت لهم مجلة (أبوللو)، وقد كانت مجلة شعر متجدّد وشعراء تطلعوا إلى التجديد، لم يقدّر لها أن تعيش طويلاً لأن رئيس تحريرها أحمد زكي أبو شادي تركها وهاجر إلى أميركا. ولن أنسى علي محمود طه المهندس الذي ما زلت أذكر قصيدته عن ألفونس دو لامارتين، وقد بلغ إعجابي بها أن عنيت بحفظها. لعلّي ما زلت أذكر مطلعها وهو:

أسود ليت شعري أهكذا نحن نمضي

في عباب إلى شواطئ غمض

قد لا أذهب بعيداً إذا قلت اليوم إن مجلة (السياسة الأسبوعية) كانت بالنسبة لي مدرسة أدركت بالحرص على قراءتها أن (الكلمة) هي القدرة على بعث الحياة في الكون كله... ومن دونها ليس إلاّ الخواء والهباء، ثم أخذت أعيش الكلمة وأستضيء بنورها في القرآن الكريم وأشعر بأنها هي في هذا الكتاب المبين التي تكمن فيها تلك القدرة الخارقة على بعث الحياة في هذا الكون... ولا بد أني لم أصل إلى هذه الأفكار وما يتفرّع عنها - وهو كثيرجداً - إلاّ بعد عمر وجهد طويلين، كما أنها لم تتبلور في صيغتها التي تقرأ اليوم إلاّ على تراكمات من التناقض إثباتاً ونفياً ورفضاً وقبولاً... كانت تلك هذه الدوامة الرهيبة التي يغوص فيها الفكر إلى أعماق سحيقة، كثيفة الظلمة، وقد لا يطفو إلى السطح والنور، وذلك هو الضياع والبوار... ذلك ما أطبق على منطق شرائح من المفكرين لا يزالون هم الذين تعلّق بهم وتعشّق منطقهم كثير من رواد الفلسفة وعلوم اكتشاف ما قبل (الوجود) وما بعده. والوقفات الطويلة المتمرّدة الضائعة في آفاق من المجاهيل عند الخلق كما جاء في القرآن الكريم. وفي رسالات السماء... وفي هذه الوقفات خيال يبدو واسعاً مترامي الأبعاد والأمداء. يزدحم أحياناً بمسلّمات يستوعبها منطق شديد الصلف والعناد، لا يفرض عليك بصلفه وعناده هذه المسلمة أو تلك، بل يجعلك إنت الذي تفرضها أو تقتنع بها، ومن هنا يجرفك التيار لتجد نفسك في النهاية في مستنقع ربما تعود فيه إلى البداية في آفاق المجاهيل التي لا يحسم موقفها ووقفاتها إلاّ (الإيمان) بما جاء به ودعا إليه القرآن الكريم، ورسالات السماء.

***

وبعد، فإني أجد من حق القارئ عليّ أن أعطيه من هذا الحديث الذي جرَّ إليه الأدب كما شدّتني إليه، منذ بداية حياتي الفكرية، مجلة (السياسة الأسبوعية) ومعها الكثير الذي انهمكت في قراءته من الكتب التي كنت أجدها في مكتبات باب السلام.

أعفيه لأنتقل إلى مرحلة جديدة في حياتي الوظيفية، بدأت عندما سمعت أن الحكومة قد أمرت بنقل مهدي بك مدير الشرطة بالمدينة، ليكون مديراً للأمن العام بمكة.. وكنت على شبه علاقة به، كان قد تزوج من ابنة الشيخ بصراوي الذي كنت صديقاً حميماً لأبنائه، أنور، وفريد وبهجت بل كنت أعرف الفتاة التي تزوجها مهدي.

كنت أراها - قبل زواجها - في النافذة فأخصبها ببعر الجِمال، كما يفعل أخوها أنور وهو يرى أن عليها أن تحتجب فلا تقف عند النافذة، سافرة وشعرها متهدّلاً على كتفيها.. قد ينبغي ألا أجد حرجاً في أن أقول اليوم إنها كانت جميلة فاتنة، وهي في سن اليفع والتفتّح للحياة، وأن مهدي يوم تزوجها ربما كان أكبر من أبيها سناً. ولا أخفي أن موافقة أبيها على الزواج كانت موضوع تساؤل واستنكار في ذهني إلى وقت طويل.

كان الذي سمعت منه خبر تعيين مهدي بك مديراً للأمن العام بمكة هو عمّي رحمه الله، وفيما كان يتحدّث عن الموضوع، وجدت نفسي معجباً ليس بمبنى (الحميدية) الفخم، وربما كان هو المبنى الوحيد - في تلك الأيام الذي يقف على كل من بوابتيه الكبيرتين وإحداهما في مواجهة أبواب الحرم الشريف في الشارع العام والآخر في الشارع الذي توجد فيه مطبعة الحكومة التي سُميت في ما بعد جريدة أم القرى (وقبلها جريدة القبلة) - يقف جنديان مسلحان يؤديان التحية العسكرية عند دخول أو خروج الضباط... وذلك مشهد أعاد إلى ذاكرتي مشاهد وحركات أولئك الجنود والضباط الذين كنت أراهم في قلعة حلب، عندما كانت في حوزة الأتراك حين كانوا في قلعتها العتيدة، والذين كنت أعجب بهم أيّما إعجاب. ومع هذه الموجة من المشاعر المتوفّزة، تساءلتُ:

- ما الذي يمنع أن أنتقل إلى وظيفة (مقيد أوراق - ولكن في الحميدية) - بكل ما يحيط بها من فخامة وأبّهة... الوظيفة نفسها التي أشغلها في مديرية الصحة العامة... ليس فيها من جديد، سوى أني سأكون بين من يزدحم بهم المبنى من الجنود والضباط، ثم جماهير الناس الذين كانوا يترددون على المبنى الذي كان يجمع في الدور الثاني منه عدداً من المصالح الحكومية، والذي تقع فيه القاعة الكبرى التي يجلس ويستقبل فيها ابن سعود الكثيرين من الأهالي والبادية، وكبار الموظفين عندما يكون في الحجاز.

حزمت أمري على تحقيق هذا المطمع.. وكان عمّي يعرف مهدي بك إذ هما معاً من بقايا الجيش التركي... فتقدّمت إليه، وعرضت عليه الفكرة، فابتسم، وهو يقول:

- أنا ومهدي أصدقاء ويسرّه أن يقدم لي أي خدمة... ولكن كيف تتخلّص من وظيفتك في الصحة... لا بد من التفاهم مع محمود بك حمدي أولاً.

لا أعرف تفاصيل ما تمّ التفاهم عليه وأكتفي بأن اذكر أن عمّي ناولني غلافاً فيه رسالة إلى مهدي بك... وهو يقول:

- خلاص... إنت من اليوم موظف في مكتب مدير الأمن العام.

أسرعت إلى مبنى الحميدية، وسألت عن الغرفة أو المكتب الذي أقابل فيه مهدي بك... ووجدتها... ولكن على الباب (باب الغرفة) جنديان مسلّحان، منعاني من الدخول وقال أحدهما وهو يشير بيده إلى غرفة بجانبه:

- تقابل محسن أفندي أولاً... وهو الذي يدخّلك غرفة (البيه).

دخلت غرفة محسن أفندي، لأجده أمامي ومعه موظفان كان أحدهما عبدالسلام الساسي رحمه الله.

مدّ محسن أفندي يده إلى الرسالة التي أحملها إلى مهدي بك.. قدمتها إليه... ففض الغلاف وقرأ الرسالة... ثم قال:

- اتفضل استريح شويه...

لم يطل إنتظاري فقد دخل محسن أفندي غرفة مهدي بك من باب جانبي يفضي إلى مكتب المدير العام.. وخرج وهو يقول:

- اتفضل.

ودخلت خلفه إلى غرفة مهدي بك... كان يجلس خلف مكتب عريض، وفي الغرفة عدد من المقاعد ولا أخفي أنه كان على جانب كبير من المهابة والرهبة... وقدّمني محسن أفندي، ثم غادر إلى مكتبه... إنتظرت أن يسمح لي مهدي بك بالجلوس ولكنه تركني واقفاً لحظات قرأ خلالها الرسالة.. ثم أنزل النظارة التي يرتفقها عن مكانها المألوف من أعلى أنفه إلى الأرنبة ثم قال:

- هذه المعلومات عنك طيبة... محسن أفندي يرتّب لك العمل...

وبعد أن سرح بنظر في الغرفة قال:

- أظن تعرف تتكلّم اللغة التركية.

وما كدت أقول له:

- نعم أعرفها جيداً.

حتى ملأت وجهه ابتسامة عريضة وأخذ يسألني باللغة التركية عن مواضيع أجيبه

عليها بإتقان ودقة... والأرجح أنها كانت نوعاً من الاختبار... قال بعدها بالعربية:

- تعرف اللغة التركية أحسن من محسن أفندي.

- هنا رفع صوته منادياً أحد الجنديين على باب غرفته، وأمره أن يذهب بي إلى محسن أفندي... وأسرع يعيد موقع النظارة ليقرأ ما كان منثوراً أمامه من أوراقه..

يطيب لي اليوم أن اقول إن إجادتي اللغة التركية التي يفضّل مهدي بك التحدث بها ويسرّه أن يجد من يعرفها ممن يزورونه من أكابر الأهالي - وكثيرون منهم يعرفونها لأنهم كانوا من موظفي الدولة العثمانية قبل حكم الأشراف - ثم حكم ابن سعود - كانت معرفتي بهذه اللغة هي قبل أي شي التي وثّقت علاقتي به ووضعتني في المقدمة من الموظفين الذين يعتمد عليهم، بل ويعطف عليهم إلى حد ملحوظ. وقد يكون من المضحك أن يعلم القارئ أن عطفه، الذي يملأ قلوبهم امتناناً وعرفاناً، كان يتجلّى عندما يوافق على إعطاء أحدهم (سلفة على الراتب)...

اترك للقارئ أن يحاول معرفة مقدار هذه السلفة التي يتقدّم بطلبها الموظف، ولا يوافق عليها مهدي، إلاّ بعد تردد ووقوف أمامه أكثر من مرة.

إنها لا تتجاوز قط مقدار (ريالين)... تُحسَم من الراتب الشهري الذي كان في العادة - أيامها - لا يصرف إلاّ مرة كل شهرين أو ثلاثة شهور (ريالان فقط) يتقدّم الموظف بسند استلامها وفيه النص بأنها (سلفة)، يذيّله مهدي بتوقيعه العريض... وكأنه يوقّع إيصالاً بالمئات والألوف.

في الواقع إن اسعار السلع التي يحتاجها الموظف أو المواطن لتأمين معيشته مع أسرته الكبيرة - وغالباً ما يكون بينها الأم والأب والأخوة والأخوات - تبدو تافهة إذا قيست أو قورنت بأسعارها هذه الأيام... كان الريال الواحد يملأ البيت بما يحتاجه - وليس فقط ليوم واحد، بل لأسبوع أو ربما حتى لأسابيع.

***

مدير الأمن العام منصب ضخم ولكن مسؤولياته كانت تكاد لا تتجاوز مكة والمدينة وجدة والطائف أو فلنقل مدن الحجاز التي كان الأمير فيصل نائباً للملك عليها.

جاء الوقت الذي وجدت فيه الحكومة أن الكثير جداً من المدن في نجد وغيرها من مدن المملكة تحتاج إلى الشرطة... وكان من السهل تجنيد (الأفراد) وتدريبهم،

لكن المشكلة كانت في القادة والضباط... إذ لم يكن في مكة وجدة والمدينة إلاّ ذلك العدد القليل جداً من الضباط من بقايا عهد الأشراف والأتراك. وفي الحديث الذي كان يدور بيني وبين محسن أفندي عن هذه المشكلة اشتعل ذهني بفكرة فتح أو تأسيس مدرسة لتخريج ما يحتاجه الأمن العام من الضباط.

لم أصارح أحداً بالفكرة، ولكن شرعت أخطط لتنفيذها، ثم لم أتردّد في أن أقابل مهدي بك وأقول له إننا نستطيع أن نؤمن حاجة الأمن العام إلى الضباط...

أنزل نظارته من موقعها في أنفه إلى الأرنبة، ثم سألني مندهشاً: كيف؟

فقلت:

- نفتح مدرسة للشرطة.. طلابها من هؤلاء الذين يعملون (كتّاباً برواتب جنود) وعددهم كبير في القسم العدلي، والإداري والتحرير والمحاسبة... كانوا يعملون في هذه الأقسام كتّاباً أو مساعدين. ولكنهم يقيّدون كجنود، ويتقاضون رواتب جنود، إذ لا توجد وظائف. ثم تلاميذ (دار الأيتام) التي كان أسسها مهدي بك بموافقة الأمير فيصل والكبار الذين إنتهوا من دراستهم الابتدائية... كلهم سيفرحون جداً إذا وجدوا أن أمامهم فرصة ليكون لهم مستقبل وظيفي أفضل من واقعهم.

قاطعني قائلاً:

- ولكن أين البناية التي نفتح فيها هذه المدرسة؟.. ثم أين الأساتذة؟

فأكملت له شرح المخطط، فالأساتذة هم الضباط الموجودون... وأما البناية فهي تلك القاعة الواسعة واسمها (القاووش) التي تستوعب أكثر من خمسين طالباً وهي تستخدم الآن لراحة الجنود، ثم قلت:

- لقد اتفقت مع نجّار أعرفه لصنع المقاعد والسبورة... وسأدفع له قيمة كل ذلك بالتقسيط.

***

فتحت المدرسة، ونجحت الفكرة وتخرّج منها عدد من ضباط الصف، برتب، منها (عريف ممتاز) و(نائب) إلى (وكيل ممتاز)... يذكر الكثيرون من المواطنين اليوم أن من بين هؤلاء مَنْ وصل إلى رتبة اللواء بل - إذا لم تخني الذاكرة - إلى رتبة (فريق) ويمكن القول إنهم قد ملأوا الفراغ طوال سنين، وأمّنوا حاجة الأمن العام إلى خدمة الأمن أو الشرطة في جميع أنحاء المملكة... وعلى الخصوص منها تلك المناطق

النائية التي كانوا يتهيّبون العمل فيها. ولكن مع مرور الزمن من جهة، وتحسُّن الدخل وسبل المواصلات والاتصال من جهة أخرى، أصبحوا يجدون فيها الوسائل لتحسين أوضاعهم وشق الطريق إلى حياة أفضل مما لو ظلّوا في المدن الكبيرة.

***

كان الشيخ يوسف بصراوي، وهو والد زوجة مهدي بك، رجلاً ودوداً كما يمكن أن يقال إنه كان على جانب من الثقافة. وكان يشعر الجالس إليه أنه في المستوى أعلى من أقرانه من رجال المدينة في تلك الأيام، وعرفت مع الأيام أنه ممن درسوا في اسطمبول في جامعة ربما كانت معروفة باسم (دار الفنون)، وكان في المدينة من هؤلاء، السيد حسين طه والأستاذ ماجد عشقي وربما آخرون لا أعرفهم.

المشكلة مع الشيخ يوسف، رحمه الله، هو ضعفه في اللغة العربية التي أصبحت هي اللغة الوحيدة التي لا بد أن يجيدها الموظفون في جميع مصالح الدولة.

كانت المفاجأة بالنسبة لي، أن طلب مني مهدي بك أن أقابله، وقال لي السيد محسن حواري، وهو كما نعلم رئيس القلم، أو ما يعرف هذه الأيام، باسم (مدير مكتب.. المدير.. أو الوكيل، أو الوزير) قال لي:

- يا بختك... إنت صدر الأمر بتعيينك (كاتب ضبط) مع رئيس القسم العدلي العم يوسف بصراوي في المدينة. وما هي إلاّ دقائق حتى قابلت مهدي بك وسمعت منه أن الأمر قد صدر - (وأيامها كانت أوامر تعيين ونقل الموظفين تصدر من نائب جلالة الملك) - بتعيينك (كاتب ضبط) عند رئيس القسم العدلي في المدينة وبعد أن أنزل نظارته إلى الأرنبة من أنفه قال وفي وجهه ظل ابتسامة:

- وقد ازداد راتبك... راجع المحاسب أبو الخير وقد أمرته بإجراء اللازم لسفرك بسيارة البريد. وأسرعت أراجع المحاسب الأخ عبدالقادر أبو الخير الذي ما كاد يراني، حتى بدأ يقول:

- مبارك... مبارك... سيارة البريد تسافر يوم السبت... واليوم (الربوع)... يعني تجهّز نفسك للسفر من دون أي تأخير... هادا أمر مهدي بك بنفسه.

لم أجد حرجاً في أن أقول:

- مهدي بك بشّرني بزيادة في الراتب... كم هادي الزيادة؟

ابتسم وهو يدور بنظراته على الموظفين حوله ليقول:

- تحمد ربَّك، والشكر لله... الزيادة ما هي قليلة.

- طيب... لكن كم؟

- ريالين...

اعترف بأني صعقت، وظللت فاغراً فمي أمامه لحظات، إذ ما قيمة الريالين لموظف ينقل من عمله في مكة إلى المدينة؟ ولكن لا سبيل إلى المناقشة والرفض، لأن أوامر النقل والتعيين في وظائف الدولة في تلك الأيام، مهما كان شأنها وأهميتها كانت تصدر بأمر (سام) بتوقيع الأمير فيصل بن عبدالعزيز، وهو النائب العام في الحجاز... فما الذي يمكن أن يوصلني إلى مقام سموّه لأرجوه بقائي في وظيفتي في مكة.

مع أني لم أكن راضياً أو حتى متطلعاً إلى واقع أفضل. فقد كانت المفارقة في البيت إذ فرحت أمّي فرحاً شديداً. بلغت بها أنها أخذتني في حضنها وقبلتني وهي تقول:

- أنا من زمان قلت إنك (رجّال). وكل يوم أصلّي وأدعي لك... هيا روح المدينة رجّال وسيد الرجال... الله يكون في عونك... ولما عمّك يجي بعد شوية ويسمع بالخبر... هوّه كمان رايح يفرح ويساعدك باللي يقدر عليه.

وبعد أن التزمت الصمت بضع لحظات قالت:

- لكن يا ترى فين رايح تسكن يا عزيز؟

والواقع أني كنت خالي الذهن تماماً من حكاية السكن، بل لم يخطر ببالي أني سأحتاج إلى غسل الملابس، وسرير النوم، إلخ، وكل ذلك في منزل آوي إليه. عندي مبلغ من المال أستطيع أن استأجر به منزلاً، ولكن ماذا عن الكثير جداً من الحاجات التي لا يستغني عنها من يعيش منفرداً وحيداً.

هنا لا أخفي أني تذكّرت صديقي (محمد نيازي) ابن العم إسماعيل الذي كان أول من عاملناه بعد العودة إلى المدينة من تلك الهجرة إلى الشام أيام الأتراك... كان صاحب ما كان يسمّى (مغازة) يتاجر فيها بالأقمشة الصوف للشتاء والحرير للصيف، وكان محمد نيازي هو ابنه الثاني أو الثالث وقد استمر في المدرسة الراقية، ولكنه كان شغوفاً بالأدب، ومن هنا كان إعجابه البالغ بما كنت أكتب إليه من رسائل تعجبه أيّما إعجاب.

***

النوم في «القهوة»..
والعمل في الشرطة

كانت سيارة البريد قد وصلت (المناخة) في المدينة مع أذان الظهر... وكنت جائعاً فاشتريت قرصاً من الشريك وقطعة من الجبن الزقزق، وتركت السيارة وفيها اللحاف والمخدة والسجادة... بل نسيتها كلها تماماً، فإذا بالسائق يرفع صوته ينادي (الذي نسي فراشه) فأسرعت إليه وحملت على كتفي ما ناولني إياه، وفي فمي لقمة الشريك والجبنة.

وقبل أن أغادره قال: اسمع.. عندك فلوس وإنت باين عليك غريب؟

شكرته قائلاً... عندي ما يكفيني لمدة شهر، بس المشكلة في البيت ما أعرف فين أنام؟

وضحك وهو يقول:

- شايف هاديك المراكيز اللّي في البرحة الكبيرة، هادي قهوة تروح تنام فيها والأجرة ريال في الليلة والشاهي والطلبات كلها عليك.

ما كدت أسمع ما قال، وأرى القهوة التي ذكرها حتى أسرعت أمشي إليها.

***

قضيت تلك الليلة في هذه القهوة... وقد كانت ليلة اكتشفت فيها أنها ليست قهوة فقط، بل هي إلى جانب ذلك مجمّع لقصّ وسماع القصص الشعبية، يجلس لقراءتها رجل بصوت يسمعه الجميع، ولا تخلو القراءة من انفعال القارئ، بالإنتصار الذي حقّقه البطل فيرفع يده، وقد يهوى بجُمعها على المنضدة الموضوعة أمامه، وعليها بالطبع (براد الشاهي) الذي لا يكاد يفرغ حتى يجيئه صاحب القهوة ببراد آخر... ولم يكن غريباً أن ينفعل جمهور المستمعين معه فيتصايحون، إما إنتصاراً للبطل، أو رفضا

لهذا الإنتصار لأن مشاعرهم محتدمة مع البطل الآخر، واستلزم ذلك أن أظل ساهراً إلى وقت يعتبر متأخراً من الليل في تلك الأيام.

***

عندما استيقظت في الصباح، كنت قد عقدت العزم نهائياً على أن أكون ضيفاً على منزل صديقي محمد نيازي ولا مانع أبداً أن أدفع أي مبلغ يطلبه هو، أو والده العم إسماعيل لقاء السكن وربما المعيشة، وأعني الأكل والشرب، إلخ...

كنت أعرف الطريق إلى هذا البيت فحملت الفراش، وأخذت اتّجه إلى حيّ (الساحة) بعد أن دفعت لصاحب القهوة ما طلبه وهو مبلغ زهيد جداً... وفي هذا الحي يوجد ما يسمّى (زقاق) اسمه زقاق (سيدنا مالك) لأنه يبدأ بمبنى صغير هو ضريح سيدنا مالك... وكان الزقاق يتميّز بعدد من البيوت، جديدة المظهر، ومتشابهة، عرفت في ما بعد أنها بيوت (مجاوري المدينة) من (القازاق).

باختصار، طرقت باب البيت الذي أقصده لأسمع صوتاً نسوياً يسأل (مين..؟).. ولم أدرِ بماذا أجيب غير أني قلت:

- أنا إبغا محمد نيازي.

- إنت مين؟

- أنا عزيز... صاحبه.

- هوَّه دحّين ما هو فيه... تعال بعدين...

- لكن أنا جاي من مكة... وما أعرف مكان أنزل فيه إلاّ بيتكم...

فقالت بعد صمت لحظات:

- أصبر... أقول لأمي...

غابت فترة... ثم سمعت صوتها يقول:

- أنا أفتح لك الباب.. تدخل وتطلع إلى المجلس وتقعد فيه الين يجي بابا أو محمد أو إبراهيم لكن لا تنسى تصك الباب..

- لكن مين اللّي يفتح الباب دحّين..؟

- أنا أجر الحبل... ينفتح الباب.

وبالفعل أحسست بحركة جر الحبل، وانفتح الباب فدخلت الدهليز المعتم، لم

أجد صعوبة في الاهتداء إلى (الدرج) فصعدت لأنتهي إلى المجلس الذي تقرّر في ما يبدو أن أكون نزيلاً فيه:

لهذا المجلس روشان صغير يطلّ على الزقاق هو النافذة الوحيدة التي تستقبل الهواء. وألقيت نظرة حولي لأرى أرففاً فرحت أرى كل رف منها يحمل كتباً ضخمة ولكنها كانت قديمة التجليد...

ألقيت الفراش جانباً وجلست على المقعد الطويل الذي يسمونه (كرويت) على امتداد الغرفة الصغيرة... ولم أتردّد في أن أتناول واحداً من المجلدات الضخمة، وإذْ فتحت غلافه وجدت أن اسمه (تفسير البيضاوي)... لم يسبق لي قط أن سمعت بهذا التفسير أو بغيره من مؤلفات تفسير القرآن الكريم... ولم أجد - مع ذلك - ما يمنع أن أقرأ أو أن أشغل وقتي بقراءة هذا التفسير... ولا أدري حتى اليوم كم من طلاب العلم قرأه، وهو في عدد من المجلدات، وشرعت أقرأ، لأجد نفسي منسجماً وراغباً في الاستمرار، وعيناي في الوقت نفسه على تلك المجلدات التي أيقنت أن فيها الكثير مما لا يستغني عنه كل طالب علم.

سمعت طرقاً على باب الغرفة، ثم سمعت صوتها تقول:

- ماما تسأل عن الوالدة.. كيف حالها.. هل هي في مكة؟

- هي بخير والحمد لله في مكة.

- ماما تقول تحب تشوفك... تقدر تطلع تسلّم عليها.

كانت هذه الدعوة مفاجأة بالنسبة لي... وبطبيعة الحال رحّبت بها.. ونهضت عن مقعدي، وأنا أسمعها تقول:

- هيّا اتفضّل تطلع لها في المجلس الكبير.

رأيت عندئذ الفتاة التي أتاحت لي أن اراها ترتفق ما يستر شعرها ويدور حول وجهها وهو ما يسمّى (شرشف) أو الطرحة بلهجة إخواننا المصريين... وأخذنا نصعد السلم الطويل.. لنصل إلى المجلس الكبير حيث رأيت السيدة الوالدة جالسة في الصدر.. مشيت بخطوات متردّدة إلى أن اقتربت منها فانحنيت وقبّلت يدها... أشارت بيدها إلى مقعد صغير.. جلست عليه.. لأسمعها تتكلم ولكن بلكنة تركية أو (قازاقية)... سألتني عن والدتي... وعن زوجها - تقصد الدكتور - وكم أولادها من زوجها فأجبتها... ثم استأذنتها لأعود إلى المجلس الصغير.. فقالت ما فهمت أنها

تنتظر إبراهيم - وهو ابنها الكبير -، ونيازي، لنتناول معاً وجبة الغداء.

لا أخفي أني قد فرحت بهذه الدعوة، لأني كنت منذ أن دخلت المجلس الصغير، ومع تفسير البيضاوي أخطط للخروج إلى مطاعم (الكباب) التي أعرف مواقعها في المناخة وباب المصري لتناول وجبة الغداء.

مع عودتي - بعد استئذانها - إلى ذلك المجلس الصغير، وقبل أن استغرق في قراءة البيضاوي سمعت حركة وصوت الآنسة وهي تقول:

- عندنا ضيف... في المجلس الصغير... بينتظرك.

- مين هادا الضيف اللي...؟

وبنبرة لا تخلو من توتر:

- اللّي تدخّلوه وما عندكم رجّال؟

قالت وفي صوتها ما ينم عن الابتسام:

- هادا صاحبك عزيز... اللّي كنت تجيب أخبار نجاحُه.

وبدهشة تداخلها هزّة الفرح قال:

- متى جا؟

- اليوم قبل ساعة...

ووجدت نفسي أترك مقعدي، وأمشي خطوات إلى الباب لأرفع صوتي قائلاً:

- أيوه يا أخي... أنا عزيز وقاعد إنتظرك.

تقابلنا، وكل منّا يكتنز شحنة من الشوق إلى هذا اللقاء الذي أراد الله أن يتم بصدور الأمر بتعييني (كاتب ضبط) في شرطة المدينة.

في المجلس الصغير ومجلّد تفسير البيضاوي إلى جانبي، أخذنا نتبادل الأحاديث وأخبار الأصدقاء الذين قال إنه كان يقرأ لهم كل رسالة تصله مني - وهي كما قد يذكر القارئ - تلك التي شاع فيها تأثير جبران خليل جبران بعد قراءة كتابه: (العواصف) قبل حادث (ضرب) الدكتور والهرب نهائياً من مدرسة الصحة - وأعني مدرسة التمريض - بالطبع.

كما حدّثته عن وظيفتي في شرطة المدينة حدثني هو عن وظيفته في (دائرة الأوقاف) وابتسمت سعيداً وهو يقول: إن المدير هو السيد حسين طه مدير المدرسة

الراقية الهاشمية أيام حكم الأشراف. فقلت من جانبي إن مديري هو (الشيخ يوسف بصراوي). فسرعان ما علّق قائلاً وهو يبتسم:

- يا بختك... إنت عارف إنّو والد أنور وفريد...

لا بد للقارئ أن يعلم أن (أنور) كان رحمه الله وسيماً تلاحقه نظرات الشباب بالإعجاب واللهفة الحبيسة في الصدور إذا ما رأوه يمشي إلى جانب أبيه أو ذاهباً إلى السوق لشراء حاجة المنزل من الخضار واللحم كما كانت عادة منازل المدينة في الاعتماد على الأبناء للقيام بهذه الأعمال.

ومع قوله (يا بختك) وابتسامته العريضة، أدركت أنه لا يختلف عن الآخرين المعجبين بجمال أنور، أو بعبارة أخرى الذين بلغ بهم الإعجاب حد (الحب والعشق).

كان هذا هو واقع الحياة والناس في مرحلة الضمور والانغلاق، تلك التي عاشوها قبل هذا الانطلاق والانفتاح على ما أسفرت عنه حركة التطوّر والإنتعاش التي أصبحوا ينعمون بها في هذه الأيام.

لا يفوتني أن أصف مائدة الغداء التي رأيت نموذجها لأول مرة في منزل الصديق محمد نيازي... فقد كان جلوسنا حول (طاولة) مرتفعة عن الأرض قليلاً تجلس على الصدر منها أم نيازي بكل ما تتميّز به من وقار وهيبة، ونجلس نحن في أماكن تعيّنها بإشارة من إصبعها... ولا يمد الواحد منّا يده قبل أن تبدأ هي بمد يدها، بل لا يرتفع لنا صوت ما لم تأخذ هي في الحديث بتلك اللكنة التركية (القازاقية).

وقد لاحظت أن ألوان الأكل محدودة لا تزيد على لونين أحدهما الرئيسي وهو حساء فيه قطع من (معجّن) وقليل من اللحم والآخر طبق من الرز (البخاري)... وأمام كل منا طبقه الذي يقدمه لتغرف له فيه ما يكفيه... إضافة إلى الملعقة والشوكة والسكين... يستعملها على الطريقة الإفرنجية التي كانت مألوفة عندي، ولكنها لم تكن مما اعتاده الناس...

كانت مائدة نموذجية بالنسبة للمألوف من هذه الموائد لدى عامة الناس.

اكتشفت أن لهذه المائدة اسماً هو (دَسْترخان) وأن اسم السيدة هو (نفيسة أبا) والباء إفرنجية اللفظ، وهو لقب تستحقه السيدة الكبيرة، كالجدَّة، أو حتى الأبناء والبنات الكبار الذين تجاوزوا مراحل الطفولة واليفع.

فرغنا من تناول الغداء، ثم إنتظرنا أن نغادر المائدة، والتقليد الذي يبدو أنه متبع هو إنتظار ما يشبه الإذن منها يصدر بإشارة من إصبعها... وقد كان، فنهضنا، وأخذني محمد نيازي في يده إلى المجلس الصغير في الطابق الأول من هذا البيت، حيث عدنا لتبادل الأحاديث عن المدينة في هذه الأيام، وعن عمله مع السيد حسين طه، وقد حرص على أن يشكر الظروف التي أتاحت له هذه الوظيفة مع (الأستاذ) الذي كان محبوباً من جميع الطلاب في المدرسة الراقية الهاشمية، وبالمناسبة قال نيازي إن المدرسة لا تزال في موقعها بالقرب من باب المجيدي، ولكن الذي تغيّر هو اللافتة بأعلى الباب والأساتذة أو المدرّسين، إذ هناك مصريون وسوريون، سمع نيازي أنهم متميزون والتلاميذ الذين إنتقلوا إليها من الهاشمية، يمدحونهم كثيراً.

***

في صبيحة اليوم التالي بعد سهرة طويلة مع مجلّد تفسير البيضاوي، تهيّأت للبدء في العمل مع الشيخ يوسف بصراوي في شرطة المدينة... لم تكن مشكلة أن أجد الطريق إلى مبنى المديرية، إذ كنت أعلم أن اسمه (الخالدية) في منعطف من ساحة المناخة... وعندما أخذت أصعد السلالم القليلة في المدخل، وقف أمامي جندي من الشرطة ببزته العسكرية... يسألني:

- هل تريد مراجعة خليل بك... لا تتعب نفسك فقد خرج منذ ساعة.

- كلا أريد رؤية الشيخ يوسف بصراوي، مدير القسم العدلي.

- أدخل... وغرفته إلى الشمال. على بابها لافتة (القسم العدلي).

رأيت الشيخ يوسف بصراوي، جالساً خلف مكتبه العريض يتحدّث أو يحقق مع شخص، كان يرفع صوته ليؤكد أنه (قد دفع المبلغ الذي... إلخ..).

التفت الشيخ يوسف بعد أن أزاح النظارة التي يستعين بها على القراءة... ليراني داخلاً الغرفة رافعاً يدي بتحية عسكرية... فابتسم ابتسامة عريضة وهو يقول:

- إنت عزيز... متى وصلت؟

- منذ يوم الاربعاء...

فضحك ضحكة خفيفة وهو يقول:

- لازم نزلت عند أحد من الأقارب.

- فعلاً... ولكن بعد أن قضيت ليلة في القهوة.

- في القهوة؟!

- لأني لم أكن قد قرّرت النزول عند أحد من الأقارب.

ضحك وهو يقول للرجل الذي ظلّ ينتظر:

- طيّب... روح اليوم... وتعال بكرا.

ثم يقول لي:

هيا اتفضل ورا هادا المكتب، وأشار بيده إلى مكتب خلفه كرسي خيزران، فأسرعت وجلست... ولقد لفت نظري أن سطح المكتب نظيف وممسوح بعناية.

استأنف حواره معي ليقول:

- سيارة البريد التي جئت بها... هل كانت طيبة؟ مريحة؟

- لولا (المطبات)... وبالخصوص عندما اقتربنا من المدينة.

- ولكن (السوّاق)... هل كان جيّداً؟

- أظن أنه جيد فهو كبير في السن ومؤدّب.. وقد سمعت منه أنه هندي ويعرف عمله منذ كان في الهند.

- أنا يمكن أسافر مكة بعد أسبوع... يعني إن شاء الله ما أتعب.

- تسافر مكة بعد أسبوع؟... عسى خير..

- مهدي بك - إنت عارف إنّو زوج بنتي، طلب إني أروح مكّة عشان أشوفها وأقعد معاها كم يوم...

- لكن مين اللّي يمسك القسم لمّا تسافروا...

وضحك ضحكته الخفيفة وهو يقول:

- البركة فيك... مهدي بك قال إنك يمكن تمسك القسم لما أسافر ثم بعد أن توقف عن الكلام لحظات قال:

- الحقيقة... مهدي مدحك كثير... قال إنّو يمكن الاعتماد عليك... وما يحتاج أني أوكّل أحد من الضباط اللّي مع الأسف ما يعرفوا البلد... ولا يعرفوا الناس... وضحك وهو يقول:

- وكمان ما يعرفوا اللغة العربية... شوام متعلمين في المدارس التركية..

- لكن خليل بك مدير الشرطة يمكن... ما يوافق..

- خليل بك عراقي - ومهدي عراقي... يعني ما يمكن يعترض على أي أمر من مهدي... وهوّه عارف إنك جاي عشان تمسك العمل معي.

- أنا ما أعرفه ولا يعرفني... أظن يمكن تعرّفوه إني رايح أمسك القسم لما تسافروا.

- بكرا إن شاء الله، أقدّمك له... وعلى فكرة... هوّه ما عنده غير إنّو يحوّل المشاكل اللّي ترسلها (الامارة)... إلى القسم العدلي... يعني يمكن تتعب معاه شوية... لكن أنا رايح أفهّمه... لا تشيل هم..

- أبداً... أنا اللّي يهمني هوّه أني اشتغل وأأدي الواجب على أحسن ما يكون.

- أنا عارف..

ثم فتح أحد الأدراج في مكتبه، ليخرج منها رزمة من الأوراق... القى عليها نظرة عاجلة. ثم مدّ يده بها وهو يقول:

- هادي معاملات... تتصرّف فيها بمعرفتك... تكتب المذكرات إذا كانت تحتاج إلى الكتابة... الحاصل ربنا يكون في عونك...

تناولت الأوراق... ثم وضعتها في أحد أدراج مكتبي الصغير... وأنا أحمد الله على هذه الثقة... ثم قلت:

- إذا وجدت في المعاملات ما يستلزم إحضار شخصي أو أشخاص... ما هي الجهة التي أطلب منها إحضارهم.

- يوجد موظف مختصّ بعمليات الإحضار هو السيد ياسين... ترسل إليه ورقة الطلب... وهو يقوم بهذه المهمة... وعند حضور المطلوب يرسله إليك... أو يجيء به معه. والعسكر الموجودين عند باب القسم تحت أمرك. سأعطيك أسماءهم بكرا إن شاء الله... والآن عن إذنك... أنا لازم أروح البيت دحّين... عشان أبشّر أم أنور... إنّو يمكن أسافر مكة بسيارة البريد في هادا الأسبوع... وهيّه بتفكر في بنتها، وتبغا إني أكون عندها اليوم قبل بكرا...

وارتفق العباءة والعقال الأسود على الغترة البيضاء.. وأخذ طريقه للخروج... نهضت عن المكتب وأنا أقول:

- في أمان الله... أشوفكم بكرا إن شاء الله.

- إن شاء الله... في أمان الله...

خرج الشيخ يوسف لأجلس وأبدأ الاطلاع على المعاملات التي تركها لي... وفي نفسي شعور بالزهو والفخر والثقة بأني قد بدأت منذ اليوم أعيش حياة رجل أتاح الله له أن يضطلع بمسؤوليات موظف كبير... هو رئيس القسم العدلي... هنا رجعت بي الذاكرة إلى مشاعري يوم صدر الأمر السامي بتعييني كاتب ضبط بزيادة ريالين في الراتب، وهو مبلغ زهيد، بالطبع... ولكن ما أغدقه الله عليّ اليوم من نعمة الاضطلاع بمسؤوليات موظف كبير - هو رئيس القسم العدلي- الذي يأتي ترتيبه بعد مدير الشرطة مباشرة، هذه النعمة كانت هي العوض الذي يجعلني أتناسى أو أتجاهل وقع الزيادة الضئيلة في الراتب فلا أقيم لها وزناً أو حساباً، بقدر ما أنظر إلى المستقبل البعيد الذي بدا لي حافلاً واعداً بالكثير من التقدّم والرقي في مجال العمل الرسمي، وهو مجال لا حدود له ما دمت أحرص على أن أعمل بما ينبغي من الجد والإخلاص والإجتهاد.

***

ما هي إلاّ بضعة أيام سافر بعدها (العم يوسف كما أصبحت أسميه، وهو ما كنت أسمعه من الآخرين حين يراجعونه)... وأخذت أباشر مسؤولياته على ضوء المعاملات التي تركها لي، وقد ملأني زهواً أن الجنديين على باب (القسم العدلي) وكذلك الجنود على باب (الخالدية) يؤدون لي التحية العسكرية التي يؤدونها للرتب الكبيرة... ولا أخفي أن هذا الزهو قد أخذ يستقرّ في نفسي ويحكم سلوكي وتصرفاتي ربما حتى اليوم...

أما عن السكن وضرورات المعيشة من مأكل وغسيل الملابس، فقد أحسست بعد مدة لم تطل بأني أصبحت ثقيلاً على أسرة محمد نيازي، وأن عليّ أن التمس لنفسي سكناً مستقلاً، ونجحت بعد بضعة أيام في العثور على سكن في عمارة شاهقة خالية من السكان من وقف آل المدني، تقع في زقاق من أزقة منطقة (جوّه المدينة)... وكان السيد أمين مدني رحمه الله، هو الذي أرشدني إليها... وتمّم إجراءات استئجارها لقاء مبلغ زهيد جداً...

اخترت غرفة واسعة في الطابق الثالث مع مرافقها... ومن سوق الحراج اشتريت

فراش النوم، وسجادة أو مفرشة كبيرة غطّت معظم أرض الغرفة إلى جانب لوازم غسل اليد، والاستحمام، إلخ...

كان الصعود إلى هذا الطابق الثالث بعد الغروب مشكلة مستعصية لا سبيل إلى حلّها إلاّ الشموع أحملها في جيبي، لأني استكثرت أن أضيء السلالم بفوانيس في كل طابق.

اكتشفت مع مرور بضعة أيام، أن من مزايا هذا السكن أني أستطيع أن أتفرّغ لقراءة الكتب التي اشتريها من (الكتبيَّة) وهم: (أصحاب محلات بيع الكتب) في باب السلام... وقد استفدت كثيراً من هذه الكتب التي يصعب أن أتذكّرها الآن، والتي كنت أقرأها بنهم واستمتاع كبيرين، ولعلّي لا أخطئ إذا قلت إن جانباً كبيراً من ثقافتي قد تكون من قراءة هذه الكتب في تلك الأيام.

المضحك في هذا السكن في الطابق الثالث من العمارة الشاهقة، أن الظلام في السلالم مع صفير الرياح في الغرف الواسعة الخالية كان يخيف من يفكر في زيارتي والسمر معي بعض الوقت من الليل... ولذلك كنت أنا الذي أقوم بزيارة الأصدقاء.

ما زلت أذكر حتى اليوم مجلس العم يوسف الذي تجتمع فيه كوكبة من أكابر أهل المدينة بعد الغروب، إلى ما بعد صلاة العشاء... يتداولون الأحاديث، عن مختلف الشؤون، ويعلّقون على ما يتسامعون به من الأخبار، وبطبيعة الواقع في تلك الأيام، كانت الأخبار تأتي من الذين يعودون من رحلاتهم إلى مكة وجدة... ولا سبيل إلى أي مصدر آخر. إذ لم يكن قد ظهر أو عرف (الراديو)، كما ظهر وعرف وإنتشر بعد سنوات...

يستطيب القارئ أن ألمّح إلى بعض ما كان شائعاً بل ومفروضاً مما أسمّيه مجاملات المجالس. ومما لا بد أن يقال لمن يعود إلى المجلس بعد قضاء الحاجة. لا يكاد يستقرّ في مجلسه حتى ترتفع الأيدي إلى الجباه مع انحناءة الرؤوس وتتردّد كلمة (شوفيتم)، يقابلها من جانبه بكلمة (عوفيتم)...

ومنها أن يأخذ كل ضيف مجلسه بحسب سنه، فالشيوخ لهم صدر المجلس ولا يجلس إلى جانبهم إلاّ من يكون في مثل سنّهم حتى ولو لم يكن في هذا الصدر إلاّ شيخ واحد.

فإذا بدأ الشيخ الحديث... كان على جميع الموجودين أن ينصتوا إليه، فإذا حدث أن بدا لأحدهم أن يقاطعه بكلمة فإن العيون تحملق والحواجب تقطبّ... فيضطر

إلى التزام الصمت... إلى أن يطلب منه الشيخ أن يسمع منه ما يريد أن يعلّق به.

ومنها أن الذي يرتفق على رأسه العمامة (المدنية)، يلتزم بعدم خلعها إلى أن تنتهي السهرة..

ومنها أن يلتزم الأبناء في سن المراهقة مجلسهم بالقرب من باب الغرفة، مع الحرص على الصمت المطلق، وإنتظار طلب (الكبار) كوب ماء، أو التنبيه بأن يجيء (الشاهي) معطراً بالدوش أو النعناع أو النوامي وأحياناً (بالورد).

ثم هناك من الشيوخ - غالباً من يعرض مجاملة (النشوق) في علبة من الفضة - تعرض على الجار، فإذا أخذ منها حاجته يقدّمها إلى من يليه، ثم تعاد إلى صاحبها مع تعليقات الإعجاب، ليس بالعلبة الفضة، وإنما بمادة النشوق... ومع الإعجاب الاستعلام عن مصدرها... ولا أتذكر الآن هذا المصدر ولكنه، في الغالب (مستورد) من المغرب أو إيران وربما من (أوروبا) إذ كانت عادة استعمال هذا النشوق منتشرة في الكثير من بلدان العالم. وقد لا تنسى أن نابليون بونابرت كان يسرق علب النشوق التي يقدمها إليه ضيوفه للاستنشاق منها. وتبقى بعد ذلك (الشيشه) التي لم تكن تظهر كثيراً في مجالس السهرة، وإنما في مآدب الغداء أو العشاء الموسَّعة، وكانت مادة التدخين فيها هي (الحُمِّي) وهو (التنباك) المستورد - إذا لم تخنّي الذاكرة - من إيران ثم مادة أخرى لم أعد أسمع عن وجودها منذ زمن بعيد هي ما يسمى (الكيزرون).

ومن الطريف أن نذكر أن كثيرات من نساء تلك الأيام كنّ يدخنَّ الشيشة أيضاً، إما سراً إذا كان الزوج يمنع، وإما علناً إذا كان الزوج نفسه من الذين يدخنونها.

هذا إلى جانب التباهي بجمال الشيشة التي قد تكون مطعّمة ومزخرفة بصفائح الفضة، ويكون (الرأس الذي يستوعب الحمى والجمر) مما يستورد من الهند وهو يشبه رؤوس شيشة (الجراك) في هذه الأيام... أما (اللّي) - ولا أعرف له اسماً آخر فهو مستورد مع الشيشة من الهند، والفن في كسوته بمطرّزات ذات ألوان من القطيفة أو غيرها، ومنتهى التباهي في الموقع الذي توضع فيه... إنه في أحد ركني الصدر في المجلس، وبطبيعة الحال، لا تكلفّ سيدة البيت نفسها (بتعمير الرأس) ورصف الجمر، فالجواري أو في حكمهن من الخادمات هن اللائي يقمن بخدمة الشيشة، بل عدد من الشيش للضيفات في سهرات (ليلة الجمعة) أو (قيلات) الأيام الأخرى.

***

استغرقني الحديث عن أعراف أكابر أهل المدينة وعاداتهم عن متابعة تصرفاتي وسلوكياتي في عملي كوكيل لرئيس القسم العدلي. لا أنكر أني كنت سعيداً بهذا العمل (الرسمي) فأخذت على عاتقي إنجاز ما وجدت أنه محتاج إلى الإنجاز في المعاملات التي تركها لي العم يوسف، وقد أنجزت معظمها مما جعل (السيد ياسين جعفر) يخبرني أنه سمع المدير (خليل بك) قد اثنى عليّ مع إعجابه بفهمي للعمل رغم (صغر سني).

مع ذلك، فقد أحسست بخطورة ما يترتب على إنجاز بعض المعاملات - وقد كان أكثرها ديوناً ومطالب بين الناس - وهي تحال من مديرية الشرطة إلى القسم العدلي (للتحقيق) إذا لم يكن قد صدر بها حكم المحكمة الشرعية.

وقد حدث أن دخل العم يوسف المكتب وهو مصفرّ الوجه، ولعله كان يرتعش... وقبل أن أسأله عما يعانيه، انفجر قائلاً:

- حرام... حرام... والله حرام... تصوّر أني رأيت العبيد أمام باب الإمارة ينهالون بالضرب الموجع بجريد النخيل على المسكين (وذكر اسمه)... وكل ذنبه أنه لم يدفع الدين الذي صدر به حكم المحكمة لشخص أعلمِ أنه من أكابر التجار ومن جلساء الأمير كل ليلة... تصوّر أن (الضرب) ظلّ متواصلاً منذ خروجي من المنزل إلى أن اقتربت من الخالدية... لا أستبعد أن يكون الرجل قد مات أو يمكن أن يموت.

وبعد أن كرّر العم يوسف (الحوقلة) والتوجّع لمصير الضحية، أضاف يقول:

لا أنسى حادث الجمّال الذي أمر الأمير بقطع إصبعه، عندما أخبره أنه رأى وهو يدخل المدينة كيساً للأرز مطروحاً على الأرض. فسأله: كيف عرف أنه كيس للأرز؟ قال الجمّال إنه (أدخل إصبعه)... لَمَسه بإصبعه... فما كان من الأمير إلاّ أن أمر على الفور بقطع إصبعه..

واستعاد العم يوسف هدوءه بعض الشيء وهو يقول:

- لا بد أن نحاول الابتعاد عن التضييق على الذي نحقق معه، لنتجنب وقوعه في يد الأمير.

***

مع أني التزمت الصمت، وشاركت بالحوقلة والتحسّر، فقد وجدت نفسي في ذهابي إلى البيت أصمّم على محاولة إعادتي إلى مكة، وفي أي عمل حتى ولو كان

براتب أقل. لم أنس شراء وجبة الغداء من الكباب و(الأرز البخاري) الذي كان مشهوراً بإتقانه رجل (بخاري) في العطفة التي تنتهي من المناخة إلى (الحراج)... وقبل أن أدخل زقاق العمارة الشاهقة، رأيت الصديق الذي أذكر أن صداقتنا قد بدأت معه، ومع من عرفتهم عن طريقه. فأصبحت انقطع عن زيارة العم يوسف في منزله، لأجتمع بهم، إذ أستمتع بجانب من حرية الحوار معهم، حول كثير من المواضيع التي لاحظت أنهم يعالجونها أو يخوضون فيها وكأنهم في ندوة فكرية تتجدّد آفاقها كلما اجتمعنا.

كان حامد هذا، رحمه الله، على حظ من الثقافة، إذ قرأ الكثير من الكتب التي تُرجمت إلى اللغة العربية وعلى الخصوص أكابر الأدب الروسي، فكان يذكر ما قرأ لهذا، أو ذاك منهم، حريصاً على (نطق) الاسم كما كتبه المترجم على الغلاف... فإذا اجتمعت الندوة الفكرية كان يطرح أسئلته حول ما استغلق عليه في ما قرأ.

قد يحسن أن أذكر الآن أن مكان هذه الندوة كان (متجر) العم شاهين حدَّادي... كنا نقضي معه وقتاً يملأه هو بأفكاره الجريئة وآرائه الفلسفية التي كنا نشعر بأنها أفكاره وآراؤه هو، وليست مما يقرأ للفلاسفة وأساطين الفكر... ومن المضحك أن أذكر أن العم شاهين كان مشهوراً في المدينة بالحرص أو (البخل) الشديد، ولم نكن نجهل ذلك، فلا يدهشنا أنه يأمر أحد مملوكيه بأن يجهز (الشاهي) لنكتشف أنه يضع بدل (الشاهي) كمية من الورد المجفف الذي نراه يملأ أطباق العرض. فإذا رأى بيننا من يستغرب... يبدأ الشرح المطوَّل عن أضرار الشاهي الذي يسبب السهر الطويل، وعسر الهضم، وتغيير لون الأسنان، وإذا سقطت قطرة منه على الثوب الأبيض فإن إزالة أثره تحتاج إلى (الدعك) الطويل بالصابون.

أما هذا الورد المجفف، فإنه، أولاً زكي الرائحة، ثم لا تأثير له على النوم والمعدة... بالعكس... إنه يحلّل حالة الإمساك التي يشكو منها أكثر الناس، إلخ...

أمّا السكّر الذي لا بد منه لكوب (الورد) هذا، فإن العم شاهين يستعمل نوعاً من السكر بني اللون لعلّه قال إن اسمه (سكر قند) وهو أرخص كثيراً من السكر المعروف ويذكر له فوائد أكثر من أي سكر آخر.

وشخصية العم شاهين شخصية بالغة الطرافة تستحق أن أكتب عنها قصة... وقد أفرغ لذلك في وقت آخر.

***

صعد معي حامد توفيق إلى المجلس وشاركني تناول الغداء. وأخذ يقلّب المجلات والكتب الموجودة على أحد رفوف الغرفة. ولفت نظره أن بينها كتاباً في الفقه والسيرة والتفسير والنحو والصرف، فتساءل كيف يتّفق أن اقرأ هذه الكتُب الصفراء، وفكرته عني أني مثقف عصري... ودار بيننا حوار حول هذا الموضوع لم يَطُل إذ نهضٍ وهو يذكّرني بموعد الندوة في متجر العم شاهين بعد صلاة العشاء، وأن هناك شخصاً سوف أتعرّف عليه، ربما يسرّني أن ينضم إلى أعضاء الندوة.

لم أستطع أن أتخلص من تصميمي الحاسم على محاولة الإنتقال إلى عمل في مكة... كانت تدور في نفسي مشاعر الحزن على ضرب ذلك الرجل وقطع إصبع الآخر، يخالجها إحساس بالرهبة والخوف من أي احتمال للاصطدام بهذا الأمير، وهو احتمال يظل قائماً ما دمت مساعداً لرئيس القسم العدلي...

صارحت العم يوسف بما اعتزمته ولم أتردّد في أن أصارحه بأن السبب هو جبروت هذا الأمير وقسوته... كان ما صارحت به العم يوسف مفاجأة، واجهها بمحاولة تبرير مخاوفي، إذ ليست للقسم العدلي أي علاقة بالأمير... علاقته المباشرة بالمدير..

قلت له:

- إن القسم العدلي هو الذي يقوم بالتحقيق حتى في دعاوى الديون، وهو الذي يقرّر أن هذا الشخص مكلّف بدفع المبلغ المطالب به... والنتيجة تصل إلى الأمير، وعلى ضوئها يصدر الأمير أمره بالتنفيذ... ولكن يقوم هو شخصياً بهذا التنفيذ بطريقته إذا ماطل المدين في الدفع... والدليل، هو ما جعلك تجيء إلى المكتب مصفرّ الوجه، تردّد كلمة (حرام... والله حرام...) و(لا حول ولا قوة إلاّ بالله).

واستوقفني العم يوسف ليقول:

- لك حقّ... أنا معك... ولكن أنا لا أستغني عنك... لقد خففت من ضغط العمل الذي كنت أعاني منه... وطبعاً لا تنسى أن مهدي بك هو الذي أمر بتعيينك لمساعدتي، ولا أظنه سيوافق على نقلك إلى مكة.

- أعلم كل ذلك. ولكن سألتمس كل وسيلة تساعد على نقلي إلى مكة.

ثم أضفت باختصار:

- إذا لم يوافق مهدي بك، فإني سأستقيل.

قال مندهشاً:

- تستقيل؟... ومن الذي يقبل استقالتك؟!

- لا تنس أن تعيينك كان بموافقة وأمر نائب الملك... الأمير فيصل.

قلت:

- على كل حال سأحاول والتوفيق بيد الله.

بعد هذا الحوار وجدت نفسي أزداد تصميماً وتشبثاً بتحقيق رغبتي في النقل مهما كان الأمر.

عندما غادرت المكتب إلى المنزل كنت أخطط للكتابة إلى رئيس القلم في مكة (السيد محسن حواري)... رجّحت أنه يستطيع أن يفعل شيئاً... أن يقنع مهدي بك بأن (القلم) يحتاجني، لأني أعرف الكتابة على الآلة الكاتبة.

وكما هي العادة كل يوم، اشتريت غدائي المعتاد، وهو الكباب والأرز البخاري... مستغنياً عن الخضار، كالملوخية مثلاً، لأنها تحتاج إلى وعاء خاص لا أملكه من جهة، ويضايقني حمله من جهة أخرى.

وفي طريقي إلى المنزل لم أجد حامد توفيق الذي عوّدني أن يكون معي ساعة تناول طعام الغداء، وأن نقضي بعد ذلك وقتاً في تبادل الحديث، والتعليق على طرائف العم شاهين حدّادي... شعرت بارتياح لذلك... وفي الغرفة الواسعة، وعلى بعض رفوفها مجموعة الكتب تساءلت: ترى متى تنتهي علاقتي بالغرفة.. والكتب.. وكل شيء..؟ وجلست أتناول غدائي وفي ذهني الطريق إلى مكة في سيارة البريد... وعن ارتفاق هذه السيارة، وجدت أني أحتاج إلى مبلغ من المال... لم تكن أجرة الرحلة بسيطة، إذا لم أكن موظفاً وكان لا بد أن أدفع هذه الأجرة من جيبي.

أسرعت إلى حقيبتي التي أخبئ فيها كل ما يتوفر لدي من المال... وجدت أني أملك أكثر من خمسة عشر جنيهاً إنكليزياً (ذهباً)... وفي هذه اللحظة تذكّرت أمّي وعمي اللذين كان ينفحاني بشيء من المال بين وقت وآخر لمساعدتي على تحمّل نفقات حياتي عندما يتأخّر صرف الرواتب شهرين أو ثلاثة كما كان الحال في تلك الأيام..

لم أنس حقيقة مهمة جداً لا بد من أخذها في الاعتبار إذا قرّرت السفر من دون أن أكون موظفاً، وهي أن أي مخلوق يسافر من المدينة في سيارة البريد لا بد أن يحصل على تصريح من الأمير... وما لم يحصل على هذا التصريح فإن شرطة باب المدينة تستوقفه وتخبّر عنه الأمير..

هنا أحسست بأن كل ما أخطط له عن السفر أصبح في خبر كان... امتلأ قلبي بالغيظ والحقد والألم... ولا أدري كيف استغرقت في نوم عميق لم استيقظ منه إلاّ مع ارتفاع الأذان لصلاة المغرب..

أسرعت أتوضأ، وانطلقت في شارع جوّه المدينة إلى الحرم الشريف... حيث أدركت الصلاة ثم تناولت مصحفاً وأخذت أقرأ... وأردّد (يا رب)..

وفي طريق عودتي إلى المنزل بعد الصلاة، رأيت أمامي أحد الجنود من حرس القسم العدلي... وقف واستوقفني. وهو يقول:

- المدير خليل بك أمرني أن اقابلك حالاً لأنه استلم (تلغرافاً) من مهدي بك بخصوصك.

ردّدت وأنا أمشي معه (يا رب)... وما كدتُ أقف أمام خليل بك حتى سمعته يقول:

- مهدي بك أمر بأن تسافر إلى مكة بأسرع وقت. هل إنت جاهز؟!

صعقت وأنا أسمع هذا الخبر لأقول:

- جاهز يا بيه.

- سيارة البريد يوم الأربعاء.

- وأنا جاهز الآن.

ضحك الرجل وهو يقول:

- واضح أنك سعيد بالنقل إلى مكة.

- فعلاً... سعيد جداً... وألف شكر.

***

إنتقلت إلى مكة لأفاجأ بأن مهدي بك استصدر أمراً بأن أنتقل إلى السلك العسكري برتبة (مفوض ثالث)...

وقال وأنا أقف أمامه:

- لا بد أن ترتدي (البدلة) وسوف تستلم من يوسف جمال (القايش) والمسدس وسيقوم بتدريبك على الحركات العسكرية.

وأضاف:

- لا توجد في المستودع بدلات.. لا بد أن تدبّر لنفسك بدلة... إذا لم تجد في السوق قماش (كاكي)... يمكن أن تفصِّل بدلة من أي قماش آخر.

المهم أن تكون مستعداً قبل يوم السبت.

هكذا بدأت مسيرة مستقبلي الطويل في الشرطة... وهو مستقبل يطول الحديث عنه كما تطول تفاصيل الكثير من الأحداث التي واجهتها وعانيت مشاكلها في هذه المسيرة التي أحمد الله سبحانه على أنه قد أعانني على أن أخرج من أنفاقها قادراً على أن أكتب هذه الفصول.

الفهرس

طفولتي التي بدأت مع رياح الحرب العالمية الأولى 7
اللقاء بيني وبين زوجها... 13
أيوه.. أقدر أشتغل.. 21
«القُفَّة» في سوق «النخاولة».. 29
شَيْل القفَّة للناس اللّي ما يتعلّموا... 37
أنا اللِّي أوديك الكتّاب.. 45
هيا قوم يا عزيز اتوضّأ وصلّي.. عشان نروح الكتّاب 53
«العَلْقَة» في «الفلكة» 63
حِفْظ «اللوح».. 71
أبوك.. في «روسيا».. 79
المصادرة بدل «الْفَلَكَة».. 89
ما في بشوات يا عزيز.. في أُمرا.. 95
اليوم ما في فطور.. ولا في كتّاب.. الين يجي يحيى بك.. 101
الختان... فاصل بين مرحلتين.. 107
الختان.. 113
بلاد المدني.. 119
ركوب الحمير.. 127

«شبندر تجار» بخمسة مجايدة.. 133
الخنافس الحية.. 143
أمي توشك أن تضع طفلاً.. 147
الباشا يستعد للحرب 159
الموت ولا الخيانة 165
المدافع وأزير الرصاص 177
مدافع أبو دربالة 191
حكاية المدفع الذي اشتريته 201
التسليم.... ورفع الحصار 211
إلى مدرسة الطب 217
طرائف في الرحلة 227
رابغ، وموت الجِمال والسفر بالبحر! 231
الوصول إلى جدّة 241
أخيراً إلى مدرسة الصحّة 249
التمريض وليس الطبّ، والنوم في القبّان 257
العمل في قاووش المرضى.. وهدية الأمير فيصل 267
وصول أمي وأوّل وظيفة في الدولة 295
النوم في «القهوة»..والعمل في الشّرطة 315

عزيز ضياء

حيـاتي

مع الجوع والحب والحرب

بسبب الحصار والخوف من الجوع تمّ تهجير عدد كبير من أبناء المدينة المنوّرة، إلى سوريا ومناطق أخرى كانت لا تزال خاضعة لسيطرة السلطنة العثمانية.

كانت عائلة عزيز ضيا من بين هؤلاء. وهناك عانت العائلة، كما غيرها، حياة قاسية: الجوع، البرد، المرض الذي كان يحصد الناس، فيتم جمعهم في عربات ودفنهم في حفر جماعية...

مع نهاية الحرب العالمية كانت العائلة قد فقدت أربعة من أفرادها، ولم يبق سوى عزيز ووالدته، فقررت الوالدة العودة إلى المدينة فوجدت منزلها فارغاً وقد سُرق منه كل شيء، وبدأت مرحلة أخرى من شظف العيش، لم تنته إلا مع انتهاء الحرب الأخرى، التي أنهت حكم الشريف حسين وأولاده.

يسرد عزيز ضيا للقارئ سيرة حياته، التي هي سيرة حياة المدينة المنوّرة، بلغة بسيطة جميلة، فيقدم لنا مرحلة من التاريخ كما عاشها ذلك الطفل، وعاشها معه أبناء جيله.

إنها سيرة الجوع، والحرب، والحب، سيرة الأحلام والآمال. تترافق مع سيرة الكفاح التي خاضها عزيز الشاب، ومن خلال هذه السيرة نتعرف الى الحياة في تلك الحقبة المليئة بالأحداث والتغيّرات التي انتهت إلى قيام المملكة العربية السعوديّة. كما نتعرّف الى العادات والتقاليد، ونمط العيش، والطعام، والعلاقات الاجتماعيّة في مجتمع متنوّع يعيش فيه العربي مع التركي مع الهندي مع القازاقي والبخاري...

" إنها قصّة التفتح للحياة، وسط الخرائب والأنقاض.. تماماً، كما تتفتح زهرة يتيمة وسط حقل مهجور... كنت أنا أيضاً كهذه الزهرة.. كنت أتفتح للحياة بقوّة، رغم ما يحيط بي من الخرائب والأنقاض..."

ISBN 978-6589-09-828-X

9 786589 098287

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

الجناح - مقابل السلطان ابراهيم - سنتر حيدر التجاري
الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 340 843 1 00961
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.altanweer.com